إدواردو غليانو

مرايا

مايشبه تاريخاً للعالم

ترجمة: صالح علماني



مـرايا

ما يشبه تاريخاً للعالم

الكتاب: مرايا

المؤلف: إدواردو غليانو

الطبعة الأولى: ٢٠١١



دار رفوف للنشر

دمشق – هاتف: 00963 11 4476447 /8

www.rufof.com

info@rufof.com

صورة الغلاف: وائل الضابط

العمليات الفنية: BJ

إدواردو غليانو

مـرايا

ما يشبه تاريخاً للعالم

ترجمة: صالح علماني



لا توجد هنا ذكر لمصادر ومراجع ببلوغرافية. لم أجد مفراً من حذفها. فقد انتبهتُ في الوقت المناسب إلى أنها ستشغل من الصفحات أكثر مما شغلته قرابة ستمئة قصة تشكل هذا الكتاب.

كما أنه لا وجود لقائمة المساعدين الطويلة الذين جعلوا من الممكن لـ "مرايا" أن يكون شيئاً أكثر من مشروع هذياني. ولكنني لا أستطيع، مع ذلك، أن أغفل ذكر من أنقذوني من أكثر من هفوة عندما تحملوا بصبر قراءة المخطوطة النهائية، وهم: تيم تشابهان، أنطونيو دونياتي، كارل هوبنير، كارلوس ماتشادو، بيلار ريو، وراكيل بييّاغرا. هذا الكتاب مهدى إليهم وإلى أصدقاء لا حصر لهم جعلوا هذه المهمة المستحيلة أمراً ممكناً.

وإلى هيلينا، كثيراً جداً.

في مونتيفيديو، الأيام الأخيرة من العام ٢٠٠٧

أبتاه، ارسم لي العالم على جسدي.

(غناء لسكان داكوتا الجنوبية الأصليين)

المرايا ممتلئة بالناس.
اللامرئيون يروننا.
المنسيون يتذكروننا.
عندما نرى أنفسنا، نراهم.
عندما نرى أنفسنا، هل يروننا؟

مِن رغبةٍ نحن

الحياة، بلا اسم، بلا ذاكرة، كانت وحيدة. كانت لها يدان، ولكن لا وجود لمن تلمسه. وكان لها فم، ولكن لم يكن هناك من تكلمه. كانت الحياة واحدة، ولأنها واحدة كانت لا أحد.
عندئذ أطلقت الرغبة قوسها. فشطر سهم الرغبة الحياة إلى نصفين، وصارت الحياة اثنين.
التقى الاثنان وضحكا. أضحكتهما رؤية أحدهما الآخر، وملامسة أحدهما الآخر أيضاً.

دروب حفلة عالية

هل كان آدم وحواء زنجيين؟
من أفريقيا بدأت الرحلة البشرية في العالم. ومن هناك بدأ أبوانا في غزو الكوكب. مختلف الدروب أسست لمختلف المصائر، وتولت الشمس توزيع الألوان.
ونحن النساء والرجال، قوس قزح الأرض، صارت لنا الآن ألوان أكثر من ألوان قوس قزح السماء؛ ولكننا جميعنا أفارقة مهاجرون. حتى البيض ناصعو البياض يتحدرون من أفريقيا.
ربما نرفض الاعتراف بأصلنا المشترك لأن العنصرية تُنتج فقدان ذاكرة، أو لأنه يبدو مستحيلاً لنا أن نصدق أن العالم كله في تلك الأزمنة البعيدة كان مملكتنا، خريطة شاسعة بلا حدود، وكانت أرجلنا هي جواز السفر الوحيد المطلوب.

الحشري

كان هناك فصل بين السماء والأرض، بين الخير والشر، بين الميلاد والموت. ولم يكن النهار والليل يختلطان، وكانت المرأة امرأة وكان الرجل رجلاً.

لكن "إكسو" الشقي الجوال، كان يلهو، ومازال يلهو، بتركيب خلطات محرمة.

شيطناته تمحو الحدود وتجمع ما فرقته الآلهة. بعمله وظُرفه تصير الشمس سوداء والليل متوقداً، ومن مسامات الرجال تنبثق نساء، وتتعرق النساء رجالاً. من يموت يولد، ومن يولد يموت، وفي كل ما هو مخلوق أو سيُخلق يختلط الخلف والأمام، إلى أن لم يعد يُعرف من هو الآمر ومن هو المأمور، ولا أين هو الأعلى وأين هو الأسفل.

عاجلاً أو آجلاً سيقر النظام الإلهي مراتبه وجغرافيته، يضع كل شيء في موضعه وكل واحد في مكانه؛ ولكن الجنون يعود، عاجلاً وليس آجلاً، إلى الظهور.

عندئذ تتحسر الآلهة لأن العالم يصعب حكمه.

كهوف

النوازل تتدلى من السقف. الصواعد تنمو من الأرض.

كلها بلور هش، تولد من رشح الصخر في أعماق كهوف حفرها الماء والزمن في الجبال.

تبحث النوازل والصواعد بعضها عن بعض، في الظلام، منذ آلاف السنين، وقطرة بعد قطرة، ينزل بعضها، ويصعد البعض.

يحتاج بعضها لملايين السنين كي تتلامس.

وهي ليست مستعجلة.

تأسيس النار

علموني في المدرسة أننا اكتشفنا النار، في أزمنة الكهوف، بدلك حجرين أو عصوين.

ومنذ ذلك الحين، أحاول فعل ذلك. ولم أتوصل قط إلى انتزاع شرارة بائسة واحدة.

إخفاقي الشخصي لم يمنعني من شكر النار على ما قدمته لنا. فقد حمتنا من البرد ومن الوحوش المعادية، وطهت لنا طعامنا، أضاءت لنا الليل، ودعتنا إلى الجلوس، معاً، إلى جانبها.

تأسيس الجمال

إنها هناك، مرسومة على جدران الكهوف وسقوفها.

تلك الرسوم، ثيران بيسون، وأيائل، ودببة، وأحصنة، ونسور، ونساء، ورجال، لا أعمار لها.

ولدت منذ آلاف آلاف السنين، ولكنها تولد من جديد في كل مرة يراها فيها أحدهم.

كيف استطاعوا هم، أسلافنا المغرقون في القدم، أن يرسموا بتلك الطريقة الدقيقة؟ كيف استطاعوا هم، أولئك القساة الذين كانوا يصارعون الوحوش بأيديهم العارية، أن يبدعوا رسوماً مترعة بالطرافة؟ كيف استطاعوا هم أن يرسموا تلك الخطوط العابرة التي تهرب من الصخر وتمضي إلى الهواء؟ كيف استطاعوا هم...؟

أكانوا هم؟

اخضرار الصحراء الكبرى

في تاسيلي ومناطق أخرى من الصحراء الكبرى، تُقدم لنا الرسوم على الصخر، منذ حوالي ستة آلاف عام، صور أبقار، وثيران، وظباء، وزرافات، وكركدنات، وفيلة... أكانت تلك الحيوانات مجرد تخيل؟ أم أنها كانت تقطن الصحراء؟ وماذا كانت تأكل؟ أكانت تأكل أحجاراً؟

الفن يخبرنا أن الصحراء لم تكن صحراء. بحيراتها كانت أشبه ببحار، ووديانها توفر المرعى للحيوانات التي كان عليها بعد زمن أن تهاجر إلى الجنوب بحثاً عن الخضرة الضائعة.

كيف استطعنا؟

إما أن تكون فماً أو لقمة، صياداً أو صيداً. هكذا كانت المسألة.

كنا جديرين بالازدراء، أو مثيرين للشفقة على الأقل. لم يكن هنالك في العراء المعادي من يحترمنا ولا من يخشانا. كان الليل والغابة يبعثان الخوف فينا. وكنا أضعف الكائنات في مملكة الحيوان الأرضية. مجرد جراء غير مجدية، وبالغون ضئيلو الشأن، بلا مخالب ولا أنياب كبيرة، بلا قوائم سريعة، وبلا حاسة شمّ بعيدة المدى. تاريخنا الأول يضيع في الضباب. وحسب ما يبدو، كنا عاكفين على تشذيب الأحجار وتوزيع ضربات الهراوى وحسب.

ولكن يمكن لأحدنا أن يتساءل بحق: ألم نتمكن من العيش والبقاء، عندما كان البقاء مستحيلاً، لأننا عرفنا كيف ندافع عن أنفسنا معاً، وكيف نقتسم الطعام في ما بيننا؟ إنسانية هذه الأزمنة، حضارةُ فلينجُ من يستطيع النجاة، وكل امرئ وشأنه، هل دامت أكثر من هنيهة في العالم؟

أعمار

يحدث لنا ذلك قبل أن نولد. يظهر في أجسادنا التي تبدأ باكتساب الشكل، شيء شبيه بالخياشيم، ونوعٍ من الذيل كذلك.

لا تستمر طويلاً هذه الزوائد التي تظهر ثم تزول.

هذا الظهور العابر، أتراه يخبرنا بأننا كنا ذات مرة أسماكاً، وكنا ذات مرة قروداً؟ أكنا أسماكاً أُطلقت لتغزو اليابسة؟ أو قروداً هجرت الغابات أو هجرتها الغابات؟

والخوف الذي نشعر به في الطفولة. خوف من كل شيء، خوف من لا شيء، أتراه يخبرنا بأننا خفنا ذات مرة من أن نُؤكل؟ الخوف من الظلام والغم من الوحدة، أتراه يذكّرنا بذلك الخذلان القديم؟

وحين نكبر، نصير نحن الخوافين مخيفين. فالطريدة صار صياداً، واللقمة صار فماً. المسوخ التي كانت بالأمس تحاصرنا هي، اليوم، أسرانا. إنها تسكن حدائق الحيوان وتزين راياتنا وأناشيدنا الوطنية.

أبناء عمومة

"هام"، غازي الفضاء الكوني، جرى اصطياده في أفريقيا.

كان أول شمبانزي يسافر بعيداً عن العالم، أول شمبانزي رائد فضاء. سافر محشوراً في المركبة ميركوري. وكانت تتصل به كابلات أكثر مما في مقسم للهاتف.

رجع إلى العالم سليماً معافى، وأثبت فحصُ كل وظيفة في جسده أنه يمكن لنا نحن البشر أيضاً أن نعيش في رحلة الفضاء.

ظهر "هام" غلافاً لمجلة "لايف"، وأمضى بقية حياته في أقفاص حديقة الحيوان.

أجداد

بالنسبة لكثير من شعوب أفريقيا السوداء، الأسلاف هم الأرواح التي تعيش في الشجرة النامية قرب البيت أو في البقرة التي ترعى في الحقل. والجد الثاني لجدك الثالث هو الآن ذلك المسيل المائي الذي يتلوى على الجبل. ويمكن كذلك لسلفك القديم أن يكون أي روح تريد مرافقتك في رحلتك في العالم، حتى وإن لم تكن روح أحد أقربائك أو معارفك.

الأسرة ليس لها حدود، يوضح سوبوفو سومي، من قرية داغا:

- لأطفالنا أمهات كثيرات وآباء كثيرون. كثيرون بقدر ما يشاؤون هم أنفسهم.

وأرواح الأسلاف التي تساعدنا على السير، هي الأجداد الكثيرون لكل واحد منا. كثيرون بقدر ما نشاء.

تاريخ موجز للحضارة

وتعبنا من المشي هائمين على وجوهنا في الغابات وعلى ضفاف الأنهار.

ورحنا نستقر. اخترعنا القرى والحياة المشتركة، وحولنا قطعة العظم إلى إبرة، وأفعى البوا إلى حبل، وأطالت الأدوات أيدينا، وضاعفت ذراع الفأس من قوتها، وكذلك المعزقة والسكين.

زرعنا الرز والشعير والقمح والذرة، وزربنا الأغنام والنعاج في زرائب، وتعلمنا حفظ الحبوب في مخازن، كيلا نموت جوعاً في الأزمنة الصعبة.

وفي الحقول كنا مزارعين نقدّس ربات الخصب، نساء بمؤخرات كبيرة وأثداء سخية، ولكنهن استُبدلن مع مرور الزمن بآلهة ذكور للحرب. وصرنا ننشد أناشيد مديح للملوك والقادة المحاربين وكبار الكهنة.

واكتشفنا كلمتي لكَ ولي، وصار للأرض أصحاب، وصارت المرأة ملكية للرجل والأب مالكاً للأبناء.

بعيدة جداً صارت الأزمنة التي كنا نمضي فيها على غير هدى، بلا بيت ولا وجهة.

نتائج الحضارة كانت مذهلة: حياتنا صارت أكثر أماناً ولكنها أقل حرية، وصرنا نعمل لساعات أطول.

تأسيس التلوث

الأقزام الأفارقة، وهم قصار القامة وطويلو الذاكرة، يتذكرون أزمنة ما قبل الزمن، عندما كانت الأرض فوق السماء.

ومن الأرض كان يهطل دون توقف مطر من غبار وقمامة، يلوث بيوت الآلهة ويسمم أطعمتهم.

أمضت الآلهة زمناً أبدياً في تحمّل ذلك الإفراغ للقذارة، إلى أن عيل صبرهم.

أرسلوا صاعقة قسمت الأرض إلى أرضين. ومن خلال الأرض المقسومة أطلقوا الشمس إلى الأعالي، وكذلك القمر والنجوم، ومن ذلك الطريق نفسه صعدوا هم أيضاً. وهناك في الأعلى، بعيداً عنا، وبمنجى منا، أسس الأرباب ملكوتهم الجديد.

ومنذ ذلك الحين ونحن تحت.

تأسيس الطبقات الاجتماعية

في الأزمنة الأولى، أزمنة الجوع، كانت المرأة الأولى تكشط الأرض حين نفذت إليها أشعة الشمس وتغلغلت فيها من وراء. وعلى الفور وُلد مخلوق.

لم ترق لعبة الشمس تلك للإله باتشاكاماك، فمزق الوليد. ومن الميت الصغير نبتت النباتات الأولى. الأسنان تحولت إلى بذور ذرة، والعظام أصبحت درنات يُكة، واللحم صار بطاطا ولفتاً ويقطيناً...

لم يتأخر غضب الشمس طويلاً. صعقت أشعتها شواطئ البيرو وخلفتها جافة إلى أبد الآبدين.

واكتمل الانتقام عندما كسرت الشمس ثلاث بيوض فوق تلك الأراضي.

من البيضة الذهبية، خرج السادة.

ومن البيضة الفضية، خرجت سيدات السادة.

ومن البيضة النحاسية، خرج من يشتغلون.

عبيد وسادة

الكاكاو ليس بحاجة إلى شمس، لأنه يحمل شمساً في داخله.

ومن الشمس التي في داخله تولد المتعة والبهجة اللتين تمنحهما الشوكولاتة.

الآلهة يتمتعون باحتكار الإكسير الكثيف، هناك في أعاليهم، وكان محكوماً علينا نحن البشر أن نجهله.

كيتزالكواتل سرقة وأعطاه لشعب التولتيك. فبينما كان الآلهة الآخرون نائمين، حمل هو بعض بذور الكاكاو وخبأها في لحيته، وعلى خيط عنكبوت طويل نزل إلى الأرض وأهدى البذور إلى مدينة تولا.

استولى على هدية كيتزالكواتل الأمراء، والكهنة، والقادة العسكريون.

فحلوقهم وحدها كانت جديرة بتلقيها.

كان الآلهة قد حرّموا الشوكولاته على البشر الفانين، وسادة الأرض حرّموها على الناس العاديين والخشنين.

مسيطرون ومسيطر عليهم

تقول توراة أورشليم إن إسرائيل كان الشعب الذي اختاره الرب، وإنه شعب الرب.

وحسب المزمور الثاني، مُنح هذا الشعب المختار السيطرة على العالم:

اطلب مني فأعطيك وراثة الأمم
وتكون سيد أقاصي الأرض.

ولكن شعب إسرائيل سبب الكثير من الإزعاج للرب، لأنه جاحد وخاطئ. وحسب ما تقول ألسنة السوء، فقد الرب صبره بعد كثير من التهديد واللعنات والعقوبات.

ومنذ ذلك الحين نسبت شعوب أخرى لنفسها الهدية.

في العام ١٩٠٠، كشف السيناتور الأمريكي ألبرت بيفرادج:

– الرب كلي القدرة أشار إلينا على أننا شعبه المختار كي نقود، من الآن فصاعداً، إصلاح العالم.

تأسيس تقسيم العمل

يقال إن الملك مانو هو من منح سمعة إلهية للطبقات في الهند.

من فمه انبثق الكهنة، ومن ذراعيه الملوك والمحاربون. ومن فخذيه خرج التجار. ومن قدميه الخدم والصناع.

ومنذ ذلك الحين شُيّد الهرم الاجتماعي الذي يتألف في الهند من أكثر من ثلاثة آلاف طابق.

كل فرد يولد حيث ينبغي له أن يولد، كي يفعل ما ينبغي له أن يفعله. في مهدك يكمن قبرك. أصلك هو قدرك ومصيرك: حياتُكَ هي المكافأة أو العقاب الذي تستحقه على حيواتك السابقة، والوراثة هي التي تحدد مكانتك ووظيفتك.

وكان الملك مانو ينصح بتصويب سوء السلوك: إذا استمع شخص من طبقة دنيا إلى أشعار الكتب المقدسة، يُسكب رصاص مُذاب في أذنيه. وإذا رتل تلك الأشعار، يُقطع لسانه. هذه التعاليم التربوية لم تعد تطبق، ولكن مازال من يخرج من مكانه، سواء في الحب أو العمل أو أي أمر آخر، يجازف بالتعرض لعقوبات عامة يمكن لها أن تقتله أو تخلّفه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

من هم بلا طبقة، يشكلون واحداً من كل خمسة هنود، وهم أسفل من أشد السافلين، يسمونهم من لا يلمسون، لأنهم ينقلون العدوى: إنهم ملعونون بين الملعونين، لا يمكنهم التكلم إلى الآخرين، ولا السير على دروبهم، ولا لمس أكوابهم أو أطباقهم. القانون يحميهم، والواقع ينبذهم. فالرجال منهم، يمكن لأي كان أن يهينهم. والنساء، يمكن لأي كان أن يغتصبهن، وفي هذه الحالة بالإمكان لمس من لا يُلمسون.

في أواخر العام ٢٠٠٤، عندما ضرب التسونامي شواطئ الهند، تولى من لا يُلمسون مهمة جمع القمامة والجثث.

مثلما هي العادة دائماً.

تأسيس الكتابة

عندما لم يكن العراق قد صار العراق بعد، ولدت هناك أول الكلمات المكتوبة.

إنها تبدو مثل آثار طيور. رسمتها أيدٍ بارعة، بقصبات مدببة، على الطين.

النار التي شوت الطين، حفظتها.. النار التي تقتل وتنقذ، تقتل وتمنح الحياة: مثل الآلهة، مثلنا.

بفضل النار مازالت ألواح الطين تروي لنا، الآن، ما رُوي قبل آلاف السنين في تلك الأراضي التي بين نهرين.

في أزمنتنا أطلق جورج دبليو بوش بصفاقة سعيدة، ربما لقناعته بأن الكتابة قد اختُرعت في تكساس، حرب إبادة ضد العراق. فكان هناك آلاف وآلاف الضحايا، ولم يكن الضحايا أناساً من لحم وعظم فقط. بل جرى اغتيال الكثير من الذاكرة أيضاً.

الكثير من ألواح الطين، التاريخ الحي، سُرقت أو دُمرت في أعمال القصف.

وكان أحد تلك الألواح يقول:

نحن غبار وعدم.

كل ما نفعله ليس سوى قبض ريح.

من طين نحن

كان العالم، في اعتقاد السومريين القدماء، أرضاً بين نهرين، وبين سمائين أيضاً.

في السماء الفوقية، يعيش الآلهة الذين يأمرون.

في السماء التي تحت، الآلهة الذين يشتغلون.

وظل الأمر على تلك الحال إلى أن ملّ الآلهة الذين في الأسفل من العيش وهم يشتغلون، واندلع أول إضراب في التاريخ الكوني.

حدث هلع.

وكيلا يموتوا من الجوع، قيّد آلهة الأعلى النساءَ والرجال بالطين وجعلوهم يشتغلون من أجلهم.

النساء والرجال ولدوا من طين ضفاف نهري دجلة والفرات.

من ذلك الطين صُنعت، كذلك، كتب الحكايات.

وحسب ما تقوله تلك الكتب، الموت يعني العودة إلى الطين.

تأسيس الحانة

عندما كان العراق بابل، كانت الأيدي الأنثوية تتولى مسؤولية المائدة:

ألا تغيب الجعة أبداً، أن يكون البيت غنياً بالحساء، وأن يكون الخبز وافراً.

في القصور وفي المعابد كان "الشيف" رجلاً. أما في البيت فلا. فالمرأة هي من تصنع مختلف أصناف الجعة، الحلوة والخفيفة، البيضاء والشقراء والسوداء والمعتقة، وكذلك أصناف الحساء والخبز. وما يفيض عن المائدة يقدم للجيران.

مع مرور الزمن، صار في بعض البيوت منضدة كونتوار، وصار المدعوون زبائن. فولدت الحانة.

وكان مكان التقاء وحيز حرية ذلك الركن الضيق، ذلك الامتداد من البيت، حيث تأمر المرأة.

في الحانات كانت تحاك مؤامرات، وتعقد عرى غراميات محظورة.

منذ أكثر من ثلاثة آلاف وستمئة عام، في أزمنة الملك حمورابي، أرسل الآلهة مئتين واثنين وثمانين قانوناً إلى العالم.

أحد القوانين يقضي بأن تحرق حية الكاهنات اللواتي يشاركن في مؤامرات الحانات.

صلوات المائدة

عندما كان العراق أشور، أقام أحد الملوك في قصره بمدينة نمرود مأدبة من عشرين صنفاً ساخناً من الأطعمة، ومعها أربعون صنفاً من التوابل، وأنهار من الجعة والنبيذ. وحسب تواريخ ما قبل ثلاثة آلاف عام، كان هناك تسعة وستون ألفاً وخمسمئة وأربعة وسبعون مدعواً، جميعهم من الرجال، دون وجود امرأة واحدة، إضافة إلى الآلهة الذين أكلوا أيضاً وشربوا.

ومن قصور أخرى، أقدم زمناً، تأتي أول وصفات معلمي الطبخ المكتوبة. فقد كان لهم ما للكهنة من النفوذ والشهرة، وقد نجت معادلات توليفاتهم المقدسة من نكبات الزمن والحروب. وخلّفت لنا وصفاتهم إشارات محددة جداً (أن يرتفع العجين في القدر مقدار أربع أصابع) وفي بعض الأحيان ليست واضحة تماماً (ذر ملح على عين)، ولكنهم ينتهون على الدوام إلى القول: جاهز للتقديم.

منذ ثلاثة آلاف عام أيضاً، خلّف لنا ألوزينو المهرج وصفات أطباقه. ومنها هذه النبوءة التشريحية المرهفة:

من أجل اليوم الأخير من الشهر قبل الأخير من السنة، لا وجود لطعام أفضل من معيٍّ مؤخرة حمار مملوء ببراز ذباب.

تاريخ موجز للجعة

أحد أقدم الأمثال، مكتوب بلغة السومريين، يعفي المشروب من أي ذنب في وقوع الحوادث:

الجعة جيدة. السيئ هو الطريق.

وحسب ما يرويه أقدم الكتب، فإن إنكيدو، صديق جلجامش، كان وحشاً برياً إلى أن اكتشف الجعة والخبز.

الجعة سافرت إلى مصر من الأراضي التي نسميها اليوم العراق. وبما أنها كانت تمنح عيوناً أخرى للوجه، ظن المصريون أنها هدية من إلههم أوزيريس. وحيث أن جعة الشعير كانت أختاً توأماً للخبز، فقد سموها الخبز السائل.

في جبال الأنديز الأمريكية، الجعة هي القربان الأقدم: فمنذ الأزل تطلب الأرض أن يسكبوا عليها دفقات من التشيتشا، بيرة الذرة، كي تبعث السعادة في أيامها.

تاريخ موجز للنبيذ

شكوك معقولة تمنعنا من معرفة إذا ما كان آدم قد أُغوي بتفاحة أم بحبة عنب.

ولكننا نعرف بالمقابل أنه كان هنالك نبيذ في هذا العالم منذ العصر الحجري، عندما كانت الأعناب تتخمر دون مساعدة من أحد.

تراتيل صينية قديمة تذكر النبيذ للتخفيف من آلام الحزن.

والمصريون كانوا يعتقدون أن للإله حوروس عيناً من شمس وأخرى من قمر، وأن العين التي من قمر تبكي دموعاً من نبيذ، يشربها الأحياء كي يناموا والموتى كي يستيقظوا.

الكرمة كانت شعار سلطة كورش، ملك الفرس، وكان النبيذ يضمخ حفلات اليونانيين والرومان.

ومن أجل الاحتفال بالحب البشري، حوّل يسوع ماء سبع جرار إلى نبيذ. وكانت تلك هي معجزته الأولى.

الملك الذي أراد أن يعيش إلى الأبد

الزمن الذي كان قابلتنا، سيكون جلادنا. فالزمن أرضعنا بالأمس، وسيلتهمنا غداً.

هكذا وحسب، ونحن نعرف ذلك جيداً.

أول كتاب ولد في العالم يروي مغامرات الملك جلجامش الذي رفض أن يموت.

هذه الملحمة انتقلت من فم لفم، منذ حوالي خمسة آلاف سنة، وكتبها السومريون، والأكاديون، والبابليون، والأشوريون.

جلجامش، ملك ضفاف الفرات، كان ابناً لربة وإنسان. إرادةٌ إلهية، وقَدَرٌ بشري: من الربة ورث السلطة والجمال، ومن الإنسان ورث الموت.

لم يكن يعنيه في شيء كونه واحداً من الفانين، إلى أن وصل إنكيدو، صديقه الحميم، إلى يومه الأخير.

كان جلجاميش وإنكيدو قد شاركا في مآثر مذهلة. دخلا معاً غابة الأرز، منزل الآلهة، وهزما كذلك الحارس العملاق الذي يجعل زئيره الجبال تهتز. وأذلا معاً الثور السماوي الذي بنفخة واحدة يشق قبراً يتسع لمئة رجل.

موت إنكيدو حطم جلجاميش وأخافه. اكتشف أن صديقه الشجاع من طين، وأنه هو أيضاً من طين. فانطلق في الدروب بحثاً عن الحياة الأبدية. جاب الساعي إلى الخلود الفيافي والقفار،

اجتاز النور والظلمات،

أبحر في الأنهار الكبيرة،

ووصل إلى جنة السماء،

وقدمت له خدماتها هناك الساقيةُ المقنَّعة، سيدة الأسرار،

ووصل إلى الجانب الآخر للبحر،

عثر على العشبة التي تمنح الشباب للشيوخ،

تابع طريق نجوم الشمال وطريق نجوم الجنوب.

فتح الباب الذي تدخل منه الشمس وأغلق الباب الذي تغادر الشمس منه.

وظل خالداً... حتى مات.

مغامرة خلود أخرى

ماوي، مؤسس جزر بولينزيا، ولد نصف إنسان ونصف إله، مثل جلجامش.

نصفه الإلهي أجبر الشمس، وكانت تمضي مسرعة، على أن تمشي ببطء في السماء، واصطاد بالصنارة جزر نيوزيلندا، وهاواي، وتاهيتي، ورفعها واحدة بعد أخرى من أعماق البحر، ووضعها حيث هي.

لكن نصفه البشري كان يحكم عليه بالموت. وكان ماوي يعرف ذلك، ولم تساعده مآثره على النسيان.

وفي بحثه عن "هاين"، ربة الموت، سافر إلى العالم السفلي.

ووجدها: هائلة، نائمة في الضباب. كانت تبدو معبداً. ركبتاها المرفوعتان تشكلان قوساً فوق بوابة جسدها المختبئة.

وكي يقتحم الخلود، كان لا بد من الدخول بكامله في "موت"، واجتيازها بكاملها والخروج من فمها.

وأمام الباب الذي كان شقاً شبه مفتوح، ترك ماوي ملابسه وأسلحته. ودخل عارياً، وانزلق شيئاً فشيئاً على امتداد طريق الرطوبة والظلمة المتأججة الذي شقته خطواته في أعماق ربة الموت.

ولكن الطيور غردت وهو في منتصف الرحلة، فاستيقظت هي، وأحست بماوي ينقب في داخلها. ولم تسمح له بالخروج قطّ.

من دموع نحن

قبل أن تصير مصر هي مصر، خلقت الشمسُ السماءَ والطيور التي تحلق فيها، وخلقت نهر النيل والأسماك التي فيه، ومنحت حياة الخضرة لضفافه السوداء، فامتلأت بالنباتات والحيوانات.

عندئذ جلست الشمس، صانعة الحياة، تتأمل صنيعها.

أحست الشمس بالتنفس العميق للعالم حديث النشوة الذي راح يتفتح أمام عينيها، وسمعت أصواته الأولى.

كل ذلك الجمال يؤلم.

دموع الشمس سقطت على الأرض وصنعت طيناً.

وذلك الطين صار بشراً.

النيل

كان النيل ينصاع للفرعون. فهو من يفتح الطريق للفيضانات التي تعيد إلى مصر، سنة بعد أخرى، خصوبتها المذهلة. وبعد الموت أيضاً: عندما ينسل أول شعاع من الشمس من شق إلى قبر الفرعون، ويضيء وجهه، تعطي الأرض ثلاثة محاصيل.

هكذا كان. ولم يعد كذلك.

فمن أذرع الدلتا السبع لم يبق إلا اثنان، ومن مواسم الخصب المقدسة التي لم تعد مواسم ولا مقدسة، لم يبق سوى الأناشيد القديمة التي تشيد بأطول نهر في العالم:

أنت تطفئ ظمأ القطعان كلها.

أنت تشرب دموع العيون كلها.

انهض أيها النيل، وليهدر صوتك!

فليُسمع صوتك!

حجر يتكلم

عندما غزا نابليون مصر، عثر أحد جنوده، على ضفاف النيل، على حجر أسود كبير، تغطيه بالكامل رموز منقوشة. أسموه حجر رشيد.

جان فرنسيس شامبليون، دارس اللغات القديمة، أمضى سنوات شبابه في الدوران حول ذلك الحجر. كان حجر رشيد يتكلم بثلاث لغات. اثنتان منها كانت قد حُلت رموزها. أما الهيروغليفية المصرية فلا.

كانت لغة بناة الأهرامات لا تزال أحجية. كتابة شديدة الكذب: فهيرودوت، واسترابون، وديودور، وهورابول ترجموا ما اختلقوه، والأسقف الجيزويتي أتناسيوس كريشر نشر أربعة مجلدات من الأخطاء الفاحشة. جميعهم انطلقوا من أن الهيروغليفية هي رسوم تؤلف نظام رموز، وكانت معانيها تعتمد على تخيلات كل واحد من المترجمين.

رموز بكماء؟ بشر أصماء؟ استجوب شامبليون حجر رشيد طوال مرحلة شبابه، دون أن يتلقى منه سوى الصمت العنيد. كان المسكين يضنى من الجوع واليأس عندما طرح على نفسه ذات يوم احتمالاً لم يُطرح من قبل: وماذا لو كانت الهيروغليفية أصواتاً فضلاً عن كونها رموزاً؟ وماذا لو أنها شيء يشبه حروفاً في أبجدية؟

في ذلك اليوم فُتحت المدافن، وتكلمت المملكة الميتة.

لا للكتابة

قبل حوالي خمسة آلاف عام من شامبليون، سافر الرب ثوت إلى طيبة وعرض على تحتمس، ملك مصر، فن الكتابة. شرح له تلك الرموز الهيروغليفية، وقال إن الكتابة هي أفضل علاج للشفاء من ضعف الذاكرة وقلة الحكمة.

رفض الملك الهدية:

- ذاكرة؟ حكمة؟ هذا الاختراع سيُنتج النسيان. فالحكمة في الحقيقة، وليس في مظهرها. لا يمكن التذكر بذاكرة مستعارة. البشر يسجلون، ولكنهم لا يتذكرون. يرددون، ولكنهم لا يعيشون. يعلمون بأشياء كثيرة، ولكنهم لا يعرفون أياً منها.

نعم للكتابة

غانيشا كبير الكرش من شدة حبه للسكاكر، وله أذنا فيل وخرطومه. ولكنه يكتب بيدي بشر. إنه معلم بدايات، من يساعد الناس على بدء أعمالهم. ومن دونه، ما كان لأحد في الهند أن يمتلك بداية. ففي فن الكتابة، وفي كل شيء آخر، البداية هي الأهم. أي بداية هي لحظة عظيمة في الحياة، هكذا كان غانيشا يُعَلِّم، وأول كلمات في رسالة أو في كتاب لا تقل أهمية عن وضع اللبنات الأولى في بيت أو معبد.

أوزيرس

الكتابة المصرية روت لنا قصة الرب أوزيريس وأخته إيزيس.

أوزيريس قُتل في واحدة من تلك المشكلات الأسرية كثيرة الحدوث في الأرض والسماء، وجرى تمزيقه إلى أشلاء ضاعت في أعماق النيل.

إيزيس، أخته وعشيقته، غطست والتقطت الأشلاء، وراحت تلصقها شلواً فشلواً بالطين، ومن الطين شكّلت القطع الناقصة. وعندما صار الجسد كاملاً، وسدته على الضفة.

هذا الطين الذي خلطه النيل، كانت فيه بذور شعير ونباتات أخرى.

جسد أوزيريس، الجسد المبرعم، انتصب ومشى.

إيزيس

مثل أوزيريس، تعلمت إيزيس في مصر أسرار الولادة المتواصلة.

نحن نعرف صورتها: هذه الربة الأم تُرضع ابنها حوروس، مثلما أرضعت مريم العذراء يسوع. ولكن يمكن لنا القول إن إيزيس لم تكن عذراء جداً قطّ. فقد مارست الحب مع أوزيريس مذ كانا يتشكلان معاً، في بطن أمهما، وعندما كبرت، مارست طوال عشر سنوات، في مدينة صور، أقدم مهنة في العالم.

وفي آلاف السنوات التالية، جابت إيزيس أماكن كثيرة من العالم، منهمكة في بعث العاهرات، والعبيد، والنساء الملعونات.

في روما أسست معابد في حي الفقراء، وعلى ضفاف المواخير. وقد دُمرت تلك المعابد بأمر إمبراطوري، وجرى صلب كاهناتها؛ ولكن أولئك البغلات العنيدات رجعن إلى الحياة مرة بعد أخرى. وعندما دمر جنود الإمبراطور جوستينيان هيكل إيزيس في جزيرة فيلاي، في النيل، وأقاموا فوق الأنقاض كنيسة سمعان الكاثوليكية، واصل حجاج إيزيس الذهاب لتكريم ربتهم الخاطئة أمام مذبح مسيحي.

الملك الحزين

بحسب ما رواه هيرودوت، سيطر الفرعون سنوسرة الثالث على كل أوروبا وآسيا، وميّز الشعوب الشجاعة بمنحها عضواً ذكرياً كشعار وأذّل الشعوب الجبانة بحفر فرج على آثارها.

وكما لو أن هذا كله قليل، مشى فوق أجساد أبنائه لينقذ نفسه من النار التي أضرمها أخوه حين أراد، بكل لطف، أن يشويه حياً.

كل هذا يبدو غير قابل للتصديق، وهو كذلك فعلاً. غير أنه من المثبت بالمقابل أن هذا الفرعون قد ضاعف قنوات الري، وحول صحارى إلى بساتين، وعندما غزا أرض النوبة وسع الإمبراطورية إلى ما وراء شلال النيل الثاني. ولم يُعرف من قبل قطّ أن المملكة المصرية كانت أشد اندفاعاً ومحط حسد.

ومع ذلك، تماثيل سنوسرة الثالث هي الوحيدة التي تبدي لنا وجهاً مكفهراً، وعيني غمّ، وشفتي مرارة. أما الفراعنة الآخرون الذين خلدهم النحاتون الإمبراطوريون، فينظرون إلينا بهدوء من سلامهم السماوي.

لقد كانت الحياة الأبدية امتيازاً للفراعنة. ولكن، من يدري، ربما كان هذا الامتياز لعنة بالنسبة لسنوسرة.

تأسيس الدجاجة

رجع الفرعون تحتمس من سوريا بعد أن أنهى إحدى حملاته الصاعقة التي منحته المجد والسلطة من دلتا النيل حتى نهر الفرات.

وكما هي العادة، كان جسد الملك المهزوم معلقاً، ورأسه إلى أسفل، على مقدمة سفينة القيادة، وكانت سفن الأسطول كلها مترعة بالغنائم والتقدمات.

وكان بين الهدايا طائر لم يُر مثله من قبل، طائر بدين وقبيح. وكان مقدم الهدية قد قدم تلك الهدية غير اللائقة.

- أجل، أجل - وافق وهو ينظر إلى الأرض -. إنه طائر غير جميل. لا يحسن التغريد. له منقار قصير، وعرف أبله وعينان حمقاوان. وجناحاه، من ريش كئيب، ريش نسي الطيران!

وابتلع لعابه عندئذ. ثم أضاف:

- ولكنها تنجب ابناً كل يوم.

وفتح علبة فيها سبع بيضات:

- وهاهم الأبناء الذين أنجبتهم في الأسبوع الأخير.

غُطِّست البيوض في ماء يغلي.

تذوقها الفرعون بعد نزع قشورها وتتبيلها بقليل من الملح.

وسافر ذلك الطائر في قمرته، مستلقياً إلى جانبه.

حتسبشوت

ألقها وهيئتها كانا إلهيين، أميرة حسناء ومزهرة.

هكذا وُصفت بتواضع ابنة تُحتمس الكبير. فحتسبشوت التي احتلت عرشه، المحاربة ابنة المحارب، قررت أن تُسمى ملكاً وليس ملكة. لأن الملكات، نساء الملوك، يوجد منهن أخريات، أما حتسبشوت ففريدة، ابنة الشمس، أعلى الآمرين، الحقيقية.

وهذه الفرعون ذات النهدين استخدمت خوذة رجل وملابسه، ولحية مصطنعة، ومنحت مصر عشرين عاماً من الازدهار والمجد.

ابن الأخ الصغير الذي ربته هي نفسها، والذي تعلم منها فنون الحرب والحكم الجيد، قتل ذكراها. هو من أمر بأن تمحى آثار مستغلة السلطة الذكرية تلك من الرسوم ومن الآثار، وأن تحطم التماثيل التي كانت قد أقامتها لمجدها.

ولكن بعض التماثيل وبعض الكتابات نجت من حملة التطهير، وبفضل انعدام الكفاءة ذاك، صرنا نعرف بوجود الفرعونة التي تنكرت كرجل، الفانية التي لم تشأ الموت، والتي أعلنت: صقري يحلق نحو الأبدية، أبعد من رايات المملكة...

بعد ثلاثة آلاف وأربعمئة عام من ذلك، عُثر على قبرها. وكان فارغاً. يقال إنها كانت في مكان آخر.

الهرم الآخر

كان يمكن لبناء بعض الأهرامات أن يتأخر أكثر من قرن. آلاف وآلاف الرجال كانوا يرفعون، كتلة بعد كتلة، ويوماً بعد يوم، المنزل الذي سيعيش فيه الفرعون حياته الأبدية، ومعه كنوز جهازه المأتمي.

المجتمع المصري الذي كان يبني الأهرامات، كان هرماً.

في القاعدة، كان الفلاح الذي بلا أرض. وخلال فيضانات النيل، كان هو من يبني معابد، ويقيم سدوداً، ويشق قنوات. وعندما تعود مياه النهر إلى مسارها، يعمل في أراضي الآخرين.

منذ حوالي أربعة آلاف عام، وصفه النساخ كما يلي:

المزارع يحمل النير.
كتفاه ينوءان تحت النير.
على رقبته قرحة متقيحة.
في الصباح، يسقي بقولاً.
في المساء، يسقي خياراً.
في الظهيرة، يسقي نخيلاً.
وأحياناً ينهار ويموت.

لم تكن هناك نُصب مأتمية له. عارياً عاش، وفي الموت تكون الأرض بيته. يرقد في دروب الصحراء. ومعه الحصير الذي كان ينام عليه وكأس الطين الذي كان يشرب به.

وفي قبضته يضعون بضع حبات من القمح، فقد يخطر له أن يأكل.

إله الحرب

برؤيته مواجهة أو جانبياً يبعث الأعور أودين الخوف في النفوس. إنه الإله الأكثر إلوهية عند الفايكنغ، إله أمجاد الحرب، أبو المجازر، سيد المشنوقين والأشرار.

غراباه الموثوقان، هوغوين ومونين، يوجهان خدماته الاستخبارية. ففي كل صباح ينطلقان من فوق كتفيه ويجوبان العالم طائرين. وعند الغروب يرجعان ليخبراه بما رأياه وسمعاه.

الفالكيرات، ملائكة الموت، كن يطرن كذلك من أجله. وكن يجبن ميادين المعارك، ومن بين الجثث يخترن أفضل الجنود ويجندونهم لجيش الأشباح الذي يقوده أودين في الأعالي.

وعلى الأرض، كان أودين يقدم غنائم ضخمة للأمراء الذين يحميهم، ويسلحهم بدروع غير مرئية وسيوف لا تُقهر. ولكنه يرسلهم إلى الموت عندما يقرر أن يكونوا إلى جانبه، هناك في السماء.

وبالرغم من امتلاكه أسطولاً من ألف سفينة، وقدرته على العدو على جياد بثمانية قوائم، إلا أن أودين كان يفضل عدم الحركة. من بعيد جداً كان يقاتل نبي حرب زمننا. فرمحه السحري، جدّ الصواريخ الموجهة عن بُعد، ينطلق من يده ويمضي وحيداً نحو صدر عدوه.

مسرح الحرب

ولد الأمير الياباني ياماتو تاكيرو قبل نحو ألفي عام، وكان الابن الثمانين للإمبراطور، وبدأ مسيرته بتقطيع أخيه التوءم أشلاء، لأنه لا يتقيد بدقة بمواعيد العشاء العائلي.

وبعد ذلك، قضى على الفلاحين المتمردين في جزيرة كيوشو. فقد ارتدى ثياب امرأة، وسرح شعره كامرأة، وتبرج كامرأة، وأغوى قادة التمرد. وفي حفلة، شقهم بضربات السيف مثلما يُشق الشمام. وفي أماكن أخرى هاجم تعساء آخرين اعتادوا تحدي النظام الإمبراطوري، وبتحويلهم إلى لحم مفروم، أقر استتباب الأمن، مثلما كان يقال آنذاك، مثلما يقال الآن.

غير أن مأثرته الأوسع شهرة هي تلك التي قضى فيها على السمعة المشينة لقاطع الطريق الذي كان ينشر الاضطراب في مقاطعة إيزومو. عرض عليه الأمير ياماتو العفو والسلام، ودعاه مثير القلاقل للقيام بنزهة معاً في مناطق سيطرته. وفي غمد فاخر، حمل ياماتو معه سيفاً من خشب. وعند الظهيرة، ابترد الأمير وقاطع الطريق بالاستحمام في النهر. وبينما كان الآخر يسبح، قام ياماتو باستبدال السيوف. دسّ السيف الخشبي في قراب قاطع الطريق، واحتفظ لنفسه بالسيف المعدني.

وعند الغروب، تحداه.

فن الحرب

منذ خمسة وعشرين قرناً، كتب القائد الصيني سون تزو أول أطروحة في التكتيك والإستراتيجية العسكرية. نصائحه الحكيمة مازالت تُطبق حتى يومنا هذا في ميادين المعارك، وكذلك في عالم الأعمال، حيث يسيل الدم بغزارة أكبر بكثير. ومن بين ما يقوله القائد:

إذا كنت قادراً، تظاهر بالعجز.
إذا كنت قوياً، أظهر الضعف.
عندما تكون قريباً، تصنَّع أنك بعيد.
لا تهاجم أبداً في الموقع الذي يكون العدو فيه قوياً.
تجنب على الدوام المعركة التي لا تستطيع كسبها.
إذا كنت في ظروف أدنى، فانسحب.
إذا كان العدو موحداً، فاعمل على تقسيمه.
تقدم حين لا يتوقع تقدمك
وشن هجومك من خلال النقطة التي لا يتوقعها.
ومن أجل أن تعرف العدو، اعرف نفسك.

هول الحرب

على ظهر ثور أزرق كان يمضي لاو تسي.
يمضي على دروب تضاد تقود إلى سرّ المكان الذي يختلط فيه الماء بالنار.
في التضاد الكل والعدم، الحياة والموت، القريب والبعيد، الماقبل والمابعد.
كان لاو تسي فيلسوفاً قروياً، يعتقد أنه كلما كانت الأمة أكثر ثراءً، تكون أشد فقراً. ويعتقد أنه بمعرفة الحرب يُعرف السلام، لأن الألم يسكن المجد.

كل فعل يستثير ردّ فعل.
العنف يرجع دوماً.
المخالب والأشواك وحدها تولد في المكان الذي تعسكر الجيوش فيه.
الحرب تستحضر الجوع.
من يستمتع بالغزو يستمتع بالألم البشري.
من يَقتلون في الحرب عليهم إقامة مأتم للاحتفال بكل غزو.

أصفر

أشد الأنهار رهبة في الصين يدعى أصفر بسبب جنون أحد التنانين أو الجنون البشري.

فقبل أن تصير الصين صيناً، حاول التنين كاو فو أن يجتاز السماء ممتطياً إحدى الشموس العشر التي كانت موجودة آنذاك.

وعند انتصاف النهار لم يعد قادراً على تحمل تلك النار.

مشتعلاً بالشمس، مجنوناً من العطش، أسقط التنين نفسه فوق أول نهر رآه. سقط من الأعالي حتى أعماق النهر، وشرب الماء كله حتى آخر قطرة منه، وحيث كان النهر لم يبق سوى فراش طويل من الطين الأصفر.

هناك من يقول إن هذه الرواية ليست جدية. ويقول إنه من الثابت تاريخياً أن النهر الأصفر سمي بهذا الاسم منذ حوالي ألفي عام، عندما جرى اغتيال الغابات المجاورة التي تحميه من انهيارات الثلج والطين والقمامة. والنهر الذي كان آنذاك أخضر مثل اليشب، فقد لونه واكتسب اسمه. ومع مرور الزمن، راحت الأمور تسوء أكثر فأكثر، إلى أن تحول النهر إلى مجرور ضخم.

في العام ١٩٨٠ كان يعيش هناك أربعمئة دولفين. وفي العام ٢٠٠٤ لم يبق منها سوى واحد. ولم يعمر طويلاً.

"يي" والجفاف

أصاب الشموس العشر الجنون وصارت تدور جميعها معاً في السماء.

استدعت الآلهة "يي"، رامي السهام الذي لا يخطئ، والأبرع في فنون النبال.

في نهاية الليل، انتظر يي النبّال. وعند الفجر أطلق نباله.

واحدة فواحدة راحت الشموس تنطفئ إلى الأبد.

لم تنجُ سوى الشمس التي تُشعل أيامنا الآن.

بكت الآلهة موت أبنائها المشتعلين. وبالرغم من أن الآلهة هم من استدعوا يي، إلا أنهم هم أنفسهم من طردوه من السماء:

- إذا كنت تحب الأرضيين إلى هذا الحدّ، فاذهب إليهم.

وذهب يي إلى المنفى.

وصار خالداً.

"يو" والفيضان

بعد الجفاف جاء الفيضان.

قرقعت الصخور، وزمجرت الأشجار. والنهر الأصفر الذي كان لا يزال بلا اسم، ابتلع بشراً وزرعاً وأغرق بلدات وجبالاً.

"يو"، الإله الأعرج، جاء لنجدة العالم.

كان يمشي بمشقة. دخل يو في الفيضان وشق برفشه قنوات وأنفاقاً لتصريف الماء الذي أصابه الجنون.

وقد ساعدت يو سمكةٌ كانت تعرف أسرار النهر، وتنين كان يمضي في المقدمة ويحرف الماء بذيله، وسلحفاة تمضي في المؤخرة حاملة الطين.

تأسيس الكتاب الصيني

كان كانغ جيي يملك أربع عيون.

وكان يكسب عيشه بقراءة النجوم وكشف الأقدار.

هو من أبدعَ الرموز التي تُرسمُ كلمات، بعد دراسة مطولة لتصميم البروج وظلال الجبال وريش الطيور.

في أحد أقدم الكتب، وهو مصنوع من ألواح البامبو، تروي الرموز التي اخترعها كانغ جيي قصة مملكة كان البشر فيها يعيشون أكثر من ثمانية قرون، وكانت النساء بلون الضوء، لأنهن يأكلن شمس.

يد النار الذي كان يأكل صخوراً، تحدى السلطة الملكية ووجه قواته نحو العرش. وأنزل بفنون سحره ستارة ضباب كثيفة أصابت جيش القصر بالبلبلة. كان الجنود يتخبطون في الظلام، عمياناً ودون وجه، عندما نزلت من الأعالي المرأة السوداء التي تحلق بريش الطير، واخترعت البولة وأهدتها إلى الملك اليائس.

تم التغلب على الضباب، وعلى العدو أيضاً.

صورة أسرة من الصين

في قديم الزمان حَكَمَ شون، زهرة الخبيز، في الصين. وكان هو يي، الدُّخن ، وزير زراعته. كلاهما عرف المشقات في طفولته.

منذ ولادته لم يبد شون لطيفاً لأبيه وأخيه الأكبر، فأشعلا ناراً في البيت، وهو في الداخل، ولكن الطفل حديث الولادة لم يصب بأية حروق. فألقياه في بئر وألقيا تراباً فوقه، إلى أن امتلأت البئر تماماً، غير أن الوليد لم يُدفن.

ووزيره كذلك، هو يي، ظل حياً بالرغم من أسرته نفسها. فأمه المقتنعة بأن هذا الوليد سيسبب لها سوء الطالع، هجرته في وسط الحقل، كي يقتله الجوع. ولأن الجوع لم يقتله، فقد ألقت به إلى الغابة، لتأكله النمور. ولأن النمور لم تعبأ به، فقد ألقت به على الثلوج، كي يقضي البرد عليه. وبعد أيام وجدته رائق المزاج ودافئاً بعض الشيء.

حرير كان لعاباً

لي زو، ملكة هوانغدي، أسست فن الحرير الصيني.

حسب ما يرويه رواة حكايات الذاكرة، فإن لي زو هي من خلقت أول دودة قز. قدمت إليها أوراق التوت الأبيض، وبعد قليل راحت خيوط لعاب الدودة تنسج شرنقة أحاطت بجسدها. عندئذ فكت أصابع لي زو ذلك الخيط الكيلومتري، قليلاً قليلاً، بأشد الأساليب رقة. وهكذا تحولت الشرنقة إلى حرير بدل أن تصير فراشة.

وتحول الحرير إلى نسيج شفاف، إلى موسلين، وتول، وتفتا، وألبس السيدات والسادة القطيفة السميكة والمخمل والبروكار الفاخر المطرز بالدر.

وخارج المملكة كان الحرير رفاهية محظورة. طريقه تمر بجبال ثلوج، وصحارى نار، وبحار تعج بحوريات وقراصنة.

هروب دودة القزّ الصينية

بعد أزمنة طويلة، لم يعد أعداء كثيرون يترصدون في طريق الحرير، إنما كان يفقد رأسه من يُخرج بذور التوت أو بيوض الدودة الحياكة.

في العام ٤٢٠، طلب شوانزانغ، ملك يوتيان، يد أميرة صينية. كان قد رآها مرة واحدة فقط، كما قال، ولكنه منذ ذلك الحين ظل يراها في الليل والنهار.

الأميرة المدعوة لو شي، مُنحت له.

سافر سفير لإحضارها.

وجرى تبادل هدايا، وكانت هناك تكريمات واحتفالات لا متناهية.

وفي إحدى اللحظات، عندما تمكن السفير من التحدث إلى الأميرة على انفراد، أخبرها بلهفة الزوج الذي ينتظرها. ومنذ الأزل كانت يوتيان تدفع أحجاراً كريمة ثمناً للحرير الصيني، ولكن لم يبق في المملكة إلا القليل من اليشب.

لم تقل لو شي شيئاً. ووجهها الذي كالبدر لم يهتز.

انطلقت في الرحلة. والقافلة التي رافقتها، آلاف الجمال، آلاف الأجراس الرنانة، اجتازت الصحراء الشاسعة ووصلت إلى الحدود عند ممر يومينغوان.

استغرق التفتيش بضعة أيام. حتى الأميرة نفسها لم تفلت من التفتيش.

وأخيراً، بعد الكثير من المسير، وصل الموكب الزفافي إلى وجهته.

كانت لو شي قد سافرت دون أن تنطق بكلمة واحدة، ودون أن تومئ بحركة واحدة.

أمرت أن يتوقف الجميع في أحد الأديرة. وهناك استحمت وتعطرت. وعلى إيقاع الموسيقى تناولت الطعام، وبصمت نامت.

عندما وصل رجلها، سلمته لو شي بذور التوت التي جلبتها مخبأة في صندوق أدويتها. ثم قدمت إليه ثلاث وصيفات من خدمها، ولم يكن وصيفات ولم يكن من خدمها. كن خبيرات بفنون الحرير. ثم فكت عن رأسها العمرة الكبيرة التي تحيط به، والمصنوعة من أوراق القرفة، وكشفت له عن شعرها الأسود. وهناك كانت مخبأة بيوض دود الحرير.

من وجهة نظر الصين، كانت لو شي خائنة للوطن الذي ولدت فيه.

من وجهة نظر يوتيان، كانت بطلة للوطن الذي حكمته.

الإمبراطور الذي عاش وهو يبني موته

الصين تسمى صيناً بسبب "شين"، شين شي هوانغ الذي كان إمبراطورها الأول.

هو من أسس بالدم والنار الأمة التي كانت حتى ذلك الحين ممزقة في ممالك يسودها العداء، وفرض عليها لغة مشتركة، ونظاماً موحداً للموازين والمقاسات، وأوجد عملة موحدة مصنوعة من البرونز مع ثقب في منتصفها. ومن أجل حماية أملاكه أقام السور العظيم: خدٌ لامتناهٍ من الحجر يخترق الخريطة، ومازال، بعد انقضاء ألفين ومئتي عام، خط الدفاع العسكري الذي يتلقى أكبر عدد من الزوار في العالم.

ولكن هذه الصغائر لم تكن تقض مضجعه. فعمل حياته العظيم كان موته: مدفنه، قصره لما بعد.

بدأ البناء في يوم جلوسه على العرش، وهو في الثالثة عشرة من عمره، وسنة بعد سنة راح الضريح يتعاظم، إلى أن صار أكبر من مدينة. وتضخم كذلك الجيش الذي يحرسه، أكثر من سبعة آلاف فارس وجندي مشاة، بملابسهم التي بلون الدم ودروعهم السوداء. أولئك المحاربون المشغولون من الصلصال، والذين يذهلون العالم الآن، صنعهم أفضل النحاتين. كانوا يولدون بمنجى من الهرم، وكانوا غير قادرين على الخيانة.

المنشأة الجنائزية كانت من عمل الأسرى الذين يموتون من الإنهاك ويُلقى بهم إلى الصحراء. كان الإمبراطور يوجه العمل حتى في أدق تفاصيله ويطلب المزيد والمزيد. كان مستعجلاً جداً. فقد حاول أعداؤه قتله مرات عديدة، وكان يرعبه أن يموت بلا ضريح. كان يسافر متنكراً، وينام كل ليلة في مكان مختلف.

وجاء اليوم الذي انتهى فيه العمل الضخم. كان الجيش مكتملاً، والضريح العظيم كذلك، وقد كان عملاً بارعاً؛ أي تغيير فيه يسيء إلى كماله.

عندئذ، حين كان الإمبراطور على وشك إكمال نصف قرن من الحياة، جاء الموت في طلبه، وانقاد له.

كان المسرح العظيم جاهزاً، وارتفعت الستارة، وبدأ العرض. ولم يكن بإمكانه التخلف عن الموعد. وكانت تلك أوبرا لمرة واحدة فقط.

قتلة الأقدام

قبل حوالي قرنين اخترع لي يو شين صيناً معكوسة. ففي روايته "أزهار في المرآة"، هنالك بلاد للنساء، هن من يحكمن فيها.

وفي التخييل الروائي، هن كن هم: وهم كانوا هن. الرجال المحكوم عليهم بأن يمتعوا النساء كانوا يتعرضون لأشد أصناف العبودية تنوعاً. وبين أعمال الإذلال الكثيرة، كان عليهم أن يتقبلوا إخضاع أقدامهم للضمور.

لم يأخذ أحد على محمل الجد ذلك الاحتمال المحال. وظل الرجال هم من يكبسون أقدام النساء حتى تحويلها إلى ما يشبه قوائم عنزة.

خلال أكثر من ألف عام، وحتى وقت متقدم من القرن العشرين، كانت قواعد الجمال تحظر نمو القدم الأنثوية. وفي الصين كُتبت، في القرن التاسع، النسخة الأولى من سندريلا، حيث اتخذ الهوس الذكوري بالقدم الأنثوية الدقيقة شكلاً أدبياً، وفي ذلك الزمن نفسه، بزيادة عام أو نقصان عام، فُرضت عادة تضميد أقدام البنات منذ الطفولة.

ولم يكن ذلك استجابة لمثالية جمالية فقط. فالقدم المربوطة تربط صاحبتها. لقد كانت رمزاً للعفة. فمنع النساء من التحرك بحرية، يحول دون خروج غير محتشم قد يعرض شرف الأسرة للخطر.

مهربو الكلمات

قدما يانغ هوانيي ضمرتا في الطفولة. ومشت طيلة حياتها متعثرة. ماتت في خريف العام ٢٠٠٤، عندما كانت على وشك إكمال قرن من العمر.

وقد كانت آخر عارفة بالـ نوشو، لغة النساء الصينيات السرية.

تلك الشِّيفرة الأنثوية ترجع إلى أزمنة قديمة. فباستبعادهن من اللغة الذكورية التي لا يستطعن كتابتها، أسسن لغتهن الخاصة، السرية، المحظورة على الرجال. هن المولودات ليكن أميات، اخترعن أبجديتهن الخاصة المكونة من رموز تتظاهر بأنها مجرد زينات، ولا يمكن لعيون الأسياد حلّ معانيها.

كنّ يرسمن كلماتهن على الملابس والمراوح. الأيدي التي تطرزها لم تكن حرة. أما الرموز فبلى.

الخوف الذكر

في أقدم ليلة من الليالي كان يرقد جنباً إلى جنب، أول مرة، الرجل والمرأة. عندئذ سمع هو ضجة متوعدة فيها صرير أسنان بين ساقيه، فقطع الخوف عناقه لها.

ومازال أشد الرجال الفحول فحولة يرتجفون، في أي مكان من العالم، عندما يتذكرون خطر الالتهام ذاك، دون أن يعلموا أنهم يتذكرون. ويتساءلون، دون أن يدروا أنهم يتساءلون: أتكون المرأة لا تزال باباً للدخول ليس له مخرج؟ أيكون أن من يدخل فيها سيبقى عالقاً فيها؟

سلاح خطر

في أكثر من ثلاثين بلداً تقضي التقاليد بتر البظر.

ذلك البتر يؤكد حق تملك الذكر لامرأته أو لنسائه.

الباترون يُسمون هذه العملية المضادة للذة الأنثوية تطهيراً، ويشرحون أن البظر:

هو زُباني مسمومة، ذيل عقرب،

وهو عش نمل أبيض،

يميت الرجل أو يصيبه بالمرض،

يهيج النساء،

يسمم حليبهن

يجعلهن لا يرتوين

ومجنونات لا علاج لهن.

ومن أجل تسويغ البتر، يستشهدون بالنبي محمد، مع أنه لم يتكلم قط في هذا الموضوع، وبالقرآن الذي لم يأت على ذكره كذلك.

الأقمار التسعة

كان غوتابا يقضي حياته نائماً، يتأرجح، بينما امرأته التي لم يكن لها ولو مجرد اسم، تحك رأسه، تهش عنه الذباب، وتضع له الطعام في فمه. وبين حين وآخر، كان ينهض ويضربها ضرباً جيداً من أجل الحفاظ على سلوكها ولياقتها.

عندما هربت المرأة، انطلق غوتابا للبحث عنها عند منحدرات نهر الأمازون، وكان يضرب بهراوته أي مخبأ محتمل للهاربة. ووجه بكل ما فيه من روح وحياة ضربة هراوة عند أحد المنعطفات، حيث كان عش زنابير.

الزنابير، الدوامة الخانقة، غرست ألف إبرة في إحدى ركبتيه.

تورمت الركبة. وقمراً بعد قمر، تحولت إلى بالون ضخم. وداخل البالون اتخذت شكلاً وحركة أعدادٌ كبيرة من الرجال والنساء الصغار الذين يحوكون سلالاً ويصنعون عقوداً وسهام ثرباتانات.

ومع حلول القمر التاسع، ولد غوتابا. ومن ركبته خرج أبناء قبيلة التيكونا الأوائل الذين استُقبلوا بصخب الببغاء أزرق الجناحين، والببغاء الأبيض، والببغاء العنبي وغيرهم من المتكلمين.

قمر منتصر، شمس مهزومة

خسرت قمر معركتها الأولى ضد شمس عندما انتشر خبر أن الريح ليست من تُحبّل النساء.

بعد ذلك جاء التاريخ بمستجدات حزينة أخرى:

تقسيم العمل عهد إلى الإناث جميع المهام تقريباً، كي يتمكن الذكور من تكريس أنفسهم بالكامل للإبادة المتبادلة.

حقوق الملكية وحقوق الميراث سمحت لهن بعدم امتلاك أي شيء.

تنظيم الأسرة حبسهن في قفص الأب، والزوج، والابن الذكر.

ثم تعززت الدولة التي كانت كالأسرة، ولكن أكبر حجماً.

تقاسمت قمر سقوط بناتها.

نأت بعيداً الأزمنة التي كان فيها قمر مصر يلتهم شمس الغروب ويعيد ولادتها عند الفجر.

قمر إيرلندا كانت تُخضع شمس بتهديده بالليل الأبدي.

وملوك اليونان وكريت كانوا يتنكرون كملكات، بأثداء من الخرق، ويرفعون القمر راية لهم

في الطقوس المقدسة.

في يوكاتان، كان القمر والشمس يعيشان حياة زوجية. وعندما يتشاجران يحدث كسوف. وكانت هي، قمر، سيدة البحار والينابيع وربة الأرض. ومع مرور الأزمنة، فقدت سلطاتها. ولم تعد الآن مسؤولة إلا عن الولادات والأمراض.

على سواحل البيرو، كان للإذلال موعد محدد. فقبل قليل من الغزو الإسباني، في العام ١٤٦٣، استسلمت قمر مملكة تشيمو التي كانت تحكم وخضعت لجيش شمس الإنكا.

مكسيكيات

تلازولتيوتل، القمر المكسيكي، ربة الليل الهواستيكية، استطاعت أن تصنع لنفسها مكاناً صغيراً في بلاط الأزتيك الذكوري.

كانت هي الأم الكبرى التي تحمي النفساوات والولادات وتوجه رحلة البذور نحو النباتات. هي ربة الحب، وربة الزبالة كذلك، محكوم عليها أن تأكل البراز، وهي من تجسد الخصوبة والشبق.

ومثل حواء، ومثل باندورا، كانت تلازولتيوتل المذنبة في التسبب بضياع الرجال؛ والنساء اللواتي يولدن في يومها يعشن محكومات بالمتعة.

وعندما تهتز الأرض، في هزة خفيفة أو زلزال مدمر، لم يكن هناك من يخامره الشك:

- إنها هي.

مصريات

هيرودوت، الآتي من اليونان، تأكد من أن نهر مصر وسماءها لا يشبهان أي نهر آخر أو أية سماء أخرى، والأمر نفسه ينطبق على العادات. أناس غريبون أولئك المصريون: يعجنون الدقيق بأقدامهم والطين بأيديهم، ويُحنطون قططهم الميتة ويحفظونها في مقصورات مقدسة.

ولكن أكثر ما كان يلفت الانتباه هو المكان الذي تحتله النساء بين الرجال. فهن، سواء أكن نبيلات أو عاميات، يتزوجن بحرية ودون أن يتخلين عن أسمائهن أو ممتلكاتهن. فالتعليم، والملكية، والعمل، والإرث هي حقوق لهن وليست للذكور فقط، وهن من يأتين بالمشتريات من السوق بينما يقومون هم بالحياكة في البيت. وحسب قول هيرودوت، وقد كان يختلق الكثير، هن يتبولن واقفات، وهم يبولون جاثين على ركبهم.

عبرانيات

حسب ما جاء في العهد القديم، ستواصل بنات حواء معاناة العقاب الإلهي.

يمكن أن ترجم الزانيات حتى الموت، وكذلك المشعوذات والنساء اللاتي لا يصلن عذراوات إلى الزواج.

وتمضي إلى المحرقة اللاتي يتعهرن وهن بنات كهنة.

وتأمر الشريعة الإلهية بقطع يد المرأة التي تشد الرجل من خصيتيه، حتى لو فعلت ذلك دفاعاً عن النفس أو دفاعاً عن الزوج.

وتبقى دنسة لأربعين يوماً المرأة التي تنجب ابناً ذكراً. ويستمر دنسها ثمانين يوماً إذا كان المولود أنثى.

ودنسة المرأة الحائض، لسبعة أيام بلياليها، وتنقل دنسها لكل من يلمسها أو يلمس المقعد الذي تجلس عليه أو الفراش الذي تنام فيه.

هنديات

ميترا، أم الشمس والماء وكل مصادر الحياة، كانت إلهة منذ مولدها. وعندما وصلت إلى الهند، آتية من بابل أو من فارس، كان على الإلهة أن تصير إلهاً.

لقد انقضت سنوات منذ وصول ميترا، ومازالت النساء غير مرحب بهن كثيراً في الهند. هناك نساء أقل من الرجال. في بعض المناطق هناك ثماني نساء مقابل كل عشرة رجال. كثيرات هن اللواتي لا يُكملن الرحلة، لأنهن يمتن في بطون الأمهات، وكثيرات أخريات يُخنقن عند الولادة.

الوقاية خير من العلاج، وهنالك كثيرات منهن خطرات، مثلما يحذر أحد الكتب المقدسة في التراث الهندوسي:

– امرأة شهوانية هي السم، إنها الأفعى والموت، الكل في واحدة.

وهناك أيضاً فاضلات، وإن كانت العادات الحميدة آخذة بالضياع. فالتقاليد تأمر بأن تُلقى الأرامل إلى المحرقة التي يُحرق فيها الزوج الميت، ولكن لم يبق إلا قليلات مستعدات لتنفيذ هذا الأمر، هذا إذا بقيت واحدة منهن.

طوال قرون أو ألفيات كن موجودات، وبكثرة. وبالمقابل لا تُعرف، ولم تعرف قط، على امتداد تاريخ الهند، حالة رجل واحد شُوي على محرقة امرأته المتوفاة.

صينيات

منذ حوالي ألف عام تخلت الربات الصينيات عن كونهن ربات.

فالسلطة الذكرية التي فرضت نفسها على الأرض، راحت ترتب أيضاً أمور السموات. الربة "شي هي" قُسمت إلى ربتين، والربة "نو غوا" أُنزلت مكانتها إلى امرأة.

كانت "شي هي" أم الشموس والأقمار. هي من تمنح السلوى والغذاء لأبنائها وبناتها في نهاية رحلتهم المنهكة عبر النهار والليل. وعندما قُسمت إلى "شي" و"هي"، وكلاهما إلهان ذكران، لم تعد هي هي، واختفت.

"نو غوا" لم تختف، ولكنها اختُزلت إلى مجرد امرأة.

وقد كانت في أزمنة أخرى مؤسسة كل ما هو حي:

لقد قطعت قوائم السلحفاة الكونية الكبرى كي يكون للعالم والسماء أعمدة تستند إليها.

وقد أنقذت العالم من كوارث النار والماء.

واخترعت الحب، وهي مستلقية إلى جانب أخيها وراء مروحة عالية من الأعشاب.

وقد خلقت النبلاء والعامة، بعجن من هم في الأعلى من صلصال أصفر ومن هم في الأسفل بطين من النهر.

رومانيات

أوضح شيسرون أنه على النساء أن يخضعن لحراس ذكور بسبب ضعف ذكائهن.

الرومانيات كن ينتقلن من يدي ذكر إلى يدي ذكر آخر. الأب الذي يزوج ابنته يمكنه التنازل عنها للزوج كملكية خاصة أو تسليمها إليه كدَين. والأهم على أي حال هي الدوطة، الثروة، الإرث: أما المتعة فتوفرها الجواري.

الأطباء الرومان كانوا يعتقدون، مثل أرسطو، أن النساء جميعهن، المواطنات، والعامة، والمستعبدات، لهن أسنان أقل وأدمغة أصغر من الرجال وأنهن في أيام الحيض يلطخن المرايا بغشاوة ضاربة إلى الحمرة.

بيلينيو العجوز، أعلى سلطة علمية في الإمبراطورية، أثبت أن المرأة الحائض تُحمِّض النبيذ الجديد، وتجدب المحاصيل، وتنشف البذور والثمار، وتُميت تطعيم النباتات وأسراب النحل، وتُصدئ البرونز، وتُصيب الكلاب بالجنون.

إغريقيات

من وجع الرأس يمكن أن تولد ربة. فأثينا انبثقت من وجع رأس أبيها زيوس الذي انفتح كي تولد. لقد ولدت دون أم.

وسرعان ما صار صوتها حاسماً في محكمة الآلهة، عندما كان على الأولمب أن ينطق بحكم صعب.

ولكي تنتقم لأبيها، قطعت إلكترا وأخوها أورستيس نحر أمها بضربة فأس. الغضبات تتهم. تطالب بأن يُرجم القاتلان حتى الموت، لأن حياة الملكة مقدسة ومن يقتل أمه لا مغفرة له.

تولى أبولو الدفاع. أكد أن المتهمين كانا ابني أم غير محترمة وأنه ليس للأمومة أية أهمية. فالأم، أكد أبولو، ليست إلا الثلم الخامد الذي يلقي فيه الرجل بذرته.

ومن آلهة المحلفين الثلاثة عشر، صوت ستة بالإدانة، وستة بالبراءة.

أثينا من عليها أن تحسم التعادل. وقد صوتت ضد الأم، هي التي بلا أم، ومنحت حياة أبدية لسلطة الذكر في أثينا.

أمازونيات

الأمازونيات، النساء المرهوبات، قاتلن ضد هرقل، عندما كان هراقيل، وضد آخيل في حرب طروادة. كن يكرهن الرجال، ويقطعن ثديهن الأيمن كي تكون سهامهن أدق إصابة.

النهر العظيم الذي يخترق أميركا من جانب إلى آخر، يسمى أمازون بفضل ونعمة من الفاتح الإسباني فرانثيسكو دي أورييَّانا.

كان هو أول أوروبي أبحر فيه، من أعماق الأرض الداخلية حتى المناطق الخارجية في البحر. رجع إلى إسبانيا وقد فقد عيناً، وروى أن سفنه الشراعية قد خُرقت بسهام نساء محاربات، يقاتلن عاريات، يزمجرن كالضواري، وعندما يشعرن بالجوع للحب يخطفن رجالاً، يتقبلنهم في الليل ويخنقنهم عند الفجر.

وكي يضفي سمعة إغريقية على قصته، قال أورييَّانا إنهن أولئك الأمازونيات اللواتي كن يعبدن الربة ديانا، وباسمهن عمّد النهر الذي توجد عنده مملكتهن.

مضت القرون. ولم يُعرف عن الأمازونيات أي شيء قطّ. ولكن النهر مازال يسمى بهذا الاسم، حتى وإن كانت تسممه كل يوم المبيدات والأسمدة الكيماوية، وزئبق المناجم وبترول السفن، ما زالت مياهه هي الأغنى في العالم بالأسماك والطيور والحكايات.

عندما كان الكبد منزل الروح

في أزمنة أخرى، قبل وقت طويل من ولادة أطباء القلب وكاتبي أغنيات البوليرو، كان يمكن لمجلات القلوب أن تسمى مجلات الكبد.

كان الكبد مركز كل شيء.

حسب التراث الصيني، كان الكبد هو المكان الذي تنام فيه الروح وتحلم.

وفي مصر، كانت حراسة الكبد من مسؤولية أمست، ابن الإله حورس، ومن كان يتولى العناية بالكبد في روما، لم يكن إلا جوبيتر نفسه، أبو الآلهة.

وكان الإيستركيون يقرؤون القدر في أكباد الحيوانات التي يقدمونها قرابين.

وحسب التقاليد الإغريقية، سرق بروميثيوس نار الآلهة لنا نحن البشر. فعاقبه زيوس، كبير الآمرين في أولمب، بتقييده إلى صخرة، حيث كان نسر يأكل كبده كل يوم.

ليس القلب، وإنما الكبد. وفي كل يوم كان كبد بروميثيوس ينمو من جديد، وكان هذا هو الدليل على خلوده.

تأسيس الذكورة

إذا كان ذلك التعذيب قليلاً، فقد عاقب زيوس خيانة بروميثيوس أيضاً بخلق المرأة الأولى.

وأرسل إلينا الهدية.

وكانت تدعى، حسب شعراء الأولمب، باندورا، وكانت باهرة الجمال وشديدة الفضول، وأقرب إلى الرعونة والنزق.

وصلت باندورا إلى الأرض وهي تحمل بين ذراعيها صندوقاً كبيراً. وفي الصندوق كانت المصائب حبيسة. وكان زيوس قد حظر عليها فتحه؛ ولكنها حين هبطت بيننا، لم تستطع مقاومة الإغواء وفتحته.

انطلقت الأوبئة طائرة وغرست فينا إبرها. وهكذا جاء الموت إلى العالم، وجاءت الشيخوخة، والمرض، والحرب، والعمل...

وبحسب كهنة بابل، امرأة أخرى، تدعى حواء، خلقها إله آخر في سحابة أخرى، جاءتنا كذلك بمصائب خالصة.

هيراقليس

كان زيوس معاقِباً صارماً. وبسبب سوء السلوك، باع ابنه هيراقليس عبداً وصار اسمه في ما بعد، في روما، هرقل.

من اشترت هيراقليس هي أونفالي، ملكة ليديا، وفي خدمتها قتل أفعى عملاقة، وهو ما لم يتطلب جهداً كبيراً ممن اعتاد على تمزيق الحيات منذ طفولته المبكرة، وأمسك بالتوائم الذين كانوا يتحولون في الليل إلى ذباب ويحرمون الناس من النوم.

ولكن الملكة أونفالي لم تكن تهتم أدنى اهتمام بمثل هذه المآثر. كانت تريد عشيقاً وليس حارساً.

كانا يبقيان معتكفين طوال الوقت تقريباً. وعندما يخرجان، يظهر هو بقلادات من اللآلئ، وأساور ذراع من الذهب، وبملابس ملونة لا تدوم طويلاً لأن عضلاته كانت تمزق الخياطة، وتظهر هي مرتدية جلد الأسد الذي خنقه هو نفسه بذراعيه في نيميا.

وعندما كان يسيء السلوك، حسب ما كان يقال في المملكة، كانت تضربه بخفٍ على مؤخرته.

ويقال إن هيراقليس كان يقبع، في لحظات الفراغ، عند قدمي سيدته ويتسلى بالحياكة والنسج، بينما نساء البلاط يُهوين له، ويمشطنه، ويعطرنه، ويطعمنه في فمه، ويقدمن له النبيذ في رشفات.

ثلاث سنوات استمرت تلك الإجازة، إلى أن أمر زيوس، الأب، بأن يعود هيراقليس مرة أخرى إلى عمله وينهي مآثره الاثنتي عشرة كفحل كوني خارق القوة.

تأسيس منظمة التجارة الدولية

كان لا بد من اختيار إله للتجارة. ومن بلاط الأولمب، درس زيوس أسرته. لم يكن عليه أن يفكر طويلاً. لا بد أن يكون هرمس هو المختار.

أهدى إليه زيوس صندلاً له أجنحة ذهبية وكلفه بتنشيط التبادلات التجارية، وتوقيع الاتفاقات، وحماية حرية التجارة.

هرمس الذي صار يدعى في ما بعد، في روما، ميركوريو، جرى اختياره لأنه أفضل من يكذب.

تأسيس البريد

منذ ألفين وخمسمئة سنة، كانت الخيول والصرخات هي ما يُوصل الأخبار والرسائل إلى الأماكن البعيدة. قورش العظيم، ابن أسرة الأخمينية، أمير أنشان، وملك فارس، نظّم خدمة بريد تعمل ليلاً ونهاراً، من خلال تبديل متتالٍ لأفضل فرسان بلاد فارس.

أما خدمة البريد السريع، الأغلى كلفة، فكانت تتم بالصراخ. فمن صوت إلى صوت، كانت الكلمات تجتاز الجبال.

صدى

في أزمنة أخرى، كانت الطفلة إيكو (صدى) تحسن القول. وبكل ظرف كانت تقول إن كلماتها تبدو كأنها غير مستعملة، لم ينطق بها من قبل أي فم آخر.

غير أن الربة هيرا، زوجة زيوس الشرعية، لعنتها في واحدة من نوبات غيرتها الكثيرة. وعانت إيكو من أسوأ عقاب: لقد جُردت من صوتها الخاص. ومنذ ذلك الحين صارت عاجزة عن القول، ولم يعد بإمكانها إلا التكرار. وقد حولت العادة هذه اللعنة إلى فضيلة عالية.

تالس

منذ ألفين وستمئة عام، في مدينة مليتوس، كان عالم ساهٍ يدعى تالس يتمشى في الليالي، وكان من عادته أن يسقط في بئر بينما هو يرصد النجوم.

تالس، الرجل الفضولي، استطاع التقصي والتوصل إلى أن لا شيء يفنى، وأن كل شيء يتحول، وأنه ليس هناك شيء في العالم غير حي، وبدء كل حياة ونهايتها يكمن في الماء. ليس في الآلهة، وإنما في الماء. فالزلازل تحدث لأن البحر يتحرك ويُقلق الأرض، وليس بسبب غضبات بوسيدون. والعين تتمكن من الرؤية ليس بفضل نعمة إلهية، وإنما لأن العين تعكس الواقع، مثلما يعكس النهر شجيرات الضفاف. والكسوف يحدث لأن القمر يحجب الشمس، وليس لأن الشمس تختبئ خوفاً من غضبات آلهة الأولمب.

تالس الذي كان قد تعلم التفكير في مصر، وصف الكسوف دون خطأ، ودون خطأ قاس بُعد السفن الآتية في عرض البحر، واستطاع أن يحسب بدقة ارتفاع هرم خوفو من الظل الذي يعكسه. ونُسبت إليه نظريته الأشهر، وأربع نظريات أخرى، بل يقال إنه اكتشف الكهرباء. ولكن مأثرته الكبرى كانت أخرى: عيشه مثلما عاش، عارياً من أي معطف ديني، دون عزاءات.

تأسيس الموسيقى

عندما داعب أورفيو أوتار القيثارة، رقصت أشجار السنديان، بفضل أنغامها، في غابات تراقيا.

عندما أبحر أورفيو مع الأرغيين أصغت الصخور إلى الموسيقى، هذه اللغة التي تلتقي فيها جميع اللغات، ونجت السفينة من الغرق.

عندما كانت الشمس تولد، كانت قيثارة أورفيو تحييها من قمة جبل بانغايم، وتتبادل كلتاهما حديث الند للند، الضوء للضوء، لأن الموسيقى تشعل الهواء أيضاً.

زيوس أرسل صاعقة شطرت صاحب تلك العجرفة إلى نصفين.

احتكار إلهي

لم يكن الآلهة يتحملون منافسة الأرضيين العاميين والبرّيين.

علينا نحن أن نتذلل لهم ونطيعهم. فهم صانعونا، حسب ادعائهم. ورقابة السماء العالية تحظر نشر الإشاعة القائلة أنهم هم من صنعنا نحن. عندما اكتشفوا أننا نرى ما وراء الأفق، ألقى آلهة المايا تراباً في عيوننا، وآلهة الإغريق أصابوا فينيوس، ملك تساليا، بالعمى حين علموا أنه يرى ما وراء الزمن.

وإبليس كان الملاك المفضل عند إله اليهود والمسيحيين والمسلمين. وعندما أراد إبليس أن يرفع عرشه فوق النجوم، حوله ذلك الإله إلى رماد بإحراقه في نار جماله بالذات.

وكان ذلك الإله نفسه هو من طرد آدم وحواء، الأولين، اللذين لم تكن لهما سرّة، لأنهما أرادا معرفة المجد الإلهي. وكان هو نفسه من عاقب بناة برج بابل الذين أرادوا اقتراف وقاحة الوصول إلى السماء.

شكراً للعقاب

في بابل، المدينة الملعونة التي كانت عاهرة وأم عاهرات بحسب الكتاب المقدس، كان يُشيّد ذلك البرج الذي هو خطيئة التكبر البشري.

ولم تتخلف صاعقة الغضب: حكم الرب على بناة البرج بالتكلم بلغات مختلفة، بحيث لا يمكن لأحد أن يتفاهم أبداً مع أحد، وظل البرج إلى الأبد نصف مشيّد دون اكتمال.

وحسب العبرانيين القدماء، كان اختلاف لغات البشر عقاباً إلهياً.

ولكن حين أراد الرب معاقبتنا، ربما قدّم لنا جميلاً بإنقاذنا من ضجر اللغة الوحيدة.

تأسيس اللغات

ولكن القصة مختلفة حسب المكسيكيين القدماء.

فقد رووا أن جبل تشيكوموزتوك، المنتصب حيث ينقسم البحر إلى نصفين، كان في أعماقه سبعة كهوف.

في كل كهف منها يحكم إله.

ومن تراب الكهوف السبعة ودماء الآلهة السبعة، عُجنت أولى الشعوب التي ولدت في المكسيك.

وشيئاً فشيئاً، راحت الشعوب تتدفق من أفواه الجبل.

وكل شعب يتكلم، ومازال، لغة الإله الذي خلقه.

ولهذا فإن اللغات مقدسة، والمختلفة هي موسيقى القول.

كل الأمطار

إله العبرانيين كان مستاءً من سوء سلوك أبنائه، فكان الطوفان هو العقاب الذي دَفَنَ تحت الماء اللحم البشري قاطبة، كما دفن، في طريقه، بهائم الأرض وطيور السماء.

وكان لنوح، الرجل العادل الوحيد، امتياز بناء فلك خشبي، من ثلاثة طوابق، كي ينقذ أسرته وزوجاً من ذكر وأنثى من الأجناس التي كانت تقطن العالم.

أما البقية فأغرقوا في الطوفان العظيم.

واستحق الموت كذلك من طردوا من الفلك: الأزواج غير الطبيعيين، مثل الحصان الملتصق بأتان، أو الكلبة المغرمة بذئب، والذكور الذين تسيطر عليهم الإناث، ممن يجهلون التراتبية الطبيعية.

التأسيس الديني للعنصرية

سَكِر نوح محتفلاً بوصول الفلك إلى جبل آرارات.

استيقظ غير مكتمل. فحسب مختلف روايات التوراة، قام ابنه حام بإخصائه وهو نائم. وتقول هذه الرواية إن الرب لعن حام وأبناءه وأبناء أبنائه، وحكم عليهم بالعبودية إلى أبد الآبدين.

ولكن أياً من روايات التوراة لم تقل إن حام كان أسود. فأفريقيا لم تكن تبيع عبيداً عندما ولدت التوراة، وحام لم يصبغ جلده إلا بعد زمن طويل من ذلك. ربما بدأ سواد بشرته بالظهور في حوالي القرن الحادي عشر أو الثاني عشر، عندما بدأ العرب تجارة العبيد من جنوبي الصحراء، ولكن المؤكد أن حام صار زنجياً تماماً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما تحولت العبودية إلى التجارة الأوروبية الكبرى.

ومنذ ذلك الحين منحت سمعة إلهية وحياة أبدية لتجارة النخاسين. فالعقل في خدمة الدين، والدين في خدمة الطغيان: وبما أن العبيد زنوج، فلا بد أن يكون حام زنجياً. وأبناؤه، وهم زنوج أيضاً، يولدون ليكونوا عبيداً، لأن الرب لا يخطئ.

حام وأبناؤه وأبناء أبنائه سيكون لهم شعر خشن، وعيون حمراء، وشفاه غليظة، وسيمضون عراة كاشفين عن قضبانهم الفضائحية، وسيكونون ميالين إلى السرقة، ويكرهون أسيادهم، ولا يقولون الحقيقة أبداً، ويكرسون وقت نومهم لممارسة الأمور القذرة.

التأسيس العلمي للعنصرية

تسمية العرق القوقازي أُطلقت، ولا تزال، على الأقلية البيضاء التي تحتل قمة المراتب البشرية.

هكذا عمّدها في العام ١٧٧٥ يوهان فريدريش بلومينباخ.

كان عَالِم الحيوانات هذا يرى أن القوقاز هي مهد البشرية، وأن الذكاء والجمال يتحدران من هناك. والمصطلح مازال، خلافاً لكل ما هو جلي، شائع الاستخدام في أيامنا.

كان بلومينباخ قد جمع مئتين وخمساً وأربعين جمجمة أسست لحق الأوروبيين في إذلال الآخرين. البشرية تشكل هرماً من خمس طبقات.

في الأعلى، البيض.

وفي الطبقات السفلى يخرب النقاء الأصلي بالأجناس ذات البشرة القذرة: السكان الأصليين الأستراليين، والهنود الأمريكيين، والآسيويين الصفر. وتحت الجميع، كان الزنوج الأفارقة

المشوهون من الخارج والداخل.

لقد وضع العلمُ الزنوج في القبو على الدوام.

في العام ١٨٦٣، توصلت جمعية الأنثروبولوجيا في لندن إلى استخلاص أن الزنوج أدنى من البيض فكرياً، وأن الأوروبيين وحدهم هم القادرون على أنستهم وتمدينهم. وقد كرست أوروبا أفضل طاقاتها لهذه المهمة النبيلة، ولكن الحظ لم يحالفها. وبعد قرن ونصف تقريباً، في العام ٢٠٠٧، أكد في الولايات المتحدة جيمس واطسن، الحائز على جائزة نوبل في الطب، أنه من الثابت علمياً أن الزنوج لا يزالون أقل ذكاء من البيض.

حب الإحباب

أنشد الملك سليمان إلى المرأة الأكثر امرأة بين النساء. أنشد جسدها وبوابة جسدها وخضرة الفراش المشترك.

لا وجود في نشيد الإنشاد لأدنى شبه بأسفار توراة أورشليم التي تربو على الأربعين سفراً.

فلماذا هو بينها؟

بحسب قول الحاخامات، هو نشيد رمزي لحب الرب من جانب إسرائيل.

وحسب قول الرهبان، هو تكريم بهيج لزواج يسوع بالكنيسة. ولكن لا وجود لبيت شعر واحد يذكر فيه الرب، وأقل من ذلك ذكر المسيح والكنيسة اللذين ولدا بعد زمن طويل جداً من إنشاد النشيد.

الأقرب إلى التصديق هو أن هذا اللقاء بين ملك يهودي وامرأة زنجية كان احتفالاً بالوله الإنساني وباختلاف ألواننا.

أفضل من النبيذ قبلات فمك، يغني تلك المرأة.

وحسب النسخة التي وصلت إلى أيامنا، تغني هي أيضاً:

زنجية أنا، ولكنني جميلة.

وتعتذر بأن تعزو لونها إلى عملها، تحت الشمس، في الكروم.

ومع ذلك، هناك روايات أخرى ترى أن "لكنني" قد أضيفت. وأنها تغني:

زنجية أنا، وجميلة.

الإسكندر

ديموستينيس يقول ساخراً:

- هذا الفتى يريدنا أن نقيم له هيكلاً. حسناً. فلنُرضِ رغبته.

كان الصبي هو الإسكندر الأكبر. وكان يقول إنه قريب هرقل وآخيل. وكان يدعو إلى تسميته الرب غير المرئي. وكان قد جُرح ثماني مرات وواصل غزو العالم.

كان قد بدأ بتتويج نفسه ملكاً على مقدونيا بعد أن قتل جميع أقربائه، ولأنه أراد أن يُتوج ملكاً على جميع الآخرين، فقد عاش سنوات حياته القليلة في حرب متواصلة.

كان حصانه الأسود يشق الريح. وكان هو على الدوام أول من يهاجم، السيف في يده، وعلى رأسه قنزعة ريش أبيض، كما لو أن كل معركة هي مسألة شخصية:

- أنا لا أسرق النصر - كان يقول.

وكان يتذكر جيداً الدرس الكبير لأرسطو، معلمه:

- البشرية تنقسم إلى من يولدون ليَأمروا ومن يولدون ليطيعوا.

وبقبضة صارمة كان يُخمد أعمال التمرد: يصلب المتمردين ويرجمهم، ولكنه كان غازياً غريباً يحترم عادات من يغزوهم، بل ويمنح نفسه ترف تعلمهم. ولأنه ولد ليكون الآمر الأعلى، وملك الملوك، فقد اجتاح أراض وبحاراً من البلقان حتى الهند، مروراً بفارس ومصر وكل ما وجده في طريقه، وفي كل مكان عقد زيجات. الفكرة الماكرة بتزويج جنود إغريق بنساء من المكان كانت حدثاً جديداً غير مستحب في أثينا، حيث كان له وقع سيئ جداً، ولكنه رسخ سمعة الاسكندر وسلطته في خريطة العالم الجديدة.

هفيستون رافقه على الدوام في المسير وفي القتال. كان ذراعه الأيمن في ميادين المعارك وعشيقه في ليالي الاحتفالات. وإلى جانبه، ومع آلاف فرسانه دائمي الحركة، والرماح الطويلة والسهام النارية، أُسست سبع مدن، الاسكندريات السبع، وكان يبدو أنه لا توجد نهاية لذلك أبداً.

عندما مات هفيستون، شرب الاسكندر الخمر الذي كان يتقاسمه مع الآخرين، وعند الفجر، أمر وهو مخمور بإقامة محرقة هائلة تحرق السماء وحظر الموسيقى في الإمبراطورية كلها.

وبعد قليل من ذلك مات هو أيضاً، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره، دون أن يكون قد أنهى غزو كل الممالك التي في العالم.

هوميروس

لم يكن هناك شيء أو أحد. لم تكن هناك ولو أشباح. لا شيء سوى أحجار بكماء، ونعجة أو بضع نعاج تبحث عن عشب بين الأنقاض. ولكن الشاعر الأعمى استطاع أن يرى، هناك، المدينة العظيمة التي كانت. رآها محاطة بأسوار، تنتصب على الهضبة المطلة على الخليج، وسمع صرخات ودوي الحرب التي دمرتها وأطاحت بها. وغناها. فكان ذلك إعادة تأسيس طروادة. ولدت طروادة من جديد، انبعثت من كلمات هوميروس، بعد أربعة قرون ونصف قرن من اندثارها.

وحرب طروادة التي كان محكوماً عليها بالنسيان، تحولت إلى أشهر حرب بين جميع الحروب.

المؤرخون يقولون إنها كانت حرباً تجارية. فقد كان الطرواديون قد أغلقوا الطريق نحو البحر الأسود، وكانوا يتقاضون ثمن المرور فيه غالياً. ودمر الإغريق طروادة كي يفتحوا الطريق نحو الشرق عبر مضيق الدردنيل. ولكن جميع الحروب التي وقعت في العالم، أو جميعها تقريباً، كانت تجارية. ولماذا ستكون حرباً ضئيلة الأصالة جديرة بأن تحفظ ذكراها؟ لقد كانت أحجار طروادة آخذة بالتحول إلى تراب، ولا شيء سوى التراب، مثلما هو مصيرها الطبيعي، عندما رآها هوميروس وسمعها.

هل ما رواه كان مجرد تخيل؟

هل كان نتاج الوهم ذلك الأسطول المؤلف من ألف ومئتي سفينه المنطلق لإنقاذ هيلين، الملكة المولودة من بيضه بجعة؟

هل اختلق هوميروس عمل آخيل ذاك بسحل خصمه المهزوم هيكتور مربوطاً إلى عربة خيول، والدوران به عدة مرات حول أسوار المدينة المحاصرة؟

وقصة أفروديت وإحاطتها باريس بغلالة من ضباب سحري حين وجدته ضائعاً، ألم تكن مجرد هذيان أو سكرة؟

وماذا عن توجيه أبولو مسار السهم القاتل نحو عقب آخيل؟

هل كان أوديسيو، الشهير بأوليسيس، هو صانع الحصان الخشبي الضخم الذي خدع الطرواديين؟

وما هي الحقيقة في نهاية أغاممنون، المنتصر الذي رجع من حرب العشر سنوات تلك كي تغتاله زوجته في الحمام؟

تينك النسوة، وأولئك الرجال، وتينك الربات، وذينك الأرباب الذين يشبهوننا كثيراً، الغيورون، المنتقمون، الخائنون، هل وجدوا حقاً؟

من يدري إذا كانوا قد وُجدوا. الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم موجودون.

التأسيس الأدبي للكلب

أرغوس Argos كان اسم مارد له مئة عين، واسم مدينة إغريقية قبل أربعة آلاف عام.
وكان يعرف باسم أرغوس أيضاً الشخص الوحيد الذي تعرف على أوديسيوس عندما رجع، متنكراً، إلى إثاكا.
لقد روى لنا هوميروس أن أوديسيوس رجع، بعد حروب كثيرة وبحار كثيرة، واقترب من بيته متظاهراً بأنه متسول عاجز ومهلهل.
لم ينتبه أحد إلى أنه هو.
لا أحد، باستثناء صديق لم يعد يعرف النباح، ولا يستطيع المشي، ولا حتى التحرك. كان أرغوس يقبع عند أبواب عنبر، مهجوراً تنخره القُرادة، ينتظر الموت.
وعندما رأى، أو ربما شم، اقتراب ذلك المتسول، رفع رأسه وهز ذيله.

هيسودو

عن هوميروس لا يُعرف أي شيء. سبع مدن تقسم إنها كانت مسقط رأسه. ربما كان هوميروس قد ألقى فيها أشعاره، ذات ليلة، مقابل سقف ووجبة طعام.
عن هيسودو يقولون إنه ولد في قرية تدعى أسيرا وأنه عاش في أزمنة هوميروس.
ولكنه لم يتغنى بأمجاد المحاربين. أبطاله كانوا فلاحي بيوسيا. هيسودو انشغل بأعمال وبأيام الناس الذين يجنون ثمراً بائساً من الأرض القاسية، كي ينجزوا لعنة الآلهة القساة.
أشعاره تنصح بقطع الأخشاب عندما يظهر نجم سيرو في السماء.
وجمع الأعناب عندما يتحول سيرو نحو الجنوب،
ودرس القمح حين يأتي نجم أويون،
وحصاد عندما تطل مجموعة نجوم بلياد،
وحراثة الأرض عندما تخفي نجوم بلياد،
والعمل عارياً
وعدم الثقة بالبحر، واللصوص، والنساء، والألسنة القلقة، وأيام النحس.

انتحار طروادة

حسب هوميروس، كانت الربة أثينا هي من همست بالفكرة في أذن أوديسيوس. وهكذا فإن مدينة طروادة التي صمدت طيلة عشر سنوات لحصار القوات الإغريقية، هُزمت بحصان خشبي.

لماذا سمح بريام، ملك طروادة، بإدخاله؟ فمنذ ظهر ذلك الحيوان العملاق الغريب أمام الأسوار، صار أحمرَ دخانُ المطابخ، وبكت التماثيل، وجفت أشجار الغار، أقفرت السماء من النجوم. الأميرة كاسندرا ألقت عليه مشعلاً مشتعلاً، والكاهن لاوكون غرس رمحاً في خاصرته. ورأى مستشارو الملك أنه لا بد من فتحه، ولم يكن في طروادة بأسرها من لم يساوره الشك في أن هذا الكائن الغريب ليس إلا خدعة.

ولكن بريام اختار ضياعه. أراد أن يعتقد أن الربة أثينا قد أرسلت إليه تقدمة في إشارة إلى السلام. ولكي لا يغضبها، أمر بفتح السور وجرى استقبال الحصان بأناشيد الثناء والشكر.

من داخله خرج الجنود الذين دمروا طروادة حتى آخر حجر فيها. وصار المهزومون عبيدهم، ونساء المهزومين نساءهم.

البطل

كيف كان لحرب طروادة أن تُروى من وجهة نظر جندي مجهول؟ إغريقي من المشاة، تتجاهله الآلهة ولا ترغب فيه إلا نسور الرخمة التي تحوم في المعارك؟ فلاح تطوع كمحارب، لا يغني له أحد، ولا يبصق عليه أحد؟ رجل عادي، مجبر على أن يقتل وليس له أدنى مصلحة في الموت من أجل عيني هيلين؟

أيكون ذلك الجندي قد استشعر مسبقاً ما أكده يوربيدس فيما بعد؟ من أن هيلين لم تكن قطّ في طروادة، وأن شبحها وحده كان هناك؟ وأن عشر سنوات من المجازر وقعت من أجل عباءة خاوية؟

ولو أن هذا الجندي ظل على قيد الحياة، فما الذي يتذكره؟

من يدري.

ربما الرائحة. رائحة الألم، ولا شيء غير ذلك ببساطة.

بعد ثلاثة آلاف عام على سقوط طروادة، يخبرنا المراسلان الحربيان روبرت فيسك وفران سيفيلا أن للحروب رائحة. لقد كانا في عدة حروب، وقد عايناها من الداخل، ويعرفان تلك الرائحة من العفونة الدافئة، الحلوة، الدبقة، التي تدخل من كل مسامات الجلد وتستقر في جسدك.

إنها غثيان لا يفارقك أبداً.

صورة أسرية في اليونان

الشمس رحلت بالمقلوب في السماء وغابت في الشرق. وبينما كان ذلك النهار شديد الغرابة يحتضر، استولى أتريوس على عرش ميسينا.

كان أتريوس يشعر بأن التاج يهتز على رأسه. فينظر بطرف عينه إلى أقربائه. الجوع إلى السلطة يلمع في عيون ابني أخيه. وبدافع الشك، ذبحهما. قطّعهما قطعاً صغيرة، وطبخهما، وقدمهما طبقاً وحيداً في مأدبة أقامها لأخيه ثيستوس، والد الميتين.

أغاممنون، ابن أتريوس، ورث العرش. وأعجبته كليتمنيسترا، زوجة عمه، لتكون الملكة. وبعد سنوات من ذلك كان عليه أن يقطع عنق إيفجينيا، ابنته الأجمل. الربة أرتيميس طلبت منه ذلك، كي تقدم جيوشها من الساتورات والسانتورات والنينفات ريحاً طيبة لسفنه المنطلقة إلى الحرب ضد مملكة طروادة.

وفي نهاية الحرب، في ليلة قمر مكتمل، دخل أغاممنون بخطى ظافرة إلى قصره في ميسينا. رحبت به الملكة كليتمنيسترا وقدمت له حماماً ساخناً. وعند خروجه من الحمام، لفته بشبكة حاكتها بنفسها. تلك الشبكة كانت كفن أغاممنون. فإيجستوس، عشيق كليتمنيسترا، غرس فيه سيفاً ذا حدين، ثم قطعت هي رأسه بفأس.

وبتلك الفأس نفسها، بعد بعض الوقت، انتقم أورست وإليكترا للأب المقتول، فقد قام ابنا أغاممنون وكليتمنيسترا بتمزيق أمهما وعشيقها، مقدمين بذلك الإلهام للشاعر أسخيلوس وللدكتور فرويد.

إضراب السيقان المطبقة

في أوج الحرب البيلوبونية، أعلنت نساء أثينا وإسبارطة وكورينتو وبيوسيا الإضراب ضد الحرب.

كان أول إضراب سيقان مطبقة في التاريخ الكوني. وقد حدث في المسرح. وولد من مخيلة أريستوفانيس ومن الخطبة التحريضية التي وضعها على لسان ليسيستراتا، المرأة الأثينية المهيبة:

- لن أرفع ساقيّ نحو السماء، ولن أقبع على أربع ومؤخرتي مكشوفة!

وتواصل الإضراب، دون هدنة، إلى أن أجبر الامتناعُ عن الغراميات المحاربين على الرضوخ. كانوا متعبين من القتال دون سلوى، ومرعوبين حيال التمرد الأنثوي، ولم يجدوا مفراً من القول وداعاً لميادين المعارك.

بهذه الطريقة تقريباً روى الأمر، تخيله، أريستوفانيس، وهو كاتب محافظ يدافع عن التقاليد كما لو أنه يؤمن بها، ولكنه في أعماقه كان يؤمن بأن الشيء المقدس الوحيد هو الحق في الضحك.

وكان سلام على منصة المسرح.

أما على أرض الواقع، فلا.

كان قد مضى على الإغريق عشرون عاماً وهم يقاتلون عندما عُرضت هذه المسرحية، وقد تواصلت المجزرة سبعة أعوام أخرى بعدها.

وظلت النساء محرومات من حق الإضراب، ومن حق إبداء الرأي، ودون أية حقوق أخرى سوى حق الانصياع للأعمال الخاصة بجنسهن. ولم يكن المسرح من تلك الأعمال. فالنساء يستطعن حضور المسرحيات، في أسوأ الأماكن، وهي أعلى المدرجات، ولكنهن لا يستطعن التمثيل فيها. لم تكن هناك ممثلات. وفي مسرحية أريستوفانيس، أدى دور ليسيستراتا وبطلات المسرحية جميعهن ممثلون من الرجال يضعون أقنعة نساء.

فن رسمك

في فراش في خليج كوريتو، امرأة تتأمل على ضوء النار بروفيل حبيبها النائم.
وعلى الجدار، ينعكس الظل.
الحبيب الذي ينام إلى جانبها سيذهب. عند الفجر سيذهب إلى الحرب، سيذهب إلى الموت.
وكذلك الظل، رفيق رحلته، سيذهب معه وسيموت مثله.
الوقت مازال ليلاً. تلتقط المرأة قطعة فحم من بين الجمار وترسم، على الجدار، محيط الظل.
تلك الخطوط لن تذهب.
الخطوط لن تعانقها، وهي تعرف ذلك. ولكنها لن تذهب.

سقراط

مدن عديدة كانت تقاتل مع هذا الجانب أو الجانب الآخر. ولكن الحرب الإغريقية التي قتلت أكبر عدد من الإغريق، كانت قبل كل شيء هي حرب إسبارطة، أوليغاركية القلة الفخورين بأنهم قليلون، ضد أثينا، ديمقراطية القلة الذين يتظاهرون بأنهم الجميع.
في العام ٤٠٤ قبل الميلاد، قوضت إسبارطة، ببطء قاس، وعلى إيقاع النايات، أسوار أثينا.
ومن أثينا، ماذا تبقى؟ خمسمئة سفينة أغرقت، ثمانون ألف ميت في الطاعون، أعداد لا حصر لها من المحاربين منزوعي الأحشاء، ومدينة مهانة، تغص بالمشوهين مبتوري الأطراف وبالمجانين.
وحكمت عدالة أثينا بالموت على أعدل رجالها.
المعلم الكبير في الأغورا، من كان يلاحق الحقيقة بصوت عالٍ بينما هو يتمشى في الساحة العامة، من قاتل في ثلاث من معارك الحرب التي انتهت للتو، اعتُبر مذنباً. إنه مفسد الشباب، حكم عليه القضاة، مع أنهم ربما رغبوا في القول إنه مذنب بأنه أحب أثينا بالسخرية منها، بانتقادها كثيراً وعدم تملقها مطلقاً.

أولمبيادات

كان الإغريق مفتونين بالاقتتال في ما بينهم، ولكنهم كانوا يمارسون رياضات أخرى فضلاً عن الحرب.

كانوا يتنافسون في مدينة أولمبيا، وبينما الأولمبيادات تجري، كان الإغريق ينسون حروبهم لبعض الوقت.

جميعهم عراة: العدّاءون، أو رماة الرمح والقرص، أو من يقفزون، أو يتلاكمون، أو يتصارعون، أو يركضون أو يتنافسون مغنين: لم يكن أيٌّ منهم ينتعل حذاء رياضياً ذا ماركة، ولا قمصاناً رائجة الموضة، ولا شيء سوى جلدهم اللامع بالزيوت.

ولم يكن الأبطال يتلقون ميداليات. كانوا يكسبون تاجاً من الغار، وبعض خوابي زيت الزيتون، والحق بتناول الطعام مجاناً مدى الحياة ونيل احترام جيرانهم وتقديرهم.

البطل الأول، وهو شخص كان يدعى كوريبوس، كان يكسب قوته بالعمل طاهياً، وقد واصل عمله هذا. في أولمبياد الافتتاح ركض أكثر من كل منافسيه وأكثر من رياح الشمال المرهوبة.

كانت الأولمبيادات احتفالات بالهوية المشتركة. فتلك الأجساد، بممارستها الرياضة، كانت تقول: نتباغض، نتقاتل، ولكننا جميعنا إغريق. وظلت الحال على هذا النحو ألف عام، إلى أن حظرت المسيحية المنتصرة ذلك العري الوثني الذي يُغضب الرب.

في الأولمبيادات اليونانية لم تشارك النساء قطّ، ولا العبيد ولا الأجانب.

ولم يكن مسموحاً لهم المشاركة في الديمقراطية الإغريقية أيضاً.

بارثينون وفي ما بعد

فيدياس، أشد النحاتين في كافة الأزمنة محطاً للحسد، مات حزناً. موهبته التي لا تطاق عوقبت بالحكم عليه بالسجن.

بعد قرون طويلة من ذلك، عوقب فيدياس كذلك بالحكم عليه بأنه منتحل صفة.

أفضل أعماله، منحوتات البارثينون، لم تعد موجودة في أثينا وإنما في لندن. ولم تعد تسمى رخام فيدياس، وإنما هي تسمى اليوم رخام إيغلين.

اللورد إيغلين ليس فيه من النحات أي شيء، فقد كان السفير الإنكليزي الذي شحن هذه الروائع بحراً قبل قرنين وباعها إلى حكومته. وهي منذ ذلك الحين في المتحف البريطاني.

عندما حمل اللورد إيغلين ما حمله، كان البارثينون قد تهدم بفعل عوامل الجو والغزوات. ذلك المعبد الذي ولد من أجل مجد أبدي للربة أثينا، تعرض لغزو مريم العذراء وكهنتها الذين أزالوا بعض التماثيل، ومسحوا الكثير من الوجوه وبتروا كافة الأعضاء الذكورية. وبعد سنوات طويلة حدث غزو قوات فينيسيا، والمعبد الذي تحول إلى مخزن بارود، انفجر.

تحول البارثينون إلى أنقاض. والتماثيل التي انتزعها اللورد إيلغين كانت، ومازالت، مكسورة.

هذه البقايا تخبرنا بما كانت عليه:

تلك العباءة ليست سوى قطعة من الرخام، ولكن يتماوج بين طياتها جسد امرأة أو ربة:

وهذه الركبة تتواصل في الساق الغائبة؛

وهذا الجذع يكتمل برأسه المقطوع؛

والحصان الناقص يصهل من ذلك العرف المنتصب في الهواء ويرعد بتلك القوائم التي تعدو في الفراغ.

في القليل الموجود، يوجد كل ما كان موجوداً.

أبقراط

يسمونه أبا الطب.

الأطباء الجدد يقسمون باسمه.

قبل ألفين وأربعمئة عام، عالج وكتب.

وهذه بعض الحكم المتولدة، بحسب قوله، من تجربته:

التجربة خادعة، الحياة قصيرة، وطويل فن العلاج، والفرصة متهربة، والحكم صعب.

الطب أنبل الفنون، ولكنه في مؤخرة الفنون الأخرى بسبب جهل من يمارسونه.
هناك دوران عام لدى الجميع، وتنفس عام لدي الجميع. كل شيء مرتبط بكل شيء.
لا يمكن فهم طبيعة أجزاء الجسد دون فهم طبيعة الجسم بكامله.
الأعراض هي وسائل دفاع طبيعية في الجسد. نحن نسميها أمراضاً، ولكنها في الواقع علاج المرض.
ليس للخصيان صلعة.
الصلعان لا يصابون بالدوالي.
فليكن الطعام غذاءك، والغذاء دواءك.
ما يشفي شخصاً، يُميت آخر.
إذا حبلت المرأة بطفل، يكون لونها جيداً، وإذا حبلت بطفلة يكون لونها سيئاً.

أسباسيا

في أزمنة بيركليس، كانت أسباسيا أشهر امرأة في أثينا.
وهو ما يمكن أن يقال أيضاً بطريقة أخرى: في أزمنة أسباسيا كان بيركليس هو أشهر رجل في أثينا.
أعداؤها لم يغفروا لها كونها امرأة وأجنبية، ولكي يضيفوا إليها عيوباً أخرى نسبوا إليها ماضياً لا يجوز البوح به، وقالوا إن مدرسة الخطابة التي تديرها، هي مكان لتربية فتيات سهلات المنال.
اتهموها بازدراء الآلهة، وهي إهانة يمكن أن يكون ثمنها الموت. وأمام محكمة من ألف وخمسمئة رجل، دافع بيركليس عنها. وقد بُرئت أسباسيا، على الرغم من أن بيركليس، في خطبته التي استمرت ثلاث ساعات، نسي أن يقول إنها لا تزدري الآلهة ولكنها تعتقد أن الآلهة يزدروننا ويدمرون سعاداتنا البشرية سريعة الزوال.
في تلك الأثناء كان بيركليس قد طرد زوجته من فراشه وبيته، ليعيش مع أسباسيا. ولكي يدافع عن حقوق الابن الذي أنجبه منها، خرق قانوناً كان هو نفسه قد أملاه.
ومن أجل الاستماع إلى أسباسيا، كان سقراط يقطع دروسه. وكان أناكساغورس يستشهد بآرائها.
- أي فن أو سلطة تمتلكها هذه المرأة، لتسيطر على ألمع السياسيين وتلهم الفلاسفة؟ - كان بلوتاركوس يتساءل.

سافو

قليل ما هو معروف عن سافو.

يقال إنها ولدت منذ ألفين وستمئة سنة، في جزيرة ليسبوس التي اشتُقت منها تسمية lesbianas (سحاقيات).

يقولون إنها كانت متزوجة، وكان لها ابن، وإنها ألقت بنفسها إلى هاوية لأن بحاراً لم يعرها اهتماماً، ويقولون كذلك إنها كانت ضئيلة وقبيحة.

من يدري. فنحن الذكور لا يروقنا كثيراً هذا الكلام عن امرأة تفضل امرأة أخرى بدل أن تستسلم لمفاتننا التي لا تُقاوم.

في العام ١٧٠٣ أمرت الكنيسة الكاثوليكية، معقل السلطة الذكورية، بإحراق كتب سافو كلها.

بعض القصائد، وهي قليلة جداً، نجت.

أبيقور

في حديقته في أثينا، كان أبيقور يتكلم ضد الخوف. ضد الخوف من الآلهة، ومن الموت، ومن الألم، ومن الإخفاق.

محض باطل، كان يقول، الاعتقاد بأن الآلهة مشغولون بنا. فهم من خلودهم، ومن كمالهم، لا يقدمون لنا مكافآت أو عقوبات. الآلهة ليسوا مرهوبين لأننا نحن الزائلين، غير الكاملين، لا نستحق إلا عدم مبالاتهم.

والموت أيضاً ليس مخيفاً، كان يقول. فمادمنا في كينونتنا، لا تكون للموت كينونة. وعندما تتحقق كينونته، نتوقف نحن عن أن نكون.

أنخاف الألم؟ الخوف من الألم هو أكثر ما يخيف، ولكن ليس هناك ما هو أكثر متعة من المتعة التي نشعر بها حين يذهب الألم.

وماذا عن الخوف من الإخفاق؟ أي إخفاق؟ لا شيء كافٍ لمن يرى أن ما هو كافٍ قليل، ولكن أي مجد يمكن مقارنته بالتحدث إلى الأصدقاء في عصر يوم مشمس؟ أي سلطة تملك قوة أكبر من الحاجة التي تدفعنا إلى الحب، والأكل، والشرب؟

ويقترح أبيقور: فلنجعل الحياة سعيدة في فناء الحياة هذا الذي لا مفر منه.

تأسيس عدم أمان المواطن

الديمقراطية الإغريقية كانت تحب الحرية، ولكنها تعيش على أسراها. فالعبيد والعبدات يحرثون الأرض، ويشقون الطرق، ويحفرون الجبال بحثاً عن الفضة والأحجار.

يشيدون البيوت، وينسجون الملابس، ويخيطون الأحذية.

يطبخون، ويغسلون، ويكنسون.

يصنعون رماحاً ودروعاً، وفؤوساً ومطارق.

يوفرون المتعة في الحفلات وفي المواخير

ويربون أبناء السادة.

العبد كان أرخص ثمناً من بغلة. والعبودية، موضوع مزدرى، نادراً ما يظهر في الشعر، أو في المسرح، أو في الرسوم التي تزين الأواني والجدران. وكان الفلاسفة يتجاهلونه، كما لو أنهم يفعلون ذلك للتأكيد أن هذا هو القدر الطبيعي للكائنات الدنيا، ولإشعال الحذر. احذروا منهم، كان أفلاطون يحذر. وكان يقول: لدى العبيد ميل لا مفر منه لكره سادتهم ولا يمكن إلا لحراسة دائمة أن تحول دون أن يقتلوننا جميعنا.

وكان أرسطو يؤكد أن التدريب العسكري للمواطنين ضروري ولا بد منه بسبب عدم الأمان السائد.

العبودية بحسب أرسطو

الكائن البشري الذي يتبع لآخر هو عبد بالطبيعة. فمن هو بشري وتابع لآخر هو سلعة مملوكة وأداة. العبد هو أداة حية، مثلما هي أداة العمل عبد جامد.

هناك بالطبيعة أصناف مختلفة من القادة والمرؤوسين. فالأحرار يأمرون العبيد، والرجال يأمرون النساء، والراشدون يأمرون الأطفال.

فن الحرب يتضمن حملات صيد الحيوانات المتوحشة والبشر الذين ولدوا ليكونوا مأمورين، ولا ينصاعون. وهذه الحرب عادلة بصورة طبيعية.

الخدمة البدنية لضرورات الحياة تأتي من العبيد والحيوانات المُدَّجنة. ولهذا كان حدس الطبيعة في تكييف جسد مختلف للإنسان الحر عن العبد.

حذار من احتفالات باكو

وفي روما أيضاً كان العبيد شمس كل يوم وكابوس كل ليلة. فالعبيد يمنحون الإمبراطورية الحياة والرعب.

حتى احتفالات باكو كانت تهدد الأمن، لأنه ليس هنالك في الطقوس الليلية حواجز بين العبيد والأحرار، والنبيذ يبيح ما يحظره النظام.

إخلال بالمراتب في العربدة: ذلك الاستسلام للأهواء والرذائل، كما يُعتقد، كما هو معروف، له علاقة كبيرة بثورات العبيد التي تندلع في الجنوب.

وروما لا تقف مكتوفة الذراعين. فقبل قرنين من المسيح، اتهم مجلس الشيوخ أتباع باكو بالتآمر، وكلف القنصلين مارسيوس وبوستوميوس بمهمة تصفية حفلات السكر والعربدة من جذورها في كافة أرجاء الإمبراطورية.

أنتيوكو ملكاً

كان سيده يستخدمه مهرجاً في المآدب.

وكان العبد أونوس يضع نفسه في مواقف حرجة، ويطلق من فمه دخاناً وناراً ونبوءات تُضحك المدعوين.

في واحدة من تلك المآدب، وبعد النشوة وألسنة اللهب، أعلن أونوس بوقار أنه سيكون ملك هذه الجزيرة. صقلية ستكون مملكتي، قال، وقال إن الربة ديميترا أخبرته بذلك.

ضحك المدعوون حتى تدحرجوا على الأرض.

بعد أيام من ذلك، صار العبد ملكاً. فبينما هو يطلق الحرائق من فمه، ذبح سيده وأطلق العنان لتمرد رهيب قام به العبيد الذين هاجموا قرى ومدناً وتوجوا أونوس ملكاً على صقلية.

الجزيرة اشتعلت. والعاهل الجديد أمر بقتل جميع أسراه، باستثناء من يتقنون صناعة الأسلحة. وصكّ عملة طُبع عليها اسمه الجديد أنتيوكو إلى جانب رسم الربة ديميترا.

استمرت المملكة أربع سنوات، إلى أن هُزم أنتيوكو بالخيانة، وسُجن وأكله القمل.

بعد نصف قرن من ذلك جاء سبارتاكوس.

سبارتاكوس

كان راعياً في تراقيا، وجندياً في روما، ومصارعاً في كابوا. كان عبداً هارباً. هرب مسلحاً بسكين مطبخ، وعند قدمي بركان فيزوف أسس فرقة رجاله الأحرار التي تنامت في مسيرها وصارت جيشاً.

وذات صباح، اثنان وستين عاماً قبل المسيح، اهتزت روما. رأى الرومان أن رجال سبارتاكوس يرونهم. فقد استيقظت قمم الهضاب وهي مكللة بالرماح. ومن هناك في الأعلى، كان العبيد يتأملون معابد وقصور المدينة الملكة، من تمتلك العالم تحت إمرتها: إنها في متناول أيديهم، تلامسها أعينهم، المدينة التي انتزعت أسماءهم وذاكرتهم وحوّلتهم إلى أشياء يمكن أن تُجلد، وأن تُهدى أو تباع.

الهجوم لم يحدث. لم يُعرف قط إن كان سبارتاكوس وجماعته قد وصلوا إلى هناك، إلى ذلك القرب،أم أن ذلك كله لم يكن إلا سراب الخوف. لأن العبيد في تلك الأيام كانوا يوجهون ضربات مهينة إلى الفيالق الرومانية. سنتان استمرت حرب العصابات تلك التي وضعت الإمبراطورية على شفير الهاوية.

وأخيراً، جرت محاصرة المتمردين في جبال لوكانيا، وتمت تصفيتهم على يد الجنود الذين جندهم في روما عسكري شاب يدعى يوليوس قيصر.

عندما وجد سبارتاكوس نفسه مهزوماً، أسند رأسه إلى رأس حصانه، جبهته ملتصقة بجبهة رفيقه في كل المعارك، وأغمد فيه سكينه الطويلة وقطع رأسه.

النجارون نصبوا صلباناً جديدة على امتداد طريق أبيا، من كابوا حتى روما.

روما تور

العمل اليدوي كان من شؤون العبيد.

ومع أن العمال المأجورين والحرفيين لم يكونوا عبيداً، إلا أنهم كانوا يمارسون مهناً خسيسة.

سيشرون الذي كان يمارس مهنة المرابي النبيلة، قام بتحديد الدرجات المهنية:

- أقل المهن شرفاً هي التي تخدم الشراهة، مثل صانع السجق، وبائع الطيور أو الأسماك، والطاهي...

أكثر الرومان احتراماً هم سادة الحرب، والذين نادراً ما يخوضون غمارها، ومالكي الأرض، الذين نادراً ما يلمسونها.

وكون المرء فقيراً هو ذنب لا يغتفر. ومن أجل مداراة هذا العار، كان الأثرياء الذين ينحدرون يعمدون إلى الاستدانة، وإذا ما حالفهم الحظ ينجحون في الحياة السياسية التي يمارسونها لمصلحة دائنيهم.

بيع الخدمات الجنسية كان المصدر الثاني للثروة. وكذلك بيع الخدمات السياسية والوظائف. وكان النشاطان كلاهما يحملان التسمية نفسها. فأرباب الدعارة ومحترفو اللوبي كانوا يسمون proxenetas.

يوليوس قيصر

كانوا يسمونه الأصلع الداعر، ويقولون إنه كان زوج جميع النساء وامرأة جميع المتزوجين.

مصادر واسعة الإطلاع تؤكد أنه ظل معتكفاً عدة شهور في مخدع كليوباترا، دون أن يطل منه بأنفه.

ومعها هي، غنيمته، رجع إلى روما قادماً من الإسكندرية. وفي تتويج لحملاته الظافرة في أوروبا وأفريقيا، قدم التكريم لأمجاده الخاصة بإرساله إلى الموت حشوداً من المصارعين، وعرضه لزرافات وغرائب أخرى أهدته إياها كليوباترا.

ألبسته روما الأرجوان، الرداء الوحيد بهذا اللون في الإمبراطورية كلها، وأحاطت جبهته بتاج الغار. وفرجيل، الشاعر الرسمي، أنشد لسلالته الإلهية المتحدرة من إينياس ومارس وفينوس.

وبعد قليل، من قمة القمم، نُصّب دكتاتوراً مدى الحياة، وأعلن عن إصلاحات تهدد امتيازات طبقته التي لا تُمس.

وجماعته من النبلاء، قررت أن الوقاية خير من العلاج.

أحيط كليّ السلطة، المؤشر عليه للموت، بالمقربين الحميمين وصديقه المحبب ماركو بروتوس الذي ربما كان ابنه، والذي احتضنه في العناق الأول، وغرس في ظهره الخنجر الأول.

ثم طعنته خناجر أخرى وارتفعت حمراء نحو السماء..

وظل الجسد ملقى هناك، على الأرضية الحجرية، فحتى عبيده أنفسهم لم يتجرؤوا على حمله.

ملح هذه الإمبراطورية

في العام ٣١ قبل المسيح، أطلقت روما الحرب ضد كليوبترا وماركو أنطونيو، وريث يوليوس قيصر في الشهرة وفي الفراش.

عندئذ رشا الإمبراطور أوغسطين الرأي العام بإهداء الملح.

كان النبلاء قد منحوا العامة حق الملح، لكن أوغسطين زاد الجرعة.

كانت روما تحب الملح. ودائماً كان هناك ملح، ملح صخري أو بحري، على مقربة من المدن التي يؤسسها الرومان.

طريق الملح هي التسمية التي أُطلقت على أول طريق إمبراطوري شق لإحضار الملح من شواطئ أوستيا، وكلمة أجر (salario) مشتقة من دفع الملح (sal) الذي كان جنود الفيالق الرومانية يتلقونه أجراً خلال الحملات العسكرية.

كليوباترا

كانت وصيفاتها يحممنها بحليب الأتان والعسل.

وبعد دهنها بعصارة الياسمين والزنبق وزهر العسل، يمددن جسدها العاري على وسائد من الحرير محشوة بالريش.

على جفنيها المغمضين توضع شرائح رقيقة من الصَّبر. وعلى الوجه والعنق لزقات من مرارة الجاموس، وبيض النعام وشمع النحل.

وعندما تستيقظ من قيلولتها، يكون القمر في السماء.

تضمخ الوصيفات يديها بالورد ويعطرن قدميها بأكسير لوز وزهر برتقال. إبطاها يعبقان بأريج الليمون والقرفة، وتمور الصحراء تمنح شذى لشعرها اللامع بزيت الجوز.

ثم يأتي دور المكياج. مسحوق جداجد يلون خديها وشفتيها. الكحل يرسم حاجبيها. ويلون اللازورد والدهنج قناع ظلال زرقاء وأخرى خضراء حول عينيها.

وفي قصرها في الإسكندرية، تدخل كليوباترا ليلتها الأخيرة.

الفرعونة الأخيرة،
من لم تكن باهرة الجمال كما يقولون،
من كانت ملكة أفضل مما يقال عنها،
من كانت تتكلم عدة لغات وتفهم في الاقتصاد وشؤون ذكورية أخرى،
من بهرت روما،
من تحدت روما،
من تقاسمت الفراش والسلطة مع يوليوس قيصر وماركو أنطونيو،
ترتدي الآن أشد ملابسها إبهاراً وتجلس ببطء على عرشها، بينما القوات الرومانية تتقدم ضدها.
يوليوس قيصر قد مات، وماركو أنطونيو مات.
الدفاعات المصرية تتهاوى.
كيلوباترا تأمر بفتح سلة القش.
ترن ذات الأجراس.
تنسل الأفعى.
وتفتح ملكة النيل رداءها وتقدم لها نهديها العاريين، اللامعين بمسحوق الذهب.

أساليب مضادة للحمل مؤكدة علمياً

في روما، نساء كثيرات كنّ يتجنبن إنجاب الأبناء بالعطاس فور الانتهاء من ممارسة الحب، غير أن المحترفات كنّ يفضلن هز أردافهن في لحظة الذروة، من أجل تشتيت البذور. وروى بلينيو العجوز أن النساء الفقيرات كنّ يتجنبن الحبل بأن يعلقن حول أعناقهن، قبل الفجر، تميمة مصنوعة من ديدان مستخرجة من رأس عنكبوت كثيفة الشعر وملفوفة بقطعة من جلد أيل. ونساء الطبقة الراقية يتقين الحَبَل بحمل أنبوب صغير من العاج يحتوي قطعة من رحم لبؤة أو كبد قط.

بعد زمن طويل من ذلك، كانت المؤمنات في إسبانيا يرتلن صلاة معصومة عن الخطأ:
يا قديس يوسف، يا من أنجبت دون فعل
اجعلني أفعل دون إنجاب.

شو بزنس

صمتاً. الكهنة يستشيرون الآلهة. ينتزعون أحشاء ثور أبيض، يقرؤون جوفه. وفجأة تصدح الموسيقى، ويتعالى الهتاف: أجل، الآلهة تقول نعم، فهم أيضاً يرغبون بجنون في أن تبدأ الحفلة فوراً.

المصارعون، أي من سيموتون، يرفعون أسلحتهم متوجهين نحو شرفة الإمبراطور. إنهم عبيد، أو جناة محكوم عليهم بالموت؛ ولكن بعضهم يأتون من المدارس حيث يدربونهم لوقت طويل من أجل حياة احترافية قصيرة تستمر حتى اليوم الذي يشير فيه الإمبراطور نحو الأرض بإصبعه الإبهام.

وجوه أوسع المصارعين شعبية، المرسومة على أحجار كريمة وعلى لوحات تذكارية وعلى أوانٍ منزلية كانت تباع كما يباع الخبز الساخن على المدرجات، بينما الحشود المصابة بالجنون تضاعف المراهنات وتصرخ بالشتائم والتحيات المشجعة.

يمكن للعرض أن يستمر عدة أيام. ورجال الأعمال الخاصون يتقاضون رسوم الدخول، بأسعار غالية؛ ولكن السياسيين يقدمون في بعض الأحيان استعراض المجزرة مجاناً. عندئذ تغطي المدرجات مناديل ويافطات تحث على التصويت للمرشح صديق الشعب، والوحيد الذي ينفذ ما يعد به.

سيرك رمل، وحساء دم. مسيحي يدعى تيليماكو استحق القداسة لأنه ألقى بنفسه إلى الرمل ووقف بين مصارعين كانا في ذروة الصراع حتى الموت. حوّله الجمهور إلى هريس، مزقه بالحجارة، لأنه قطع عليه الاستعراض.

صورة أسرة من روما

خلال ثلاثة قرون كانت روما هي الجحيم، وكان أباطرتها هم الشياطين الذين ألقوا بالمسيحيين إلى الوحوش الجائعة على رمال الكولسيوم. الشعب كان سعيداً. فلا أحد يريد أن يضيع على نفسه تلك الولائم.

وفقاً لمؤرخي هوليود، نيرون كان أسوأ الجميع. يقولون إنه هو من صلب القديس بطرس الرسول مقلوباً، ويقولون إنه أحرق روما كي يلقي المسؤولية على المسيحيين. وأنجز التقليد الإمبراطوري بإبادة أسرته.

فقد طبق تطهيراً على خالته ليبيدا التي ربته، وبفطر مسموم قال وداعاً إلى الأبد لأخيه غير الشقيق بريتانكو.

وبعد أن تزوج أوكتافيا، أخته من أمه، نفاها وأرسل من يخنقها. وبينما هو أرمل وطليق، استطاع أن يغني بأعلى صوته بجمال بوبيا التي جعلها إمبراطورة إلى أن تعب وألقى بها إلى العالم الآخر بركلة من قدمه.

كانت أغريبينا هي الأشد عصياناً على القتل. كان نيرون ممتناً لها لأنه ثمرة بطنها ولأنها سممت الإمبراطور كلاوديو، زوجها، كي يتمكن هو، ابنها، من الصعود إلى العرش. ولكن أغريبينا، الأم العشيقة جداً، لم تكن تتيح له أن يحكم، وعند أدنى سهو تندس في فراشه متظاهرة بالنوم. لقد تكلف مشقة كبيرة في إزاحتها عن كاهله. ولحسن الحظ أنه لا وجود إلا لأم واحدة. دعاها نيرون إلى شراب فتاك، مجرب مسبقاً على عبيد وحيوانات، وقوض السقف فوق فراشها، ثقب لها قعر السفينة... وأخيراً تمكن من بكائها.

بعد ذلك أمر بقتل روفو كريسبينو، ابن بوبيا الذي كان يلعب أنه إمبراطور.

وبغرس سكين في عنقه بالذات، انتهى مع آخر قريب تبقى له.

الشاعر الذي سخر من روما

كانت إسبانيا هي الأرض التي ولد ومات فيها، ولكن الشاعر مارسيال عاش وكتب في روما.

كانت أزمنة نيرون، وكانت شائعةً الباروكات المصنوعة من شعر البرابرة، وهي التسمية التي كانوا يطلقونها على الألمان آنذاك:

هذا الشعر الأشقر هو شعرها.
إنها تقول ذلك، وليست كاذبة.
فأنا أعرف من أين اشترته.

والأهداب المستعارة:

مازلتِ تغمزين بالعين تحت جفن
أخرجتِه من علبة هذا الصباح.

وكان الموت، مثلما هو الآن، يُحسن من حالة الشعراء:

لا يمتدح إلا الموتى.
أنا أفضل البقاء
حياً ودون مديح.

وكان يمكن للزيارة الطبية أن تكون قاضية:

لم أكن محموماً حين جئتني.
أُصبتُ بها عندما رأيتني.

وكان يمكن للعدالة أن تكون جائرة:

من نصحكِ بقطع أنف الزاني؟
فهو لم يخنكِ بطرفه هذا.

علاج بالضحك

اسمه منح اسماً لمهنته.
بدأ غالينو بعلاج جراح المصارعين وانتهى ليكون طبيب الإمبراطور ماركو أوريليو.
آمن بالتجربة ولم يثق بالتأمل النظري:
- أفضل الطريق الطويل والشاق على الدرب القصير والسهل.
في سنوات عمله مع المرضى، تأكد من أن العادة هي طبيعة ثانية وأن الصحة والمرض هما أسلوبان في الحياة: المرضى ذوو الطبيعة المرضية، ينصحهم بتبديل عاداتهم.
اكتشف أو وصف مئات العلل والعلاجات، وبتجريب الأدوية ثبت له:
- لا وجود لدواء أفضل من الضحك.

نكات

تكلم الأندلسي أدريانو، إمبراطور روما، إلى روحه حين علم أن ذلك الصباح سيكون صباحه الأخير:

روحي، أيتها الصغيرة،
متشردة وهشة،
نزيلة بدني ورفيقته،
إلى أين ستذهبين الآن؟
إلى أي أماكن شاحبة، قاسية، قاحلة، ستذهبين؟
لن تروي بعد الآن مزيداً من النكات.

العالم مقلوباً يسخر من العالم

كانت الرومانيات يتمتعن بيوم من السلطة المطلقة. فهن من يأمرن في يوم عيد ماترونال، ويرتضي الرجال أن يُأمروا.
واحتفالات أيام ساتورن، وريثة أعياد ساس في بابل القديمة، كانت تستمر أسبوعاً، ومثل عيد ماترونال، كانت طريقة في قلب العالم معكوساً للتنفيس. إنه قلب للمراتب: الأغنياء يخدمون الفقراء الذين يقتحمون بيوتهم، ويرتدون ثيابهم، ويأكلون على موائدهم، وينامون في فراشهم. أيام ساتورن هي تكريم لإله الازدهار ساتورنو، ينتهي يوم ٢٥ كانون الأول.

وكان يوم "الشمس التي لا تُهزم"، وهو اليوم الذي تحول بعد قرون إلى عيد الميلاد بقرار كاثوليكي.

خلال العصور الوسطى الأوروبية، كان يوم "القديسين الأبرياء" يمنح السلطة للأطفال والمجانين والمعتوهين. ففي إنكلترا كان يحكم لورد إساءة الحكم، أي سيد اللاحكم، وفي إسبانيا يتنافس على التاج ملك الديوك وملك الخنازير اللذان يعيشان في مستشفى المجانين. ويؤدي طفل مزين بتاج أسقفي وعصا أسقفية دور بابا المجانين ويجعل الناس يقبّلون خاتمه، بينما طفل آخر، يمتطي حماراً، يلقي مواعظ مطران.

وكما هي كل احتفالات العالم المقلوب، هنالك لفسحات الحرية العابرة هذه بداية ونهاية. وهي تدوم قليلاً. فحيث يأمر قبطان لا يمكن أن يأمر بحار.

الضحك ممنوع

الاحتفالات القديمة بمواسم الطبيعة، صارت تسمى الآن عيد الميلاد وأسبوع الفصح، ولم تعد تكريماً لآلهة وثنية، وإنما هي طقوس عبادة وقورة للإله الذي احتل أيامهم واستولى على رموزهم.

عيد هيلاريا الذي ورثته روما أو اخترعته، كان يحيي مجيء الربيع. وكانت الربة سيبيل تستحم في النهر مستدعية المطر والخصوبة للحقول، بينما الرومان يرتدون ملابس غريبة الأشكال والألوان، ويتدحرجون من الضحك. الجميع يمسك بشعر الجميع، ولا يكون في العالم أحد أو شيء غير مضحك.

احتفالات الضحك والفرح الصاخب هذه التي كانت تحتفي بانبعاث الربيع، صارت بقرار من الكنيسة الكاثوليكية تتوافق في شهر آذار من كل عام، بزيادة يوم أو نقصان يوم، مع انبعاث يسوع الذي لا تسجل الأناجيل أنه ضحك مرة واحدة.

وبقرار من الكنيسة، بُني الفاتيكان بالتحديد في المكان الذي كانت حفلة السعادة تصل فيه إلى ذروتها. وهناك، في الميدان الفسيح حيث كانت تتردد قهقهات الحشود، يُسمع الآن صوت البابا المهيب يرتل صفحات من الكتاب المقدس، الكتاب الذي لا يضحك فيه أحد على الإطلاق.

الألوهية الباسمة

صوره تمثله باسماً، هازئاً بجدية، كما لو أنه يسخر من التناقضات التي وسمت حياته وما بعدها.

لم يؤمن بوذا بآلهة، ولم يؤمن بأنه إله، لكن أتباعه أَلَّهوه.

لم يؤمن بوذا بمعجزات، ولم يمارسها، لكن أتباعه نسبوا إليه قدرات إعجازية.

لم يؤمن بوذا بأية ديانة، ولم يؤسس ديناً، لكن مرور الزمن حوّل البوذية إلى إحدى الديانات الأكبر عدداً في العالم.

بوذا ولد على ضفاف نهر الغانج، ولكن البوذيين لا يشكلون واحداً بالمئة من أهالي الهند.

بوذا وعظ بالرواقية، وبالتخلي عن العاطفة، وإنكار الشهوات، ولكنه مات من النهم بلحم الخنزير.

أب لا يضحك أبداً

اليهود والمسيحيون والمسلمون يعبدون الإله نفسه. رب التوراة الذي له ثلاث تسميات: يهوه، والرب، والله، حسب تسمية كل فئة منهم. واليهود والمسيحيون والمسلمون يقتتلون في ما بينهم قائلين إنهم يستجيبون لأوامره.

الآلهة في ديانات أخرى كثيرون، أو كانوا كثيرين. كانت هناك، أو مازالت توجد، جبال أولمب كثيرة في اليونان، والهند، والمكسيك، والبيرو، واليابان، والصين. ومع ذلك فإن إله التوراة غيور. غيور ممن؟ ولماذا يهتم كثيراً بالمنافسة إذا كان هو الوحيد والحقيقي؟

لا تركع أمام إله آخر، لأن يهوه يدعى غيوراً، إنه رب غيور. (الخروج)

لماذا يعاقب الأبناء، ولأجيال عديدة، على عدم وفاء الآباء؟

أنا، يهوه، ربك، أعاقب إثم الآباء في الأبناء وأبناء الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع لمن يكرهونني. (الخروج)

ولماذا هو غير واثق على الدوام؟ لماذا لا يثق بمؤمنيه؟ لماذا عليه أن يتوعدهم كي يطيعوه؟ يتكلم بصوت حي ومباشر، أو بفم الأنبياء، محذراً:

إذا لم تطع صوت يهوه، ربك، هو سيجرحك بالتجربة، بالحمى، بالالتهاب، بالغنغرينة، بالقحولة. تتزوج امرأة ورجل آخر يجعلها له. غبار ورمل سيكون مطر أرضك. ترمي في حقولك بذوراً كثيرة، ولكن الجراد يذروها. ستزرع كروماً ولكنك لن تشرب نبيذاً، لأن

الدود سيأكلها. ستعرضون أنفسكم للبيع عبيداً وعبدات لأعدائكم، ولكن لن يكون ثمة مشترٍ. (التثنية)
ستة أيام تعمل، أما اليوم السابع فيكون مقدساً لكم، يوم راحة كامل تكريماً ليهوه. ومن يعمل في هذا اليوم موتاً يموت. (خروج)
من يجدف باسم يهوه يموت. المجتمع كله يرجمه. (لاويين)
العقوبات أشد فعالية من المكافآت. والتوراة هو كتالوج مرعب من العقوبات ضد غير المؤمنين:
سأفلتُ عليكم الضواري المتوحشة. سأجلدكم سبع مرات أخرى على خطاياكم. ستأكلون لحم أبنائكم، ستأكلون لحم بناتكم. سأستل السيف ضدكم. أرضكم ستكون بوراً ومدنكم خراباً. (لاويين)
هذا الإله الغاضب دائماً يسيطر على عالم أزمنتنا عن طريق الديانات الثلاث. ليس إلهاً شديد اللطف، إذا صح لنا هذا القول:
رب غيور ومنتقم، يهوه، غني بالغضب! ينتقم من خصومه، يحقد على أعدائه. (ناحوم)
وصاياه العشر لا تحرم الحرب. ولكنه بالمقابل يأمر بشنها. وحربه هي حرب لا ترحم أحداً، ولا حتى الأطفال الرضع:
لا تأخذك الشفقة بشعب أماليك، ستقتل الرجال والنساء، الأطفال والرضع، الجواميس والأغنام، الجمال والحمير... (صموئيل)
يا ابنة بابل المدمرة: طوبى لمن يمسك صغارك ويضربهم بالصخر! (مزامير)

الابن

لا أحد يدري كيف أمكن ليهوه، الرب الأوحد الذي لم يمارس الحب قط، أن يكون أباً لابن.
حسب الأناجيل، الابن جاء إلى الدنيا عندما كان هيرودس يحكم الجليل. ولأن هيرودس مات قبل أربع سنوات من بدء التقويم المسيحي، فلا بد أن يكون يسوع قد ولد قبل أربع سنوات على الأقل من المسيح.
لم يُعرف في أي عام، ولا في أي يوم، ولا في أي شهر. أمضى يسوع قرابة أربعة قرون دون عيد ميلاد، إلى أن قدم له القديس غريغوريو ناسيانسينو، في العام ٣٧٩، شهادة ميلاد. فكان أن يسوع قد ولد في الخامس والعشرين من كانون الأول. وهكذا تبنت الكنيسة الكاثوليكية، مرة أخرى، شهرة الوثنيات. فوفق التقاليد الوثنية، كان هذا اليوم هو يوم بدء الشمس المقدسة طريقها ضد

الليل، عبر ظلمات الشتاء.

أياً يكن يوم مولده، المؤكد هو أنه لم يجرِ الاحتفال في ليلة السلام الأولى تلك، ليلة المحبة، بكل هذه المفرقعات الحربية التي تصم الآن آذاننا. ومن المؤكد أنه لم تكن هناك أيقونات تعرض الطفل الوليد بتجعدات شعر أشقر لم يكن عليها ذلك الطفل؛ كما أنه لم يكن هناك ثلاثة أشخاص، ولم يكونوا ملوكاً، ولم يكونوا مجوساً، أولئك الملوك المجوس الثلاثة الذاهبين إلى المذود في بيت لحم، وراء نجمة رحالة لم يرها أحد قط. ومن المؤكد أيضاً أن يوم عيد الميلاد الأول ذاك الذي جاء بأخبار سيئة لتجار الهيكل، لم يكن ولم يشأ أن يكون نذير مبيعات استعراضية هائلة لتجار العالم.

مطلوب

اسمه يسوع

يدعونه مسيح

لا مهنة له ولا محل إقامة

يقول إنه ابن الرب، ويقول أيضاً إنه نزل من السماء ليُشعل العالم.

قاطع طريق من الصحراء، يمضي مهيجاً القرى.

يتبعه فاسدون، وأشرار، وأناس حياة خبيثة.

يعد البائسين والعبيد والمجانين والسكارى والعاهرات بالفردوس.

يخدع الرعاع بشفاء البرص وتكثير الخبز والسمك، وبأعمال سحر وشعوذات أخرى.

لا يحترم القانون الروماني ولا التقاليد اليهودية.

وقد عاش على الدوام خارج القانون.

ومنذ ثلاثة وثلاثين عاماً يمضي هارباً من حكم بالموت صدر عليه عند ولادته. الصليب ينتظره.

انبعاث يسوع

حسب ما يرويه هنود قبيلة ماثاتيكو في أواكساكا (المكيسك)، صُلب المسيح لأنه جعل الفقراء والأشجار يتكلمون.

ويروون أنه بعد أن تألم كثيراً، أنزلوه عن الصليب.

وأنه كان مدفوناً، ينام موته، عندما بدأ جدجد يصدح.

أيقظه الجدد.

وقال يسوع إنه يريد الخروج من الموت.
الجدجد أخبر الخلد، فحفر طريقاً طويلاً تحت الأرض حتى وصل إلى التابوت الذي وضعوه فيه.
وطلب الخلد مساعدة الفأر، ففتح التابوت بأسنانه الحادة.
وخرج يسوع.
وبإصبع واحد أزاح الصخرة الضخمة التي وضعها الجنود فوقه.
وقدم الشكر إلى الجدجد والخلد والفأر الذين كانوا أخياراً جداً.
وصعد إلى السماء، مع أنه بلا أجنحة.
وفوق قبره ترك الصخرة الهائلة طافية في الفضاء، وفوقها يجلس ملاك.
والملاك روى هذا كله لدونيا مريم، أم يسوع.
ودونيا مريم لم تستطع حفظ السر، فتحدثت فيه مع جاراتها في السوق.
ومن خلالها عُرف السر.

مريمان

في الأناجيل لا تظهر مريم إلا قليلاً.
ولم تولها الكنيسة اهتماماً كبيراً أيضاً إلى ما قبل نحو ألف عام. وعندئذ كُرست أمُ يسوع أماً للبشرية ورمزاً للطهارة والإيمان. ففي القرن الحادي عشر، بينما كانت الكنيسة تخترع المطهر والاعتراف الإجباري، ظهرت في فرنسا ثمانون كنيسة وكاتدرائية تكريماً لمريم.
الشهرة أتت من العذرية. فمريم التي غذَّاها الملائكة، وحبلت من خلال حمامة، لم تمسسها يد رجل قط. وزوجها القديس يوسف كان يحييها من بعيد. وقد صارت أكثر قداسة منذ العام ١٨٥٤، عندما كشف البابا بيو التاسع، المعصوم، أنه قد حُبل بمريم دون خطيئة، وهذا يعني عند ترجمته بأن أم العذراء كانت عذراء أيضاً.
مريم هي اليوم الإلوهية الأوسع تأليهاً ومعجزات في العالم. حواء أدانت النساء. ومريم افتدتهن. وبفضلها صار بإمكان الخاطئات، بنات حواء، نيل فرصة الندم والتوبة.
وهذا ما حدث لمريم الثانية التي تظهر في الرسوم الدينية أسفل الصليب المقدس، إلى جانب الطاهرة.
وحسب الرواية التقليدية، فإن مريم الأخرى هذه، مريم المجدلية، كانت بغياً وتحولت إلى قديسة.
المؤمنون يذلونها بالصفح عنها.

انبعاث مريم

مريم ولدت من جديد في تشياباس، بالمكسيك.

بشر بها هندي من قرية سيموخوفيل، كان ابن عم لها، وناسك ليس قريباً لها يعيش داخل شجرة في تشامولا.

وفي قرية سانتا مارتا شولوتيبيك، كانت دومينيكا لوبيث تجني محصول الذرة عندما رأتها. فطلبت منها أم يسوع أن تبني لها صومعة، لأنها متعبة من النوم في البرية. استجابت لها دومينيكا. ولكن المطران جاء بعد أيام واقتاد دومينيكا ومريم وجميع الحجاج سجناء.

عندئذ هربت مريم من السجن، وأتت إلى قرية كانكوك وتكلمت بفم طفلة تدعى مريم أيضاً.

هنود المايا التزيلتاليين لم ينسوا ما قالته. لقد تكلمت بلغتهم، وبصوت مبحوح أمرت:

ألا تنكر النساء شهوة أجسادهن، لأن ذلك يُسعدها.

وأن تعود النساء الراغبات إلى الزواج من أزواج آخرين، لأن الزيجات التي عقدها لهن الكهنة الإسبان لم تكن جيدة.

وأنه قد اكتملت نبوءة هز النير واسترداد الأرض والحرية، وأنه لم تعد هناك ضرائب، ولا ملك، ولا مطران، ولا عمدة أعلى.

استمع مجلس المسنين إليها وأطاعها. وفي العام ١٧١٢، انتفضت اثنتان وثلاثون قرية هندية بالسلاح.

تأسيس سانتا كلوز

في صورته الأولى المنشورة عام ١٨٦٣ في مجلة "هربرز"، في نيويورك، كان سانتا كلوز عفريتاً بديناً يدخل من مدخنة. ولد على يد الرسام توماس ناست، باستلهام مبهم لأساطير القديس نيقولا.

في أعياد الميلاد عام ١٩٣٠، تعاقد سانتا كلوز مع كوكا كولا. وحتى ذلك الحين لم يكن له زي محدد، وعموماً كان يفضل الملابس الزرقاء والخضراء. الرسام هابدون سيدبلوم ألبسه ألوان الشركة، أحمر قانٍ مع حواشٍ بيضاء، ومنحه الملامح التي صرنا جميعنا نعرفها. لصديق الأطفال لحية بيضاء، ويضحك على الدوام ودون توقف، يسافر في زلاجة، وهو بدين إلى حدّ لا يُعرف معه كيف يتدبر أمره للدخول من مداخن العالم محملاً بالهدايا وفي يده علبة كوكا كولا.

ولا يُعرف كذلك ما هي علاقته بيسوع.

تأسيس الجحيم

اخترعت الكنيسة الكاثوليكية الجحيم، واخترعت كذلك الشيطان.

العهد القديم لا يأتي على ذكر سفود الشواء الأبدي هذا، ولا يظهر في صفحاته ذلك المسخ الذي تنبعث منه رائحة الكبريت، ويحمل حربة ثلاثية الرؤوس، وله قرنان وذيل، ومخالب وأظلاف، وقائمتي تيس وجناحي تنين.

ولكن الكنيسة تساءلت: ماذا سيكون مصير الثواب دون العقاب؟ ماذا سيكون مصير الانصياع دون خوف؟

وتساءلت: ماذا سيحل بالرب دون الشيطان؟ وماذا سيحل بالخير دون الشر؟

وتبين للكنيسة أن التهديد بالجحيم أشد فعالية من الوعد بالفردوس، ومنذ ذلك الحين يخيفنا أحبارها وآباؤها القديسون بإنذارنا بعذاب النار في مهاوٍ يسود فيها الشرير.

في العام ٢٠٠٧ أكد ذلك البابا بيندكت السادس عشر:

- الجحيم موجود. وهو أبدي.

برسليانو

وانقضى زمن الكوارث.

وفي الكوليسيوم، صار المسيحيون هم من يأكلون الأسود.

صارت روما هي العاصمة الكونية للإيمان، وصارت الديانة الكاثوليكية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية.

وفي العام ٣٨٥، عندما أدانت الكنيسة الأسقف برسليانو وأتباعه، كان الإمبراطور الروماني هو من ذبح أولئك الهراقطة.

تدحرجت الرؤوس على الأرض.

كان مسيحيو الأسقف برسليانو مذنبين:

إنهم يرقصون ويغنون ويحتفون بالليل وبالنار.

يحولون القداس إلى حفلة وثنية على الطريقة الغاليسية، تلك الأراضي المريبة التي ولد هو نفسه فيها.

يعيشون في جماعة وبفقر.

يمقتون تحالف الكنيسة مع الأقوياء المتسلطين.

يستنكرون العبودية. ويسمحون للنساء بالوعظ، كما الكهنة.

هيباتيا

- إنها تمضي مع أي كان - كانوا يقولون لتلويث حريتها.

- لا تبدو امرأة - كانوا يقولون راغبين في امتداح ذكائها.

ولكن العديد من الأساتذة، والقضاة، والفلاسفة، والسياسيين كانوا يأتون من بعيد إلى مدرسة الإسكندرية ليستمعوا إلى كلماتها.

كانت هيباتيا تدرس الأحجيات التي تحدت إقليدس وأرخميدس، وتتكلم ضد الإيمان الأعمى، وتستنكر الحب الإلهي والحب البشري. وكانت تعلّم على الشك وعلى السؤال. وتنصح:

- دافع عن حقك في التفكير. فأن تفكر وتخطئ خير من ألا تفكر.

ما الذي تفعله هذه المرأة بإملاء الوعظ في مدينة مسيحيين كثر؟

أسموها ساحرة ومشعوذة، وهددوها بالموت.

وفي يوم من أيام منتصف آذار عام ٤١٥ انقض عليها الحشد. سُحبت من عربتها وعُريت وسُحلت في الشوارع وضُربت وطُعنت بالسكاكين. وفي الميدان العام، حملت المحرقة ما تبقى منها.
- سيُبحث الأمر - قال حاكم الإسكندرية.

تيودورا

كانت رافينا تدين بالولاء للإمبراطور جوستنيان والإمبراطورة تيودورا، بالرغم من أن الألسنة المشحوذة في المدينة كانت تستمتع باستذكار ماضي هذه المرأة المضطرب، ورقصها في بؤر الفساد في القسطنطينية، والبجعات تنقر بذور الشعير عن جسدها العاري، وتأوهات لذتها، وزمجرات الجمهور...

ولكن خطايا أخرى هي التي لم تكن مدينة رافينا المتزمتة قادرة على غفرانها لها. وقد ارتكبتها بعد تتويجها. فبسبب تيودورا، كانت الإمبراطورية المسيحية البيزنطية أول مكان في العالم اعتبر فيه الإجهاض حقاً.

ولم يكن الموت هو الحكم على الزنا.

وكان للنساء الحق بالوراثة.

وكانت تتوافر الحماية للأرامل وللأبناء غير الشرعيين.

وطلاق المرأة لم يكن مأثرة مستحيلة.

ولم يعد محظوراً زواج نبلاء مسيحيين من نساء طبقات أدنى أو ديانة مختلفة.

بعد ألف وخمسمئة عام من ذلك، صار رسم تيودورا في كنيسة سان فيتال هو أشهر لوحة فسيفساء في العالم.

هذا العمل البارع من الأحجار الصغيرة هو، أيضاً، رمز المدينة التي كانت تكرهها وصارت تعيش اليوم على سمعتها.

أوراكا

كانت أول ملكة على إسبانيا.

حكمت أوراكا سبعة عشر عاماً، لكن التاريخ الكنسي يقول إنها لم تكن أكثر من أربعة أعوام.

تطلقت من الرجل الذي فرضوه عليها، بعد أن ملت الإساءات والركلات، ولفظته من الفراش والقصر؛ ولكن التاريخ الكنسي يقول إنه هو من مقتها.

ولكي تعرف الكنيسة من الذي يحكم وتتعلم احترام التاج الأنثوي، حبست الملكة أوراكا أسقف سنتياغو دي كومبوستيلا في السجن وصادرت قلاعه، وهو أمر لم يُعرف له مثيل في تلك البلاد شديدة المسيحية؛ ولكن التاريخ الكنسي يقول إن ذلك كله لم يكن أكثر من فرقعة نزوة نسائية، تفقد رشدها بسرعة، وذهنها موبوء بطاعون سام.

كانت لها غراميات، وعلاقات حب عابرة، وعشاق، وقد احتفت بذلك كله بسعادة؛ ولكن التاريخ الكنسي يقول إنه كان سلوكاً من المخجل التحدث فيه.

أم رواة الحكايات

من أجل الانتقام من واحدةٍ خانته، راح الملك يذبحهن جميعاً.

عند الغسق يتزوج وعند الفجر يترمل.

واحدة بعد أخرى، تفقد العذراوات عذريتهن ورؤوسهن.

شهرزاد هي الوحيدة التي تمكنت من البقاء حية بعد الليلة الأولى، وبعد الليلة الثانية واصلت مقايضة حكاية مقابل كل يوم في الحياة.

تلك القصص التي كانت قد سمعتها، أو قرأتها أو تخيلتها، أنقذتها من قطع رأسها. كانت ترويها بصوت خافت، في عتمة المخدع، دون أي ضوء آخر سوى ضوء القمر. وبينما هي ترويها كانت تشعر بالمتعة، وتمنحها، ولكنها كانت حذرة جداً. ففي بعض الأحيان، وهي في أوج الحكاية، كانت تشعر أن الملك يتأمل نحرها.

إذا ما ملّ الملك، سوف تضيع.

من الخوف من الموت ولدت براعة القصّ.

بغداد

عاشت شهرزاد لياليها الألف وواحدة في قصر ببغداد، على ضفاف دجلة.

قصصها الألف وواحدة ولدت في تلك الأراضي أو جاءت من بلاد فارس أو جزيرة العرب، أو الهند، أو الصين أو تركستان، مثلما هي دكاكين الأسواق التي تجمع ألف أعجوبة وأعجوبة تأتي بها قوافل التجار من أماكن نائية.

كانت بغداد مركز العالم. وجميع الدروب، دروب الكلمات ودروب الأشياء، تمر من تلك المدينة ذات الميادين والنوافير، الحمامات والحدائق. وكذلك أشهر الأطباء والفلكيين والرياضيين كانوا يلتقون في بغداد، في أكاديمية للعلوم اسمها بيت الحكمة.

ومن هؤلاء كان محمد الخوارزمي، مؤسس علم الجبر الذي يدعى بهذا الاسم (álgebra) نسبة إلى أحد كتبه: الجبر، ومن لقبه اشتُقت كلمتي اللوغرتم والخوارزمية.

صوت النبيذ

كتب عمر الخيام رسائل في الجبر والغيب والفلك. وكان مؤلف قصائد سرية تنتقل عدواها، من فم لفم، عبر فارس كلها وما ورائها.

هذه القصائد تتغنى بالنبيذ، إكسير آثم تدينه السلطة الإسلامية.

السماء لم تعلم بمجيئي، يقول الشاعر، ومغادرتي لن تُقلل شيئاً من جمالها وعظمتها. القمر الذي سيبحث عني غداً، يواصل مروره حتى لو لم يجدني. سأنام تحت التراب، بلا امرأة ولا صديق. بالنسبة لنا، نحن البشر الفانين، الأبدية الوحيدة هي اللحظة الراهنة، وشرب اللحظة الراهنة أفضل من بكائها.

كان الخيام يفضل الخمارة على الجامع. لم يكن يخشى السلطة الأرضية ولا الوعيد السماوي، ويشعر بالشفقة على الله الذي لا يستطيع أن يسكر أبداً. الكلمة السامية لم تكن مكتوبة في القرآن، وإنما على حافة كأس الخمر؛ وهي لا تُقرأ بالعينين، وإنما بالفم.

الحروب الصليبية

على امتداد قرن ونصف القرن، أرسلت أوروبا ثمانية حملات صليبية باتجاه أرض الكفرة في الشرق.

الإسلام الذي يغتصب قبر يسوع المقدس، هو العدو البعيد. ولكن في أثناء ذلك، ولأن الطريق لا يزال أمامهم، ينتهز أولئك المحاربون الوقت لينظفوا خرائط أخرى.

الحرب المقدسة تبدأ من البيت.

الحملة الصليبية الأولى أحرقت الكنس ولم تترك يهودياً واحداً حياً في ماينز ومدن ألمانية أخرى.

الحملة الصليبية الرابعة خرجت متوجهة إلى أورشليم، ولكنها لم تصلها قط. فقد توقف المحاربون المسيحيون في القسطنطينية المسيحية، المدينة المرفهة، وخلال ثلاثة أيام وثلاث ليال نهبوها عن بكرة أبيها، دون أن يعفوا عن الكنائس والأديرة، وعندما لم تبق هناك نساء لاغتصابهن ولا قصور يفرغونها ظلوا هناك للاستمتاع بالغنيمة ونسوا الوجهة النهائية لحملتهم المقدسة.

بعد سنوات قليلة، في العام ١٢٠٩، حملة صليبية أخرى بدأت بإبادة فرنسيين في أرض فرنسية.

وصايا إلهية

نسبة غير الأميين لم تكن كبيرة بين أذرع الصليبيين المسلحة. وربما كان هذا هو السبب في أنهم لم يستطيعوا أن يقرؤوا ألواح موسى جيداً.

فقد قرؤوا أن الرب يأمر بأن يُذكر اسمه باطلاً، ففعلوا ما فعلوه باسم الرب. وقرؤوا أن الرب يأمر بالكذب، فخانوا تقريباً كل الاتفاقيات التي وقعوها في حروبهم المقدسة ضد الكفرة.

قرؤوا أن الرب يأمر بالسرقة، فنهبوا كل شيء وجدوه في طريقهم نحو الشرق، محتمين براية الصليب ومباركة البابا الذي ضمن لهم غفران شكوكهم والخلاص الأبدي.

قرؤوا أن الرب يأمر باقتراف مآثر جسدية، فلم تنجز قوات الرب هذا الواجب فقط مع المومسات الكثيرات المحترفات المتعاقدات مع جيش المسيح، وإنما كذلك مع الأسيرات الكافرات اللاتي كن يشكلن جزءاً من الغنائم.

وقرؤوا أن الرب يأمر بالقتل، فذبحوا بلدات عن بكرة أبيها، دون أن يعفوا عن الأطفال: كواجب مسيحي، من أجل تطهير تلك الأراضي الملوثة بالهرطقة، أو لمجرد الضرورة، مثلما هي حال الملك ريتشارد قلب الأسد الذي لم يجد مفراً من ذبح أسراه لأنهم يعرقلون مسيرته.

- كانوا يخوضون في الدم وهم سائرون - هذا ما يرويه شاهد عيان.

مولع بالفرنسيات

كان عماد الدين الذراع اليمنى للسلطان صلاح الدين. وكان فضلاً عن ذلك شاعراً واسع المخيلة.

وقد وصف الثلاثمئة غانية فرنسية اللاتي رافقن محاربي حملة يسوع الصليبية الثالثة على النحو التالي:

جميعهن كن فاسقات متماديات، مترفعات ولعوبات، يأخذن ويعطين، ذوات أجساد متينة وخاطئة، غانيات ومتغنجات، عاميات ولكنهن متكبرات، ناريات، عاطفيات، مصبوغات ومتبرجات، مشتهيات، شهيات، لذيذات، ظريفات، يفتقن ويرتقن، يدمرن ويبنين، يضيعن ويعثرن، يسرقن ويواسين، مغويات بتعهر، فاترات ورخيات، مرغوبات وراغبات، ضالات ومُضَلّلات، متبدلات، مجربات، مراهقات فاتنات، ودودات، يعرضن أنفسهن، عاشقات، مولهات، بلا حياء، عجائزهن وافرة، وأفخاذهن ممتلئة، عيونهن سوداء أو زرقاء أو رمادية. وهنّ ضالات.(*)

---

* وجدنا في «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» لأبي شامة، ذكر لهذه الواقعة

شاعر متنبئ

كان ورثة محمد منهمكين في الصراع في ما بينهم، سنة ضد شيعة، بغداد ضد القاهرة، والعالم الإسلامي يتجزأ إلى قطع صغيرة يكنّ بعضها العداء للبعض. كان الجيش الإسلامي ينفرط في حروب ضد نفسه، بينما الصليبيون يتقدمون دون أن يجدوا عوائق، وبخطوات غزو، باتجاه القبر المقدس.

شاعر عربي كتب من بين العرب، وعن العرب، معلقاً على الوضع كما يلي:

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر ديِّن لا عقل له

وقال أيضاً:

يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج، ولكن لا يعاد له سبك

الشاعر يُدعى أبا العلاء المعري. وقد مات عام ١٠٥٧، في مدينة المعرة، قبل أربعين عاماً من تدميرها حجراً حجراً على يد الصليبيين.

ويقولون إن الشاعر كان أعمى.

ينقلها عن عماد الدين الكاتب الأصفهاني الذي كان يرافق صلاح الدين أثناء حصار عكا. ولكنها ترد بصورة مختلفة في مبانيها وإن كان مجمل المعنى هو نفسه. ونورد ما وجدناه.

(قال، أي عماد الدين: ووصلتْ في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن عن العُزبان، ورأين أن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه هي قُربة ما فوقها قُربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه عُزبة وغربة... وما عند الفرنج على العَزباء إذا أمكنت منها العَزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعُزبان المضيفين من فَرْجها فَرَج.) ثم يتابع في وصف مقاتلات منهن: (وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وكنَّ في زي الرجال، ويبرزن في حومة القتال... وكل هذا يعتقدن عبادة، ويَخَلْن أنهن يعقدن به سعادة، ويجعلنه لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلهن، وعن نهج الهدى أزلَّهن...) ويواصل: (لهنَّ بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن قسوة، وليس لهن سوى السوابغ كسوة... وهن يشدّدن تارة ويُرخين، ويحرضن وينخين... فانظر إلى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء.)

تروتولا

بينما الحملات الصليبية تدمر المعرة، ماتت تروتولا رجيرو في ساليرنو. ولأن التاريخ كان مشغولاً بتسجيل مآثر مقاتلي المسيح، فإن ما هو معروف عنها ليس كثيراً. يُعرف أن موكباً من عدة كيلومترات رافقها إلى المقبرة، وكانت أول امرأة كتبت رسالة في علم الأمراض النسائية، وعلم التوليد وطب الأطفال.

النساء لا يجرؤن على كشف أعضائهن الحميمة أمام طبيب رجل، بسبب الحياء أو التحفظ الصرف، كتبت تروتولا. وتضم رسالتها تجربة امرأة تساعد نساء أخريات في مسائل حساسة. كنّ يفتحن لها أجسادهن وأرواحهن، ويبحن لها بأسرار لا يفهمها الرجال ولا يستحقونها. وكانت تروتولا تعلمهن التخفيف من الترمل، والتظاهر بالعذرية، وتحمل الطلق واضطراباته، وتجنب النَفَس الكريه، وتبيض البشرة والأسنان، وإصلاح امتهان السنين الذي لا يمكن إصلاحه.

كانت الجراحة رائجة آنذاك، غير أن تروتولا لم تكن تؤمن بالسكين. كانت تفضل وسائل علاج أخرى: اليد، الأعشاب، الأذن. فهي تقدم مساجات حانية، وتصف مغلى أعشاب، وتحسن الاستماع.

القديس فرانسيسكو دي آسيس

كان الصليبيون يفرضون حصاراً على مدينة دمياط المصرية. في العام ١٢١٩، وفي ذروة الحصار، ابتعد الراهب فرانسيسكو عن الجيش ومضى ماشياً، حافياً، وحيداً، باتجاه الحصن المعادي.

كانت الريح تكنس الأرض وتصفع الثوب الكهنوتي الذي بلون التراب لهذا الملاك النحيل، الساقط من السماء، الذي يحب الأرض كما لو أنه من الأرض قد انبثق.

رأوه قادماً من بعيد. قال إنه آت للتحدث بسلام مع السلطان الكامل.

لم يكن فرانسيسكو يمثل أحداً، ولكن السور فُتح. الجيش الصليبي كان منقسماً إلى نصفين. نصف يرى أن الراهب فرانسيسكو مجنون لا أمل منه. والنصف الآخر يعتقد أنه مجنون أعمى البصيرة. كان مشهوراً بأنه يتحدث مع الطيور، ويريد أن يُسمّى بهلوان الرب، وكان يعظ ويمارس الضحك وينصح رهابنه:

- حذار من الظهور بمظهر الحزين، أو التقطيب، أو النفاق.

وكان يقال إن النباتات في بستانه، في قرية أسيس، تنمو مقلوبة، جذورها إلى أعلى، وكان يعرف عنه أنه يبدي آراء مقلوبة. الحرب هي وله وتجارة الملوك والبابوات؛ والحرب الصليبية تدور من أجل إخضاع المسلمين وليس من أجل تحويلهم.
مدفوعاً بالفضول، أو من يدري لأية دوافع أخرى، وافق السلطان على استقباله. م يتبادل المسيحي والمسلم السلاح، وإنما تبادلا الكلام. وخلال حوار طويل، توافق يسوع ومحمد. وسمع أحدهما الآخر.

تأسيس السكر

كان الملك داريو قد احتفى، في فارس، بذلك القصب الذي يعطي عسلاً دون حاجة إلى النحل، ومنذ وقت أبكر بكثير كان الصينيون والهنود قد عرفوه. ولكن الأوروبيين المسيحيين اكتشفوا السكر بفضل العرب، عندما رأى الصليبيون المزارع في سهول طرابلس وتذوقوا العصير الحلو الذي أنقذ من الجوع السكان المحاصرين في مدن عديدة.
ولأن الحماسة الدينية لم تصب العين التجارية بالعمى، استولى الصليبيون على المزارع ومعاصر القصب في الأراضي التي راحوا يحتلونها، ابتداء من مملكة أورشليم حتى عكا وصور وكريت وقبرص، مروراً بموقع قريب من الخليل لسبب ما يدعى "سكر".
ومنذ ذلك الحين صار السكر هو الذهب الأبيض الذي يباع في أوروبا بالغرام في الصيدليات.

الحرب الصليبية المصغرة ضد دولسينو

في أرشيف محاكم التفتيش، تحفظ قصة الحرب الصليبية الأخيرة. وقد أُطلقت في بداية القرن الرابع عشر، ضد الهرطوقي دولسينو وأتباعه:

كانت لدولسينو صديقة تدعى مرغريت ترافقه وتعيش معه، وكان يقول إنه يتعامل معها بكل عفة وشرف، كأخت له في المسيح. وحيث أنها فوجئت في حالة حمل، فقد اعتبرها دولسينو وجماعته حبلى من الروح القدس.

ديوان التفتيش في لومبارديا، بالاتفاق مع أسقف فرسيل، حضا على حرب صليبية بمنح المشاركين فيها غفراناً كاملاً، ونظموا حملة مهمة ضد المدعو دولسينو. وكان هذا قد غرر بأتباع وأنصار كثيرين بوعظه ضد الإيمان، فانسحب معهم إلى جبال نفارس.

وحدث هناك أن قوى كثيرين منهم خارت بسبب قسوة المناخ، وقضوا نحبهم من الجوع والبرد، فماتوا بخطاياهم. أضف إلى ذلك أن الجيش صعد إلى الجبال، وأسر دولسينو مع حوالي أربعين من جماعته. وبين من قتلوا ومن كانوا قد ماتوا من الجوع والبرد، بلغ العدد أكثر من أربعمئة.

ومع دولسينو جرى أسر مرغريتا كذلك، وهي هرطوقية فاتنة، وفي يوم الخميس المقدس من عام ١٣٠٨ لتجسد الرب. جرى تقطيع المذكورة مرغريتا إلى أشلاء أمام عيني دولسينو، ثم جرى تقطيعه هو نفسه بعد ذلك إلى أشلاء.

قديسات يتلقين زيارات من السماء

القديسة ميشيلد دي ماغدبيرغ: رباه، أحببني بشدة، ولوقت طويل. أناديك وأنا أتحرق رغبة. حبك اللاهب يؤججني في كل حين. ما أنا إلا روح عارية وأنت فيها، نزيل فاخر الزينة.

القديسة مرغريت ماريا ألاكوكي: ذات يوم حطّ يسوع فوقي بكل ثقله، مستجيباً بذلك لاحتجاجاتي: "أريدك أن تكون هدف حبي، دون مقاومة منك، كي أستطيع الاستمتاع بك".

القديسة آنجيلا دي فوليغنو: وكان ذلك كما لو أنني أُخذت بأداة تدخل فيّ وتخرج مخترقة أعماقي. كانت أعضائي تتكسر شوقاً... وفي هذا الوقت، شاء الرب أن تموت أمي التي كانت عائقاً كبيراً أمامي. وبعد قليل مات زوجي، وجميع أبنائي ماتوا. أحسست بعزاء عظيم. الرب فعل ذلك من أجلي، كي يكون قلبي في قلبه.

القديسون يرسمون بنات حواء

القديس بابلو: رأس المرأة هو الرجل.

القديس أغوسطين: كانت أمي تطيع طاعة عمياء من اختاروه زوجاً لها. وحين تأتي إلى البيت نساء على وجوههن آثار الغضب الزوجي، تقول لهن "أنتن المذنبات".

القديس جيرنيمو: النساء جميعهن خبيثات.

القديس برناردو: النساء يصفرن كالأفاعي.

القديس خوان كريسوستومو: عندما تكلمت المرأة الأولى، تسببت بالخطيئة الأصلية.

القديس أمبروسيو: إذا سُمح للمرأة أن تتكلم من جديد، ستجلب الدمار للرجل ثانية.

ممنوع الغناء

منذ العام ١٢٣٤، حظرت الديانة الكاثوليكية على النساء أن يغنين في الكنائس.

فالنساء الدنسات بالوراثة من حواء، يلوثن الموسيقى المقدسة التي لا يمكن أن يغنيها سوى أطفال ذكور أو رجال خصيان.

قبل سنوات قليلة من ذلك الإطباق لأفواههن، في حوالي القرن الثاني عشر، كان لا يزال بإمكان راهبات دير بينجن، على ضفاف الرين، أن يغنين بحرية لمجد الفردوس. ولحسن حظ أسماعنا، فإن الموسيقى الليتورجية التي أبدعتها رئيسة الدير هلدغاردا، والتي وُضعت لتُرفع بأصوات نساء، ظلت حية دون أن يُلحق بها الزمن أدنى تأثير.

في ديرها في بينجن، وغيره من الأديرة التي وعظت فيها، لم تكتف هلدغاردا بوضع موسيقى، بل كانت موسيقية، ومنجمة، وشاعرة، وطبيبة دارسة لخصائص النباتات ومنافع الماء العلاجية. كما كانت المؤسسة الحقيقية لفضاءات الحرية لراهباتها، ضد الاحتكار الرجولي للدين.

ممنوع الإحساس

- آه، أيتها الهيئة الأنثوية! كم أنت مجيدة!

كانت هلدغاردا دي بينجن ترى أن الدم الذي يلوث هو دم الحرب، وليس دم الطمث، وكانت تدعو علناً للاحتفاء بسعادة ولادتها أنثى.

وفي كتاباتها في الطب والعلوم الطبيعية، وهي الكتابات الوحيدة في أوروبا في زمانها، تجرأت على كشف اللذة الأنثوية بمفردات غريبة عن عصرها وعن كنيستها. وبحكمة مفاجئة في رئيسة دير متزمتة، ذات عادات صارمة، وعذراء بين العذارى، أكدت هلدغاردا أن لذة الحب التي تتأجج في الدم هي أشد رهافة وعمقاً في المرأة منها في الرجل.

- في المرأة، تُقارن بالشمس وعذوبتها، إذ تدفيء الأرض برقة وتُخصبها.

قبل قرن من هلدغاردا، كان الطبيب الفارسي المشهور المدعو ابن سينا قد ضمّن كتابه "القانون" وصفاً مفصلاً للنشوة الأنثوية، منذ اللحظة التي تبدأ فيها عيناها بالاحمرار، وأنفاسها بالتسارع، وتبدأ بالتلعثم.

ولأن اللذة كانت مسألة ذكورية، فقد عمدت الترجمات الأوروبية لكتاب ابن سينا إلى حذف تلك الصفحة.

ابن سينا

- الحياة تقاس بزخمها، وليس بأمدها - هذا ما كان قد قاله، ولكنه عاش قرابة ستين عاماً، وهي سن ليست سيئة بأي حال في القرن الحادي عشر.

كان يعالجه أفضل طبيب في فارس، ألا وهو، هو نفسه.

مؤلفه "القانون في الطب"، كان مرجعاً إجبارياً طوال قرون في العالم العربي وأوروبا والهند.

هذه الرسالة في الأمراض والعلاج لم تقتصر على جمع إرث أبقراط وجالينوس، وإنما شربت من ينابيع الفلسفة الإغريقية والحكمة الشرقية.

في السابعة عشرة من عمره كان ابن سينا قد فتح عيادته.

وبعد زمن طويل من موته ظل يعالج مرضى.

سيدة إقطاعية تشرح كيفية الحفاظ على الأملاك العقارية

ابتداء من البابا وحتى أشد كهنة الأحياء الهامشية بؤساً، لا وجود لقس إلا ويملي دروساً حول السلوك الجنسي الحميد. كيف يمكن لهم أن يعرفوا كل ذلك عن نشاط محظور عليهم ممارسته؟

في العام ١٠٧٤، نبه البابا غريغوريو السابع إلى أن المتزوجين من الكنيسة وحدهم هم الجديرون فقط بممارسة الخدمة الإلهية:

- على الكهنة أن يهربوا من براثن زوجاتهم - أصدر حكمه.

وبعد قليل من ذلك، في العام ١١٢٣، فرض مجمع ليتران الكنسي العزوبية الإجبارية. ومنذ ذلك الحين صارت الكنيسة الكاثوليكية تدرأ غواية الجسد عن طريق نذر العفة. وهي المؤسسة العزباء الوحيدة في عالم الأديان. الكنيسة تطالب كهنتها بتفرغ حصري، نظام full time يحمي سلام أرواحهم، ويجنبهم المشاحنات الزوجية وزعيق الأطفال.

ربما، ومن يدري، أرادت الكنيسة الحفاظ على أملاكها العقارية، فوضعتها بذلك بمنجى من حق التوريث للزوجات والأبناء. وعلى الرغم من أنه تفصيل بلا أهمية، فمن الجدير أن نتذكر أنه في بدايات القرن الثاني عشر، كانت الكنيسة تملك ثلث مجمل الأراضي الأوروبية.

سيد إقطاعي يشرح كيف يجب معاملة الفلاحين

بيلتران دي بوم، سيد بيرغور، محارب باسل الذراع، وتروبادور أشعار حماسية، كان يعرّف فلاحيه على هذا النحو في نهايات القرن الثاني عشر:

الفلاح يأتي بعد الخنزير، بسبب جنسه وأساليبه. الحياة الأخلاقية تمقته بعمق. وإذا شاءت له المصادفة أن يحرز ثروة كبيرة، يفقد عقله. ولهذا يجب إبقاء جرابه خاوياً. ومن لا يسيطر على فلاحيه، لا يفعل شيئاً سوى مفاقمة الشرور.

أصل النافورة

لا يتوقف الفلاحون عن إزعاج سادتهم.

ونافورة مدينة ماغنسيا تقدم شهادة فنية على ذلك.

لا تضيع على نفسك فرصة رؤيتها، يأمر المرشدون السياحيون. إنها كنز من فن عصر النهضة الألماني، ينتصب بهاؤها الذهبي في ساحة السوق، إنها رمز المدينة ومركز شهرتها.

ولدت النافورة من احتفال: متوجة بتمثال للعذراء والطفل، وكانت تقدمة من مطران براندينبرغ الذي شكر السماء على انتصار الأمراء على الفلاحين المتمردين.

فالفلاحون اليائسون كانوا قد هاجموا القلاع، تلك الأبهة التي كانوا يدفعون هم ثمنها، وحشود من المذاري والمجارف تحدت قوة المدافع والرماح والسيوف.

آلاف المشانق والرؤوس المقطوعة قَدمت شهادةً على إعادة استتباب النظام. وقدمتها النافورة أيضاً.

أوبئة

في تقسيم العصور الوسطى للعمل، كان الكهنة يصلون، والفرسان يَقتلون، والفلاحون يُطعمون الآخرين جميعهم. وفي أزمنة المجاعة، يهرب الفلاحون من الحصاد المخرب ومن الزرع المستحيل، من كثرة المطر أو من اللامطر، يهيمون على وجوههم في الدروب، يتنازعون الجيف والجذور. وعندما تصير لهم جلود صفراء وعيون مجانين، ينقضون على القلاع والأديرة.

في الأزمنة العادية، كان الفلاحون يعملون ويرتكبون الخطيئة. وعندما تحدث الأوبئة، يكونون هم المذنبين. فالنكبات لا توجه ضرباتها لأن الكهنة يسيئون الصلاة، وإنما لأن المؤمنين ليسوا مؤمنين.

ومن المنابر يوجه موظفو الرب إليهم اللعنات:

- يا عبيد الجسد! أنتم تستحقون العقاب الإلهي!

في عام ١٣٤٨ وعام ١٣٥١ صعق العقاب الإلهي واحداً من كل أربعة أوروبيين. عاث الطاعون خراباً بالأرياف والمدن، قضى على الخاطئين وعلى الفاضلين أيضاً.

وحسب بوكاشيو، كان أهالي فينسيا يتناولون الفطور في البيت مع ذويهم ويتعشون في القبور مع أسلافهم.

نساء ضد الوباء

في روسيا، كان الوباء يتقدم مبيداً البهائم والبشر، لأن الأرض غاضبة. فالرجال نسوا أن يقدموا إليها قرابين شكرهم في موسم الحصاد الأخير، أو أنهم ألحقوا الأذى بغرسهم فيها رصاصاً أو عصياً وهي حبلى ونائمة تحت الثلج.

عندئذ تقوم النساء بطقوسهن الآتية من ظلام الأزمنة. فالأرض، أصل ومصير كل حي على الأرض، تستقبل بناتها، الولادات مثلها؛ ولا يتجرأ أي رجل على دس أنفه.

تربط امرأة نفسها إلى المحراث، مثل جاموسة، وتبدأ بشق الثلم، وتمضي الأخريات خلفها، ناثرات البذور. جميعهن يمضين عاريات، حافيات، ومفلتات الشعور. يمشين وهن يقرعن قدورهن ومقاليهن ويضحكن مقهقهات، باعثات الخوف في الخوف، والبرد، والوباء.

ماء ملعون

نحن نعرف نوستراداموس من خلال نبوءاته التي مازالت "بست سيلر" في العالم.

لكننا نجهل أن نوستراداموس كان طبيباً أيضاً، وكان طبيباً غريباً لا يؤمن بالعلق، ويصف الهواء والماء ضد الأوبئة: هواء يهوي وماء يغسل.

القذارة حاضنة أوبئة، ولكن الماء كان سيئ السمعة في أوروبا المسيحية. فالماء يجب تجنبه، إلا عند التعميد، لأنه يمنح متعة ولأنه يدعو إلى الخطيئة. وفي محاكم التفتيش، كانت كثرة الاستحمام دليل على الهرطقة. وعندما فرضت المسيحية سلطتها في إسبانيا كحقيقة وحيدة، أمر التاج بتدمير الحمامات العامة الكثيرة التي خلّفها المسلمون، لأنها مصدر ضياع روحي.

ليس هناك أي قديس أو قديسة وضع قدمه في حوض حمام، وكان الاستحمام أمراً نادراً بين الملوك، فمن أجل ذلك توجد العطور. والملكة إيزابيل الكاثوليكية كانت نظيفة الروح، لكن المؤرخين يتجادلون حول ما إذا كانت قد استحمت مرتين أم ثلاث مرات في حياتها. والملك الشمس الفرنسي الأنيق، أول رجل استخدم الكعب العالي، استحم مرة واحدة فقط بين عامي ١٦٤٧ و١٧١١. وفعل ذلك بوصفة طبية.

قديسو العصور الوسطى يمارسون الطب بالجملة

حسب شهادات العصر، قام القديس دومينيك دي سيلوس بفتح عيون العميان، ونظف أبدان المجذومين الدنسة، وقدم للمرضى هبة الصحة المنشودة، ومنح الطرشان السمع المفقود، وسوّى ظهور الحُدب، وجعل العرجان يقفزون فرحاً، والمشلولين ينطون مرحاً، وجعل الأبكم يتكلم بقوة...

والراهب برنار دي تولوز أشفى اثني عشر أعمى، وثلاثة صم، وأربعة عرجان، وأربعة مشوهين، وأشفى مرضى آخرين، يزيد عددهم على الثلاثين.

والقديس لويس أعاد الصحة لعدد لا حصر له من المصابين بأورام، وداء النقطة، والشلل، والعمى، والصمم، والناسور، والعرج.

والقديسون الميتون لم يفقدوا قدراتهم العلاجية. ففي فرنسا، توجد في المقابر حسابات دقيقة للمعجزات التي أشفت زائري القبور المقدسة: ٤١٪ من المصابين بالفالج النصفي وشلل الساقين، و١٩٪ من العميان، و١٢٪ من المعتوهين و٨،٥٪ من الصم، والبكم، والصم البكم، و١٧٪ من المحمومين والمرضى المتنوعين.

تأسيس الطفولة

عندما لا يقتل الوباء الأطفال الفقراء، يأخذهم البرد أو الجوع. الإعدام بالجوع يمكن أن يحدث في الأيام المبكرة بعد الولادة إذا لم يبق ما يكفي من الحليب في أثداء الأمهات اللاتي يعملن مرضعات فقيرات لأطفالٍ أغنياء.

ولكن الأطفال الذين يولدون في مهود راقية لم يكونوا يطلون على حياة سهلة. ففي أوروبا بأسرها كان الكبار يساهمون في رفع نسبة وفيات الأطفال بإخضاع أبنائهم لتربية يمكن القول إنها أقرب إلى الصرامة.

تبدأ دورة التربية بتحويل الرضيع إلى مومياء. ففي كل يوم تقمطه الخادمات من رأسه حتى قدميه بأربطة وأحزمة مشدودة جيداً.

وهكذا يغلقون مساماته أمام الأوبئة والأبخرة الشيطانية التي تملأ الهواء، ويتوصلون إلى منع الوليد من إزعاج الكبار. فالطفل السجين، غير القادر على التنفس جيداً، لا يمكن له أن يفكر في البكاء، كما أن ساقيه وذراعيه المقيدة لا تتيح له التحرك.

وإذا أمكن لتلك اللفافة البشرية أن تنتقل إلى المراحل التالية، ما لم تحل القروح أو الغرغرينة

دون ذلك. فبالضرب بالحزام يجري تعليمه الوقوف والمشي مثلما يجب، وتفادي العادة الحيوانية بالمشي على أربع. وبعد ذلك، حين يكون قد كبر أكثر، يبدأ الاستخدام المكثف للسوط ذي السبعة ذيول، والعصي، والسعف، وقضبان الخشب والحديد وغيرها من الأدوات التربوية.
حتى الملوك أنفسهم لم يكونوا بمنجى. فالملك الفرنسي لويس الثالث عشر تُوّج عند بلوغه الثامنة من العمر، وبدأ اليوم الأول بتلقي وجبة جيدة من الجلد بالسوط.
وقد تمكن الملك من تجاوز طفولته حياً.
وتمكن أطفال آخرون من تجاوزها أحياء أيضاً، من يدري كيف، وصاروا كباراً متدربين جيداً من أجل تربية أبنائهم.

ملائكة الرب

عندما سافرت فلورا تريستان إلى لندن، أصابها الذهول لأن الأمهات الإنكليزيات لا يداعبن أبناءهن أبداً. فالأطفال يحتلون الدرجة الأخيرة في السلّم الاجتماعي، أدنى من النساء. وهم غير جديرين بالثقة، مثلهم مثل سيف مكسور.
ومع ذلك، وقبل ثلاثة قرون، كان إنكليزياً أول أوروبي من المرتبة الاجتماعية العليا هو من اعتبر الأطفال أشخاصاً جديرين بالثقة والاستمتاع. فقد كان توماس مور يحبهم ويدافع عنهم، ويلعب معهم كلما استطاع ذلك ويشاطرهم الرغبة في أن تكون الحياة لعباً لا ينتهي أبداً.
طوال قرون، وحتى زمن قريب جداً، كانت معاقبة الأطفال في المدارس الإنكليزية مشروعة. فبصورة ديمقراطية، ودون تمييز بين الطبقات، كانت حضارة البالغين تتمتع بحق إصلاح الهمجية الطفلية بجلد الطفلات بالأحزمة وضرب الأطفال بعصي أو هراوات. وفي خدمة الأخلاق الاجتماعية، أصلحت أدوات الانضباط تلك عيوب وانحرافات أجيال كثيرة من الضالين.
مؤخراً، في العام ١٩٨٦، صارت الأحزمة والعصي والهراوى ممنوعة في المدارس العامة. ثم حظرت بعد ذلك في المدارس الخاصة.
ولكي يكون الأطفال أطفالاً، يمكن للآباء معاقبتهم. على أن يكون الضرب عقلانيا ولا يخلّف آثاراً.

أبو الغول

أشهر قصص الأطفال، أعمال إرهابية، وجديرة أيضاً بأن توضع في ترسانة أسلحة الكبار ضد الصغار.

هانسل وغريتل يحذرانك من أنكَ ستُهجر وسيتخلى أبواك عنك. وذات القبعة الحمراء تخبرك بأن أي مجهول قد يكون الذئب. وسندريلا تجبرك على عدم الثقة بزوجات الآباء والأخوات غير الشقيقات. ولكن من بين جميع الشخصيات، الغول هو الذي علّم جيوش الأطفال الخوفَ بأكبر قدر من الفعالية.

الغول آكل الأطفال في حكايات بارول استوحى نموذجه من فارس مشهور، جيل دا ري، الذي قاتل إلى جانب جان دارك في أورلان ومعارك أخرى.

هذا السيد مالك عدة قلاع، وأصغر ماريشال في فرنسا، اتهم بأنه يعذب، ويغتصب ويقتل الأطفال التائهين الذين يتجولون في إقطاعياته باحثين عن الخبز أو عن عمل في فرق المنشدين التي تتغنى بمآثره.

وبإخضاعه للتعذيب، اعترف جيل بقتل مئات الأطفال، في حكايات تفصيلية، من أجل متعه الجسدية.

انتهى على المشنقة.

بعد خمسة قرون ونصف من ذلك، جرت تبرئته. هيئة محكمة مجتمعة في مجلس النواب الفرنسي، راجعت القضية، وأقرت أنها كانت ملفقة، ونقضت الحكم.

لم يستطع هو الاحتفال بالخبر الطيب.

الغول التتاري

جنكيز خان كان غول الحكايات الذي أرعب لسنوات طويلة الأوروبيين الكبار، المسيح الدجال الذي يقود جيوشاً أرسلها الشيطان من منغوليا.

- ليسوا بشراً! إنهم شياطين! - يهتف فريدريك الثاني، ملك صقلية وألمانيا.

والحقيقة أن أوروبا كانت غاضبة لأن جنكيز خان لم يتنازل بغزوها. فقد ازدراها لأنها متخلفة، وفضل عليها آسيا. وبأساليب ليست لطيفة جداً غزا إمبراطورية هائلة تمتد من الهضبة المنغولية حتى السهوب الروسية، مروراً بالصين، وأفغانستان وفارس.

سوء السمعة امتد إلى جميع أفراد أسرة خان.

ومع ذلك، فإن حفيد جنكيز، المدعو قبلاي خان، لم يكن يأكل نيئاً لحم الرحالة الأوروبيين ممن كانوا يصلون بين حين وآخر إلى بلاطه في بكين. بل كان يكرمهم، ويستمع إليهم، ويقدم لهم الوظائف.

وماركو بولو عمل عنده.

ماركو بولو

كان سجيناً في جنوا عندما أملى كتاب رحلاته. وكان رفاقه في السجن يصدقون كل شيء. فعندما كانوا يسمعون مغامرات ماركو بولو، سبعاً وعشرين سنة من الترحال عبر دروب الشرق، كان جميع السجناء يفلتون من السجن ويرحلون معه.

بعد ثلاث سنوات من ذلك طبع السجين الفينيسي كتابه. وقولنا طبع هو مجرد قول، لأن المطبعة لم تكن قد وجدت في أوروبا بعد. جرى تداول بعض النسخ المستنسخة يدوياً. القراء القليلون الذين عثر عليهم ماركو بولو لم يصدقوا كلمة واحدة من كلامه.

التاجر يهذي: أترتفع كؤوس النبيذ في الهواء دون أن يلمسها أحد، وتصل إلى شفتي الخان الأعظم؟ أهناك أسواق ثمن المرأة فيها شمامة من أفغانستان؟ أشدهم إشفاقاً قالوا إنه غير سليم العقل.

في بحر قزوين، في طريق جبل آرارات، رأى هذا الهاذي زيوتاً تتوقد، ورأى صخوراً تتوقد في جبال الصين. وكان مضحك الوقع على الأقل قوله إن لدى الصينيين نقوداً ورقية، أوراق نقد مختومة من الإمبراطور المنغولي، وسفن يبحر فيها أكثر من ألف شخص. ولم يكن يستحق أكثر من قهقهات الكلام عن وحيد قرن في سومطرة والرمال المغنية في صحراء غوبي، وكانت غير قابلة للتصديق تلك المنسوجات التي تسخر من النار في بلدات وجدها ماركو بولو في ما وراء تاكليناكان.

بعد قرون من ذلك عُرف:

الزيوت التي تتوقد كانت بترولاً. الأحجار التي تتوقد كانت فحماً. الصينيون يستخدمون نقوداً ورقية منذ نحو خمسمئة عام، وسفنهم التي هي أكبر عشر مرات من السفن الأوروبية، فيها بساتين توفر الخضار الطازجة للملاحين وتحميهم من الإسقربوط.

وأحادي القرن هو الكركدن.

والريح تُحدث صفيراً في قمم كثبان الرمال في الصحراء.

والأمينت هو النسيج الذي يقاوم النار.

في أزمنة ماركو بولو لم تكن أوروبا تعرف البترول، ولا الفحم، ولا أوراق النقد، ولا السفن الضخمة، ولا الكركدن، ولا المرتفعات الرملية، ولا الأمينت.

ما الذي لم يخترعه الصينيون؟

هناك في الطفولة، عرفتُ أن الصين هي بلاد في الجانب الآخر من أروغواي وأنه يمكن الوصول إليه إذا ما توفر للمرء الصبر لحفر بئر عميقة جداً.

بعد ذلك تعلمت شيئاً عن التاريخ العام، ولكن التاريخ العام كان، ومازال، تاريخ أوروبا. أما بقية العالم فكان يقبع، ومازال يقبع، في الظلمات. والصين أيضاً. قليل جداً أو لا شيء ما كنا نعرفه عن ماضي أمة اخترعت كل شيء تقريباً.

الحرير ولد هناك، منذ خمسة آلاف سنة.

وقبل أي كان، اكتشف الصينيون الشاي، وأطلقوا عليه الاسم، وزرعوه.

كانوا أول من استخرج ملحاً من آبار عميقة، وكانوا أول من استخدم الغاز والبترول في مطابخهم ومصابيحهم.

اخترعوا محاريث حديدية خفيفة الحمل وآلات للزرع والدرس والحصاد قبل ألفي عام من مكننة الإنكليز لزراعتهم.

اخترعوا البوصلة قبل ألف ومئة عام من بدء السفن الأوروبية استخدامها.

وقبل الألمان بألف عام، اكتشفوا أن طواحين الماء يمكنها أن توفر الطاقة لأفران الحديد والفولاذ.

ومنذ ألف وتسعمئة عام اخترعوا الورق.

وطبعوا كتباً قبل ستة قرون من غوتنبرغ، وقبل قرنين منه استخدموا حروفاً متحركة من المعدن في مطابعهم.

ومنذ ألف ومئتي عام اخترعوا البارود، ثم المدفع بعد قرن من ذلك.

ومنذ تسعمئة عام أبدعوا آلات نسج الحرير ببكرات متحركة بدواسة، وهو ما استنسخه الإيطاليون متأخرين قرنين.

كما أنهم اخترعوا دفة توجيه السفينة، والمغزل، والوخز بالإبر، والخزف، وكرة القدم، وأوراق اللعب، والفانوس السحري، وصناعة الأسهم النارية، والطيارات الورقية، وأوراق النقد، والساعة الآلية، ومقياس الزلازل، واللك، والطلاء الفسفوري، وبكرات صيد السمك، والجسر المعلق، والعربة اليدوية، والمظلة، والمروحة اليدوية، والمهماز، ونعل الخيول، والمفتاح، وفرشاة الأسنان وتوافه كثيرة أخرى.

المدينة العظيمة العائمة

في بدايات القرن الخامس عشر نقش الأميرال زونغ، قائد الأسطول الصيني، على صخرة على سواحل سيلان، تكريمه لله، وشيفا، وبوذا. وطلب من الثلاثة، بثلاث لغات، أن يباركوا بحارته.

ترأس زونغ، الخصي المخلص للإمبراطورية التي أخصته، أكبر أسطول بين كل الأساطيل التي كانت قد جابت بحار العالم.

في الوسط، السفن العملاقة، ببساتين أشجارها وخضارها، وحولها غابة من ألف صارٍ: تفتح الأشرعة كأنها سحب السماء...

السفن تذهب وتجيء بين موانئ الصين وسواحل أفريقيا مروراً بجاوا والهند وبلاد العرب و... البحارة ينطلقون من الصين حاملين الخزف، والحرير، واللك، واليشب، ويرجعون محملين بقصص ونباتات سحرية وزرافات، وفيلة وطواويس. يكتشفون لغات، وآلهة، وعادات. لقد عرفوا الفوائد العشر لجوز الهند ومذاق المانجا الذي لا يُنسى، واكتشفوا وجود أحصنة مخططة بالأبيض والأسود، وطيوراً طويلة القوائم تركض كالخيول، ووجدوا البخور والمُرّ في بلاد العرب، وأحجاراً غريبة في تركيا، مثل العنبر الذي أطلقوا عليه اسم لعاب التنين. وفي جزر الجنوب ذهلوا بالطيور التي تتكلم كالبشر وبالرجال الذين يعلقون خشخاشة بين سيقانهم، لتعلن عن مزاياهم الجنسية.

رحلات الأسطول الصيني العظيم كانت بعثات اكتشاف وتجارة. لم تكن منشآت غزو. ولم يكن هنالك أي سعي للسيطرة يجبر زونغ على ازدراء أو إدانة ما يجده. فما هو غير مدهش وعجيب يكون جديراً بالفضول على الأقل. ومن رحلة إلى رحلة، كانت تتعاظم مكتبة بكين الإمبراطورية التي كانت تجمع معارف العالم في أربعة آلاف كتاب.

في ذلك الحين كان لدى ملك البرتغال ستة كتب.

البابا سخياً

بعد سبعين سنة من رحلات الأسطول الصيني تلك، بدأت اسبانيا غزو أميركا وأجلست إسبانياً على عرش الفاتيكان.

رودريغو بورخيا، ولد في بلنسيا، وتحول إلى بابا روما وصار اسمه الكسندر السادس، بفضل أصوات الكرادلة الذين اشتراهم بذهب وفضة حملتها أربعة بغال.

البابا الإسباني أصدر براءات المنح التي أهدت إلى ملكي إسبانيا وورثتهم، باسم الرب، الجزر والأراضي التي ستسمى بعد سنوات أميركا.

وأكد البابا كذلك أن البرتغال هي مالكة وسيدة جزر وأراضي أفريقيا السوداء التي كان يُنتزع منها، منذ نصف قرن، ذهب وعاج وعبيد.

النوايا لم تكن هي النوايا نفسها بالضبط التي قادت الأميرال زونغ. فالبابا أهدى أميركا وأفريقيا من أجل السيطرة على الأمم الهمجية وإخضاعها للديانة الكاثوليكية.

كان عدد سكان إسبانيا آنذاك أقل بخمس عشرة مرة من سكان أميركا، وكان سكان أفريقيا السوداء يزيدون مئة مرة عن سكان البرتغال.

الشر يستنسخ الخير

في إحدى لوحاته الجدارية، في كنيسة بادوا، أظهر الغيوتو العذابات التي يُنزلها الشياطين بالخاطئين في الجحيم.

وكما في أعمال أخرى لفنانين آخرين من ذلك العصر، تبعث أدوات التعذيب الجحيمي الهلع والخوف. ويمكن لأي شخص أن يتعرف في تلك النماذج على الأدوات التي كانت محاكم التفتيش المقدسة تستخدمها لفرض الكثلكة. فالرب يُلهم أسوأ أعدائه. والأبالسة يقلدون، في الجحيم، تقنيات الألم والعذاب التي يطبقها قضاة التفتيش على الأرض.

العقاب يؤكد أن هذا العالم لم يكن إلا بروفا جنرال للجحيم. فهنا وفي الغيب يستحق عدم الانصياع الجزاء نفسه.

حجج الإيمان

خلال ستة قرون، في عدة بلدان، عاقبت محاكم التفتيش المتمردين، والهراطقة، والساحرات، والشاذين جنسياً، والوثنيين...

كثيرون منهم انتهوا إلى المحرقة، وعلى حطب أخضر احترق المحكومون في نار بطيئة. وأكثر بكثير جداً من أولئك أُخضعوا للتعذيب. وهذه كانت بعض الأدوات المستخدمة لانتزاع اعترافات، وتصويب قناعات، وزرع الرعب:

طوق الشوك،

القفص المعلق،

كماشة الحديد لتجنب الصراخ المزعج،

المنشار الذي يقسمك ببطء إلى نصفين،

الضواغط العاصرة،

الضواغط الساحقة.

بندول تكسير العظام،

كرسي المسامير الشوكية،

الإبرة الطويلة التي تغرس في الشامات الشيطانية.

مخالب الحديد التي تمزق اللحم.

الكلابات والكماشات المحماة حتى الاحمرار.

الناووس المبطن بمسامير.

سرير الحديد الذي يتمدد حتى يخلع الساقين والذراعين.

سياط تنتهي أطرافها بخطافات أو شفرات.

سراديب ممتلئة بالبراز.

أصفاد القدمين، الفخ، البكرات، الخازوق، الكلابة.

الإجاصة التي تنفتح وتمزق أفواه الهراطقة، وشرج الشاذين جنسياً، ورحم عشيقات الشيطان.

المنتاش الذي يمزق أثداء الساحرات والزانيات.

النار في القدمين.

وأصناف أخرى من أسلحة الفضيلة.

اعترافات المُعَذَّب

في العام ٢٠٠٣، عُذب ابن الشيخ الليبي، قائد القاعدة، إلى أن اعترف بأن العراق قد دربه على استخدام الأسلحة الكيماوية والجرثومية. وعلى الفور، عرضت حكومة الولايات المتحدة شهادته بسعادة كي تثبت أن العراق يستحق أن يُغزى.

بعد وقت قصير، عُرف: أن المُعَذَّب قد قال، كالعادة، ما يريد منه المعذِّب أن يقوله.

هذه الغلطة لم تمنع حكومة الولايات المتحدة من مواصلة ممارسة التعذيب والحض عليه، على مستوى عالمي،مطلقة عليه تسمياته الفنية الكثيرة: وسائل قسر بديلة، تقنيات الاستجواب المكثف،تكتيك الضغط والتخويف، منهج الإقناع...

جميعنا كنا جلادين

تبدل ضئيل، أو عدم تبدل، طرأ على شارع بورين في برشلونة، وإن كان الآن يقوم بمهمات أخرى.

خلال مرحلة لا بأس بها من العصور الوسطى، كان هذا الشارع أحد منصات العدالة الأوروبية المتحولة إلى استعراض عام.

المهرج والموسيقيون يتقدمون الموكب. ويخرج المحكوم، أو المحكومة، من السجن على متن حمار، عارياً أو شبه عار، وبينما هو يتلقى الجلد، يخضع لمطر من الشتائم، والصفع، والبصاق، والبراز، والبيض المتعفن وأنواع أخرى من تكريم الجمهور.

وكان أشد المتحمسين للعقاب هم أشد المندفعين في الخطيئة.

مرتزقة

يسمونهم الآن متعاقدين.

وفي إيطاليا، قبل قرون، كان اسمهم متعاقدين condottieri أيضاً. وكانوا يُستأجرون ليقتلوا، وعقد condotta كانت تسمية وثيقة التعاقد المتفق عليه.

باولو أوسيلو رسم أولئك المحاربين الذين يلبسون بأناقة ويتحركون برشاقة تبدو معها لوحاته أقرب إلى عروض الأزياء منها إلى معارك دامية.

ولكن أولئك المتعاقدين كانوا رجالاً يغطي الشعر صدورهم، ولا يشعرون بالخوف من شيء، باستثناء خوفهم من السلام.

في سنوات شبابه، مارس الدوق فرانشيسكو سفورسا تلك المهنة، ولم ينسها.

وذات مساء، كان الدوق يتنزه في محيط ميلان، عندما رمى من فوق صهوة حصانه قطعة عملة إلى متسول.

تمنى له المتسول أفضل أمنية:

- فليكن السلام رفيقك.

- السلام؟ وقطعت ضربةُ سيفٍ يد المتسول.

سيدتنا شفيعة المستحيلات

لأنها آمنت بالسلام، سُميت سيدتنا شفيعة المستحيلات.

القديسة ريتا حققت معجزة السلام في أزمنة الحروب.

حروب جيران.

حروب عائلات.

حروب ممالك.

حروب آلهة.

وحققت فوق ذلك معجزات أخرى. والمعجزة الأخيرة وهي تحتضر. طلبت ريتا أن ينضج التين، مع أن الوقت كان أوج الشتاء، وأن تتفتح أزهار نبتة الورد تحت الثلج، وهكذا استطاعت أن تموت ومذاق التين في فمها وهي تستنشق شذى الورود حديثة التفتح، وقُرعت النواقيس من تلقاء نفسها، دون أن يمسها أحد في كل كنائس بلدة كاسيا.

الحرب المقدسة

لم يكن هناك رجال قادرون على مجاراتها، لا في الحراثة ولا في السيف.

في صمت البستان، عند الظهر، كانت تسمع أصواتاً. يتكلم إليها الملائكة والقديسون، القديس ميكائيل، القديسة مرغريتا، القديسة كاتالينا، وكذلك الصوت الأكثر سمواً في السماء:

- لا وجود لمن هو قادر على تحرير مملكة فرنسا، إلا أنتِ فقط.

وكانت تردد ذلك، في كل مكان، وتشير دوماً إلى المصدر:

- الرب قال لي ذلك.

وهكذا ترأست تلك الفلاحة الأمية، المولودة لإنجاب أبناء، جيشاً كبيراً راح يتعاظم في الطريق.

الآنسة المحاربة، العذراء بأمر إلهي أو بخوف ذكوري، تقدمت من معركة إلى أخرى.

بالرمح في يدها، كانت تنقض وهي فوق حصانها على الجنود الإنكليز. كانت عصية على الهزيمة... إلى أن هُزمت.

أسرها الإنكليز وقرروا أن يتولى الفرنسيون أمر تلك المجنونة.

من أجل فرنسا وملكها قاتلت، وباسم الرب. وموظفو ملك فرنسا وموظفو الرب أرسلوها إلى المحرقة.

وبينما هي حليقة الرأس ومقيدة، لم يكن لديها محامون. فالقضاة، والمدعي العام، وخبراء محاكم التفتيش، والأساقفة، والكهنة القانونيون، والكتّاب بالعدل، والشهود، جميعهم اتفقوا مع جامعة السوربون الضليعة التي حكمت بأن المتهمة انشقاقية، مرتدة، كاذبة، منجمة، مشبوهة بالهرطقة، ضالة في الإيمان ومجدفة على الرب والقديسين.

كانت في التاسعة عشرة من عمرها عندما شُد وثاقها إلى عمود في ساحة السوق في روان، وأشعل الجلاد الحطب.

فيما بعد، تبدل رأي وطنها وكنيستها اللذين أحرقاها. وصارت جان دارك الآن بطلة وقديسة، رمز فرنسا وشعار المسيحية.

عندما أبحرت السفن على اليابسة

الإمبراطور قسطنطين عمَّد باسمه مدينة بيزنطة، فأطلق اسم القسطنطينية على تلك البقعة الإستراتيجية بين آسيا وأوروبا.

بعد ألف ومئة عام من ذلك، عندما سقطت القسطنطينية بعد حصار القوات التركية، مات إمبراطور آخر، قسطنطين آخر، وهو يقاتل من أجلها، وعندئذ فقدت المسيحية بوابتها المشرعة نحو الشرق.

كانت الممالك المسيحية قد وعدت بمساعدات كثيرة، ولكن في ساعة الحقيقة، ماتت القسطنطينية المحاصرة والمخنوقة وحدها. المدافع الضخمة ذات الثمانية أمتار طولاً، وخارقة الأسوار، والرحلة الغريبة للأسطول التركي، كانا عاملين حاسمين في الانهيار النهائي. فالسفن التركية لم تستطع التغلب على السلاسل الحديدية المتقاطعة تحت الماء، والتي تحول دون تقدمها، إلى أن أصدر السلطان محمد أمراً لم يُسمع بمثله من قبل قطّ: أمر بأن تبحر السفن على اليابسة. وبإسنادها إلى قواعد دوارة تجرها أعداد كبيرة من الثيران، انزلقت السفن عبر الهضاب التي تفصل البوسفور عن القرن الذهبي، صعوداً ونزولاً، في صمت الليل. وعند الفجر اكتشف حراس الميناء بذعر وجود الأسطول المعادي أمام أنوفهم، بفعل السحر، في المياه المحرمة.

منذ تلك اللحظة اكتمل الحصار الذي كان برياً، وصار بحرياً أيضاً. والمذبحة الأخيرة صبغت المطر بالأحمر.

كثير من المسيحيين بحثوا عن ملجأ في كاتدرائية القديسة صوفيا الضخمة، والتي انتصبت قبل تسعة قرون من أحد هذيانات الإمبراطورة تيودورا. وبينما هم محشورون في الكاتدرائية، راح أولئك المسيحيون ينتظرون أن ينزل ملاك من السماء ويلاحق الغزاة بسيفه الناري.

لم يجئ الملاك.

ولكن السلطان محمد جاء، دخل الكاتدرائية ممتطياً حصانه الأبيض، وحوّلها إلى أول مسجد في المدينة التي تدعى الآن اسطنبول.

شيطنات

كانت قد انقضت سنوات على سقوط القسطنطينية عندما حذر مارتن لوثر من أن الشيطان لا يقيم بين الأتراك والعرب فقط، وإنما في بيتنا بالذات أيضاً، في الملابس التي نلبسها وفي الهواء الذي نتنفسه. وهكذا ظلت الحال.

بعد قرون، في العام ١٩٨٢، بلغت جرأة الشيطان حدّ زيارة الفاتيكان في هيئة ربة بيت. وحيال تلك المرأة التي كانت تزعق وهي تزحف على الأرض، خاض البابا يوحنا بطرس الثاني معركة التحام مع الرجيم. فرقى الدخيل بتلاوة تعاويذ التطهير قاتلة الشياطين، وهي تعاويذ بابا آخر، أوربانو الثامن، استطاع في أزمنة أخرى مضت أن ينتزع من رأس غاليليو غاليلي الفكرة الشيطانية عن أن العالم يدور حول نفسه.

عندنا ظهر الشيطان على هيئة امرأة خاطئة، في القاعة البيضاوية في البيت الأبيض، لم يلجأ الرئيس بيل كلينتون إلى ذلك الأسلوب الكاثوليكي القديم. بل ظل يستبعد الرجيم، طوال ثلاثة شهور، بإعصار من الصواريخ على يوغسلافيا.

شيطانيات

ظهرت فينوس، ذات صباح، في مدينة سيينا. وجدوها ملقاة، عارية تحت الشمس.

قدمت المدينة التكريم لهذه الربة المنحوتة من المرمر، المدفونة منذ أزمنة الإمبراطورية الرومانية، والتي تكرمت بالظهور من باطن الأرض. قُدم لها مكان إقامة على رأس النافورة الرئيسية.

لم يكن هناك من يمل من النظر إليها، وكان الجميع يرغبون في لمسها.

ولكن سرعان ما جاءت الحروب وأهوالها، وتعرضت سيينا للهجوم والنهب. وفي جلسته في السابع من تشرين الثاني عام ١٣٥٧، قرر المجلس البلدي أن فينوس هي المذنبة. وأن الرب قد أرسل هذا العقاب بسبب خطيئة عبادة الصنم. وأمر المجلس بتحطيم فينوس، لأنها تدعو إلى الشبق، وقضى بأن تدفن أجزاؤها في مدينة فلورنسا المقيتة.

وفي فلورنسا، بعد مئة وثلاثين سنة من ذلك، ولدت فينوس أخرى، على يد ساندرو بوتشيلي. رسمها الفنان وهي تخرج من الزبد، دون أية ملابس أخرى سوى جلدها.

وبعد عقد من ذلك، عندما نصب الراهب سافونارولا محرقته العظمى للتطهير، يقال إن بوتشيلي النادم على خطيئة رياشه، غذى المحرقة ببعض الشيطانيات التي رسمها في سنوات شبابه.

ولكنه لم يستطع فعل ذلك بفينوس.

ليوناردو

حين كان في العشرين وبضع سنوات، جاء حراس الأخلاق العامة، موظفو الليل، وانتزعوا ليوناردو من محترف المعلم فيروكيو وألقوا به في زنزانة. ظل هناك شهرين، دون نوم، دون تنفس، مرتعباً من التهديد بالمحرقة. فالشذوذ الجنسي يُعاقب بالنار، وتبليغ من مجهول اتهمه بارتكاب اللواط بشخص جاكوب سالتريلي.

جرت تبرئته بسبب عدم وجود أدلة، وعاد إلى الحياة.

رسم أعمالاً بارعة، جميعها تقريباً غير مكتملة، افتتحت في تاريخ الفن الرسم المظلّل والتظليل.

كتب خرافات، وأساطير، ووصفات مطبخ.

رسم بدقة متناهية، لأول مرة، الأجهزة البشرية، بدراسة التشريح على الجثث.

أثبت أن العالم يدور. واخترع الهيلوكبتر، والطائرة، والدراجة، والغواصة، والمظلة، والرشاش والرمانة اليدوية، والهاون، والدبابة، والرافعة المنزلقة، والحفارة الطافية، وآلة صنع المعكرونة، ومَبشرة الخبز.

وفي أيام الآحاد كان يشتري طيوراً من السوق ويفتح لها الأقفاص.

من عرفوه قالوا إنه لم يعانق امرأة قطّ، ولكن من يديه ولدت الصورة الأوسع شهرة في كل الأزمنة. وكانت صورة امرأة.

أثداء

من أجل الإفلات من العقاب، كان بعض الشاذين جنسياً يتنكرون كنساء، ويتظاهرون بأنهم عاهرات.

في أواخر القرن الخامس عشر، أصدرت فينيسيا قانوناً يجبر العاهرات على كشف أثدائهن.

فكان يتوجب عليهن إظهار الصدر من النوافذ حيث يعرضن أنفسهن على الزبائن العابرين.

كن يعملن على جسر، بالقرب من ريالتو، ومازال الجسر يسمى جسر الأثداء (ponte delle Tette).

تأسيس الشوكة

يقال إن ليوناردو أراد تحسين الشوكة بثلاث شعب، ولكنها بدت مشابهة لشوكة ملك أعماق الجحيم الثلاثية.

قبل قرون من ذلك، كان سان بيدرو داميان قد استنكر تلك البدعة الآتية من بيزنطة:

- ما كان الرب ليمنحنا أصابع لو أنه أراد لنا أن نستخدم هذه الأداة الشيطانية.

ملكة إنكلترا إيزابيل والملك الشمس الفرنسي كان يأكلان بأيديهما. والكاتب ميشال دي مونتان كان يقضم أصابعه وهو يتناول الغذاء مستعجلاً. وفي كل مرة كان الموسيقي كلاوديو مونتفيري يجد نفسه مضطراً إلى استخدام الشوكة، يدفع ثلاثة قداديس مقابل ارتكابه تلك الخطيئة.

زيارة للفاتيكان

أسألُ مايكل أنجلو، لعله يجيبني:

- لماذا جعلت لتمثال موسى قرنين؟

- وفي جدارية الخلق، في كنيسة السيستين، نركز جميعنا بصرنا على الإصبع التي تمنح آدم الحياة، ولكن من هي تلك الفتاة العارية التي يضمها الرب إليه بحب، أو بإهمال، بذراعه الأخرى؟

- في جدارية خلق حواء، ما الذي تفعله تلك الأغصان المكسرة في الفردوس؟ من قطعها؟ وهل كان قطع الغابات مسموحاً به؟

- وفي جدارية يوم القيامة، من هو البابا الذي يهوي إلى الجحيم، مطروداً بلكمات ملاك، وفي سقوطه يحمل معه مفاتيح البابوية وجراباً ممتلئاً؟

- الفاتيكان غطت واحداً وأربعين عضواً جنسياً رسمتَها في تلك الجدارية. هل علمتَ أن صديقك وزميلك دانييل دافولتيرا هو من غطى ما بين تلك السيقان بخرق حياء، بأمر من البابا، ولهذا السبب سميَّ: السراويلي (Braghettone Il)؟

فليتبارك العمى

في ذلك الزمن، في العام ٣٠٠، في سيراكوزا بصقلية، تقلع سانتا لوسيا عينيها، أو يقلعونها لها، لأنها رفضت قبول زوج وثني. فقدت النظر كي تكسب السماء، ويُظهر الرسم الديني القديسة تمسك طبقاً تقدم فيه عينيها لسيدنا يسوع المسيح.

بعد ألف ومئتين وخمسين سنة من ذلك، ينشر القديس إغناسيو دي لويولا، مؤسس المذهب الجيزويتي، ينشر في روما تمارينه الروحية. وهناك يكتب الشهادة التالية عن خضوعه الأعمى:

خذ أيها الرب، تلقَّ حريتي كلها، وذاكرتي، وفهمي، وكل إرادتي. وإذا كان ذلك كله قليلاً.

يجب أن أؤمن دوماً، كيما أصيب في كل أمر، أن الأبيض الذي أراه هو أسود، إذا كانت المراتب الكنسية تقرر ذلك.

ممنوع أن تكون فضولياً

المعرفة خطيئة. آدم وحواء أكلا ثمرة تلك الشجرة؛ ونالا ما جرى لهما.

بعد زمن من ذلك، تعرض نيكولاس كوبيرنيك، وجيوردانو برونو وغاليليو غاليلي للعقاب لأنهم أثبتوا أن الأرض تدور حول الشمس.

كوبرنيكوس لم يتجرأ على نشر اكتشافه الفاضح إلى أن أحس أن الموت يقترب. والكنيسة الكاثوليكية ضمت أعماله إلى قائمة الكتب المحظورة.

برونو، شاعر شريد، أشاع في الدروب هرطقة كوبرنيكوس: العالم ليس مركز الكون، وإنما هو مجرد كوكب في النظام الشمسي. سجنته محاكم التفتيش المقدسة ثماني سنوات في زنزانة. عرضت عليه التوبة عدة مرات، ورفضها برونو عدة مرات. وأخيراً جرى إحراق ذلك الرأس اليابس، أمام حشد من الناس، في السوق الروماني بكامبو دي فيوري. وبينما هو يحترق، قرّبوا صليباً من شفتيه. فأزاح وجهه.

بعد سنوات من ذلك، بينما هو يرتاد السموات باثنتين وثلاثين عدسة مكبرة في منظاره، تأكد غاليليو أن المحكوم بالموت كان على حق.

جرى اعتقاله بتهمة التجديف.

وخلال التحقيق انهار.

وبصوت عالٍ قال إنه يلعن من يصدق أن الأرض تدور حول الشمس.

وبصوت خفيض همس، كما يقولون، الجملة التي منحته الشهرة الأبدية.

انبعاث سيرفت

في العام ١٥٥٣ تحول ميغيل سيرفت إلى فحم، ومعه كتبه، في ساحة جنيف. فبطلب من ديوان التفتيش المقدس، أحرقه كالفينو حياً، وبحطب أخضر.

وكما لو أنَّ ذلك غير كافٍ، قام قضاة التفتيش الفرنسيون بإعادة إحراقه، أحرقوا صورة منحوتة له، بعد عدة شهور.

سيرفيت هو طبيب إسباني، عاش هارباً، متنقلاً من مملكة إلى أخرى، ومستبدلاً اسمه. لم يكن يؤمن بالثالوث المقدس، ولا بتلقي التعميد قبل بلوغ سن الرشد، وكان قد اقترف إهانة لا تغتفر بإثباته أن الدم ليس راكداً وأنه يدور في الجسم ويتنقى في الرئتين. لهذا السبب يسمونه اليوم كوبرنيكوس الفسيولوجيا.

وكان سيرفيت قد كتب: في هذا العالم لا وجود لأي حقيقة، وإنما ظلال تمر. وقد مرَّ ظله.

بعد قرون، رجع. وكان عنيداً مثله.

كله أوربي

نشر كوبرنيكوس، وهو يحتضر، الكتاب الذي أسس لعلم الفلك الحديث.

قبل ثلاثة قرون من ذلك، كان العالمان العربيان مؤيد الدين العرضي وناصر الدين الطوسي قد توصلا إلى نظريات كانت عظيمة الأثر في تطوير ذلك العمل. وقد استخدمها كوبرنيكوس، ولكنه لم يأت على ذكرهما.

لقد كانت أوروبا ترى العالم وهي تنظر في المرآة.

في ما عداها، العدم.

الاختراعات الثلاثة التي جعلت عصر النهضة ممكناً، أي البوصلة والبارود والمطبعة، أتت من الصين. وكان البابليون قد سبقوا فيثاغورث بألف وخمسمائة عام. وقبل الجميع، كان الهنود قد عرفوا أن الأرض كروية وكانوا قد حسبوا عمرها. وأفضل من الجميع، كان شعب المايا قد عرف النجوم، عيون الليل، وأسرار الزمن.

هذه الصغائر لم تكن جديرة بالاهتمام.

جنوب

الخرائط العربية ما زالت ترسم الجنوب في الأعلى والشمال في الأسفل، ولكن أوروبا، منذ القرن الثالث أقرت النظام الطبيعي للكون.

وحسب قواعد هذا النظام الذي أملاه الرب، الشمال في الأعلى والجنوب في الأسفل.

كان العالم جسداً. في الشمال الوجه، نظيفاً، ينظر إلى السماء. وفي الجنوب الأجزاء السفلية، قذرة، حيث تستقر القذارات والكائنات القاتمة، المدعوة النقيض المقابل، وهي الصورة المعكوسة لساكني الشمال المشعين.

في الجنوب، الأنهار تجري معكوسة، والصيف بارد، والنهار ليل، والشيطان هو الرب. السماء سوداء، وهي خاوية. فالنجوم هربت إلى الشمال.

كتاب الحيوان

خارج أوروبا، تحوم المسوخ، يجأر البحر وتلتهب الأرض. وقلة هم الرحالة الذين استطاعوا اجتياز الخوف. وعند عودتهم،رووا.

أودوريكو دي بوردينون الذي سافر منذ العام ١٣١٤، رأى طيوراً برأسين ودجاجات مغطاة بالصوف بدل الريش. وفي بحر قزوين، تخرج من النباتات حملان حية. وفي صحراء غوبي، تصل خصى الرجال حتى ركبهم. وفي أفريقيا، يتزوج الأقزام عند بلوغهم الشهر السادس من العمر وينجبون أبناء.

جان دي مانديفيلا زار بعض جزر الشرق في العام ١٣٥٦. ورأى هناك أناساً بلا رؤوس، يأكلون ويتكلمون من فم مفتوح في الصدر، ورأى كذلك أناساً بقدم واحدة، تستخدم أحياناً كمظلة تقي من المطر أو من الشمس. وآخرون لهم أثداء وأعضاء ذكرية، أو لحى ورحم، ويمكن لهم أن يكونوا رجالاً أو نساء حسب مشيئتهم. وسكان جزيرة تاكوردي الذين لا يأكلون سوى أفاع نيئة، لا يتكلمون. بل يصفرون.

في العام ١٤٨٠، اكتشف الكردينال بيير دي إيللي آسيا كما يروي عنها الرحالة. ففي جزيرة تابروبانا توجد جبال ذهب تحرسها تنانين ونمال لها حجم الكلاب.

أنطونيو بيغافيتا دار حول العالم عام ١٥٢٠. ورأى أشجاراً تطلق أوراقاً لها أقدام وكل شيء، وخلال النهار تنفصل الأوراق عن الأغصان وتذهب للتنزه.

تأسيس الرياح البحرية

حسب ما يرويه البحارة القدماء، كان البحر هادئاً، مثل بحيرة هائلة بلا أمواج ولا تموجات. وكان بالإمكان الإبحار فيه بالتجديف فقط.

عندئذ وصل زورق تائه في الزمان إلى الجانب الآخر من العالم ووجد الجزيرة التي تعيش فيها الرياح. فأمسك بها البحارة، وحملوها وأجبروها أن تهّب. انزلق الزورق، مدفوعاً بالرياح السجينة، والبحارة الذين أمضوا قروناً وهم يجذفون ويجذفون، صار بإمكانهم أخيراً أن يستلقوا ويناموا.

لم يستيقظوا قطّ.

الزورق اصطدم بنتوء صخري.

ومنذ ذلك الحين تمضي الرياح باحثة عن الجزيرة التي كانت بيتها. وعبثاً تجوب بحار العالم السبعة رياح الصابيات الشمالية، ورياح البَسّارة الموسمية، ورياح الأعاصير. وانتقاماً من ذلك الاختطاف، تُغرق في بعض الأحيان السفن التي تعترض سبيلها.

خريطة الما بعد

منذ ألفيتين تقريباً، هجس سينيكا أن خريطة العالم ستتسع ذات يوم أبعد من ايسلند التي كانوا يسمونها آنذاك تولي

كتب سينيكا الذي كان إسبانياً:

ستأتي في عهود متأخرة من العالم

أزمنة يُرخي فيها البحر المحيط

أربطة الأشياء.

وستنفتح أراضٍ جديدة.

وملاح جديد،

مثل ذاك الذي كان دليلاً لجاسون

وكان يدعى تيفس،

سيكتشف عالماً جديداً

ولا تعود جزيرة تولي هي الأراضي الأخيرة.

كولومبس

متحدياً غضب الرياح وجوع المسوخ التي تلتهم سفناً، انطلق الأميرال كريستوف كولومبس في البحر.

لم يكتشف أميركا. فقبل قرن من ذلك كان قد وصل إليها البولنيزيون، وقبل خمسة قرون كان قد وصلها الفايكنغ. وثلاثمئة قرن قبلهم جميعاً، كان قد وصلها أقدم ساكني هذه الأراضي الذين سماهم كولومبس هنوداً لاعتقاده بأنه قد دخل إلى الشرق من الباب الخلفي.

ولأنه لم يكن يفهم ما يقوله أولئك الوطنيون، ظن كولومبس أنهم لا يعرفون التكلم، ولأنهم كانوا عراة، وكانوا وادعين ويقدمون كل شيء مقابل لا شيء، ظن أنهم ليسوا أناساً عاقلين.

ومع أنه مات مقتنعاً بأن رحلاته أوصلته إلى آسيا، إلا أن الشكوك كانت تخامر كولومبس. وقد أزال تلك الشكوك في رحلته الثانية. فعندما رست سفنه في كوبا، في منتصف حزيران ١٤٩٤، أملى الأميرال محضراً أقر فيه أنه في الصين. وخلّف وثيقة إثبات بأن ملاحيه يعترفون بذلك؛ ومن يقول عكس ذلك سيجلده مئة جلدة، ويُغرم بمبلغ عشرة آلاف مرابطي ويُقطع لسانه.

وفي أسفل الوثيقة، وقّع البحارة القليلون الذين يعرفون التوقيع.

وجوه

انطلقت السفن الشراعية من ميناء بالوس، باتجاه الطيور التي تحلق نحو العدم.

بعد أربعة قرون ونصف من الرحلة الأولى، دانييل باثكيث دياث رسم جدران دير رابيدا، الملاصق للميناء، تكريماً لاكتشاف أميركا.

وبالرغم من أن الفنان أراد أن يحتفي بتلك المأثرة، إلا أنه كشف دون إرادته أن كولومبس وبحارته جميعاً كانوا في مزاج سيئ جداً. ففي رسومه لا أحد يبتسم. تلك الوجوه المتطاولة، والذاهلة، لا تشي بأي شيء طيب. إنها تهجس بالأسوأ. ربما كان أولئك البائسون المنتزعون من السجون أو المخطوفون من الموانئ يعرفون أنهم ذاهبون لإنجاز العمل القذر الذي تحتاج إليه أوروبا لتصير إلى ما هي عليه.

مصائر

باسم التاج الإسباني، جرى تقييد كريستوف كولومبس بالسلاسل، في رحلته الثالثة عبر البحر المحيط، وأعيد إلى إسبانيا.

باسم التاج الإسباني، فقد فاسكو نونيث بالبوا رأسه.

باسم التاج الإسباني، جرت محاكمة بيدرو دي ألفارادو وحبسه.

دييغو دي ألماغرو مات خنقاً على يد فرانثيسكو بيثارّو الذي تلقى على الفور ست عشرة طعنة من ابن ضحيته.

روبرتو دي باستيداس، أول إسباني أبحر في نهر مجدلينا، أنهى حياته مطعوناً على يد معاونه.

كريستوبال دي أوليد، فاتح هندوراس، فقد عنقه بأمر من هرنان كورتيس.

هرنان كورتيس، أوفر الفاتحين حظاً، توفي ماركيزاً وفي فراشه، لكنه لم ينج من الخضوع لمحاكمة على يد مبعوث الملك.

أميركو

"فينوس بوتشلي"، هكذا كانت تسمى سيمونيتا، وكانت تعيش في فلورنسا، وتزوجت من ابن عمها أميركو فيسبوشي. وأميركو المجروح في حبه لم يخمد أحزانه بالدموع، وإنما في مياه البحر، وفي إبحاره وصل إلى الأراضي التي تحمل الآن اسمه.

تحت نجوم لم تُرَ قطّ في السماء، وجد أميركو أناساً ليس لهم ملك، ولا أملاك، ولا ملابس، ويعتبرون الريش أغلى من الذهب، واستبدل منهم صنجاً من الصفيح بمئة وسبع وخمسين لؤلؤة تساوي ألف دوقية. وقد عاش على أحسن حال بين أولئك السذج الخطرين، وإن كان ينام بعين واحدة في الليل خوفاً من أن يضربوه بهراوة ويشوونه على السفود.

في أميركا، أحس أميركو أنه يفقد الإيمان. لقد كان حتى ذلك الحين يصدق، حرفياً، كل ما يقوله الكتاب المقدس. ولكنه بعد رؤيته ما رأى، لم يعد يصدق بأي حال تلك القصة عن سفينة نوح، لأنه لا يمكن لأي سفينة، مهما كانت ضخمة، أن تأوي كل تلك الطيور ذات الألف تغريد، وكل تلك الأعداد الجنونية من الحيوانات والدواب والدويبات العجيبة.

إيزابيل

انطلق كولومبس من ميناء بالوس الصغير وليس من قادس، مثلما كان مقرراً، لأنه لم يكن في ميناء قادس متسع لدبوس. ففي ميناء قادس كان يجري إبعاد ألاف وآلاف اليهود عن أرض أجدادهم وأجداد أجدادهم.

قام كولومبس برحلته بفضل الملكة إيزابيل. وكذلك اليهود: فهي من طردتهم.

ملكا إسبانيا آنذاك كانا اثنين: إيزابيل وفرناندو، ولكن فرناندو كان مشغولاً بالسيدات والفراش أكثر من اهتمامه بشؤون السلطة.

بعد طرد اليهود جاء دور المسلمين. عشر سنوات قاتلت إيزابيل ضد المعقل الإسلامي الأخير في إسبانيا. وعندما بلغت حربها الصليبية أوجها وسقطت غرناطة، فعلت كل ما تستطيعه من أجل إنقاذ تلك الأرواح المحكومة بالنار الأبدية. عرضت عليهم برحمتها الواسعة الغفران والتحول عن ديانتهم. ردوا عليها بالعصي والأحجار. عندئذ لم تجد وسيلة أخرى: أمرت بإحراق كتب الطائفة المحمدية في الساحة الكبرى في المدينة المغزوة، وطردت الكفرة المتمسكين بديانتهم الزائفة وبهوسهم بالتكلم بالعربية.

مراسيم طرد أخرى وقعها الملوك اللاحقون أكملت عملية التطهير. لقد أرسلت إسبانيا إلى المنفى الأبدي أبناءها ذوي الدماء الملوثة، اليهود والمسلمين، وهكذا أُفرغت من أفضل حرفييها وعلمائها، من مزارعيها الأكثر تقدماً ومن صيارفتها وتجارها الأوسع خبرة. وتكاثر بالمقابل متسولوها ومحاربوها، ونبلاؤها الطفيليون ورهبانها المتعصبون، وجميعهم من ذوي الدماء المسيحية النقية.

إيزابيل المولودة يوم خميس مقدس، المتعبدة الورعة لعذراء الآلام، أسست محاكم التفتيش الإسبانية وعيّنت متلقي اعترافاتها توركيمادا في منصب قاضي التفتيش الأعلى.

وصيتها المتخمة بالحماسة الصوفية، تلح على الدفاع عن نقاء الإيمان ونقاء العرق. وقد توسلت إلى الملوك التاليين وأمرتهم بألا يتوقفوا عن الدفاع عن الإيمان ضد الكفار وأن يمنحوا الأفضلية الكبيرة على الدوام لمحاكم التفتيش المقدسة.

أعمار خوانا المجنونة

في السادسة عشرة من عمرها زوجوها من أمير فلامنكي. زَوّجها أبواها، الملكان الكاثوليكيان الإسبانيان. ولم تكن قد رأت ذلك الرجل قطّ.

في الثامنة عشرة اكتشفت الحمام. وصيفة عربية في حاشيتها علمتها متع الماء. فصارت خوانا المتحمسة تستحم كل يوم. والملكة إيزابيل المذعورة علّقت: ابنتي غير سوية.

في الثالثة والعشرين تحاول استعادة ابنها الذي لم تكد تراه تقريباً لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة. لقد فقدت ابنتي عقلها، يعلن أبوها، الملك فرناندو.

في الرابعة والعشرين، خلال رحلة إلى الفلاند، تغرق السفينة. فتطالب هي دون مبالاة بأن يُقدم لها الطعام. إنك مجنونة! يصرخ بها زوجها وهو يلعبط بقدميه بهلع، محشوراً في إطار نجاة ضخم.

في الخامسة والعشرين، تنقض على بعض السيدات البلاط وفي يدها مقص، وتجز تجعيدات شعورهن، لاشتباهها بخيانة زوجية.

في السادسة والعشرين، تترمل. فزوجها المتوج ملكاً للتو، قد شرب ماء مثلجاً. ترتاب في أنه قد سُمم. لا تذرف دمعة واحدة، ولكنها ترتدي منذ ذلك الحين السواد إلى الأبد.

في السابعة والعشرين، تمضي الأيام جالسة على عرش قشتالة، ونظرها تائه في الفراغ. ترفض توقِّع القوانين والرسائل وكل ما يأتونها به.

في التاسعة والعشرين، يعلن أبوها أنها معتوهة، ويحبسها في قلعة على ضفة نهر دويرو. ترافقها كتالينا، أكبر بناتها. وتكبر الطفلة في زنزانة مجاورة، ومن خلال النافذة ترى أطفالاً آخرين يلعبون.

في السادسة والثلاثين، تظل وحيدة. فابنها كارلوس الذي سيصير بعد وقت قصير إمبراطوراً، يأخذ أخته كتالينا. وتعلن هي إضراباً عن الطعام إلى أن تعود إليها. يقيدونها، يضربونها، يجبرونها على الأكل. وكتالينا لا تعود.

في السادسة والستين، بعد نصف قرن تقريباً من حياة السجن، تموت هذه الملكة التي لم تمارس الملك. وكانت قد أمضت زمناً طويلاً دون أن تتحرك، وهي تنظر إلى لا شيء.

كارلوس

ابن خوانا المجنونة صار ملكاً وورث سبعة عشر تاجاً، بالغزو أو بالشراء.

في العام ١٥١٩، في فرانكفورت، صار إمبراطور أوروبا بتقديمه طُنين من الذهب لإقناع ناخبي تاج الإمبراطورية. وقد استدان تلك الحجة الحاسمة من المصرفيين الألمانيين فيغر

وفيلسير، والجنويين فورناري وفيفالدو، والفلورنسي غوالتيروتي. كان عمر كارلوس تسعة عشر عاماً، وصار منذ ذلك الحين أسير المصرفيين.
لقد كان ملكاً حاكماً وملكاً محكوماً.

إنكار الإرث

ذات ليلة، في مدريد، سألتُ سائق سيارة الأجرة:
- ما الذي جلبه "المورو" إلى إسبانيا؟
- مشاكل - أجابني دون لحظة شك أو تردد واحدة.
المدعوون "مورو" كانوا إسباناً بثقافة إسلامية، عاشوا في إسبانيا طوال ثمانية قرون، اثنين وثلاثين جيلاً، وتألقوا هناك كما لم يتألقوا في أي مكان آخر. إسبان كثيرون يجهلون، حتى الآن، الألق الذي خلّفته تلك الأنوار. فالإرث الإسلامي يتضمن ضمن ما يتضمن:
التسامح الديني الذي انتهى على يد الملوك الكاثوليك.
طواحين الهواء، والحدائق والقنوات التي مازالت توفر ماء الشرب لعدة مدن وتروي حقولها.
خدمة البريد العامة.
الخل، والخردل، والزعفران، والقرفة، والكَمّون، وسُكّر القصب، والزلابية، وكرات اللحم، والفواكه المجففة.
الشطرنج.
العدد صفر والأعداد التي نستخدمها.
الجبر وحساب المثلثات.
الأعمال الكلاسيكية لفيثاغورث، وبطليموس، وأفلاطون، وأرسطو، وإقليدس، وأرخميدس، وأبقراط، وجالينوس، ومؤلفين آخرين انتشرت أعمالهم، بفضل ترجمتها العربية، في إسبانيا وأوروبا.
وأربعة آلاف كلمة عربية مندمجة في اللغة القشتالية.
وعدة مدن هي آيات في الجمال، مثل غرناطة التي يتغنى بها مقطع لشاعر مجهول كما يلي:
أعطِ الضرير صدقة يا امرأة،
فليس في الحياة شيء
أقسى من حزن كون المرء
أعمى في غرناطة.

ابن ميمون وابن رشد

الثقافة اليهودية والثقافة الإسلامية ازدهرتا معاً، في إسبانيا الخلافة.

إنهما عالمان، ابن ميمون يهودي، وابن رشد مسلم، ولدا في الوقت نفسه تقريباً، في قرطبة، في القرن الثاني عشر، وجابا الدروب نفسها.

كلاهما كان طبيباً. سلطان مصر كان مريضاً عالجه ابن ميمون، وابن رشد كان يعنى بصحة خليفة قرطبة، دون أن ننسى أبداً أنه كتب: الطب هو السبب في معظم الميتات.

وكلاهما كان كذلك مشرِّعاً. ابن ميمون نظم القانون العبري الذي كان مبعثراً حتى ذلك الحين، وأضفى تماسكاً ووحدة على كتابات كثيرة لحاخامات اهتموا بالموضوع. وكان ابن رشد أعلى سلطة قانونية في الأندلس الإسلامية، وقد أقرت أحكامه نظاماً قضائياً استمر عدة قرون في التشريعات القانونية الإسلامية.

وكلاهما كان فيلسوفاً. كتب ابن ميمون "دليل الحائرين"، كي يساعد اليهود، الذين اكتشفوا الفلسفة الإغريقية بفضل الترجمات العربية، على تجاوز التناقض بين العقل والإيمان.

وهذا التناقض نفسه أدى إلى إدانة ابن رشد. فالأصوليون اتهموه بأنه يضع العقل البشري فوق الوحي الإلهي. والأدهى من ذلك أنه كان يرفض قصر الممارسة العقلية على النصف الذكوري من البشرية، ويقول إن النساء في بعض الشعوب الإسلامية أشبه بالنباتات. ودفع الثمن حكماً عليه بالنفي.

لم يمت أي منهما في المدينة التي ولد فيها. فابن ميمون مات في القاهرة، وابن رشد في مراكش. وقد حملت بغلةٌ ابن رشد لتعيده إلى قرطبة. كانت البغلة تحمل جسده وكتبه المحظورة.

حجر

عندما اجتاحت السلطة الكاثوليكية المنتصرة مسجد قرطبة، حطمت نصف الأعمدة الألف التي كانت فيه وملأت أمكنتها بتماثيل قديسين معذبين.

كاتدرائية قرطبة، هذا هو الاسم الرسمي للمكان الآن، ولكن لا أحد يدعوه بهذا الاسم. إنه المسجد. وهذه الغابة من الأعمدة التي نجت، مازالت معبداً إسلامياً، وإن كانت عبادة الله محظورة فيه.

في مركز الطقوس الاحتفالية، في الحيز المقدس، يوجد حجر كبير عارٍ. تركه القسس هناك. وقد ظنوا أنه حجر أبكم.

الماء والضوء

هناك، في العام ألف وستمئة وبضع سنوات، أراد النحات لويس دي لابينيا أن ينحت الضوء.
أمضى حياته في محترفه، في أحد أزقة غرناطة، يريد تحقيق ذلك ولا يستطيعه.
لم يخطر بباله قطّ أن يرفع بصره. فهناك في أعلى الرابية ذات التراب الأحمر، كان نحاتون آخرون قد نحتوا الضوء، والماء أيضاً.
ففي برج وحدائق قصر الحمراء، تاج المملكة الإسلامية، كان أولئك الفنانون قد جعلوا المأثرة المستحيلة ممكنة.
قصر الحمراء ليس منحوتة ساكنة. إنه يتنفس ويلعب لعبة الماء والضوء اللذين يستمتعان بالتلاقي: ضوء حي، وماء مسافر.

ممنوع عليك أن تكون

حفيد الملكة إيزابيل، الإمبراطور فيليبه الثاني، عدو الماء والضوء، أكد على بعض المحظورات ضد من يُسمون الموريسكيين، وبينما كان العام ١٥٦٧ يولد، قرر أن يطبقها بيد من حديد.
من غير المسموح:
التكلم والقراءة والكتابة بالعربية.
ارتداء الملابس حسب التقاليد المعهودة.
إقامة احتفالات بأدوات وأناشيد موريسكية،
استخدام أسماء أو ألقاب موريسكية.
والاستحمام في الحمامات العامة.
هذا الحظر الأخير كان يحظر ما لم يعد موجوداً.
فقبل قرن من ذلك، كان هناك ستمئة حمام عمومي في مدينة قرطبة وحدها.

أوسع الرجال سطوة في هذا العالم يعيش في العالم الآخر

الإمبراطور تشين كان مؤسس الصين ومن أجله سُميت بهذا الاسم. والإمبراطور فيليبه الثاني الذي كان مالك وسيد نصف العالم، من أميركا حتى جزر الفيليبين التي من أجله سميت بهذا الاسم. كلاهما كان يعيش لموته.

فالعاهل الإسباني كان يكرس نهايات الأسبوع لزيارة مدفن الاسكوريال المخصص من أجل راحته الأبدية، وكان ينام أفضل قيلولاته في النعش. لأنه بهذه الطريقة يأخذ بالتعود.

أما ما سوى ذلك فهو بلا أهمية. أسطوله "الأرمادا الظافرة" حلت به الهزيمة، وغزت شِباك العنكبوت صناديق الخزينة الملكية، لكن نزهاته إلى معبد ضريحه كانت تنقذه من جحود العالم.

الملك فيليبه أمر بأن يقام ستون ألف قداس تكريماً لمجده الشخصي، عندما غادر العرش إلى المدفن آخر مرة.

آخر وميض للعمائم

حي المسلمين "الموريريّا" انفجر. ضد المحظورات انتفض أتباع محمد الذين ما زالوا في الأراضي الأندلسية.

انقضى أكثر من عام وجنود يسوع لا يتمكنون من إطفاء تلك النيران، إلى أن تلقوا، كما في أزمنة الحروب الصليبية، مساعدة حاسمة: مُنحوا الحق بالغنائم، سطو معفى من الضرائب واستعباد للأسرى.

تمكنت قوى النظام من السيطرة على محاصيل القمح والشعير، وعلى اللوز، والأبقار، والأغنام، والحرائر، والذهب، والملابس، والعقود، والطفلات والسيدات. وباعوا في مزاد علني من اصطادوه من الرجال.

الشيطان يهودياً

هتلر لم يخترع جديداً. فمنذ حوالي ألفي عام واليهود هم قتلة يسوع الذين لا غفران لهم والمذنبون في كل الخطايا.

كيف؟ أكان يسوع يهودياً؟ وكذلك الاثنا عشر حوارياً والإنجيليين الأربعة كانوا يهوداً؟ ما الذي تقوله؟ هذا غير ممكن. فالحقائق المتكشفة تُبعد أي نوع من الشكوك: فالشيطان يملي

دروساً في الكُنس اليهودية، واليهود يعكفون منذ الأزل على تدنيس خبز القربان، وتسميم الماء المقدس، وعلى التسبب في إفلاس المؤسسات ونشر الأوبئة.

إنكلترا طردتهم، دون أن تبقي واحداً منهم في العام ١٢٩٠، ولكن ذلك لم يمنع مارلو وشكسبير، ربما دون أن يكونا قد رأيا يهودياً في حياتهما، من أن يبدعا شخصيات تتفق مع كاريكاتير الطفيلي مصاص الدماء والمرابي الجشع.

إنهم متهمون بخدمة الشيطان الخبيث، هؤلاء الملاعين الذين ذرعوا العصور من طرد إلى طرد ومن مذبحة إلى مذبحة. وبعد إنكلترا، جرى طردهم على التوالي من فرنسا، والنمسا، وإسبانيا، والبرتغال، والعديد من المدن السويسرية والألمانية والإيطالية. كانوا قد عاشوا في إسبانيا طوال ثلاثة عشر قرناً. حملوا معهم مفاتيح بيوتهم. وهناك من لا يزالون يملكونها حتى الآن.

المذبحة الكبرى التي نظمها هتلر كانت ذروة تاريخ طويل.

لقد كان اصطياد اليهود رياضة أوروبية على الدوام.

والفلسطينيون الذين لم يمارسوا هذه الرياضة قطّ، هم من يدفعون الثمن اليوم.

الشيطان زنجياً

كما الليل، وكما الخطيئة، الزنجي عدو للنور والبراءة.

في كتاب رحلاته الشهير، أتى ماركو بولو على ذكر سكان زنجبار: لهم أفواه كبيرة جداً، وشفاه غليظة جداً، وأنوف كالقردة، ويمضون عراة وهم سود بالكامل، بحيث يمكن لمن يراهم في أي منطقة أخرى من العالم أن يظن أنهم شياطين.

بعد ثلاثة قرون من ذلك، في إسبانيا، كان الشيطان يدخل مطلياً بالأسود، في عربة نار، إلى فناء المسرحيات ومنصات الأسواق الشعبية. والقديسة تيريسا لم تستطع قطّ إزاحته بعيداً عنها. ففي إحدى المرات مرّ بجانبها، وكان زنجياً فظيعاً جداً. وفي مرة أخرى رأته ولهب أحمر عظيم يخرج من جسده الأسود، عندما جلس على كتاب صلواتها وأحرق لها التراتيل.

وفي أميركا التي استوردت ملايين العبيد، كان معروفاً أن الشيطان هو من يقرع الطبول في المزارع، داعياً إلى العصيان، ويُدخل موسيقى واهتزازات وارتعاشات في أجساد أبنائه الذين يولدون للخطيئة. حتى إن مارتين فييرّو، الغاوتشو الفقير والمعذب، كان يشعر بأنه على ما يرام بالمقارنة مع الزنوج الذين هم أشد خوزقة منه:

- هؤلاء صنعهم الشيطان - يقول - ليكونوا جمر الجحيم.

الشيطان امرأة

كتاب "مطرقة السحرة"، المسمى كذلك "مطرقة الشيطان"، يوصي بأقصى تعزيم دون رحمة ضد الشيطان الذي له ثديان وشعر طويل.

قاضيا محكمة تفتيش ألمانيان، هنريش كرمير وجاكوب سبرينغر، كتبا بتكليف من البابا إنوسنت الثامن ذلك الأساس القانوني والديني لمحاكم التفتيش المقدسة.

يُثبت المؤلفان أن الساحرات، حريم الشيطان، يمثلن النساء في حالة طبيعية، لأن كل ساحرة تولد من الشبق الجسدي، وهو ما لا يمكن إشباعه في النساء. ويحذران من أن هذه الكائنات ذات المظهر الجميل، والملمس الكريه والرفقة القاتلة يسحرن الرجال ويجتذبنهم، صفير أفاع، أذيال عقارب، من أجل القضاء عليهم.

وتنصح هذه الأطروحة في علم الإجرام بإخضاع كل مشبوهة بممارسة السحر للتعذيب. فإذا اعترفت، استحقت النار. وكذلك إذا لم تعرف، لأنه لا يمكن إلا لساحرة، متمسكة بعشيقها الشيطان في اجتماعات السحرة الليلية السرية، أن تتحمل مثل ذلك التعذيب دون أن ينفلت لسانها.

وكان البابا هونوريو الثالث قد أفتى:

- يجب على النساء ألا يتكلمن. فأفواههن تحمل وصمة حواء التي كانت السبب في ضياع الرجال.

بعد ثمانية قرون من ذلك، مازالت الكنيسة الكاثوليكية تنكر عليهن الوعظ على المنبر.

والرعب نفسه يدفع الأصوليين الإسلاميين إلى ختانهن وتغطية وجوههن.

والراحة من تفادي ذلك الخطر هو ما يدفع اليهود المتعصبين إلى بدء يومهم بالهمس:

- حمداً للرب لأنه لم يجعلني امرأة.

الشيطان فقيراً

في مدن أزمنتنا، سجون فسيحة تحبس أسرى الخوف، يسمون الحصون بيوتاً ويُظهرون الدروع على أنها بدلات.

حالة طوارئ. لا تسهو، لا تخفف حذرك، لا تثق. سادة العالم يطلقون صرخة الإنذار. هم الذين يرتكبون، دون عقاب، اغتصاب الطبيعة، واختطاف بلدان، وسرقة رواتب، واغتيال جموع، يحذروننا: حذار. الأخطار تترصد، كامنة في أحياء الضواحي البائسة، تقضم الحسد،

وتبتلع الأحقاد.
الفقراء: الصعاليك، موتى الحروب، نزلاء السجون، الأيدي العاملة الجاهزة، الأيدي العاملة التي يمكن الاستغناء عنها.
الجوع الذي يقتل بصمت، يقتل الصامتين. والخبراء، علماء علم الفقر، يتكلمون عنهم. يقولون لنا إنهم حين لا يعملون، لا يأكلون. وحين لا يزِنون ولا يقيسون، فلأنهم لا يملكون. وأنهم لا يفكرون ولا يصوتون، لأنهم لا يصدقون.
ما تنقصنا هي معرفة السبب في كون الفقراء فقراء. أيكون ذلك لأن جوعهم يطعمنا وعريهم يكسونا؟

الشيطان أجنبياً

جهاز قياس الذنوب يشير لنا إلى أن المهاجر يأتي ليسرق منا وظيفتنا وجهاز قياس الخطر يشير إليه بضوء أحمر.
إذا كان فقيراً، شاباً وغير أبيض، فإن الدخيل، من جاء من الخارج، محكوم عليه من النظرة الأولى بسبب العوز، أو الميل إلى الفوضى أو لون البشرة. وإن لم يكن، على أي حال، فقيراً، ولا شاباً، ولا قاتم البشرة، فإنه يستحق عدم الترحيب في كل الأحوال، لأنه يأتي مستعداً للعمل ضعف ما نعمله وتقاضي نصف الأجر.
هلع فقدان الوظيفة هو أشد أشكال الخوف التي تتحكم بنا في أزمنة الخوف هذه، والمهاجر موجود على الدوام في متناول اليد عند توجيه الاتهام إلى المتسببين في البطالة، وانخفاض الأجور، وعدم الأمان العام وغيرها من النكبات المرهوبة.
في ما مضى. نزفت أوروبا نحو جنوبي العالم جنوداً، وسجناء، وفلاحين يموتون جوعاً. أبطال المغامرات الاستعمارية أولئك دخلوا التاريخ باعتبارهم وكلاء الرب الجوالين. لقد كانت الحضارة مندفعة لإنقاذ الهمجية.
الآن، تجري الرحلة معكوسة. ومن يَصِلون، أو يحاولون الوصول، من الجنوب إلى الشمال، هم أبطال النكبات الاستعمارية، وسيدخلون التاريخ باعتبارهم رسل الشيطان. إنهم البربرية تندفع لغزو الحضارة.

الشيطان شاذ جنسياً

في أوروبا عصر النهضة، كانت النار هي المصير الذي يستحقه أبناء النار الذين من النار جاؤوا. كانت إنكلترا تعاقب بحكم الموت الرهيب من أقام علاقة جنسية مع حيوانات، أو يهوداً، أو أشخاصاً من الجنس نفسه.

باستثناء مملكتي الأزتيك والإنكا، كان الشاذون جنسياً أحراراً في أميركا. الغازي فاسكو نونيث دي بالبوا أطلق الكلاب الجائعة على الهنود الذين يمارسون هذا الشذوذ بكل تلقائية. وكان يعتقد أن الشذوذ الجنسي مرض معدٍ. بعد خمسة قرون من ذلك سُمع مطران مونتيفيديو يقول الشيء نفسه.

المؤرخ ريتشارد نيكسون كان يعرف أن هذه الرذيلة وبيلة على الحضارة:

- أتعلمون ما الذي حلّ بالإغريق؟ لقد دمرهم الشذوذ الجنسي! هذا مؤكد. أرسطو كان شاذاً. جميعنا نعرف ذلك. وسقراط أيضاً. وهل تعرفون ما الذي حلّ بالرومان؟ أخر ستة أباطرة كانوا مخنثين...

ناشر الحضارة أدولف هتلر اتخذ إجراءات متشددة من أجل إنقاذ ألمانيا من هذا الخطر. المنحطون المذنبون بهذه الجريمة المنحرفة المخالفة للطبيعة أجبروا على تعليق مثلث وردي على صدورهم. كم منهم مات في معسكرات الاعتقال؟ لم يُعرف ذلك قطّ.

في العام ٢٠٠١، قررت الحكومة الألمانية تصحيح أمر استبعاد الشاذين جنسياً من ضحايا الهولوكست. أكثر من نصف قرن تطلبه تصحيح السهو.

الشيطان غجرياً

هتلر كان يرى في الجائحة الغجرية تهديداً، ولم يكن وحيداً في اعتقاده.

فمنذ قرون اعتقد كثيرون ومازالوا يعتقدون أن هذه السلالة غامضة الأصول وقاتمة البشرة تحمل الجريمة في دمها: إنهم ملعونون دوماً، شذاذ آفاق، جوابو عوالم لا بيت لهم إلا الدروب، مغتصبو آنسات وأقفال، أيدٍ ساحرة في استخدام ورق اللعب والسكين.

في ليلة واحدة من شهر آب ١٩٤٤، تحول ألفان وثمانمئة وسبعة وتسعون غجرياً، نساء، أطفال، رجال، إلى دخان في حجرات الغاز في أوشفيتز.

ربع عدد الغجر في أوروبا جرت تصفيتهم في تلك السنة.

من سأل عنهم؟

الشيطان هندياً

فاتحو أميركا أكدوا أن إبليس المطرود من أوروبا وجد ملاذاً في جزر وشواطئ البحر الكاريبي، وأنه قبّلها بفمه الذي ينطلق منه اللهب.

فهناك تعيش كائنات بهيمية تطلق على خطيئة الجسد تسمية اللعب وتمارسها دون مواقيت ولا عقود، وتجهل الوصايا العشر والأسرار السبعة والخطايا الكبرى السبع، ويمضون عراة ولديهم عادة أكل بعضهم بعضاً.

كان فتح أميركا مهمة طويلة وقاسية. فالشيطان يضرب جذوره بقوة في تلك الأراضي، حتى إنه عندما يبدو أن الهنود قد ركعوا بخشوع أمام العذراء، إنما يكونون يعبدون في الواقع الحية التي تسحقها العذراء تحت قدمها، وعندما يقبّلون الصليب، إنما يحتفلون بلقاء المطر مع الأرض.

لقد أنجز الفاتحون مهمة أن يعيدوا إلى الرب الذهب والفضة والثروات الكثيرة الأخرى التي كان الشيطان قد اغتصبها. لم يكن استرداد الغنيمة سهلاً. ولحسن الحظ أنهم كانوا يتلقون، بين حين وآخر، ماء مباركاً مساعدة من هناك من فوق. فعندما هيأ سيد الجحيم كميناً في أحد المنحدرات الجبلية، ليمنع مرور الإسبان إلى جبل بوتوسي الغني بالفضة، نزل ملاك من الأعالي ووجّه إليهم ضربة رهيبة.

تأسيس أميركا

في كوبا، على حدّ قول كريستوف كولومبس، هنالك حوريات لهن وجوه رجال وريش ديوك.

وفي غوايانا، حسب قول السير والتر رالي، هناك أناس عيونهم في أكتافهم وأفواههم في صدورهم.

وفي فنزويلا، حسب الراهب بيدرو سيمون، هنالك هنود لهم آذان طويلة جداً إلى حدّ أنهم يجرجرونها على الأرض.

وفي نهر الأمازون، حسب قول كريستوبال دي أكونيا، كان هنالك وطنيون أقدامهم معكوسة، الكعوب من أمام والأصابع إلى الخلف.

وحسب بيدرو مارتين دي أنغليريا الذي كتب أول تاريخ لأميركا، ولكن دون أن يكون قد ذهب إليها قط، هنالك في العالم الجديد رجال ونساء لهم ذيول طويلة جداً إلى حد لا يستطيعون معه الجلوس إلا على مقاعد مثقوبة.

تنين الشر

في أميركا، وجدت أوروبا عظاءة الإغوانا.

هذه الدابة الشيطانية هُجس بها مسبقاً عند تخيل التنانين. الإغوانا لها رأس تنين، وصدر تنين، وعُرف تنين، وجلد تنين، ومخالب وذيل تنين.

ولكن إذا كان التنين مثل الإغوانا، فقد أخطأت حربة القديس جرجس. فالإغوانا لا تصبح غريبة الأطوار إلا عند الحب. فهي تبدل عندئذ لونها ومزاجها، تمضي عصبية، تنسى الجوع وتفقد التوجه وتتحول إلى مرتابة وعديمة الثقة. أما عندما لا يعذبها الحب، فإنها تتسلق أشجاراً للبحث عن أوراق لذيذة، وتسبح في الأنهار لمجرد المتعة بالسباحة، وتستلقي لتنام القيلولة تحت الشمس، على الأحجار، وهي تعانق إغوانات أخرى. إنها لا تهدد أحداً، بل إنها لا تعرف كيف تدافع عن نفسها، وليست قادرة على التسبب بآلام بطن للبشر الذين يأكلونها.

أمريكيون

يروي التاريخ الرسمي أن فاسكو نونيث دي بالبوا هو أول رجل رأى، من قمم بنما، البحرين المحيطين. ومن كانوا يعيشون هناك، هل كانوا عمياناً؟

ومن هم من أطلقوا أول الأسماء على الذرة والبطاطا والبندورة والشوكولاتة والجبال والأنهار في أمريكا؟ أهو هيرنان كورتس، أو فرانثيسكو بيثارو؟ ومن كانوا يعيشون هناك، هل كانوا بُكماً؟

لقد سمع ذلك حجاج مايفلور: الرب يقول إن أميركا هي الأرض الموعودة. ومن كانوا يعيشون هناك، هل كانوا صماً؟

بعد ذلك، أحفاد أولئك الحجاج في الشمال استولوا بالكامل على اسم أميركا وعلى كل شيء. والآن، صاروا هم الأمريكيين. ونحن الذين نعيش في أميركا الوسطى والجنوبية، من نحن؟

وجوه وأقنعة

عشية الهجوم على كل قرية، كان بلاغ الطاعة يشرح للهنود أن الرب قد جاء إلى العالم وأنه ترك في مكانه القديس بطرس، وأن خليفة القديس بطرس هو الأب المقدس، وأن الأب المقدس قد منح ملكة قشتالة هذه الأراضي كلها ولهذا عليهم أن يذهبوا من هنا أو أن يدفعوا غرامة من الذهب وفي حالة الرفض أو التأخر تُشن عليهم الحرب ويتحولون إلى عبيد هم ونساؤهم وأبناؤهم.

هذا البلاغ كان يُقرأ في البرية، في عتمة الليل، باللغة القشتالية، ودون مترجمين، بحضور كاتب بالعدل، وعدم وجود أي هندي.

أول حرب مياه

من الماء وُلدت، ومن ماء كانت، مدينة تينوتشتيتلان العظيمة.

حواجز، جسور، سواقٍ، قنوات: في شوارع الماء تلك كان يذهب ويجيء مئتا ألف زورق بين البيوت والميادين، بين المعابد والقصور، والأسواق، والحدائق الطافية، والبساتين.

غزو المكسيك بدأ كحرب مياه، وهزيمة الماء كانت الإعلان بهزيمة كل ما تبقى.

في العام ١٥٢١، فرض هيرنان كورتس الحصار على تينوتشتيتلان، وكان أول ما فعله هو أنه قطع بضربات فأس الأنبوب الخشبي الذي يأتي بماء الشرب من غابة تشابولتبيك.

وعندما سقطت المدينة، بعد مذبحة كبيرة، أمر كورتس بتقويض معابدها وقصورها، وألقى بالأنقاض في الشوارع المائية.

كانت علاقة إسبانيا سيئة بالماء، لأنه من شؤون الشيطان، وهرطقة إسلامية. ومن الماء المهزوم ولدت مدينة مكسيكو، انتصبت فوق أنقاض تينوتشتيتلان. وفي استكمال لمهمة المحاربين، راح المهندسون يسدون بالحجارة والتراب، وعلى مدى زمن طويل، كل نظام دوران البحيرات والأنهار في المنطقة.

وقد انتقم الماء، فأغرق المدينة الاستعمارية عدة مرات، ولم يثبت ذلك إلا أن الماء كان حليفاً للهنود الوثنيين وعدواً للمسيحيين.

وقرناً بعد قرن، واصل عالم الجفاف حربه ضد العالم المبلول.

والآن، تموت مدينة مكسيكو من العطش. ومن أجل البحث عن الماء يحفرون. وكلما حفروا أكثر، يغور الماء أكثر. حيث كان هواء، صار هنالك غبار. وحيث كانت أنهار، صارت هنالك جادات. وحيث كان يجري الماء، تجري الآن سيارات.

الحلفاء

فتح هرنان كورتيس تينوتشتيتلان بجيش من ستمئة إسباني وعدد لا حصر له من هنود تلاكسالا، وتسالكو، ومكيسكيك، وتشيباهواكان، وأميكاماكا، وتلالمانالكو، وشعوب أخرى كانت إمبراطورية الأزتيك تضطهدها، حتى صُبغت أدراج المعبد الكبير بدمائها.

وقد ظنت تلك الشعوب أن المحاربين الملتحين جاؤوا لتحريرها.

ألعاب الطابة

ضرب هيرنان كورتس الطابة إلى الأرض. وهكذا شهد الإمبراطور كارلوس والعديد من حاشيته أعجوبة لم يُشهد لها مثيل من قبل: فقد طفرت الطابة وطارت عالياً في الجو.

لم تكن أوروبا تعرف هذه الطابة السحرية، ولكنهم في المكسيك وفي أميركا الوسطى كانوا يستخدمون المطاط، منذ الأزل، وكان عمر لعبة الطابة أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

وفي اللعبة، وهي طقس مقدس، كانت تتنافس الثلاث عشرة سماء علوية ضد العوالم التسعة السفلية، وكانت الطابة النطاطة الطائرة تذهب وتجيء بين النور والظلمة.

كان الموت هو مكافأة المنتصر. من ينتصر يموت. يقدم نفسه بنفسه للآلهة، كيلا تنطفئ الشمس في السماء ويتواصل هطول المطر على الأرض.

الأسلحة الأخرى

كيف تمكن فرانثيسكو بيثارو، بمئة وثمانية ستين جندياً، أن ينتصر على ثمانين ألف رجل كانوا يشكلون جيش أتاوالبا في البيرو، دون أن تتعرض قواته لإصابة واحدة؟

الغازيان كورتس وبيثارو عرفا كيف يستغلان بمهارة انقسامات الشعوب التي غزواها، وكانت تمزقها العداوة والحروب، وبوعود لم يفيا بها قطّ استطاعا مضاعفة حجم جيوشهما ضد مركزيّ سلطة الأزتيك والإنكا.

أضف إلى ذلك أن الغزاة كانوا يهاجمون بأسلحة لا تعرفها أميركا.

البارود، والفولاذ، والخيول، كانت مستجدات غير مفهومة. ولم يكن بإمكان هراوى السكان الأصليين فعل شيء في مواجهة المدافع والبواريد والحراب والسيوف؛ كما لم يكن بمقدور الدروع القماشية مواجهة الدروع الفولاذية، ولا الهنود المشاة مواجهة أولئك المحاربين ذوي الستة أرجل التي هي مجموع أرجل الفارس وحصانه. ولم يكن جهلهم أقل من ذلك بأمراض

مثل الجدري، والحصبة، والرشح، والتيفوس، ووباء الدُبيلة وغيرها من الحلفاء غير الإراديين للقوات الغازية.

وكما لو أن هذا كله غير كافٍ، كان الهنود يجهلون عادات المتحضرين.

فعندما تقدم أتاوالبا، ملك الإنكا، ليرحب بزواره الغرباء، أسره بيثارو ووعد بإطلاق سراحه مقابل أكبر فدية لعملية خطف في التاريخ، حصل بيثارو على الفدية وخنق أسيره.

تأسيس الحرب الجرثومية

معانقة أوروبا للقارة الأمريكية كانت عناقاً قاتلاً. أدى إلى موت تسعة من كل عشرة سكان أصليين.

المحاربون الأصغر حجماً كانوا الأشد فتكاً. الفيروسات والجراثيم جاءت، كما الغزاة، من أراضٍ أخرى، ومياه أخرى، وأجواء أخرى. ولم يكن لدى الهنود مناعة ضد هذا الجيش غير المرئي المتقدّم وراء القوات العسكرية.

سكان جزر الكاريبي الكثيرين اختفوا عن بكرة أبيهم من هذا العالم دون أن يخلفوا ولو ذكرى أسمائهم، وقد قتلت الأوبئة أكثر بكثير من الكثيرين الذين ماتوا استعباداً أو انتحاراً.

الجدري قتل ملك الأزتيك كويتلاهواك وملك الإنكا هويانا كاباك، وفي مدينة مكسيكو كان عدد ضحايا الوباء كبيراً، ومن أجل تغطية الجثث كان لا بد من هدم البيوت عليها.

أول حاكم لماساشوستس، جون وينثروب، قال إن الجدري قد أُرسل من الرب كي ينظف الأرض لمختاريه. كان الهنود قد أخطؤوا في العنوان. ومستوطنو الشمال ساعدوا الأعلى بتقديمهم إلى الهنود، في أكثر من مناسبة، بطانيات موبوءة بالجدري:

– من أجل اجتثاث هذه السلالة المقيتة – أوضح في العام ١٧٦٣ القومندان السير جيفري أميرست.

خرائط أخرى، التاريخ نفسه

بعد ثلاثة قرون تقريباً من نزول كولومبس في أميركا، أبحر القبطان جيمس كوك عبر بحار جنوب الشرق الغامضة، وغرس العلم البريطاني في أستراليا ونيوزيلندا، وشق الطريق إلى غزو جزر المحيط اللامتناهية.

وبسبب لونهم الأبيض، ظن الوطنيون أن أولئك المبحرين هم موتى راجعون إلى عالم الأحياء. ومن تصرفاتهم، عرفوا أنهم راجعون للانتقام.

وتكررت القصة.

كما في أميركا، استولى القادمون الجدد على الحقول الخصبة ومصادر المياه وألقوا بمن كانوا يعيشون هناك إلى الصحراء. أخضعوهم للعمل القسري، مثلما جرى في أميركا، وحظروا عليهم الذاكرة والعادات.

وكما في أميركا، نسف المبشرون المسيحيون أو احرقوا المنحوتات الوثنية الحجرية أو الخشبية. نجا عدد قليل منها وأُرسل إلى أوروبا، بعد بتر مسبق للأعضاء الذكرية، لتقديم شهادة على الحرب ضد عبادة الأوثان. والإله "راو" الذي يُعرض الآن في اللوفر، وصل إلى باريس مع بطاقة مرفقة تُعرّف به كما يلي: معبود الدنس، والرذيلة، والهوى المشين.

وكما في أميركا، عدد قليل من الوطنيين ظل على قيد الحياة. ومن لم يسقطوا بالإنهاك أو الرصاص، أبيدوا بأوبئة غير معروفة، لم تكن لديهم أي مناعة ضدها.

مسكونون بالشيطان

سيأتون ليعلّموا الخوف.

سيأتون لإخصاء الشمس.

أنبياء المايا أعلنوا، في يوكاتان، عن زمن الإذلال هذا.

وفي يوكاتان، في العام ١٥٦٢، ألقى الكاهن دييغو دي لاندا إلى النار، في احتفال ديني طويل، كتب الهنود.

وقد كتبَ طارد الشياطين:

وجدنا عندهم عدداً كبيراً من كتب آدابهم، ولأنها لا تتضمن أشياء إلا وفيها شعوذات وتزييف من الشيطان، فقد أحرقناها كلها.

رائحة الكبريت الشيطاني كانت تُشم من بعيد. وكان أبناء المايا يستحقون النار لأنهم يستفسرون كثيراً، ولأنهم فضوليون كثيراً، ولأنهم يتابعون مرور الأيام في الزمن ومرور الكواكب في السموات الثلاث عشرة.

فبين شيطنات أخرى كثيرة، كانوا قد أبدعوا أدق تقويم موجود أو وُجد، وكانوا يعرفون مسبقاً، خيراً من الجميع، مواعيد كسوف وخسوف الشمس والقمر، وكانوا قد اكتشفوا العدد صفر قبل زمن من تكرّم العرب بنقل هذا الأمر المستجد إلى أوروبا.

الفن الرسمي في ممالك المايا

الفتح الإسباني جاء بعد زمن طويل من سقوط ممالك المايا.

لم تكن قد تبقت سوى أنقاض من ميادينهم الفسيحة ومن القصور والمعابد حيث كان الملوك الجالسون القرفصاء أمام الكهنة السامين والقادة المحاربين، يقررون مصير ونكبة الآخرين جميعهم.

في صوامع السلطة تلك، كان الرسامون والنحاتون قد كرسوا أنفسهم لتمجيد الآلهة ومآثر الملوك وتوقير أسلافهم.

الفن الرسمي لم يكن يفسح أدنى مجال للجموع التي تعمل وتصمت.

وهزائم المايا لم تكن تُثبَّت في الكتب المرسومة، ولا في الجداريات، ولا في أعمال النقوش.

أحد ملوك كوبان، على سبيل المثال، الملك ١٨-أرنب، قد ربى "كاواك سماء" كما لو ابنه، وأهدى إليه عرش مملكة كيريغوا المجاورة. وفي العام ٧٣٧، ردّ إليه "كاواك سماء" الجميل: هاجم كوبان، أذل محاربيها، واعتقل حاميه وقطع رأسه.

فن القصر لم يشر إلى ما جرى. لم تكتب أية قشرة، ولم يُنقش أي حجر من أجل توضيح النهاية الحزينة للملك المذبوح الذي رُسم، في أزمنة ازدهاره، عدة مرات وهو يحمل صولجانه ويرتدي ملابس الريش والأحجار الكريمة وجلد الجغوار.

ماتوا وهم يقتلون غابات

كانت الأفواه تتزايد والطعام يقل. الغابات تتقلص والصحارى تتسع. أمطار زائدة أو انقطاع كامل للمطر.

ومقيدين بالحبال، كان الفلاحون يكشطون دون جدوى جدران الجبال الجرداء. الذرة لا تجد ماء ولا تراباً لتنتصب فيه أوراقها. فالأرض بلا أشجار تثبتها، تصبغ مياه النهر بالحمرة أو تذروها الريح.

بعد ثلاثة آلاف عام من التاريخ، خيم الليل على ممالك المايا.

ولكن أيام المايا واصلت السير، في سيقان القبائل الفلاحية. التجمعات انتقلت إلى أماكن أخرى وحافظت على وجودها، بصورة شبه سرية تقريباً، دون أهرامات أحجار ولا أحجار سلطة: وبلا أي ملك سوى شمس كل يوم.

الجزيرة الضائعة

بعيداً جداً عن ممالك المايا، وبعد قرون من ذلك، جرى التهام جزيرة الفصح على يد أبنائها. الملاحون الأوروبيون الذين وصلوا إليها في القرن التاسع عشر، وجدوها مقفرة من الشجر ومن كل شيء آخر.

كان ذلك مثيراً للرعب. لم تُر من قبل قطّ وحدة بمثل ذلك التوحد. لم تكن هناك طيور في الجو، ولا عشب في الأرض، ولا حيوانات سوى الجرذان.

من الأزمنة القديمة، أزمنة الخضرة، لم تبق أية ذاكرة. فالجزيرة صخر، يقطنها خمسمئة تمثال حجري ضخم تنظر إلى الأفق، بعيداً عن كل شيء وعن الجميع.

ربما كانت تلك التماثيل تطلب نجدة الآلهة. ولكن حتى الآلهة نفسها لا تستطيع سماع أصواتها البكماء، الضائعة في وسط البحر مثلما هو ضائع العالم في السماء اللامتناهية.

الممالك بلا ملك

حسب المؤرخين، وحسب الآخرين جميعهم تقريباً، اختفت حضارة المايا منذ قرون. بعد ذلك، العدم. العدم: الواقع الجماعي، المولود من الصمت، عاش في الصمت. لم يوقظ إعجاباً ولا فضولاً.

أجل أيقظ ذهولاً، على الأقل في زمن الغزو الإسباني. فالسادة الجدد كانوا حائرين: أولئك الهنود الذين بلا ملك فقدوا عادة الطاعة.

فراي توماس دي لاتورّي يروي، في العام ١٥٤٥، أن التزوتزيليين في ثيناكاتان كانوا يعينون واحداً منهم ليقود الحرب وعندما لا يفعل ذلك جيداً يخلعونه وينصبون آخر. في الحرب والسلام كانت الجماعة تختار السلطة المتمثلة، بين الجميع، بمن يحسن الاستماع أكثر.

استنفدت السلطة الاستعمارية الكثير من ضرب السياط ومن المشانق لإجبار شعب المايا على دفع الضرائب وعلى العمل بالسخرة. في تشياباس، في العام ١٥٥١، تأكد الحاكم توماس لوبيث من أنهم يرفضون العبودية، وأكد:

- إنهم أناس لا يعملون إلا عندما تستدعي الحاجة.

وبعد قرن ونصف قرن من ذلك، في توتونيكابان، لم يجد الحاكم فوينتس آي غوثمان وسيلة أخرى سوى الاعتراف بأن الاستبداد الجديد لم يحرز تقدماً يذكر. فالهنود مازالوا يعيشون دون رأس أعلى يطيعونه، وكل شيء عندهم اجتماعات، ومناقشات، ومجالس، وأسرار، وشكوك بمعشرنا وحسب.

ماضيك يدينك

الذرة، النبتة المقدسة عند المايا، عُمِّدت في أوربا بأسماء مختلفة. وكانت الأسماء تخترع جغرافيات: أسموها: حَب تركي، حب عربي، حبة مصر أو حبة الهند. وهذه الأخطاء، لم تسهم شيئاً في إنقاذ الذرة من عدم الثقة أو من الازدراء. وعندما عُرف من أين تأتي، لم يُرحب بها. خصصوها للخنازير. كانت الذرة تُغِّل أكثر من القمح، وتنمو أسرع منه، وتتحمل الجفاف وتقدم غذاء جيداً، ولكنه لم يكن يليق بالأفواه المسيحية.

والبطاطا أيضاً كانت ثمرة محرمة في أوربا. فقد أدانوا، كما الذرة، أصلها الأمريكي. والأسوأ أن البطاطا كانت جذراً، ينمو في باطن الأرض، حيث توجد مغاور الجحيم. كان الأطباء يعرفون أنها تسبب الجذام والسفلس. وفي إيرلندا، إذا ما تناولتها امرأة حبلى في الليل، فإنها تلد في الصباح مسخاً. وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ظلت البطاطا مخصصة للسجناء والمجانين والمحتضرين.

هذا الجذر الدرني الملعون أنقذ الأوروبيين في ما بعد، ومع ذلك لم يتوقف الناس عن التساؤل:

- إذا كانت البطاطا والذرة ليست من أمور الشيطان، فلماذا لم تُذكر في الكتاب المقدس.

مستقبلك يدينك

قبل قرون من ميلاد الكوكائين، كانت أوراق الكوكا هي ورقة الشيطان.

بما أن هنود الأنديز يمضغونها في طقوسهم الوثنية، فقد أدرجتها الكنيسة ضمن العبادات الوثنية التي يتوجب اجتثاثها. ولكن المزارع، بدل أن تختفي، تضاعفت خمسين مرة مذ اكتشف أنه لا يمكن الاستغناء عن الكوكا. فهي تُقَنِّع إنهاك وجوع الهنود الذين ينتزعون الفضة من الجبل الغني، جبل ريكو في بوتوسي.

بعد زمن من ذلك، اعتاد سادة المستعمرة كذلك على الكوكا. تحولت إلى شاي، تشفي الاضطرابات المعوية والرشوحات، وتخفف الآلام، وتمنح الحيوية، وتحمي من داء المرتفعات.

وفي أيامنا هذه، مازالت الكوكا مقدسة لدى هنود الأنديز ودواء جيداً لأي شيء. ولكن الطائرات أبادت المزارع، كيلا تتحول الكوكا إلى كوكائين.

ومع ذلك، فإن السيارت تقتل من الناس أكثر بكثير ممن يقتلهم الكوكائين، ولم يخطر لأحد أن يحظر استخدام الدولاب.

أناناس

الأناناس، أو الآباكاكسي، الذي أسماه الإسبان بينيّا، كان أفضل حظاً.

وبالرغم من أن هذه الثمرة سامية الرهافة قد جاءت من أميركا، فقد زُرعت في دفيئات ملك إنكلترا وملك فرنسا، واحتفت بها كل الأفواه التي نالت امتياز تذوقها.

وبعد قرون، عندما صارت الآلات تنزع عنها قنزعتها وتعريها وتنتزع عيونها وقلبها وتقطعها لتحشرها في علب بمعدل مئة ثمرة في الدقيقة، قدم لها أوسكار نيمير، في برازيليا، التكريم الذي تستحقه.

لقد تحول الأناناس إلى كاتدرائية.

دون كيخوته

ماركو بولو أملى كتابه عن الأعاجيب وهو سجين في سجن جنوا.

بعد ثلاثة قرون بالضبط من ذلك، أنجب ميغيل دي ثربانتس، السجين بسبب الديون، الدون كيخوتي دي لا مانتشا في سجن اشبيلية.

وكانت تلك مغامرة حرية أخرى ولدت في السجن.

محشوراً في دروعه التي من صفيح، وممتطياً فرسه الجائع، بدا دون كيخوته مكرساً لأن يكون محط السخرية الأبدية. فذلك المجنون يظن أنه شخصية رواية فروسية ويظن أن روايات الفروسية هي كتب تاريخ.

ولكننا نحن القراء الذي ضحكنا منه لقرون، ضحكنا معه. فالمكنسة هي حصان في نظر الطفل الذي يلعب، طالما اللعب مستمر، وطالما تستمر القراءة، فإننا نشاطر دون كيخوته مغامراته المستهجنة ونتبناها. بل نتبناها إلى حدّ تحويل نقيض اللابطل إلى بطل، وننسب إليه ما ليس فيه. إنهم ينبحون يا سانتشو، وهذا دليل على أننا نمضي قدماً هذه الجملة التي يستشهد بها السياسيون بكثرة. لم يقلها دون كيخوته قط.

لقد مضت على الفارس ذي الوجه الحزين ثلاثة قرون ونصف قرن من التجوال الخائب في دروب العالم، وعندما كتب تشي غيفارا الرسالة الأخيرة إلى أبويه، ليقول وداعاً، لم يختر اقتباساً من ماركس، بل كتب: أشعر مرة أخرى تحت كعبي بدغدغة روثينانتي. وأعود إلى الطريق وترسي بذراعي.

يُبحر المبحر، مع أنه يدرك أنه لن يلمس أبداً النجوم التي تواجهه.

حقق العمل

روثينانتي، حصان دون كيخوته، كان مجرد عظام.

- إنك ميتافيزيقي.

- المسألة أنني لا آكل.

كان روثينانتي يجتر شكاويه، بينما سانتشو يرفع الصوت ضد استغلال الفارس لتابعه. إنه يشكو من الأجر الذي يتلقاه من رب عمله، وهو ليس إلا عصياً، وجوعاً، وعراء، ووعوداً، ويطالب بأجر جيد يُدفع نقداً وعداً.

وكان هذا الكلام المادي الفج يبدو لدون كيخوته مثيراً للاشمئزاز. وليحث رفيقه في الفروسية الجوالة، كان الفارس النبيل يقرر:

- لم يكن تابعو الفرسان مأجورين قطّ، وإنما يقومون بعملهم شاكرين.

ويعد بأن سانتشو بانثا سيصير حاكماً لأول مملكة يفتحها سيده، وسيتلقى لقب كونت أو مركيز.

غير أن العامي يريد علاقة عمل مستقر وبراتب مضمون.

لقد انقضت أربعة قرون. وما زلنا في المسألة نفسها حتى الآن.

رهاب الدم

منذ القرن الخامس عشر، ولزمن طويل، مارست إسبانيا اختبارات نقاء الدم الإجبارية.

فأنقياء الدم، من خلال نجابة الأصل الموروثة أو المشتراة، هم المسيحيون الأقحاح. أما اليهودي أو العربي أو الهرطوقي، أو المتحدر حتى الجيل السابع من سلف يهودي أو عربي أو هرطوقي، لا يمكن له أن يتولى أي وظيفة عامة مدنية أو عسكرية أو كنسية.

منذ القرن السادس عشر وما بعده، اتسع هذا الحظر ليشمل من يريدون السفر إلى أميركا. ويبدو أن هذا هو السبب في أن ثرباتس لم يستطع السفر إلى العالم الجديد. لقد رُفض طلبه مرتين: ابحث هنا عما ينفعك، هذا ما حكم به الجواب الرسمي الحاسم.

كانت هنالك ريبة بأن ثمة كرية دم يهودية تبحر في شرايين أبي دون كيخوته. وكانت الأعراق المرذولة ميالة إلى الآداب.

موت بالطبيب

في بداية القرن التاسع عشر، كانت فرنسا تشتري، كل عام، أكثر من ثلاثين مليون علقة حية. فمنذ قرون عديدة سابقة، كان الأطباء يفصدون دم المرضى، بواسطة العلق أو الشطب، من أجل تخليص البدن من الدم الفاسد. كان فصد الدم هو العلاج المستخدم لالتهاب الرئة، والكآبة، والروماتيزم، وداء النقطة، وكسور العظام، وانهيار الأعصاب، وآلام الرأس.

فصد الدم يُضعف المرضى. لم يُسجل قط أدنى تأكيد بأنه يُحدث تحسناً، ولكن العلم طبقه كعلاج طوال ألفين وخمسمائة عام، حتى فترة متقدمة من القرن العشرين.

هذا العلاج المنزه تسبب بأضرار أكبر من الأوبئة كلها مجتمعة.

- لقد مات المريض، ولكنه عولج - هذا ما كان يمكن قوله.

موليير

وإذا كان سوط الأوبئة غير كافٍ للعقاب، فقد تحول الخوف من المرض إلى مرض جديد. ففي إنكلترا كان الأطباء يعالجون مرضى يعتقدون أن بهم هشاشة إناء خزفي، وينؤون عن الناس كيلا يصطدموا بهم وينكسروا. وفي فرنسا، كرس موليير المسرحية الأخيرة التي أبدعها وأخرجها ومثّلها لموضوع المريض المتوهم.

وفي سخريته من نزوات المريض المتوهم وهواجسه، كان موليير يسخر من نفسه بالذات. فهو من يؤدي دور الشخصية الرئيسية: غاطساً بين وسائد أريكته، ملتفاً بالفراء، وطاقية غاطسة حتى أذنيه، كان يُخضع نفسه لعمليات فصد متواصلة، وملينات ومسهلات، يصفها له الأطباء الذين يشخصون إصابته، بالتخمة، بعسر الهضم، بالإسهال، بالزحار، بالاستسقاء، بوسواس المرض، بالرياء...

لم يكن قد مضى سوى وقت قصير على حفل افتتاح المسرحية، وبنجاح كبير، عندما توسل إليه جميع أفراد الفرقة أن يوقف العروض. كان موليير مريضاً جداً، مريضاً بحق وليس بحمى التخيل. كان يتنفس بصعوبة، ويسعل بكثرة، ويكاد يعجز عن التكلم والمشي.

إلغاء العرض؟ لم يلتفت ولو لمجرد الرد على هذا الكلام. فزملاؤه يدعونه إلى خيانة المملكة التي ولد فيها، وتشكل منذ ذلك اليوم الذي تخلى فيه عمن كانه وتحول إلى موليير الذي يسلي الناس الطيبين.

وفي تلك الليلة،أضحك المريض المتوهم أكثر من أي وقت آخر الجمهور الذي يملأ الصالة. والضحك الذي كتبه موليير ومثّله تجاوز بؤسه وخوفه من الموت، وبفضل الضحك الذي يضحك من كل شيء، أدى في تلك الليلة أفضل عمل في حياته. سعل حتى تمزق صدره، ولكنه لم ينس كلمة واحدة من مقاطع حواره الطويلة، وعندما تقيأ دماً وسقط على الأرض ظن الجمهور، أو عرف، أن الموت هو جزء من المسرحية، وصفق له بحرارة بينما كانت الستارة تسقط مع سقوطه.

تأسيس التخدير

كان كرنفال فينيسيا يستمر أربعة شهور، حين تُختصر مدته.

من كافة الأنحاء يأتي البهلوانات، والموسيقيون، والمسرحيون، ومحركو الدمى، والعاهرات، والسحرة، والمنجمون، والتجار الذين يعرضون مصفاة الحب، وشراب الحظ، وإكسير الحياة المديدة.

ومن كافة الأنحاء يأتي قالعو الأضراس، ومرضى الفم الذين لم تتمكن القديسة أبلونيا من منحهم الشفاء. كانوا يأتون صارخين حتى قناطر بوابة كنيسة سان ماركوس، حيث ينتظر قالعو الأضراس والكماشة في أيديهم، يرافقهم مخدروهم.

لم يكن المخدرون ينومون المرضى: كانوا يُضحكونهم. لا يقدمون إليهم عشبة التنميل، ولا الأفيون: يقدمون إليهم النكات والطرائف وحركات الدوران السريع على قدم واحدة. وبإعجاز يحققه ظرفهم كان الألم يُنسى.

وكان المخدرون قردة أو أقزاماً بملابس الكرنفال.

تأسيس اللقاح

في بدايات القرن الثامن عشر، كان الجدري يقتل مليون أوربي كل عام.

في تلك الأثناء، حاولت الليدي ماري مونتاو، زوجة السفير الإنكليزي في اسطنبول، أن تنشر في أوروبا أسلوباً وقائياً قديماً يُستخدم في تركيا: لمسة صغيرة من قيح الجدري تقي من الوباء القاتل. ولكن الناس سخروا من تلك المرأة التي تريد الظهور بمظهر العالمة، وتأتي بشعوذات من بلاد وثنية.

بعد ستين عاماً من ذلك، أقدم طبيب إنكليزي يدعى إدوارد جينير على تطعيم ابن بستانيه، وهو طفل في الثامنة من عمره، بما كان يسمى جدري البقر الذي يعيث خراباً بالحظائر، ولكنه لا يُلحق سوى ضرر ضئيل بالبشر. ثم نقل إليه عدوى الجدري القاتلة. فلم يُصب الطفل بأي ضرر.

هكذا ولد اللقاح الذي يدين بوجوده لطفل من الأقنان، حُوّل إلى أرنب تجارب مخبرية، ويدين باسمه للكلمة اللاتينية Vacca أي بقرة.

تأسيس المواكب

في العام ١٥٧٦، تسبب وباء في صدام بين المطران كارلوس بوروميو، خاطئ في طريق التحول إلى القداسة، وحاكم مدينة ميلان.

المطران يأمر بأن يجتمع المؤمنون في الكنائس ويتضرعون معاً إلى الرب أن يغفر الخطايا التي جلبت الوباء. ولكن الحاكم يحظر أي تجمع في أمكنة مغلقة، للحيلولة دون انتقال العدوى.

عندئذ ابتدع المطران بوروميو المواكب الدينية. أمر بإخراج تماثيل القديسين وآثارهم الباقية من الكنائس وأن تحمل على أكتاف الجموع عبر شوارع المدينة كلها.

وكان ذلك البحر من الزنبق والشموع والأجنحة الملائكية يتوقف أمام بوابات كل كنيسة لترتيل أغنيات تمجيد لأحبار المسيحية وتقديم مشاهد من حيواتهم ومعجزاتهم.

وكان المسرحيون يموتون حسداً.

أقنعة

في ميلان، كان المطران بوروميو يشكو من أن هذا العالم الفاسد، الجاحد، عدو الرب، هو عالم أعمى ومجنون، قبيح ونتن، وأنه قد سحر الاحتفالات الوثنية الشهوانية وقنّعها بالأقنعة. وأصدر أحكاماً ضد الأقنعة.

- الأقنعة تشوه الوجه البشري، وتدنس بذلك صورتنا الإلهية التي صيغت على هيئة الرب وشاكلته.

وباسم الرب حظرتها الكنيسة. وباسم الحرية حظرها نابليون في ما بعد.

وجدت أقنعة الكوميديا الفنية ملاذاً لها في مسرح الدمى المتحركة.

فبأربعة عيدان خشبية، كان محركو الدمى يقيمون مسرحهم الصغير في الساحات العامة التي يتقاسمونها مع البهلوانات، وجوابي الآفاق، والموسيقيين المتجولين، ومنشدي القصص، وسحرة الأسواق الشعبية.

وعندما تتجاوز الدمى المقنعة الحدود، وتتمادى في سخريتها من السادة، يوجه رجال الشرطة بضع ضربات بالعصي إلى محركي الدمى ويعتقلونهم. فتظل الدمى مهجورة، كقفاز بلا يد، في ليل الساحة الخاوية.

أقنعة أخرى

الأقنعة الأفريقية لا تجعلك غير مرئي. لا تخيفك، لا تؤدي إلى التنكر أو التقنع.

الآلهة الذين أسسوا حياتنا الأرضية في أفريقيا يرسلون الأقنعة من أجل نقل الطاقة إلى أبنائهم.

تلك الأقنعة ذات قرون الثيران تمنح القوة، وتمنح المزدانة منها بقرون ظباء السرعة، وذات خرطوم الفيل تُعلِّم الصمود، وذات الأجنحة تعلّم الطيران.

عندما ينكسر أحد تلك الأقنعة، يقوم الحرفي صانع الأقنعة بنحتها من جديد، كيلا تظل روحها دون بيت، وكيلا يظل الناس دون عون.

منشورات

كلمة منشور pasquin، أهجية، مستمدة من أحد تماثيل روما. فعلى صدر أو ظهر تلك الشخصية المنحوتة من المرمر، والمدعوة باسكينو Pasquino، كانت أيدٍ مجهولة تكتب تكريمها للبابا.

* حول البابا ألكسندر السادس:

ألكسندر يبيع مسامير الصليب والمسيح المصلوب.
إنه محق: كان قد اشتراها.

* حول ليون العاشر

لقد مات العاشر ليون،
وكان يعطف دوماً
على الوغد المنافق.
إنه طاغية قذر،
بلا حياء، ونتن.

* وعن باولو الرابع، قاضي التفتيش:

أيها الأبناء، عقل أقل
وإيمان أكثر، يأمر ديوان التفتيش.
ولا شيء من العقلانية بكل تأكيد
فضد العقل توجد المحرقة.
واحفظوا ألسنتكم جيداً،
لأن البابا باولو يحبها مشوية.

* وهكذا تكلم تمثال باسكينو إلى البابا بيو الخامس الذي أرسل إلى المحرقة أكثر من مشبوه متهم بكتابة منشورات:

المشنقة والنار البطيئة
وكل وسائل تعذيبك
لا تخيفني يا بيو الطيب.
تستطيع الأمر بإحراقي
لكنك لن تجبرني على الصمت.
فأنا من حجر. أضحك
وأتحداك.

تقرير باعترافات الشيطان

كان عجوزاً منذ الطفولة.

كارلوس الثاني، ملك إسبانيا وأميركا، كان لا بد من إطعامه بوضع الطعام في فمه، ولم يكن قادراً على المشي دون أن يقع.

لم تنفعه في شيء الحمائم الميتة التي كان الأطباء يضعونها على رأسه، ولا الديوك المخصية مع لحم الأفعى التي يدسها خدمه في حلقه، ولا بول البقر الذي يقدمونه شراباً له، ولا التعاويذ المملوءة بالأظفار وقشور البيض التي يدسها تحت وسادته الكهنة الذين يسهرون على نومه.

زوجوه مرتين، ولم يولد أي أمير من ملكتيها، بالرغم من أنها كانتا تتناولان على الفطور حليب أتان وخلاصة فطر الغاريقون.

في أثناء ذلك، كان الشيطان يقيم في النمسا، في جسد إحدى راهبات دير كانغاس. وقد تمكن طارد الشياطين، الراهب أنطونيو ألفاريث أرغوييس أن ينتزع منه الاعتراف:

- صحيح أن الملك مسحور - قال طارد الشياطين إن الراهبة قالت إن الشيطان قال لها. وقال إن السحر كان ببقايا جثة:

- بالمخ، من أجل تركه غير قادر على الحكم. وبالأمعاء، لانتزاع الصحة منه. وبالكليتين، للحيلولة دون قدرته على الإنجاب.

وقال طارد الشياطين إن الراهبة قالت إن الشيطان قال إن فاعلة السحر الخبيث أنثى، وإنها، من أجل معلومات أدق، أم الملك.

تيريسا

دخلت تيريسا دي أبيلا الدير لتنجو من جحيم الحياة الزوجية. فمن الخير لها أن تكون عبدة للرب على أن تكون عبدة لذكر.

ولكن القديس بطرس كان قد منح النساء ثلاثة حقوق: الطاعة، والخدمة، والصمت. وحكم قداسة البابا على تيريسا لأنها أنثى قلقة، ومتمادية في غيّها، وأنها بحجة الورع تختلق معتقدات خبيثة ضد القديس بابلو الذي أمر بعدم تعليم النساء.

كانت تيريسا قد أسست في إسبانيا عدة أديرة، حيث كانت الراهبات يملين دروساً ويتمتعن بسلطة، وحيث الأهمية الكبرى للفضيلة وليس للنسب والسلالة، ولم يكن يُطلب من أي راهبة إثبات نقاء دمها.

في العام ١٥٧٦، وشي بها أمام محاكم التفتيش، لأنها تقول إن جدها هو مسيحي قديم بينما هو يهودي متحول، ولأن غيبوباتها الصوفية هي من عمل الشيطان المندس في جسدها كامرأة.
بعد أربعة قرون، استولى فرانثيسكو فرانكو على ذراع تيريسا اليمنى كي يدفع عنه الشيطان وهو في فراش احتضاره. ففي تقلبات الحياة الغريبة، كانت تيريسا قد تحولت إلى قديسة ومثال للمرأة الإيبرية وأُرسلت أجزاؤها إلى عدة كنائس في إسبانيا باستثناء إحدى قدميها التي انتهى بها المطاف في روما.

خوانا

ومثل تيريسا دي أبيلا، تحولت خوانا إينيس دي لا كروث إلى راهبة كيما تتجنب قفص الزوجية.
ولكن موهبتها كانت تثير الغضب في الدير أيضاً. أيكون دماغ رجل في رأس هذه المرأة؟ لماذا تكتب بخط رجل؟ ولماذا تريد التفكير ما دامت تطبخ على أحسن وجه؟ فكانت ترد ساخرة:
- وما الذي يمكننا أن نعرفه نحن النساء سوى فلسفة المطبخ؟
ومثل تيريسا، كانت خوانا تكتب، بالرغم من أن الأسقف غاسبار دي استيتيه لاحظ أن الآنسة المسيحية لا تحتاج إلى معرفة الكتابة، وأن ذلك قد يكون ضاراً بها.
ومثل تيريسا، لم تكن خوانا تكتب وحسب، وإنما كانت، وهذه فضيحة أكبر، تكتب بصورة جيدة لا ريب فيها.
في عصرين مختلفين، وعلى ضفتين مختلفتين من البحر نفسه، كانت خوانا المكسيكية، وتيريسا الإسبانية، تدافعان شفوياً وكتابة عن ازدراء نصف العالم.
ومثل تيريسا، هُددت خوانا بمحاكم التفتيش. ولاحقتها الكنيسة، كنيستها، لأنها تتغنى بما هو إنساني بقدر تغنيها، وربما أكثر، بما هو إلهي، ولأنها قليلة الانصياع وكثيرة الأسئلة.
بالدم، وليس بالحبر، وقعت خوانا توبتها، وأقسمت على الصمت إلى الأبد. وماتت بكماء.

وداع

أفضل رسوم فيرير باسا، الغيوتو الكتلاني، موجودة على جدران دير بيدرالبيس، موقع الحجارة البيضاء، في جبال برشلونة.

هناك كانت تعيش، في عزلة عن العالم، راهبات المحبس.

لقد كانت رحلة بلا عودة: تُغلق البوابة وراءهن، وتُغلق كيلا تُفتح إلى الأبد. وتكون عائلاتهن قد دفعت هبات باهظة، كيما يكن جديرات بأن يكن زوجات يسوع إلى الأبد.

وداخل الدير، في مصلى سان ميغيل، تحت إحدى جداريات فيرير باسا، توجد عبارة ظلت على قيد الحياة، كما في السر، على مرّ العصور. لا يُعرف من كتبها. ولكن يُعرف متى كُتبت، عام ١٤٢٦ بأرقام رومانية. الجملة تكاد تكون غير ملحوظة. بأحرف قوطية، باللغة الكتلانية، كانت تطلب ومازالت تطلب

قل لجوان

ألا ينساني.

تيتوبا

في أميركا الجنوبية جرى اصطيادها، وكانت ما تزال طفلة، وقد بيعت مرة وأخرى وأخرى، ومن سيد إلى سيد انتهى بها المطاف في بلد سالم، في أميركا الشمالية.

وهناك، في صومعة التزمت تلك، خدمت العبدة تيتوبا في بيت القس صمويل بارِّس.

بنات القس كن يحببنها حدّ العبادة. فهن يحلمن مستيقظات عندما تروي لهن تيتوبا حكايات أشباح أو تقرأ لهن المستقبل في صفار بيضة. وفي شتاء ١٦٩٢، عندما تلبس الشيطان البنات الصغيرات وصرن يتقلبن ويصرخن، لم يستطع أحد سوى تيتوبا تهدئتهن، فكانت تداعبهن وتهمس لهن بحكايات إلى أن تنومهن في حضنها.

تسبب ذلك في إدانتها: إنها هي من أدخلت الجحيم في مملكة ورع المختارين من الرب.

وجرى تقييد الساحرة راوية الحكايات على منصة التعذيب في الساحة العامة، واعترفت.

اتهموها بأنها تحضر قوالب حلوى بوصفات شيطانية وجلدوها إلى أن قالت نعم.

اتهموها بالرقص عارية في اجتماعات سحرة سرية، وجلدوها إلى أن قالت نعم.

اتهموها بالنوم مع إبليس، وجلدوها إلى أن قالت نعم.

وعندما قالوا لها إن شركاءها في الجريمة عجوزان لا تذهبان إلى الكنيسة أبداً، تحولت المتَّهَمَة

إلى متَّهِمَة وأشارت بإصبعها إلى العجوزين الشيطانيتين ولم تُجلد.
وتوالت بعد ذلك المتهمات اللاتي يتهمن.
ولم تتوقف المشنقة عن العمل.

مسكونات بالشيطان

كان اللاهوتي فراي مارتين كاستانيّغا قد أثبت أن الشيطان يحب النساء أكثر من الرجال، لأنهن رعديدات، وقلبهن أضعف وعقلهن أخف.
الشيطان يغويهن بمداعبتهن بقائمته التي كقائمة المعزى وحافره الخشبي أو بالتنكر كضفدع بأثواب ملك. كانت طقوس تطهير المسكونات بالشيطان تجتذب حشوداً تملأ الكنائس.
وكانت الكتفيات المحشوة بملح مبارك، وثوب مبارك بخصل من شعر القديسين وأظفارهم تحمي صدر الكاهن القائم بعملية إخراج الشيطان. وكان يتقدم رافعاً الصليب ليناضل ضد السحر. فكانت المسكونات بالشيطان يجدفن، يولولن، ينبحن، يعضضن، يشتمن بلغات أهل الجحيم، ويمزقن أثوابهن بعنف بأيديهن، ويعرضن أعضاءهن المحظورة وهن يقهقهن. وتأتي لحظة الذروة عندما يتدحرج كاهن التطهير على الأرض ويحتضن أحد الأجساد التي سكنها الشيطان إلى أن تتوقف التشنجات والصرخات.
وبعد ذلك، يكون هناك من يبحثون على الأرض عن المسامير وفتات الزجاج الذي تقيأته المسكونة بالشيطان..

هندريكه

في العام ١٦٥٤، بدت الفتاة هندريكه ستوفيلس حبلى بصورة واضحة، فحوكمت وأدينت في مجلس كنائس أمستردام البروتستانتية.
اعترفت بأنها جامعت الرسام رامبرانت، وأقرت بأنها كانت تقاسمه الفراش دون أن تكون متزوجة، مثل عاهرة، أو بترجمة أكثر حرفية، مثل مقترفة عهر. عاقبها المجلس بإجبارها على التوبة والتكفير واستبعادها إلى الأبد عن مائدة سيدنا يسوع المسيح.
أما رامبرانت فلم يُدن، ربما لأن ذلك الفصل الشهير عن حواء والتفاحة كان ماثلاً في أذهان القضاة؛ ولكن الفضيحة أدت إلى انهيار أسعار لوحاته واضطر إلى إشهار إفلاسه.
معلم الضوء المظلم الذي كشف الضوء المتولد من الظل، أمضى سنواته الأخيرة في الظل. فقد بيته ولوحاته. ودُفن في قبرٍ مستأجر.

انبعاث فيرمير

كانت أعماله تباع "ببلاش" عندما مات. في العام ١٦٧٦، دفعت أرملته لوحتين مقابل ما تدين به للخباز.

بعد ذلك عوقب فيرمير فان دلفت بعقوبة النسيان.

وتأخر قرنين من أجل أن يعود إلى العالم. أنقذه الانطباعيون، صيادو الضوء. قال رينوار إن لوحته عن المرأة العاملة في التطريز هي أجمل لوحة رآها.

فرمير، مؤرخ التفاهة، لم يرسم سوى بيته وقليلاً من الجوار. امرأته وبناته كن موديلاته، وموضوعاته هي أشغال المنزل. الشيء نفسه دائماً، ليس نفسه على الإطلاق: في ذلك الروتين البيتي، استطاع أن يكتشف، مثل رامبرانت، الشموس التي تنكرها عليه ظلمة سماء الشمال.

لا وجود في لوحاته للتراتبية. فلا شيء يزيد أو يقل إضاءة. ضوء الكون يهتز، بصورة سرية، في كأس الخمر كما في اليد التي تقدمه، في الرسالة كما في العينين اللتين تقرآنها، في سجادة مهترئة كما في الوجه غير المستخدم بعد للفتاة التي تنظر إليك.

انبعاث أرشيمبولد

كل شخص كان مصدر طعوم وروائح وألوان:

الأذن، زنبقة توليب؛ الحاجبان، جرادتا بحر؛ العينان، حبتا عنب؛ الأهداب، مناقير بط؛ الأنف، ثمرة كمثرى؛ الخد، تفاحة؛ الذقن، رمانة؛ الشعر، غابة أغصان.

غيوسبي أرشيمبولد، رسام بلاط، جعل ثلاثة أباطرة يضحكون.

احتفوا به لأنهم لم يفهموه. كانت لوحاته تبدو حدائق لهو. وهكذا تمكن ذلك الفنان الوثني من البقاء حياً، ومن العيش بترف.

منح أرشيمبولد نفسه ترف ارتكاب خطايا وثنية مميتة، بتمجيده اتحاد الإنساني بالطبيعة الوافرة والمجنونة، رسم رسوماً قيل عنها إنها لعبة غير مؤذية ولكنها كانت سخريات شرسة.

عندما مات، استبعدته ذاكرة الفن كما لو أنه كابوس.

وبعد أربعة قرون، بعثه مجدداً السورياليون، أبناؤه المتأخرون.

توماس مور

أما توماس مور ففهموه، وربما كان هذا هو ما كلفه حياته. ففي العام ١٥٣٥، قام هنري الثامن، الملك الشره، بعرض رأسه على رمح مرفوع فوق نهر التايمز.

قبل عشرين عاماً من ذلك، كان مقطوع الرأس هذا قد كتب كتاباً يروي فيه عادات جزيرة تدعى يوتوبيا، حيث الملكية مشتركة، ولا وجود للنقود، وليس فيها غنى وفقر.

وعلى فم شخصية كتابه، وهو رحالة عائد من أميركا، كان توماس مور يعبر عن أفكاره الخاصة الخطرة:

* حول الحروب: اللصوص يكونون أحياناً جنوداً أنيقين، ومن عادة الجنود أن يكونوا لصوصاً شجعاناً. وبين المهنتين أمور كثيرة مشتركة.

* حول السرقة: لا يمكن لأي عقوبة، مهما كانت صارمة، أن تحول دون أن يسرق الناس إذا كانت هذه هي وسيلتهم الوحيدة للحصول على الطعام.

* حول حكم الإعدام: يبدو لي أنه من الجور سرقة حياة إنسان لأنه سرق بعض المال. فلا شيء في العالم له قيمة الحياة الإنسانية. العدالة القصوى هي إهانة قصوى. إنكم تصنعون اللصوص وبعد ذلك تعاقبونهم.

* حول المال: من السهل جداً إشباع حاجات حياة الجميع، إذا كان ذلك الشيء المقدس المدعو مالاً، والمفترض أنه أخترع لمعالجة تلك الحاجات، هو الوحيد في الواقع الذي يحول دون ذلك.

* حول الملكية الخاصة: ما لم تختف الملكية الخاصة، لن تكون هناك عدالة ولا مساواة في توزيع الأشياء، ولا يمكن للعالم أن يُحكم بسعادة.

إراسموس

إراسموس دي روتردام أهدى إلى صديقه توماس مور كتابه "مديح الجنون".

في هذا الكتاب، يتكلم الجنون بصيغة المتكلم. يقول إنه لا وجود لبهجة أو سعادة إلا وتدين له، يحض على عدم تقطيب الحاجبين، ويقترح تحالف الأطفال والشيوخ، ويسخر من الكهنة المتعجرفين، ومن الملوك الكرادلة، ومن الأساقفة الورعين، ومن البابوات المقدسين ثلاثاً، ومن كل تلك الشرذمة من الآلهة.

ذلك الرجل المزعج، عديم الاحترام، دعا إلى المزج بين الإنجيل المسيحي والتقاليد الوثنية:

- يا قديس سقراط، صل من أجلنا.
وقاحاته قوبلت باستنكار ديوان التفتيش، وضُمت إلى فهرس المحظورات الكاثوليكية، ونظرت إليها شزراً الكنيسة البروتستانتية حديثة النشوء.

تأسيس المصعد

الملك الإنكليزي هنري الثامن امتلك ست ملكات.
كان يترمل بسهولة.
وكان يلتهم نساء ومآدب.
ستمئة خادم كانوا يتولون خدمة موائده المترعة بحلوى محشوة بطيور التدرج، وطواويس تُقدم بريشها السامي، وكتل من لحم العجل أو الخنزير، يمنحها ألقاب نبالة، والسكين في يده، قبل أن ينشب فيها أسنانه.
عندما وصل إلى ملكته الأخيرة، كان هنري بديناً إلى حد لا يمكنه معه المرور من الدرج المؤدي من قاعة الطعام إلى فراش الزوجية.
ولم يجد الملك وسيلة أخرى سوى اختراع كرسي يرفعه وهو جالس، بوساطة آلية بكرات معقدة، من طبق الطعام إلى السرير.

مؤسس مبكر للرأسمالية

إنكلترا، هولندا، فرنسا، وبلدان أخرى تدين له بتمثال.
جزء كبير من سلطة المتسلطين أتى من الذهب والفضة اللذين سرقهما، من المدن التي أحرقها، من السفن الشراعية التي نهبها، ومن العبيد الذين اصطادهم.
لا بد لنحات دقيق من قولبة صورة هذا المؤسس المبكر للرأسمالية الوليدة: المدية بين الأسنان، العصابة على العين، الساق الخشبية، اليد من خطاف حديدي، والببغاء على الكتف.

أركان خطرة في الكاريبي

توافد القراصنة إلى أميركا لجني ثروات. في جزر البحر الكاريبي وعلى شواطئه، كانوا مخيفين أكثر من الأعاصير. في يومياته عن الاكتشاف، ذكر كولومبس الرب خمس عشرة مرة، وذكر الذهب مئة وتسعاً وثلاثين مرة، مع أن الرب كان في كل مكان، بينما لم يكن الذهب يكفي آنذاك لترصيص ضرس.

ولكن الزمن مضى، وأثمرت الأراضي الأمريكية الخصبة ذهباً وفضة وسكراً وقطناً وأعاجيب أخرى. كان القراصنة متخصصين في الاستيلاء على هذه الغلال. واعترافاً بجهودهم، انضم "أدوات" مراكمة رؤوس المال هؤلاء إلى طبقة النبلاء البريطانية.

ملكة بريطانيا إيزابيل كانت شريكة لفرانسيس دريك الرهيب الذي توصل إلى منحها أرباحاً بلغت أربعة آلاف وستمئة بالمئة من استثماراتها. فجعلت منه "سير" وجعلت كذلك "سيراً" من عم دريك، جون هوكينز، وشاركت في تجارة هوكينز التي افتتحها حين اشترى ثلاثمئة عبد في سيراليون، وباعهم في سانتو دومينغو وعادت سفنه الثلاث إلى لندن محملة بالسكر والجلود والزنجبيل.

ومنذ ذلك الحين تحولت تجارة الرقيق إلى جبل ريكو دي بوتوسي الذي لم تكن إنكلترا تملكه.

رالي

في جنوبي أميركا بَحثَ عن إلدورادو. وفي شمالها وجد التبغ. كان بحاراً، ملاحاً، ومحارباً، ومكتشفاً، وشاعراً. وكان قرصاناً.

السير وولتر رالي:

من كان يدخن بغليون، وكشف لطبقة النبلاء البريطانية متعة التبغ.

من كان يرتدي في البلاط جبة مرصعة بالماس، وفي المعركة دروعاً من الفضة.

المفضل لدى الملكة إيزابيل، الملكة العذراء (Virgen) التي من أجلها أُطلق اسم فيرجينيا (Virginia) على الأراضي التي مازالت تسمى بهذا الاسم.

ومن أجلها هاجم رالي موانئ إسبانيا وسفنها التجارية، وتحول بأمر منها إلى فارس نبيل.

والذي فَقَدَ، بعد سنوات، وللأسباب نفسها، رأسه بضربة فأس في برج لندن.

فبعد موت إيزابيل، رغب الملك الإنكليزي جاكوب في ملكة إسبانية، فحكم على القرصان رالي، شرير الفيلم، بالخيانة العظمى. وتلقت أرملته، مثلما كانت العادة، الرأس محنطاً.

صورة أسرية في إنكلترا

ربما ما كان لنزاعات أسرة يورك وأسرة لانكستر أن تكون أكثر من خلاف بين جيران لو لم تتحول إلى موضوع لريشة وليم شكسبير.

ومن المؤكد أن الشاعر لم يتخيل الأبعاد الكونية التي ستتخذها بفضل موهبته حرب السلالات تلك بين الوردة البيضاء والوردة الحمراء.

في التاريخ الإنكليزي وفي عمل شكسبير، خلّف الملك ريتشارد الثالث، نبي الاغتيالات المتسلسلة، نهراً من الدماء في طريقه إلى التاج. قتل الملك هنري الرابع، وكذلك الأمير إدوارد. وأغرق أخاه كلارينس في برميل نبيذ؛ وفي أثناء ذلك، قضى على حياة أبناء أخيه. اثنان من أولئك الأمراء، وكانا لا يزالان طفلين، حبسهما في برج لندن، وخنقهما بوسادتيهما ودفنهما سراً، أسفل أحد الأدراج. وشنق كذلك اللورد هاستينغس وقطع رأس دوق بكينجهام، صديقه المفضل، وأناه الآخر، تحسباً من أنه قد يفكر في التآمر ضده.

ريتشارد الثالث كان آخر ملك إنكليزي يموت في معركة.

وقد أهدى إليه شكسبير الجملة التي منحته الخلود:

- مملكتي لقاء حصان!

ماريه نوستروم (بحرنا)

كان قد انقضى أكثر من قرن على تقسيم بابا روما نصف العالم بين إسبانيا والبرتغال، عندما نشر الحقوقي الإنكليزي جون سيلدن في العام ١٦٣٥ مؤلفه "بحرنا".

تُثبت تلك الأطروحة أنه ليست اليابسة وحدها لها سيد مالك، وإنما البحر كذلك. وكان جلالة ملك إنكلترا، بالحق الطبيعي، هو المالك الشرعي لأراضي ومياه إمبراطوريته الآخذة بالاتساع.

الحق البريطاني كان يستند إلى الإله نبتون، وإلى نوح وأبنائه الثلاثة، وإلى سفر التكوين، وأسفار موسى، والمزامير، ونبوءات أشعيا وحزقيال.

بعد ثلاثمئة وسبعين عاماً من ذلك، ادعت الولايات المتحدة حقها المطلق في الفضاء الكوني والأجرام السماوية، ولكنها لم تذكر مراجع ومصادر واسعة الشهرة.

الشكر

عاماً بعد عام، تحتفل الولايات المتحدة، في أواخر شهر تشرين الثاني، بعيد الشكر. وهكذا تعرب الأمة عن شكرها للرب والهنود الذي شاركوا مع الرب في إنقاذ الفاتحين.

كان شتاء العام ١٦٢٠ قد قتل نصف الأوروبيين الذين قدموا في السفينة مايفلور. وفي العام التالي، قرر الرب إنقاذ الناجين. وفّر لهم الهنود الحماية، اصطادوا من البر والبحر من أجلهم، علموهم كيفية زراعة الذرة، وتمييز النباتات السامة، واكتشاف النباتات الطبية، والعثور على أنواع الجوز والعنبيات وغيرها من الثمار البرية.

الناجون قدموا لمنقذيهم حفلة شكر. أقيمت في القرية الإنكليزية "بلايموث" التي كانت تسمى حتى وقت قريب سابق باتوكست وكانت قرية سكان أصليين عاث بها خراباً الجدري والدفتريا والحمى الصفراء ومستجدات أخرى آتية من أوروبا.

كان ذلك هو أول وآخر يوم شكر في الأزمنة الاستعمارية.

فعندما غزا المستوطنون أراضي السكان الأصليين، جاءت ساعة الحقيقة. فالغزاة الذين يسمون أنفسهم قديسين، ومختارين كذلك، لم يعودوا يطلقون تسمية وطنيين على الهنود الذين تحولوا إلى متوحشين.

"هذه العصابة الدموية البغيضة"

في بدايات القرن الثامن عشر، رسم جوناثان سويفت المغامرة الاستعمارية في الفصل الأخير من "رحلات جليفر":

ينزل القراصنة إلى البر ليسرقوا وينهبوا. يكتشفون وجود أناس مسالمين يستقبلونهم بلطف. يُعمدون تلك البلاد باسم جديد ويستولون عليه باسم مليكهم، ويتركون إثباتاً للواقعة على لوح خشبي متعفن أو على حجر.

وهنا تبدأ سيطرة جديدة مكتسبة بالحق الإلهي. يجري طرد الوطنيين أو تصفيتهم، يتعرض أمراؤهم للتعذيب كي يعترفوا أين هو الذهب. هناك براءة قرصنة لكافة الممارسات غير الإنسانية والفاجرة. الأرض تعبق برائحة الدم، وعصابة الجزارين الدمويين البغيضة تلك المكرسة لحملة بالغة الورع هي قوة استيطان حديثة مبعوثة لتحويل وتحضير شعب وثني وهمجي.

أبو جليفر

الطبعة الأولى من "رحلات جليفر" طُبعت بعنوان آخر ودون ذكر للمؤلف.

العثرات تجبر على المشي بحذر. فأعمال أخرى سابقة لجوناثان سويفت، الكاهن عالي المرتبة، وعميد كاتدرائية سان باتريس في إيرلندا، تسببت له بعدة شكاوي تتهمه بالشغب وأوصلت الناشر إلى السجن.

نجاح "جليفر" المدوي أتاح لسويفت أن يوقع باسمه الطبعات التالية. ووقع كذلك عمله الجديد. "اقتراح متواضع لتفادي أن يكون أبناء الفقراء الأيرلنديين عبئاً على آبائهم أو بلادهم وكي يكونوا ذوي نفع عام" هو العنوان الطويل جداً لأشرس منشور سياسي وصلنا خبر عنه.

باللغة الجليدية لخبراء علم الاقتصاد، يثبت المؤلف، موضوعياً، ملاءمة أن يُرسل إلى المسلخ أبناء الفقراء. فأولئك الأطفال يمكن أن يتحولوا إلى ألذ الأطعمة وأكثرها تغذية وكمالاً، مكمورة، مشوية، مخبوزة، أو مسلوقة، كما يمكن الاستفادة من جلودهم لصنع قفازات للسيدات.

نشر هذا في العام ١٧٢٩، عندما كانت حتى الأشباح تهيم على وجوهها في شوارع دبلن بحثاً عن طعام. ولم يكن وقعه طيباً جداً.

كان سويفت قد تخصص في صياغة أسئلة لا تطاق:

لماذا يستثير الحفيظة مشروعه في أكل اللحم البشري إذا كانت أيرلندا بلاداً مأكولة من قبل الإنكليز دون أن يحرك ذلك شعرة في أحد.

هل يموت الأيرلنديون جوعاً بسبب المناخ أم بسبب الخنق الاستعماري؟

ولماذا كان هو نفسه رجلاً حراً حين كان في إنكلترا وتحول إلى عبد فور أن وطأ أرض أيرلندا؟

لماذا لا يرفض الأيرلنديون شراء ملابس إنكليزية وأثاث إنكليزي ويتعلمون حب وطنهم؟

لماذا لا يحرقون كل ما يأتي من إنكلترا، باستثناء الناس؟

اعتبروه مجنوناً.

مدخراته موّلت أول مصحة مجانين عامة في دوبلن، ولكن لم يكن بالإمكان إدخاله هناك. فقد مات قبل أن ينتهي العمل في بنائها.

سموات وأرضون

انكلترا، القرن الثامن عشر: كل شيء يعلو.

يعلو الدخان من مداخن المصانع.

ويعلو الدخان من المدافع الظافرة.

يعلو موج البحار السبعة التي يسيطر عليها بحارة الملك الإنكليزي المئة ألف.

يعلو اهتمام الأسواق بكل ما تبيعه إنكلترا.

وتعلو فوائد الأموال التي تقرضها إنكلترا.

وكل إنكليزي، مهما كان جاهلاً، يعرف أن العالم والشمس والنجوم تدور كلها حول لندن.

ولكن وليم هوغارث، الفنان الإنكليزي في ذلك القرن، لم يسهُ في تأمل تألقات لندن في أعالي الكون. فقد كانت يجتذبه النزول أكثر من الارتفاعات. في لوحات رسمه وحفره، كل شيء يسقط. ويتدحرج على الأرض:

السكارى والقوارير،

والأقنعة المهشمة،

والسيوف المكسورة،

والعقود المقطعة،

وباروكات الشعر،

وصدارات النساء،

وملابس السيدات الداخلية الحميمة،

وشرف السادة،

والأصوات التي يشتريها السياسيون،

وألقاب النبالة التي يشتريها البرجوازيون،

وورق لعب الثروات الضائعة،

ورسائل الغراميات الكاذبة،

وزبالة المدينة.

فيلسوف الحرية

انقضت القرون ومازال تأثير الفيلسوف الإنكليزي جون لوك يتعاظم في العالم.
وهذا أقل ما يمكن. فبفضل لوك، نعرف أن الرب قد سلّم العالم إلى أصحابه الشرعيين، رجال الصناعة والعقل، وكان لوك من قدم أساساً فلسفياً للحرية البشرية بكل تنوعاتها: حرية المؤسسة، حرية التجارة، حرية المنافسة، حرية التعاقد.
وفي حرية الاستثمار. بينما هو يكتب مؤلفه "مقالة حول الفهم الإنساني"، نسب الفيلسوف إلى الفهم الإنساني استثمار مدخراته في شراء حزمة من أسهم ريال أفريكا كومباني.
تلك الشركة التي تتبع للتاج البريطاني والرجال الصناعيين والعقلانيين، كانت مهتمة باصطياد عبيد في أفريقيا لبيعهم في أميركا.
وحسب رأي رويال أفريكا كومباني، فإن جهودها تضمن تمويناً مستقراً وكافياً من الزنوج بأسعار متواضعة.

عقود

بينما كان القرن الثامن عشر يولد، جلس ملك بوربوني لأول مرة على عرش مدريد.
وما كاد فيليبه الخامس يدشن التاج حتى تحول إلى تاجر زنوج.
وقع عقداً مع شركة غينيا الفرنسية، ومع ابن عمه ملك فرنسا.
العقد يمنح لكل من العاهلين ٢٥٪ من أرباح بيع ثمانية وأربعين ألف عبد في المستعمرات الإسبانية في أميركا خلال السنوات العشر التالية، ويقر بوجوب إجراء التجارة في سفن كاثوليكية، وقباطنة كاثوليك، وبحارة كاثوليك.
بعد اثني عشرة عاماً من ذلك، وقّع الملك فيليبه عقداً مع شركة ساوث سي كومباني الإنكليزية، ومع ملكة إنكلترا.
العقد يمنح لكل من الملكين ٢٥٪ من أرباح بيع مئة وأربعة وأربعين ألف عبد في المستعمرات الإسبانية في أميركا، خلال الثلاثين عاماً التالية، ويقر بأن الزنوج يجب ألا يكونوا مسنين ولا معطوبين، ويجب أن تكون أسنانهم سليمة وكاملة ويحملون في مكان بارز خاتمي التاج الإسباني والشركة البريطانية موسومين بالنار.
وكان المالكون يضمنون نوعية البضاعة.

تاريخ موجز للتبادل بين أفريقيا وأوروبا

لا شيء جديد في العبودية الموروثة التي تعود إلى أزمنة الإغريق وروما. ولكن أوروبا أضافت، منذ عصر النهضة، بعض المستجدات: فالعبودية لم تُحدد من قبل قطّ من خلال لون البشرة، ولم تكن تجارة اللحم البشري من قبل قطّ تجارة دولية لامعة مثلما صارت على يد الأوروبيين.

خلال القرن السادس عشر، والسابع عشر والثامن عشر، كانت أفريقيا تبيع عبيداً وتشتري بنادق: تستبدل أيدٍ عاملة بأدوات عنف.

وفي ما بعد، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، صارت أفريقيا تقدم ذهباً، وألماساً، ونحاساً، وعاجاً، ومطاطاً، وبناً، وتتلقى أناجيل: كانت تستبدل ثروات الأرض بوعد السماء.

ماء مقدس

في خريطة نُشرت في باريس في العام ١٧٦١، جرى الكشف عن الهول الأفريقي. البهائم المتوحشة تهرع في قطعان متزاحمة لشرب الماء من الينابيع النادرة في الصحراء. أشد أشكال الحيوانات تنوعاً تتنازع الماء القليل. ولتهيجها من الحر والظمأ، تمتطي بعضها بعضاً، أي جنس مع أي جنس دون النظر مع من، وتصالب الأجناس شديدة الاختلاف أنتج أشد المسوخ رعباً في العالم. وبفضل تجار الرقيق، يحظى العبيد بحظ النجاة من ذلك الجحيم. ويفتح التعميد أمامهم أبواب الفردوس.

وقد انتبه الفاتيكان إلى ذلك. ففي العام ١٤٥٤، منح البابا نيكولاس الخامس تفويضاً لملك البرتغال بممارسة العبودية مادام يبشر الزنوج. وبعد سنتين من ذلك، صدر قرار بابوي آخر عن البابا كاليكستو الثالث يعتبر الاستيلاء على أفريقيا حرباً صليبية للمسيحية.

في تلك الأثناء كان الشطر الأعظم من سواحل تلك القارة لا يزال محظوراً بسبب الخوف: فالمياه هناك تغلي، وتترصد في البحر حيات تهاجم السفن، والبحارة البيض يتحولون إلى زنوج فور نزولهم إلى الأراضي الأفريقية.

ولكن في القرون التالية، أقامت جميع التيجان الأوروبية، أو جميعها تقريباً، حصوناً وشركات على امتداد تلك السواحل سيئة السمعة. ومن هناك كانوا يديرون التجارة الأوفر ربحاً من جميع التجارات الأخرى؛ ومن أجل القيام بالواجب تجاه المشيئة الإلهية، كانوا يرشون العبيد بماء مبارك.

وفي العقود وسجلات الحسابات، كانوا يسمون العبيد قطعة، أو بضاعة، بالرغم من أن التعميد كان يدس أرواحاً في تلك الأبدان الخاوية.

أوروبا آكلة لحم بشري

العبيد يصعدون إلى السفن وهم يرتجفون خوفاً. كانوا يعتقدون أنهم سيأكلونهم. ولم يكونوا مخطئين كثيراً. فتجارة النخاسة، في نهاية المطاف، كانت الفم الذي التهم أفريقيا.

لقد كان لدى الملوك الأفارقة عبيد من قبل، وكانوا يتحاربون فيما بينهم، غير أن اصطياد الناس وبيعهم لم يتحول إلى مركز الاقتصاد، وكل الأشياء الأخرى، إلا منذ أن اكتشف الملوك الأوروبيون تلك التجارة. ومنذ ذلك الحين أُفرغت أفريقيا السوداء من دمائها الفتية وخُتم مصيرها.

مالي الآن أحد أشد بلدان العالم فقراً. أما في القرن السادس عشر، فكانت مملكة مزدهرة ومثقفة. كان في جامعة تومبوكتو خمسة عشر ألف طالب. وعندما قام ملك مراكش بغزو مالي، لم يجد الذهب الذي كان يسعى إليه، لأن قليلاً من الذهب الأصفر كان قد تبقى، ولكنه باع الذهب الأسود إلى تجار الرقيق الأوروبيين، وهكذا كسب أكثر بكثير: أسرى حربه، وكان بينهم أطباء، وحقوقيون، وكتّاب، وموسيقيون، ونحاتون،استعبدوا ورُحلوا إلى مزارع أميركا.

كانت ماكينة العبودية تطلب أيدٍ عاملة واصطياد تلك الأيدي يتطلب حروباً. واقتصاد حرب الممالك الأفريقية صار يعتمد أكثر فأكثر على ما يأتي من الخارج. دليل تجاري مطبوع في هولندا عام ١٦٥٥، يعدد الأسلحة المرغوبة أكثر من غيرها في سواحل أفريقيا، وكذلك أفضل الهدايا من أجل تملق أولئك الملوك: الخمر يلقى لديهم تقديراً كبيراً، وحفنة من زجاج موران هو ثمن ستة رجال.

فاشن

بيع العبيد جاء معه بوابل من مطر منتجات مهمة.

فمع أنهم كانوا ينتجون في أفريقيا فولاذاً من نوعية جيدة، إلا أن السيوف الأوربية كانت مرغوبة، فهي أدوات زينة للملوك والندماء في الكثير من الممالك والإمارات التي تبيع زنوجاً لشركات البيض.

والشيء نفسه حدث للأقمشة الأفريقية المصنوعة من ألياف مختلفة، ابتداء من القطن حتى لحاء الأشجار. وفي بداية القرن السابع عشر، أكد الملاح البرتغالي دوارتي باتشيكو أن الملابس في الكونغو، المصنوعة من ألياف النخيل، ناعمة كالقطيفة، وجميلة إلى حدّ لا مثيل له في إيطاليا. ولكن الملابس المستوردة التي تكلف ضعف الثمن، تمنح الشهرة. فالسعر يحدد الجودة. والأكثر غلاء أكثر جودة. وقد كان العبيد رخيصين وكثيرين، وهم بالتالي لا يساوون شيئاً. فكلما كان الشيء غالياً ونادراً تكون قيمته أكبر، وكلما كانت الحاجة إليه أقل يكون أفضل: الافتتان بما يأتي من الخارج يمنح الأفضلية للمستجدات غير النافعة، والموديلات المتبدلة، اليوم هذا، وغداً ذاك، وبعد غد من يدري.

هذا النوع من البريق العابر، رمز السلطة، يميز آمري الآمرين.

مثلما هي الحال الآن.

أقفاص عائمة

تاجر العبيد الذي يحب الحرية أكثر من أي شيء آخر، أطلق على أفضل سفنه اسميّ: فولتير وروسو.

بعض النخاسين عمّدوا سفنهم بأسماء دينية: أرواح، رحمة، النبي داود، يسوع، القديس أنطون، القديس مايكل، القديس تياغو، القديس فيليب، القديسة آنا، سيدتنا شفيعة كونسيبسيون.

وقدم آخرون شهادة على حب الإنسانية، والطبيعة، والنساء: أمل، مساواة، صداقة، البطل، قوس قزح، يمامة، عندليب، الطنان، رغبة، بتي المعبودة، بولي الصغيرة، سيسيليا اللطيفة، هنانا العاقلة.

وأكثر السفن صراحة كانت تسمى المرؤوس، الحارس.

حمولات الأيدي العاملة تلك لم تكن تعلن عن وصولها إلى الموانئ بصفارات أو أسهم نارية. لم يكن ذلك ضرورياً. فقد كانت تُعرف من بعيد، بسبب الرائحة.

ففي عنابر تلك السفن تتراكم بضاعتها العابقة بالنتانة. العبيد يرقدون معاً في الليل والنهار، دون دثار، ملتصقين بعضهم ببعض جيداً من أجل عدم تبديد ولو قليل من المكان، يبولون على أنفسهم، يتبرزون على أنفسهم، مقيدين بعضهم إلى بعض، العنق إلى العنق، والمعصم إلى المعصم، والكاحل إلى الكاحل، وجميعهم مثبتين بالسلاسل إلى القضبان الحديدية الطويلة.
كثيرون منهم كانوا يموتون خلال اجتياز المحيط.
وفي صباح كل يوم، يلقي الحراس تلك الحزم إلى البحر.

أبناء الطريق

مراكب تهريب المهاجرين، هذه الزوارق السخيفة المضحكة التي يبتلعها البحر، هي حفيدة سفن النخاسة تلك.
عبيد اليوم، وهم ما عادوا يُسمون بهذا الاسم، يتمتعون بالحرية نفسها التي كانت لأجدادهم الذين يُلقى بهم، تحت السياط، إلى مزارع أميركا.
إنهم لا يذهبون، بل يدفعونهم. لا أحد يريدهم،
من أفريقيا، ومن أمكنة كثيرة أخرى، يُبحر اليائسون هاربين من الحروب ومن الجفاف، ومن الأراضي المنهوكة والأنهار المسممة والبطون الخاوية.
بيع اللحم البشري، في هذه الأيام بالذات، هو تجارة التصدير الأكبر نجاحاً من جنوب العالم.

تمرد العبيد الأول في أميركا

حدث في بداية القرن السادس عشر.
بعد يومين من عيد الميلاد، تمرد العبيد في معاصر السكر في سانتو دومينغو التي كانت ملكاً لابن كريستوف كولومبس.
بعد انتصار العناية الإلهية وأسقف سانتياغو، امتلأت الدروب بزنوج مشنوقين.

حرية عنيدة

حدث في منتصف القرن السادس عشر.

العبيد الذين يُخفقون في محاولة الهرب الأولى يعاقبون بالبتر، قطع أذن، أو وتر، أو قدم، أو يد، ولم يكن يفيد في شيء إعلان ملك إسبانيا حظر بتر الأعضاء التي لا يمكن تسميتها.

أما أصحاب السوابق، فيقطع ما تبقى لهم، وأخيراً ينتهي بهم الأمر إلى المشنقة، أو المحرقة، أو فأس الجلاد. وكانت رؤوسهم تُعرض، مغروسة على أعمدة، في ساحات القرى.

ولكن معاقل الأحرار كانت تتكاثر في كافة أنحاء أميركا، يتوغلون في أعماق الأدغال أو في وعورة الجبال، تحيط بهم رمال متحركة تبدو كأنها أرض راسخة ودروب زائفة مزروعة بأوتاد حادة.

إلى هناك كان يصل القادمون من أوطان أفريقية عديدة، وصاروا مواطنين مشاركين في وطن جديد لكثرة ما اشتركوا في تلقي المهانة.

مملكة الأحرار

يحدث كل شيء على امتداد القرن السابع عشر.

مثل الفطر تنبثق مخابىء العبيد الهاربين. في البرازيل يسمونها كيلومبو. وهذه الكلمة الأفريقية تعني جماعة أو طائفة، بالرغم من أن العنصرية كانت تترجمها انحلالاً، أو موقع الشجار، أو بيت العاهرات.

في كيلومبو بالماريس، من كانوا عبيداً عاشوا متحررين من أسيادهم ومتحررين كذلك من طغيان السكر الذي يحول دون نمو أي شيء آخر. فكانوا يزرعون كل شيء، ويأكلون من كل شيء. كانت مأكولات أسيادهم تأتي في السفن. أما مأكولاتهم هم فتأتي من الأرض. وكانت ورشهم المهيأة على الطراز الأفريقي، توفر لهم معازق ومعاول ورفوشاً للعمل في الأرض، وسكاكين، وفؤوساً وحراباً للدفاع عن أنفسهم.

ملكة الأحرار

حدث في بداية القرن الثامن عشر.

التقسيم الدولي للعمل قرر أن جامايكا قد وُجدت من أجل تحلية مائدة أوروبا. الأرض تنتج سكراً وسكراً ولا شيء سوى السكر.

وفي جامايكا، كما في البرازيل، كان التنوع في قائمة الطعام امتيازاً يتمتع به العبيد الهاربون. وبالرغم من أن الأراضي الخصبة ليست وفيرة في تلك القمم الجبلية العالية، إلا أن الآبقين كانوا يتدبرون الأمر لزراعة كل شيء، بل إنهم كانوا يربون خنازير ودجاجاً أيضاً.

وبينما هم محشورون هناك، يَرون ولا يُرون، كانوا يقضمون ويزدهون.

في جبال بارلوفينتو الزرقاء تلك، كانت ناني تملك معبداً وعرشاً. فهي ملكة الأحرار. كانت ماكينة تفريخ عبيد، وهي تتباهى الآن بعقود من أسنان الجنود الإنكليز.

فن الأحرار

حدث في منتصف القرن الثامن عشر.

الصوامع الحرة في سورينام كانت تصمد بتبديل أمكنتها. عندما تكتشف القوات الهولندية وجودها، بعد كثير من العناء، لا تجد سوى رماد ما كان قرية.

ما هي الأدوات الضرورية الأساسية؟ إبر الخياطة، خيوط ملونة. يطلب الآبقون ذلك من صغار الباعة المتجولين النادرين الذين يمرون بهم عن طريق الخطأ أو الجنون. ما الذي ستكونه حياتهم دون تلك الملابس ذات الألوان البهيجة،المصنوعة من نتف أقمشة ممزقة ومخيطة إلى بعضها بعضاً بتناسق حكيم؟

من أذرع طواحين المزارع المهشمة يصنعون خواتم وأساور وزينات تليق بجدارة المحاربين. ومما تقدمه الغابة يخترعون آلات موسيقية. كي يمنحوا إيقاعاً للجسد الذي يطلب الرقص.

ملك الأحرار

حدث في أواخر القرن التاسع عشر.

السلطة الاستعمارية شنقت دومينغو بيوهو مرات عديدة، ولكنه لا يزال ملكاً يحكم.

هنا في بالينكي، غير بعيد عن ميناء كرتاخينا دي إنديايس، يختار الآبقون أكثرهم شجاعة، من هو جدير بهذا الاسم المتوارث من ملك إلى ملك. دومينغو بيوهو كثيرون.

بحثاً عن الممتلكات الهاربة

حدث في بداية القرن التاسع عشر.

في أحاديث المائدة، كانت الأرستقراطية تتحدث عن الزيجات، والأملاك الموروثة، وكلاب النخاسة.

كانت صحف ميسيسيبي أو تينسي أو كارولينا الشمالية تعرض خدمات كلاب النخاسة بحوالي خمسة دولارات في اليوم. والإعلانات تشيد بفضائل تلك الكلاب التي تطارد العبيد الآبقين، تهاجمهم، وتعيدهم سالمين إلى أسيادهم.

حاسة الشم أساسية. وبإمكان كلب الصيد الجيد أن يتتبع الأثر بعد ساعات طويلة من مرور الطريدة. كما أن سرعة تلك الكلاب وعنادها تحظى بالتقدير، لأن محو آثار العبيد يضطرهم إلى السباحة في أنهار وجداول أو زرع الطريق بالفلفل، والحيوان الذي يعرف كيف يكسب عظمته لا يتراجع أبداً، ولا يتوقف عن التتبع إلى أن يستعيد الأثر المفقود.

ولكن الأهم من ذلك كله هو التدريب الطويل للحيلولة دون أن يحول الحيوانُ اللحمَ الزنجي إلى كفتة. كما أن مالك الكلاب الشرعي هو الشخص الوحيد المخول شرعياً بمعاقبة سوء سلوك حيواناته.

هاريت

حدث في منتصف القرن التاسع عشر.

هربت. وكانت هاريت توبمان تحمل آثار الجَلد كذكرى على ظهرها وشرخاً في جمجمتها.

لم تأخذ زوجها معها. فقد فضّل أن يظل عبداً وأباً لعبيد:

- إنك مجنونة - قال لها - يمكنك أن تهربي، ولكنك لن تستطيعي رواية ذلك.

ولكنها تهرب، وتروي ذلك، وترجع، وتأخذ أبويها، تذهب وترجع، وتأخذ أخوتها. وتقوم بتسع عشرة رحلة من مزارع الجنوب إلى أراضي الشمال، وباجتيازها الليل، ليلة بعد أخرى، تحرر أكثر من ثلاثمئة زنجي. لم يُلق القبض على أي من هاربيها. يقال إن هاريت كانت تحل برصاصةٍ حالات الإنهاك أو الندم التي قد تحدث في منتصف الطريق. ويقال إنها كانت تقول:

- أنا لا يضيع مني أي مسافر.

إنها أغلى رأس مطلوب في زمنها. أربعون ألف دولار عُرضت مقابل رأسها.

لم يقبضها أحد.

لا تضيع عليك المشهد

لا يدافع عنهم أي محامٍ. وليس بإمكانهم هم أيضاً أن يدافعوا عن أنفسهم، لأن القانون لا يأخذ بقسم الزنوج.

القاضي يصدر الحكم عليهم في طرفة عين.

بعض الحرائق في مدينة نيويورك، على امتداد العام ١٧٤١، تتطلب قبضة حديدية ضد العبيد الفاسدين بفرط الحرية. فإذا كان المحكومون مذنبين بإشعال الحرائق، تكون العقوبة عادلة. وإذا كانوا غير مذنبين، فسوف تكون العقوبة تحذيراً وأمثولة للآخرين.

ثلاثة عشر زنجياً سيقيدون إلى أعمدة وسيُحرقون أحياء، وسبعة عشر زنجياً آخرون سيُشنقون ويظلون معلقين على المشانق إلى أن يتعفنوا، وسيذهب إلى الموت أيضاً أربعة من البيض، إنهم فقراء ولكنهم بيض، لأنه لابد أن يكون هناك من استخدم العقل وفكر ودبر تلك المؤامرة الجهنمية، وهذا كله من شؤون البيض.

مازال ثمة أسبوع للاستعراض، وقد بدأت الحشود تخيم متنازعة أفضل الأمكنة.

أعمار روسا ماريا

عندما كانت في السادسة من عمرها، جاءت بها سفينة نخاسة من أفريقيا، وفي ريو دي جانيرو جرى بيعها.

في الرابعة عشرة من عمرها باعد السيد ما بين ساقيها وعلّمها مهنة.

في الخامسة عشرة اشترتها أسرة من أورو بريتو، ومنذ ذلك الحين صارت تؤجر جسدها لعمال منجم الذهب.

حين صارت في الثلاثين، باعتها تلك الأسرة لكاهن، كان يمارس معها أساليبه في طرد الشيطان وممارسات ليلية أخرى.

حين بلغت الثانية والثلاثين، قام أحد الشياطين التي تسكن جسدها بالتدخين عبر غليونها وصرخ من فمها وطرحها على الأرض، فحُكم عليها بمئة جلدة في ساحة مدينة ماريانا، وأدى العقاب إلى إصابة أحد ذراعيها بشلل دائم.

حين صارت في الخامسة والثلاثين، صامت وصلت وعذبت جسدها، وعلمتها أم مريم العذراء القراءة. ويقال إن روسا ماريا المدعوة بالمصرية في فيراكروس هي أول زنجية مُحيت أميتها في البرازيل.

حين بلغت السابعة والثلاثين، أسست ملجأ للعبيد المهجورين والمومسات خارج الاستخدام، وكانت تموله ببيع بسكويت تعجنه بلعابها، وهو علاج مؤكد ضد أي داء.

حين بلغت الأربعين، كان عدد كبير من المؤمنين يواظبون على نوبات غيبوبتها، حيث كانت ترقص على إيقاع كورال من الملائكة، محاطة بدخان تبغ، والطفل يسوع يرضع من ثديها.

حين صارت في الثانية والأربعين اتُّهمت بالسحر وسُجنت في سجن ريو دي جانيرو.

وفي الثالثة والأربعين من عمرها، أثبت اللاهوتيون أنها ساحرة لأنها تحملت دون شكوى، لوقت طويل، شمعة مشتعلة تحت لسانها.

في الرابعة والأربعين من عمرها، أُرسلت إلى لشبونة، إلى سجن ديوان التفتيش المقدس. دخلت حجرات التعذيب من أجل استجوابها، ولم يعد يُعرف أي شيء عنها.

البرازيل تنام على فراش من ذهب

كان ينبثق من الأرض كما لو أنه عشب مرعى.

يجتذب حشوداً كما لو أنه مَنُّ السماء.

يلمع كما لو أنه ذهب.

وقد كان ذهباً.

المصرفيون الإنكليز احتفوا بكل لقية منه، كما لو أن الذهب لهم.

وقد كان لهم.

فلشبونة التي لم تكن تُنتج شيئاً، كانت تُرسل ذهب البرازيل إلى لندن مقابل قروض جديدة، وملابس فاخرة وكل عادات الحياة الطفيلية.

أورو بريتو، ذهب أسود، هكذا كان يسمى مركز تألق الذهب، فقد كانت سوداء الحجارة التي تضم الذهب، ليالٍ بداخلها شموس، وإن كانت تسميتها بذلك الاسم ممكنة لأن الأيدي التي تنتزع الذهب من الجبال ومن ضفاف الأنهار كانت سوداء.

تلك الأيدي كانت تكلف سعراً أغلى في كل مرة. فالعبيد، وهم أغلبية ساحقة في منطقة المناجم، كانوا الوحيدين الذين يعملون.

وأغلى بكثير كانت الأطعمة. فلا أحد يزرع شيئاً. في السنوات الأولى من الفورة المنجمية، كان ثمن هر يعادل ما يجمعه العبد في يومي عمل. لحم دجاجة كان أرخص من ذلك: لا يكلف إلا ذهب يوم واحد.

وبعد مرور أكثر من قرن، ظلت أرقاماً فلكية أسعار الطعام والتبذير في حفلات مالكي المناجم الأثرياء الذين يعيشون عربدة متواصلة، ولكن ينبوع الذهب الذي بدا أنه لا ينضب، كان يتدفق بقوة أقل فأقل. صارت الصعوبة أكبر فأكبر في جباية الضرائب التي تعتصر المناجم لتمول إنهاك البلاط البرتغالي المتعب من كثرة الراحة في خدمة المصرفيين الإنكليز.

في العام ١٧٥٠، عندما توفي ملك البرتغال، كانت الخزائن الملكية خاوية. وكانوا هم، المصرفيون الإنكليز، من تكفلوا بدفع نفقات الدفن.

هضم

كانت بوتوسي، وغواناخواتو، وثاكاتيكاس تأكل هنوداً. أما أورو بريتو فكانت تأكل زنوجاً.

في الأراضي التي تسيطر عليها إسبانيا كانت تطفر الفضة الآتية من عمل سخرة هنود أميركا. ففي إشبيلية تمر الفضة مروراً عابراً، لتذهب وتصب في كرش المصرفيين الفلامنكيين والألمان والجنويين، والتجار الفلورنسيين والإنكليز والفرنسيين الذين كان التاج الإسباني وكافة موارده مرهونة لديهم.

من دون فضة البيرو والمكسيك، ذلك الجسر الفضي الذي كان يجتاز المحيط، هل كان لأوروبا أن تكون أوروبا؟

في الأراضي البرتغالية كان يقفز الذهب الآتي من العمل العبودي في البرازيل. وفي لشبونة كان الذهب يمر مروراً عابراً. ليذهب ويصب في كروش التجار البريطانيين، دائني المملكة التي كان تاجها وكافة مواردها مرهونة لهم.

من دون ذهب البرازيل، جسر الذهب الذي كان يجتاز البحر المحيط، هل كانت الثورة الصناعية الإنكليزية ممكنة؟

ومن دون بيع وشراء العبيد، هل كان يمكن لميناء ليفربول أن يكون أهم ميناء في العالم، ولشركة لويدز أن تكون ملكة شركات التأمين؟

من دون رأس مال تجارة النخاسة، من كان سيمول آلة جيمس واط البخارية؟ وفي أية أفران كانت ستُصنع مدافع جورج واشنطن؟

أبو الماريونيت

أنطونيو جوزيه داسيلفا، المولود في البرازيل، كان يعيش في لشبونة. كانت دُماه تقدم الضحك للمَشاهد البرتغالية.

منذ تسع سنوات وهو لا يتمكن من تحريك أصابعه التي طُحنت في حجرات تعذيب محاكم التفتيش، لكن شخوصه الخشبية، المتهورة، تواصل تقديم الضحك والسلوى للحشد الذي يحبها.

قريباً سينتهي. سينتهي في المحرقة: لأنه يهودي ولأنه ساخر، لأن دُماه لا تبدي الاحترام الواجب للتاج والكنيسة، ولا للجلادين المقنَّعين الذين يتصرفون بصورة مضحكة وهم

يلاحقونها على المنصة.
ومن شرفة الشرف، يقف جواو الخامس، ملك البرتغال، الملقب بالعظيم، متأملاً تنفيذ الحكم حيث يحترق ملك مُحركي الدمى.
وهكذا يودع العالم أنطونيو ذاك، بينما أنطونيو آخر يقول مرحباً، في اليوم نفسه من العام ١٧٣٠ نفسه، في الجانب الآخر من البحر المحيط.
فأنطونيو فرانسيسكو ليسبوا وُلد في أورو بريتو. ولسوف يدعى أليجادينو، توليديتو. وسيفقد أصابعه أيضاً، ولكن ليس في التعذيب وإنما بفعل لعنة غامضة.

أليجادينو

أقبح رجل في البرازيل كان يبدع أسمى جمال في الفن الكولونيالي الأمريكي.
كان أليجادينو ينحت في الصخر مجد واحتضار أورو بريتو، بوتوسي الذهب.
ابن عبدة أفريقية، ذلك الخلاسي كان يملك عبيداً يحركونه، يغسلونه، يطعمونه، يربطون الأزميل إلى جذعتي يديه.
لقد انقض عليه الجذام، أو السفلس، أو من يدري أي داء، وفقد أليجادينو عيناً، وفقد الأسنان والأصابع، ولكن تلك البقية منه كانت تنحت صخوراً بيديه الغائبتين.
إنه يعمل نهاراً وليلاً، كما لو أنه ينتقم لنفسه، فتلمع أكثر من الذهب تماثيل مسيحه وقديسيه وأنبيائه، بينما ينبوع الذهب يصبح في كل يوم أكثر شحاً وأكثر غزارة بالخيبات والثورات.
أورو بريتو والمنطقة بأسرها تريد تقديم مسوغ للحكم المبكر الذي أصدره كونت أسومار الذي كان حاكمها: يبدو أن الأرض تفوح قلاقل، والماء يفوح برائحة الفتن، وأن الغيوم تتقيأ وقاحة، والكواكب فوضى. والأجواء قبر سلام ومهد ثورات.

أعمار بيدرو

بعمر تسعة أعوام وثمانية عشر اسماً وصل إلى البرازيل بيدرو دي ألكانترا فرانشيسكو أنطونيو جواو كارلوس شابيير دي باولا ميغيل رفائيل جواكيم جوزيه غونزاغا باسكوال سيبريانو سيرافين دي براغانسا آي بوربون، ولي عهد التاج البرتغالي. حمله الإنكليز إلى البرازيل، مع كل بطانته، لإنقاذه من هجمات نابليون. في تلك الأثناء، كانت البرازيل مستعمرة برتغالية، وكانت البرتغال مستعمرة إنكليزية، وإن كان هذا الأمر الأخير لا يقال.

في التاسعة عشرة من عمره، زُوج بيدرو من ليوبولدينا، أرشيدوقة النمسا. لم ينتبه إلى ذلك. فمثل سائحين كثيرين من أزمنة تالية، كان يعيش ملاحقاً الخلاسيات في ليالي ريو دي جانيرو اللاهبة.

في الرابعة والعشرين من عمره أعلن استقلال البرازيل وصار الإمبراطور بيدرو الأول. وعلى الفور وقّع أول القروض مع المصارف البريطانية. الأمة الجديدة والدين الخارجي ولدا معاً. ومازالا معاً لا ينفصلان.

في سن الثالثة والثلاثين، خطرت له الفكرة المجنونة بإلغاء العبودية. غمس الريشة في دواة الحبر، ولكنه لم يتمكن من توقيع المرسوم. فقد جعله انقلاب عسكري بلا تاج ومعلقاً في الهواء.

في الرابعة والثلاثين، رجع إلى لشبونة وتحول إلى بيدرو الرابع، ملك البرتغال.

في السادسة والثلاثين، مات ملك التاجين هذا في لشبونة. وكان قبره الأرض التي كانت أمه وعدوه.

الحرية المغدورة

التاريخ الرسمي البرازيلي مازال يطلق تسمية خيانات على حركات التمرد الأولى من أجل الاستقلال الوطني.

فقبل أن يتحول الأمير البرتغالي إلى إمبراطور برازيلي، جرت عدة محاولات وطنية، أهمها خيانة المناجم، في أورو بريتو عام ١٧٨٤، وقد قضي عليها في المهد. وخيانة باهيا التي اندلعت في سلفادور دي باهيا، وقد استمرت أربع سنوات.

المشارك الوحيد في خيانة المناجم الذي شُنق ومُزقت جثته هو ضابط صغير. أما المتآمرون الآخرون، وهم سادة المجتمع الراقي المتضايقين من دفع الضرائب الاستعمارية، فتمت تبرئتهم.

خيانة باهيا استمرت لوقت أطول وبلغت حدوداً أبعد. فهي لم تقاتل من أجل جمهورية مستقلة وحسب، وإنما كذلك من أجل المساواة في الحقوق دون تمييز في الأعراق.

وبعد أن سال دمٌ كثير، وهُزم التمرد، برأت السلطة الاستعمارية المشاركين الرئيسيين، باستثناء أربعة منهم: مانويل ليرا، وجواو دو ناسيمينتو، ولويس غونزاغا، ولوكاس دانتي، الذين جرى شنقهم وتقطيعهم. الأربعة كانوا زنوجاً، أبناء أو أحفاد عبيد.

وهنالك من يصدق أن العدالة عمياء.

انبعاث توباك آمارو

لقد انبعث توباك آمارو آخر ملوك الإنكا الذي خاض القتال طيلة أربعين عاماً في جبال البيرو. ففي العام ١٥٧٢، عندما قطع سيف الجلاد عنقه، أعلن المتنبئون الهنود أن رأسه سيلتحم ذات يوم بجسده.

وقد التحم. فبعد قرنين من ذلك، وجد خوسيه غابرييل كوندوكانكي الاسم الذي كان ينتظره. وبتحوله إلى توباك آمارو، قاد تمرد السكان الأصليين الأوسع عدداً والأشد خطراً في تاريخ الأمريكيتين كله. اشتعلت مناطق الأنديز، من سلسلة الجبال حتى البحر انتفض ضحايا العمل بالسخرة في المناجم، في المزارع، وفي الورش. ومن انتصار إلى انتصار راح المتمردون يهددون الوجود الاستعماري، متقدمين بخطوات لا تعرف التردد، خائضين أنهاراً، صاعدين جبالاً، مجتازين ودياناً، قرية إثر قرية. وكانوا على وشك اقتحام مدينة كوسكو.

المدينة المقدسة، قلب السلطة، كانت هناك: من القمم تُرى، تُلمس.

كان قد انقضى ثمانية عشر قرناً ونصف قرن، وراحت تتكرر قصة سبارتاكوس الذي كانت روما في متناول يده. ولم يحسم توباك آمارو أمره بالهجوم أيضاً. كانت هنالك قوات هندية، بقيادة زعيم مشترى، تدافع عن كوسكو، المدينة المحاصرة، وتوباك آمارو لا يقتل هنوداً: هذا غير ممكن، أبداً. كان يعرف جيداً أن ذلك ضروري، وأنه لا سبيل آخر، ولكن.. بينما هو متردد بين نعم ولا، ومن يدري أية أشياء أخرى، مرت الأيام والليالي، وكان الجنود الإسبان يصلون قادمين من ليما، بأعداد كبيرة وتسليح جيد.

وعبثاً كانت زوجته ميكائيلا باستيداس التي تقود المؤخرة، ترسل إليه رسلاً يائسين.

أنت ستقضي عليّ من الغم...

لم يعد لديّ صبر على تحمل هذا الانتظار كله...

لقد أرسلت إليكَ الكثير من التحذيرات...

إذا كنتَ تريد دمارنا، يمكنك أن تواصل النوم.

في العام ١٧٨١ دخل الزعيم المتمرد إلى كوسكو. ولكنه دخلها مقيداً، مرجوماً، مشتوماً.

مطر

في حجرة التعذيب، استجوبه مبعوث الملك.

- من هم المتواطئون معك؟ - سأله.

ورد توباك آمارو:

- لا وجود هنا لمتواطئين سوانا أنت وأنا. ونحن نستحق الموت: أنت لأنك باغٍ، مضطهِد، وأنا لأني مُحَرِّر.

حُكم عليه بالموت تمزيقاً. ربطوه إلى أربعة أحصنة. الذراعان والساقان مفتوحة، ولم يتمزق. كانت المهاميز تجرح بطون الخيول، فتشد دون جدوى، ولم يتمزق. فكان لا بد من اللجوء إلى فأس الجلاد. كانت ظهيرة شمس قاسية، أزمنة جفاف طويل في وادي كوسكو، لكن السماء اسودّت فجأة ثم انشقت وانسكب مطر من ذاك الذي يُغرق الدنيا.

وجرى كذلك تمزيق الزعماء المتمردين الآخرين والزعيمات، ميكائيلا باستيداس، وتوباك كاتاري، وبارتولينا سيسا، وغريغوريا آباثا... وتم المرور بأشلائهم في القرى التي أشاعوا التمرد فيها، ثم أحرقت، وأُلقي رمادهم في الهواء، كيلا تبقى منهم ذكرى.

القلة والجميع

في العام ١٧٧٦، استهل استقلال الولايات المتحدة ما سيحدث بعد ذلك في المكسيك وإلى الجنوب، في حركات استقلال أخرى لشعوب أمريكية أخرى.

وكيلا تبقى شكوك حول وظيفة الهنود، اقترح جورج واشنطن التدمير الكامل لقرى السكان الأصليين. وأعرب توماس جيفرسون عن رأيه بأن تلك السلالة التعيسة قد سوغت إبادتها، واقترح بنجامين فرانكلين أنه يمكن لخمر الروم أن يكون وسيلة مناسبة لاجتثاث أولئك المتوحشين.

وكيلا تبقى هناك شكوك حول وظيفة النساء، أضاف دستور ولاية نيويورك أداة التعريف المذكرة لحق التصويت.

وكيلا تبقى شكوك حول وظيفة البيض الفقراء، كان جميع الموقعين على إعلان الاستقلال من البيض الأغنياء.

وكيلا تبقى هناك شكوك حول وظيفة الزنوج، كان هناك ستمئة وخمسون ألف عبد ظلوا عبيداً في الأمة حديثة النشوء. وأذرع زنجية هي التي شيدت البيت الأبيض.

أب غائب

إعلان الاستقلال أكد أن جميع البشر يولدون متساوين.

بعد قليل، أوضح دستور الولايات المتحدة تعريف ذلك: أقر أن كل عبد يساوي ثلاثة أخماس شخص.

عارض ذلك، دون جدوى، محرر الدستور، جوفرنير موريس. وكان قبل قليل من ذلك قد سعى، دون جدوى، إلى أن تلغي ولاية نيويورك العبودية، وقد توصل على الأقل إلى الوعد الدستوري بأنه سيكون في المستقبل لكل فرد يتنفس هواء هذه الولاية أن يتمتع بامتيازات الإنسان الحر.

موريس الذي كانت له أهمية كبيرة في منح الولايات المتحدة وجهها وروحها، كان أحد الآباء المؤسسين الذين نسيهم التاريخ.

في العام ٢٠٠٦ بحث الصحفي الإسباني فيثنتي روميرو عن مدفنه. وقد وجده خلف كنيسة، إلى الجنوب من برونكس. لوحة القبر الممحوة بفعل الأمطار والشموس، كانت تستخدم مسنداً لصندوقي قمامة كبيرين.

أب غائب آخر

روبرت كارتر دُفن في الحديقة.

في وصيته، طلب أن يدفن تحت شجرة ظليلة، أن يرقد بسلام ومجهولية. بلا أي لوح حجري أو أية كتابة.

هذا الوطني من فيرجينيا كان أحد أغنى الأغنياء، وربما الأغنى بين جميع أولئك الملاكين المزدهرين الذين استقلوا عن إنكلترا.

وعلى الرغم من أن بعض الآباء المؤسسين كان لهم رأي سيئ في العبودية، إلا أن أياً منهم لم يعتق عبيده. وكان كارتر هو الوحيد الذي أعتق زنوجه الأربعمئة وخمسين كي يعيشوا ويعملوا حسب مشيئتهم ورغبتهم. حررهم بالتدريج، محاذراً عدم الإلقاء بأي منهم إلى الإهمال، وفعل ذلك قبل ستين عاماً من إعلان أبرهام لينكولن إلغاء العبودية.

تخلى عنه جيرانه وأصدقاؤه وأقرباؤه، وكانوا جميعهم مقتنعين بأن الزنوج الأحرار يهددون الأمن الفردي والوطني.

بعد ذلك، كان النسيان الجماعي هو المكافأة له على أعماله.

سالي

عندما ترمل جيفرسون، تحوّلت إليه أملاك زوجته. ومن بين ممتلكات أخرى، ورث عنها سالي.

هناك شهادات عن جمالها في سنوات شبابها المبكر.

وبعد ذلك، لا ذكر لها.

سالي لم تتكلم قطّ، وإذا تكلمت لم تكن تُسمع، أو أن أحداً لم يشغل نفسه بتدوين ما قالته.

أما عن الرئيس جيفرسون بالمقابل، فلدينا عدد من صوره المرسومة والكثير من كلماته. نعرف أنه كانت لديه شكوك راسخة بأن الزنوج أدنى من البيض في المواهب الطبيعية الجسدية والذهنية، وأنه أعرب على الدوام عن نفوره الكبير من اختلاط الدم الأبيض والدم الزنجي الذي كان يبدو له مقرفاً تماماً. وكان يرى أنه إذا ما جرى تحرير الزنوج ذات يوم، فلا بد من تجنب خطر التلوث باستبعادهم إلى ما وراء أي مجازفة بالاختلاط.

في العام ١٨٠٢ نشر الصحفي جيمس كاليندر في مجلة "ريكوردر" الصادرة في ريشموند مقالاً يكرر فيه ما كان معروفاً: الرئيس جيفرسون هو أبو أبناء عبدته سالي.

الموت للشاي، فلتحيا القهوة

كان التاج البريطاني قد قرر أنه يتوجب على مستعمراته دفع ضرائب لا يمكن دفعها. في العام ١٧٧٣، ألقى المستوطنون الغاضبون في أميركا الشمالية أربعين طناً من الشاي، آتية من لندن، إلى أعماق مياه خليج المرفأ. وقد أُطلق على العملية التسمية الكاريكاتيرية: حفلة شاي بوسطن. واندلعت حرب الاستقلال.

تحولت القهوة إلى شعار وطني، وإن لم يكن أي شيء منها منتجاً وطنياً. فقد اكتُشفت القهوة، ومن يدري متى، في أحد جبال أثيوبيا، حيث كانت الماعز تأكل بعض الثمار الحمراء التي جعلتها ترقص طيلة الليل، وبعد رحلة قرون وصلت إلى جزر البحر الكاريبي.

في العام ١٧٧٦، تحولت مقاهي بوسطن إلى مراكز تآمر ضد التاج البريطاني. وعند إعلانه الاستقلال، كان الرئيس واشنطن يتردد على مقهى يباع فيه الزنوج والقهوة التي يزرعها زنوج في جزر الكاريبي.

بعد قرن من ذلك، كان غزاة الغرب الأميركي يصنعون القهوة، وليس الشاي، على ضوء مواقد معسكراتهم.

هل نثق بالرب؟

من عادة رؤساء الولايات المتحدة التحدث باسم الرب، وإن لم يكشف أي منهم ما إذا كان يتصل به بوساطة البريد الإلكتروني أم الفاكس أم الهاتف، أم التخاطر. وبموافقة الرب أو عدم موافقته أُعلن الرب في العام ٢٠٠٦ رئيساً للحزب الجمهوري في تكساس. ومع ذلك، فإن كلي القدرة الذي يُذكر الآن على الدولارات، يتألق بغيابه في أزمنة الاستقلال. فالدستور الأول لم يأت على مجرد ذكره. وعندما سأل أحدهم عن السبب. أوضح ألكسندر هاملتون:

- لسنا بحاجة إلى مساعدة خارجية.

وفي فراش موته لم يشأ جورج واشنطن صلوات ولا كاهن، ولا قس، ولا أي شيء.

بنجامين فرانكلين قال إن الوحي الإلهي ليس سوى شعوذة.

عقلي هو كنيستي، كان يؤكد توماس باين، والرئيس جون آدمز كان يعتقد أن هذا العالم يمكن أن يكون أفضل العوالم المحتملة لو لم تكن هناك ديانة.

وحسب توماس جيفرسون، فإن الكهنة الكاثوليك والقسس البروتستانت هم منجمون وسحرة قسموا البشرية إلى نصفين، نصف كذابون ونصف آخر منافقون.

مقدمة للثورة الفرنسية

في الشارع الرئيسي في أبفيل كان يمر الموكب. وعلى الأرصفة كان الجميع يخلعون قبعاتهم لدى مرور خبز القربان المرفوع فوق المسيح والصلبان والقديسين. الجميع، باستثناء ثلاثة فتيان كانت عيونهم مصوبة نحو الجمهور الأنثوي ولم يهتموا بما يجري. وجرت الوشاية بهم. فهم لم يرفضوا فقط الكشف عن رؤوسهم أمام لحم المسيح الأبيض، بل نظروا إليه بابتسامات ساخرة. وأضاف الشهود أدلة واضحة أخرى بالغة الخطورة: خبز القربان فُتت، كي ينزف دماً، وصليب خشبي ظهر مبتوراً في حفرة. ركزت المحكمة صواعق الغضب على أحد الفتيان الثلاثة، جان فرانسيس لابير. ومع أنه كان قد أكمل العشرين من عمره للتو، إلا أن ذلك المتغطرس الوقح كان يفاخر بأنه قرأ فولتير ويتحدى القضاة بعجرفته الحمقاء.

في يوم تنفيذ حكم، ذات صباح من عام ١٧٦٦، لم يتغيب أحد عن ساحة السوق. جان فرنسيس صعد إلى منصة الإعدام وقد عُلقت على صدره لوحة:

كافر، مجدف، مدنس للمقدسات، ملعون، بغيض.

انتزع الجلاد لسان المحكوم وقطع عنقه، ثم قطّع جسده وألقى أشلاءه إلى المحرقة. ومع الأشلاء ألقى إلى النار كذلك بعض كتب فولتير، كي يحترق المؤلف والقارئ معاً.

سبعة وعشرون مجلداً.

الرقم غير مذهل جداً إذا ما أُخذت في الاعتبار مجلدات الموسوعة الصينية السبعمئة وخمسة وأربعين، المنشورة قبل ذلك بسنوات قليلة.

ولكن الموسوعة الفرنسية - الإنسكلوبيديا - تركت بصمتها على عصر الأنوار الذي يدين لها بطريقة ما بتسميته. أمر بابا روما بإحراقها وحكم بالحرمان الكنسي على كل من يقتني نسخة من ذلك العمل التجديفي. المؤلفون: ديدرو، دولامبير، ولويس دي جوكور، وروسو، وفولتير وقلة آخرون، جازفوا أو عانوا السجن والنفي كي يتمكن عملهم الجماعي من التأثير، مثلما أثّر، في التاريخ التالي للأمم الأوروبية.

بعد قرنين ونصف، مازالت تلك الدعوة إلى التفكير تبدو مذهلة. بعض التعريفات المستخرجة من صفحاتها:

السلطة: لم يتلق أي إنسان من الطبيعة الحق بأن يكون آمراً على آخرين.

الرقابة: لا يوجد ما هو أخطر على الإيمان من جعله يعتمد على رأي بشري.

البظر: مركز اللذة الجنسية عند المرأة.

الحاشية: تطلق على من يقفون بين الملك والحقيقة، بهدف منع الحقيقة من الوصول إلى الملوك.

إنسان: الإنسان لا يساوي شيئاً بلا الأرض، والأرض لا تساوي شيئاً دون الإنسان.

محكمة التفتيش: موكتيزوما أدين لأنه يقدم الأسرى قرابين لآلهته. ما الذي سيقوله لو أنه رأى يوماً محكمة تفتيش؟

العبودية: تجارة بغيضة، مخالفة للقانون الطبيعي، حيث يشتري بعض البشر ويبيعون بشراً آخرين كما لو أنهم بهائم.

هزة الجماع: أهناك شيء يستحق التوصل إليه إلى هذا الحدّ؟

ربى: لم يكن اليهود يمارسون الربا. الاضطهاد المسيحي هو الذي أجبر اليهود على التحول إلى مرابين.

موزارت

الرجل الذي كان موسيقى، كان يبدع موسيقى طيلة النهار وطيلة الليل وفيما وراء النهار والليل، كما لو أنه يسابق الموت، كما لو أنه يعرف أن الموت سيأخذه باكراً.

بإيقاع محموم كان يؤلف أعماله، واحداً بعد آخر، وكان يترك في نوتاته سطوراً فارغة تفسح مجالاً لأن يرتجل، وهو على بيانو، مغامراته عن الحرية.

لم يكن هناك من يدري من أين يأتي بالوقت، ولكنه خلال حياته الخاطفة أمضى ساعات طويلة محشوراً في كتب مكتبته الفسيحة ومشتبكاً في مجادلات متحمسة مع أناس تنظر إليهم الشرطة الإمبراطورية بعين السوء، من أمثال جوزيف فون سونينفلز، الحقوقي الذي تمكن، في فينا، من حظر التعذيب للمرة الأولى في أوروبا. أصدقاؤه كانوا معادين للاستبداد والبلاهة. كان ابن عصر الأنوار، وقارئ الانسكلوبيديا الفرنسية، وقد شارك موزارت في الأفكار التي هزت عصره.

في الخامسة والعشرين من عمره فقد وظيفته كموسيقي للملك، ولم يرجع إلى البلاط بعد ذلك قطّ. ومنذ ذلك الحين عاش على حفلاته الموسيقية وبيع أعماله، وقد كانت كثيرة وعالية القيمة ولكنها رخيصة الثمن.

كان فناناً مستقلاً، عندما كان الاستقلال أمراً غريباً، وقد كلفه ذلك غالياً. وكعقاب له على حريته، مات غارقاً بالديون: العالم يدين له بالكثير من الموسيقى، وهو مات مديناً.

ازدراء اليد البشرية

في العام ١٧٨٣ أعلن ملك إسبانيا أن المهن اليدوية لم تعد مزدراة.

وحتى ذلك الحين، لم يكن جديراً بالمعاملة بلقب "دون" من عاشوا أو يعيشون من عمل أيديهم، أو من كان لهم أب أو أم أو أجداد يمتهنون مهناً دنيا أو خسيسة.

وكان يمتهن مهنة دنيا أو خسيسة

من يعملون في الأرض، ومن يشتغلون الحجر، ومن يعملون في الخشب، ومن يبيعون بالمفرق، والخياطون، والحلاقون، والعطارون، والحذاؤون، فهذه الكائنات المنحطة تدفع ضرائب.

وبالمقابل، كان يُعفى من الضرائب:

العسكريون، النبلاء، والكهنة.

اليد البشرية الثورية

في العام ١٧٨٩ هاجم الشعب الغاضب سجن الباستيل واقتحمه.

وفي كافة أنحاء فرنسا انتفض المنتجون ضد الطفيليين. رفض الأهالي مواصلة دفع الضرائب والأعشار التي أتخمت الملكية والأرستقراطية والكنيسة، هذه المؤسسات الموقرة التي لم يستطع أحد قط أن يجد لها أي فائدة.

الملك والملكة هربا. انطلقت العربة في الرحلة نحو الشمال، باتجاه الحدود. الأمراء الصغار كانوا يرتدون ملابس بنات مدللات. وكانت معلمتهم متنكرة كبارونة، وتحمل جواز سفر روسي. وكان الملك لويس السادس عشر كبير خدمها. والملكة ماري أنطوانيت وصيفتها.

كان الوقت قد صار ليلاً عندما وصلوا إلى بلدة فيرنز بالقرب من فردان.

وفجأة برزت جموع من الظلام، قلبت العربة، وألقت القبض على الأسرة المالكة وأعادتها إلى باريس.

ماري أنطوانيت

ضئيلة جداً كانت أهمية الملك. وكانت الملكة ماري أنطوانيت هي المكروهة. مكروهة لأنها أجنبية، ولأنها تتثاءب خلال المراسم الملكية، ولأنها لا تستخدم مشد صدر، ولأن لها عشاقاً. وبسبب تبذيرها الشديد، كانوا يسمونها السيدة عجز الموازنة.

اجتذب المشهد جموعاً غفيرة. وزمجرت الحشود مهللة عندما تدحرج رأس ماري أنطوانيت عند قدمي الجلاد.

كان الرأس عارياً، دون عقد.

فرنسا بأسرها كانت مقتنعة بأن الملكة قد اشترت أغلى حلية في أوروبا: عقد فيه ستمئة وسبع وأربعون ماسة. وكان الجميع يعتقدون أيضاً أنها قالت: إذا كان الشعب لا يملك الخبز، فليأكل البسكويت.

المارسييز

أشهر نشيد في العالم ولد في لحظة مشهورة من التاريخ العالمي. ولكنه ولد أيضاً من يد من كتبه وفم من ترنم به أول مرة: يد وفم مؤلفه الذي ليس له شيء من الشهرة، النقيب روجيه ديلاسل الذي نظمه في ليلة واحدة.

أملت أصواتُ الشارع الكلمات، وانبثقت الموسيقى كما لو أن مؤلف النشيد كان يختزنها في أعماقه، منذ الأزل، بانتظار أن تخرج.

كان ذلك في العام ١٧٩٢، في ساعات اضطراب: كانت القوات البروسية تتقدم ضد الثورة الفرنسية. خطابات ونداءات حماسية تهيج شوارع ستراسبورغ.

- إلى السلاح أيها المواطنون!

ودفاعاً عن الثورة المحاصرة، توجه جيش الرين حديث التشكيل إلى الجبهة. نشيد روجيه أضفى بريقاً على القوات. كان له رنين وعاطفة. وبعد شهرين من ذلك عاد للظهور، دون أن يدري أحد كيف، في أقصى الجانب الآخر من فرنسا. فقد انطلق ثوريو مرسيليا إلى المعركة مترنمين بهذه الأغنية القوية التي صارت تسمى المارسييز، وصارت فرنسا بأسرها كورالاً لها. واقتحم الشعب وهو يغنيها قصر توليريس.

المؤلف سيق معتقلاً. فالنقيب روجيه كان مشبوهاً بخيانة الوطن، لأنه اقترف حماقة الاختلاف مع السيدة "مقصلة"، وهي الأيديولوجيا الأشد حدّة ورهافة في الثورة.

وأخيراً خرج من السجن. بلا زيه العسكري، وبلا راتب.

جرجر حياته طوال سنوات، يأكله القمل، تلاحقه الشرطة. وحين يقول إنه هو أبو نشيد الثورة، يضحك الناس منه في وجهه.

أناشيد وطنية

أول نشيد وطني معروف ولد في إنكلترا، لأبوين مجهولين، عام ١٧٤٥. وكانت أبياته تعلن أن المملكة ستسحق المتمردين الاسكتلنديين لتحبط خدع أولئك المحتالين.

بعد نصف قرن من ذلك، كان نشيد المارسييز يحذر من أنه سيروي حقول فرنسا من دماء الغزاة الدنسة.

في بداية القرن التاسع عشر، تنبأ نشيد الولايات المتحدة بميولها الإمبراطورية، المباركة من الرب: الغزو واجبنا، حيث تكون قضيتنا عادلة. وفي أواخر ذلك القرن، كان الألمان يرسخون وحدتهم الوطنية المتأخرة بنصب ثلاثمئة وسبعة وعشرين تمثالاً للإمبراطور غليوم وأربعمئة وسبعين تمثالاً للأمير بسمارك، بينما هم ينشدون النشيد الذي يضع ألمانيا über alles، أي: فوق الجميع.

والأناشيد تؤكد، بصورة عامة، هوية كل أمة من خلال التهديدات، والشتائم، وامتداح الذات، والإشادة بالحرب، والواجب المشرف في القتل والموت.

وفي أميركا اللاتينية تبدو هذه الطقوس المكرسة لأكاليل الغار السامية كما لو أنها من عمل مؤسسات الدفن الفاخر:

النشيد الوطني في أورغواي يدعونا إلى الخيار بين الوطن أو القبر،

ونشيد باراغواي للخيار بين الجمهورية والموت،

ونشيد تشيلي يعلن أن أرضه ستكون قبر الأحرار،

ونشيد غواتيمالا يدعو إلى الانتصار أو الموت.

والنشيد الكوبي يؤكد أن الموت في سبيل الوطن حياة.

نشيد الإكوادور يبين أن مذبحة الأبطال هي برعم خصب.

ونشيد البيرو يشيد بهول مدافعه،

ونشيد المكسيك ينصح بتضميخ رايات الوطن بأمواج من الدم.

وبدماء الأبطال يستحم النشيد الكولومبي الذي يكافح بجغرافية حماسية في جبال تيرموبيلاس.

أولمبيا

أنثوية هي رموز الثورة الفرنسية، نساء من المرمر أو البرونز، بأثداء متينة عارية، وقبعات باردة، ورايات خفاقة. ولكن الثورة نادت بـإعلان حقوق الرجل والمواطن، وعندما اقترحت المناضلة الثورية أولمبيا ديغوغ إعلان حقوق المرأة والمواطنة، قطعت المقصلة رأسها.

وبينما هي على منصة الإعدام، سألت أولمبيا: - إذا كنا نحن النساء قادرات على الصعود إلى المقصلة، فلماذا لا يمكن لنا الصعود إلى المنابر العامة؟ لا يمكن لهن. لا يمكن لهن الكلام، لا يمكن لهن التصويت. ورفيقات أولمبيا ديغوغ سُجِنَّ في مستشفى المجانين.

وبعد إعدامها بقليل، جاء دور مانون رولان. ومانون كانت زوجة وزير الداخلية، ولكن ذلك لم ينفع في إنقاذها. حكموا عليها بسبب ميلها غير الطبيعي إلى النشاط السياسي. فقد خانت طبيعتها الأنثوية المهيأة للعناية بالمنزل وإنجاب أبناء شجعان، وارتكبت الوقاحة القاتلة بدس أنفها في شؤون الدولة الذكورية.

وعادت المقصلة إلى السقوط.

المقصلة

بوابة عالية دون باب، إطار فارغ. في الأعلى، تتدلى الشفرة القاتلة.

كانت لها أسماء متعددة: الآلة، الأرملة، الحلاقة. وعندما قطعت رأس الملك لويس، صار اسمها لويسا الصغيرة. وأخيراً، عُمِّدت إلى الأبد باسم المقصلة (Guillotine).

عبثاً اعترض جوزيف غويلتين Guillotin. احتج مرة وألف مرة بأن هذه الجلادة التي تزرع الرعب وتجتذب حشوداً ليست ابنته. لم يكن هناك من يستمع إلى رأي هذا الطبيب المعادي لعقوبة الإعدام: فليقل ما يقول، الناس مازالوا يعتقدون أنه أبو أول ممثلة في الاستعراض الأوسع شعبية في ساحات باريس.

وقد اعتقد الناس، ومازالوا يعتقدون، أن غويلتين قد مات على المقصلة. والواقع أنه لفظ نَفَسه الأخير في سلام فراشه، وبرأس ملتصق تماماً بجسده.

ظلت المقصلة تعمل حتى العام ١٩٧٧، عندما نفَّذ نموذجٌ سريع جداً منها، يعمل بالتوجيه الكهربائي، عملية إعدام مهاجر عربي في باحة سجن باريس.

الثورة فقدت رأسها

من أجل تخريب الثورة، أحرق مالكو الأراضي محاصيلهم. شبح الجوع كان يحوم فوق المدن. ملكيات النمسا وبروسيا وإنكلترا وإسبانيا وهولندا اندفعت إلى الحرب ضد عدوى الثورة الفرنسية التي تسيء إلى التقاليد الموروثة وتهدد الثالوث المقدس: التاج وباروكة الشعر والمسوح الكهنوتي.

الثورة المحاصرة من الداخل والخارج كانت تغلي. وكان الشعب هو الجمهور الذي يرى ما الذي يحدث باسمه. لم يكن أناس كثيرون يحضرون المناظرات. فالوقت لا يتسع. عليهم الوقوف بالدور من أجل الطعام.

الاختلاف في الرأي يقود إلى منصة الإعدام. لأن جميع قادة الثورة الفرنسيين كانوا معادين للنظام الملكي، ولكن كان هناك ملك في داخل بعضهم، وبالحق الثوري، الحق الإلهي الجديد، كانوا أسياد الحقيقة المطلقة ويطالبون بالسلطة المطلقة. وكل من يتجرأ على الاختلاف هو معادٍ للثورة، وحليف للعدو، وجاسوس أجنبي، وخائن للقضية.

مارا نجا من المقصلة لأن آنسة مهووسة طعنته بسكين وهو يستحم. و سان جوست، بإيحاء من روبسبير، اتهم دانتون. ودانتون الذي حُكم عليه بالموت طلب ألا ينسوا عرض رأسه على فضول الجمهور، وترك بيضتيه ميراثاً لروبسبير قائلاً إنه سيحتاج إليهما.

بعد ثلاثة شهور من ذلك قُطع رأس سان جوست ورأس روبسبير. دون رغبة منها، ودون أن تدري ذلك، كانت الجمهورية الفوضوية واليائسة تعمل لإعادة إقرار النظام الملكي. والثورة التي أعلنت الحرية، والمساواة، والأخوة، انتهت إلى شق الطريق لاستبداد نابليون بونابرت الذي أسس سلالة حاكمة.

بيخنر

في العام ١٨٣٥ نشرت الصحف الألمانية الإعلان التالي من السلطات:

مطلوب

جورج بيخنر، طالب طب من درامستاد

عمره ٢١ عاماً، عينان بنيتان، أنف كبير، فم صغير، حسير البصر.

كان بيخنر محرضاً اجتماعياً، مُنظم فلاحين فقراء، خائناً لطبقته، يهرب من الشرطة.

بعد قليل من ذلك، حين بلغ الثالثة والعشرين، مات.

مات بالحميات: كل تلك الحياة الحيوية خلال ذلك الزمن القصير. وبين قفزة وقفزة من حياته كهارب، كتب بيخنر، مستبقاً بقرن، الأعمال التي ستؤسس المسرح الحديث: "فويتسك"، "ليونسيو ولينا"، و"موت دانتون".

في "موت دانتون"، امتلك هذا الثوري الألماني الجرأة على أن يضع على منصة المسرح، من الألم ودون عزاء، المصير المأساوي للثورة الفرنسية التي كانت قد بدأت بالإعلان عن استبداد الحرية، وانتهت بفرض استبداد المقصلة.

اللعنة البيضاء

وجه العبيد الهايتيون ضربة رهيبة لجيش نابليون بونابرت؛ وفي العام ١٨٠٤ ارتفعت راية الأحرار فوق الأنقاض. ولكن هايتي كانت، منذ الانهيار، بلداً مدمراً. على مذابح مزارع القصب الفرنسية قُدمت أراضٍ وأذرع قرباناً، وأجهزت نكبات الحرب على ثلث السكان. ولادة الاستقلال وموت العبودية، وهما مأثرتان زنجيتان، كانا إهانة لا تغتفر للبيض أسياد العالم.

ثمانية عشر جنرالاً من جنرالات نابليون دُفنوا في الجزيرة المتمردة. الأمة الجديدة التي رأت النور غارقة في الدم، ولدت محكومة بالحصار والعزلة: لا أحد يشتري منها، ولا أحد يبيع إليها، ولا أحد يعترف بها. ولأنها كانت غير مخلصة للسيد الاستعماري، أُجبرت هايتي على أن تدفع لفرنسا تعويضات هائلة. هذا التطهر من خطيئة الكرامة الذي ظلت تدفعه طيلة قرن ونصف قرن تقريباً، هو الثمن الذي فرضته فرنسا مقابل اعترافها الدبلوماسي.

ولم يعترف أحد آخر بهايتي. ولم تعترف بها أيضاً كولومبيا الكبرى التي كان يترأسها سيمون بوليفار، مع أنه كان مديناً لها بكل شيء. فقد قدمت إليه هايتي سفناً، وأسلحة، وجنوداً، وشرطها الوحيد على ذلك منح الحرية للعبيد، وهذه فكرة لم تكن قد خطرت لبطل تحرير أميركا. وفيما بعد، عندما انتصر بوليفار في حرب استقلاله، رفض دعوة هايتي إلى مؤتمر الدول الأمريكية الجديدة. ظلت هايتي أجرب الأمريكيتين.

كان توماس جيفرسون قد نبه، منذ البدء، بوجوب إبقاء الطاعون في تلك الجزيرة، لأن المثال الخبيث يأتي منها.

الطاعون، والمثال الخبيث: تمرد، فوضى، عنف. وكان القانون في كارولينا الجنوبية يسمح بسجن أي بحار زنجي خلال توقف سفينته في المرفأ، لأنه قد ينقل عدوى حمى العداء للعبودية التي تهدد كافة أرجاء الأمريكيتين. وفي البرازيل كانت تُطلق على تلك الحمى تسمية الهايتية.

توسان

ولد عبداً وابناً لعبد.

وكان خَرِعاً وقبيحاً.

أمضى طفولته في التكلم إلى الخيول والنباتات.

وجعلته السنون حوذياً لعربة السيد وطبيباً لحدائقه.

لم يقتل ذبابة عندما وضعته أمور الحرب حيث هو. وهم يدعونه الآن لوفيرتور، لأن يشق صفوف الدفاع المعادية بسيفه. هذا الجنرال المرتجل يثقف جنوده، العبيد الأميين، موضحاً لهم سبب الثورة وكيفية خوضها، من خلال الحكايات التي سمعها أو اختلقها عندما كان صبياً.

في العام ١٩٠٣، كان الجيش الفرنسي يلفظ آخر أنفاسه.

الجنرال لوكلير، صهر نابليون، عرض عليه:

- فلنتحاور.

استجاب توسان.

فاعتقلوه، حبسوه، نقلوه بحراً.

وسجيناً في أبرد قلعة في فرنسا، مات من البرد.

مرات كثيرة ماتت العبودية

راجع أي موسوعة. اسأل ما هو أول بلد ألغى العبودية. وسوف تجيبك الموسوعة: إنكلترا.

صحيح أن الإمبراطورية البريطانية، البطل العالمي في تجارة الرقيق، غيرت رأيها عندما أجرت حسابات الأرقام وانتبهت إلى أن بيع اللحم البشري لم يعد مربحاً. ولكن لندن اكتشفت أن العبودية سيئة في العام ١٨٠٧، وكان الخبر غير مقنع إلى حدّ اضطرت معه، بعد انقضاء ثلاثين عاماً، إلى تكراره مرتين أخريين.

وصحيح أيضاً أن الثورة الفرنسية حررت عبيد المستعمرات، ولكن مرسوم التحرير الذي سمي بالخالد، مات بعد قليل من ذلك، اغتاله نابليون بونابرت.

البلد الأول الحر، والحر حقاً، كان هايتي. فقد ألغت العبودية قبل ثلاثة أعوام من إنكلترا، في ليلة تضيئها شمس الحرائق، بينما كانت تحتفل باستقلالها المكتسب للتو وتستعيد اسمها الأصلي المنسي.

الميتة التي تتكلم

إلغاء العبودية راح يتكرر أيضاً، على امتداد القرن التاسع عشر كله، في الأوطان الأمريكية اللاتينية الجديدة.

وكان تكرار الإلغاء دليلاً على عجزه. ففي العام ١٨٢١، أعلن سيمون بوليفار موت العبودية. ولكن المتوفاة، بعد ثلاثين عاماً من ذلك، كانت لا تزال تتمتع بصحة وافرة، وصدرت قوانين إلغاء جديدة في كولومبيا وفنزويلا.

في الأيام التي صدر فيها دستور عام ١٨٣٠، نشرت صحف أروغواي عروضاً من نوع:

للبيع بسعر رخيص جداً: زنجي إسكافي.

للبيع: خادمة أنجبت وليداً لتوها.

للبيع: زنجية شابة، ١٧ عشر عاماً، بلا عيوب.

للبيع: سمراء بارعة جداً في كافة الأعمال البيتية، وقِدر كبيرة.

قبل خمس سنوات من ذلك كان قد صدر في أروغواي القانون الأول الذي يحظر بيع البشر، وكان لا بد من تكراره في ١٨٤٢، و١٨٤٦، و١٨٥٣.

أعمار إقبال

في باكستان، كما في بلدان أخرى، مازالت العبودية على قيد الحياة.

والأطفال هم أشياء يمكن استعبادها.

عندما بلغ إقبال مايز الرابعة من عمره، باعه أبواه بخمسة دولارات.

اشتراه صانع سجاد. وبينما هو مقيد إلى النول، كان يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم. في العاشرة من عمره كان ظهر إقبال قد احدودب، وصارت له رئتا عجوز.

عندئذ هرب وتحول إلى الناطق بلسان الأطفال المستعبدين في باكستان.

في العام ١٩٩٥، حين كان في الثانية عشرة من عمره، أسقطته رصاصة عن دراجته.

ممنوع أن تكون امرأة

في العام ١٨٠٤ نُصب نابليون بونابرت إمبراطوراً وأصدر قانوناً مدنياً، هو المسمى قانون نابليون، والذي لا يزال حتى اليوم نموذجاً حقوقياً للعالم بأسره.

هذا العمل البارع لبرجوازية السلطة كرس الازدواجية الأخلاقية ورفع حق الملكية إلى أعلى مكانة في مذبح القوانين.

النساء المتزوجات حُرمن من الحقوق، مثلهن مثل الأطفال، والمجرمين، والمتخلفين العقليين. ويتوجب عليهن طاعة الزوج. وهن مجبرات على مرافقته حيثما يشاء الذهاب، ويحتجن إلى تصريح منه لكل شيء تقريباً، ما عدا التنفس.

والطلاق الذي اختزلته الثورة الفرنسية إلى معاملة بسيطة، اقتصر على يد نابليون على ارتكاب الفاحشة. يمكن للزوج الطلاق بسبب زنا زوجته. أما الزوجة فيمكن لها الطلاق فقط إذا كان الزوج قد ضاجع عشيقته في فراش الزوجية.

الرجل الزاني يدفع غرامة، في أسوأ الحالات. أما الزوجة الزانية فتذهب إلى السجن، في كل الحالات.

القانون لا يمنح تصريحاً بقتل الخائنة إذا ما ضُبطت متلبسة بالخطيئة. ولكن إذا قتلها الزوج المخدوع، فإن القضاة، وهم من الرجال دائماً، يصفرون وينظرون إلى جانب آخر.

هذه الترتيبات، هذه العادات، سادت في فرنسا طوال أكثر من قرن ونصف قرن.

الفن الرسمي في فرنسا

في أوج غزو أوروبا، على رأس جيشه الضخم، اجتاز نابليون جبال الألب.

وقد رسمه جاك لويس دافيد.

في اللوحة يظهر نابليون بزي المراسم العسكري الخاص به كقائد عام للجيش الفرنسي. العباءة المذهبة تتموج بأناقة فخمة مع الريح. هو يرفع يده مشيراً إلى السماء. وحصانه الأبيض اللامع، بناصيته وذيله المجعدين كما في صالون تجميل، يجاريه في الحركة بالوقوف على قائمتيه الخلفيتين فقط. الصخور التي على الأرض حُفر عليها اسم بونابرت وزميليه هانيبال وشارلمان.

الحقيقة أن نابليون لم يكن يرتدي الزي العسكري. فقد اجتاز تلك المرتفعات الجليدية وهو يرتجف من البرد، وكان يتدثر بمعطف رمادي سميك يغطي حتى عينيه، ويمضي على متن بغلة رمادية تقوم بكل ما هو ممكن كيلا تنزلق في على تلك الصخور الزلقة التي ليست عليها أية أسماء.

بتهوفن

عاش طفولة سجينة، وآمن بالحرية كما لو أنها ديانة.

ومن أجلها أهدى إلى نابليون سيمفونيته الثالثة ثم شطب الإهداء بعد ذلك.

أبدع موسيقى دون خوف مما يمكن أن يقال. سخر من الأمراء. عاش في خلاف دائم مع الجميع. كان وحيداً وكان فقيراً، وقد اضطر إلى الانتقال وتغيير بيته أكثر من ستين مرة.

وكره الرقابة. الرقابة استبدلت اسم "نشيد للحرية" للشاعر فريدريك فون شيلر، ليصير الاسم "نشيد السعادة" في السيمفونية التاسعة.

في حفل افتتاح التاسعة، في فيينا، انتقم بتهوفن. قاد الأوركسترا والكورال بتألق جامح تحول معه "النشيد" المحظور رقابياً إلى نشيد لسعادة الحرية.

انتهى تقديم العمل وظل هو مديراً ظهره للجمهور، إلى أن أمسكه أحدهم وجعله يستدير، فاستطاع عندئذ أن يرى التصفيق الحماسي الذي ما كان قادراً على سماعه.

تأسيس وكالات الأنباء

قضي على نابليون تماماً على يد الإنكليز في معركة ووترلو، إلى الجنوب من بروكسل.

الماريشال آرثر ويليزلي، دوق ويلينغتون حقق النصر، ولكن المنتصر كان المصرفي ناثان روتشيلد الذي لم يطلق رصاصة واحدة، وكان بعيداً جداً عن المكان.

عمل روتشيلد على رأس جيش صغير جداً من الحمام الزاجل. وقد حملت له الحمائم السريعة، والمدربة جيداً، الخبر إلى لندن. وعرف هو قبل الجميع أن نابليون قد هُزم، ولكنه أشاع أن الانتصار الفرنسي كان صاعقاً، وضلل السوق بتخلصه من كل ما هو بريطاني من سندات وأسهم وأموال. وفي الحال حذا الجميع حذوه، لأنه يعرف على الدوام ما الذي يفعله، فباعوا بسعر الزبالة سندات الأمة التي ظنوها مهزومة. عندئذ اشترى روتشيلد. اشترى كل شيء بأبخس الأسعار، مقابل لا شيء تقريباً.

هكذا انتصرت إنكلترا في ميدان المعركة وهُزمت في بورصة الأوراق المالية.

المصرفي روتشيلد ضاعف ثروته عشرين ضعفاً وتحول إلى أغنى رجل في العالم.

بعد سنوات من ذلك، في منتصف القرن العشرين، ولدت أولى وكالات الأنباء العالمية: هافاس التي صارت تسمى الآن وكالة الصحافة الفرنسية، ورويتر، وأسوشيتد برس...

وكانت جميعها تستخدم الحمام الزاجل.

تأسيس الكرواسان

نابليون، رمز فرنسا، ولد في كورسيكا. وأبوه المعادي لفرنسا عمّده باسم نابليون.

رمز فرنسي آخر، الكروسان، ولد في فيينا. ولسبب ما له اسم وشكل الهلال. فقد كان الهلال ولا يزال رمزاً إسلامياً. وكانت الجيوش التركية قد فرضت حصاراً على فيينا. كسرت المدينة الحصار في يوم من أيام العام ١٦٨٣، وفي تلك الليلة بالذات، في فرن محل للحلويات، اخترع بيتر ويندر الكرواسان: لإطعام الأهالي.

وفرانز جورج كولتشيتزي، وهو قوقازي حارب في سبيل فيينا، طلب تعويضاً عن ذلك أكياس حبوب البن التي خلّفها الأتراك لدى انسحابهم، وفتح أول مقهى في المدينة: من أجل شرب المهزومين.

تأسيس المائدة الفرنسية

جان أنتيلم بريت سفارين، ثوري محبط، وغريمو ديلا راينيه، ملكي نوستالجي، أسسا المائدة التي صارت اليوم شعار فرنسا.

كانت الثورة قد صارت خلفهم، وكان الأقنان قد بدلوا سادتهم. لقد ولد نظام جديد، وطبقة جديدة صارت الآمرة، وعكفا هما على تربية أذواق البرجوازية المنتصرة.

وقد نُسبت إلى بريت سفارين، مؤلف أول رسالة في فن الأكل، العبارة القائلة: قل لي ما تأكل، أقول لك من أنت التي رددها كثيرون، وكذلك الجملة القائلة: طبق جديد يضيف إلى السعادة البشرية أكثر مما يضيفه نجم جديد. وقد جاءت معارفه من آوروا، أمه، الاختصاصية التي ماتت في سن التاسعة والتسعين على المائدة: أحست بالألم، فجرعت كأس النبيذ وتوسلت أن يأتوها بأقصى سرعة بالتحلية.

أما غريمو ديلا راينيه فكان مؤسس صحافة فن الأكل. مقالاته التي كانت تنشر في الصحف وعلى التقاويم، وجهت مطابخ المطاعم حيث لم تعد فنون الأكل الجيد ترفاً يقتصر على صالونات النبلاء. ولم تكن لصاحب البراعة ذاك يدان: فراينيه، معلم الريشة والمغرفة الكبير، ولد بلا يدين، وبخطافات كان يكتب ويطبخ ويأكل.

غويا

في العام ١٨١٤، جلس الملك فرناندو السابع أمام فرانثيسكو دي غويا كي يرسمه. لم يكن في ذلك أية غرابة. فغويا، الفنان الرسمي للبلاط الإسباني، كان يرسم الصورة الجديدة للعاهل. ولكن الفنان والملك كانا يتبادلان الكراهية.

كان الملك، وهو محق، يرتاب بأن ذلك الرسم البلاطي كاذب بلطفه. ولم يكن أمام الفنان سوى إنجاز عمله الذي يكسب منه خبزه، العمل الذي يوفر له الطعام ويمنحه درعاً واقية جيدة ضد هجمات محاكم التفتيش المقدسة. لم تكن تنقص محكمة الرب تلك الرغبة في أن تحرق حياً صاحب الجميلة العارية وأعمال عديدة أخرى تسخر من فضيلة الكهنة ومن شجاعة المحاربين.

كان الملك يملك السلطة ولم يكن الفنان يملك شيئاً. فقد وصل فرناندو إلى العرش من أجل إعادة إقرار محاكم التفتيش وامتيازات السادة الإقطاعيين، محمولاً على أكتاف حشود تهتف صارخة:

- تحيا السلاسل!

ومع مرور الوقت، وكان قصيراً، وليس طويلاً، فقد غويا وظيفته كرسام للملك، وجرى استبداله بالرسام بيثنتي لوبيث، بيروقراطي الريشة المطيع.

عندئذ بحث الفنان فاقد الوظيفة عن ملجأ في نزل على ضفاف نهر مانثاناريس، وبين تلك الجدران ولدت أعماله البارعة المدعوة رسم أسود.

لقد رسمها غويا لنفسه، من أجل متعته الخاصة أو استيائه، في ليالي الوحدة والقنوط، على ضوء الشموع.

وهكذا كان ذلك الأصم ذي الصمم المطلق قادراً على سماع أصوات عصره الكسيرة ومنحها شكلاً ولوناً.

مريانا

في العام ١٨١٤ قتل الملك فيرناندو الـ "بيبا".

و"بيبا" هي التسمية التي أطلقها الشعب على دستور قادس الذي ألغى قبل سنتين من ذلك ديوان التفتيش وكرس حرية الصحافة، وحق التصويت ووقاحات أخرى.

قرر الملك أن الـ "بيبا" لم تكن. واعتبرها ملغاة بلا أي قيمة أو مفعول، وكما لو أنه لم تقع قط تلك الأحداث التي يجب انتزاعها فوراً من الزمن. وبعد ذلك، ومن أجل أن يُنتزع من الزمن أعداء نظام الاستبداد الملكي، نُصبت المشانق في كافة أنحاء إسبانيا.

وذات صباح من عام ١٩٣١، في وقت مبكر، وأمام أحد أبواب غرناطة، أدار الجلاد عجلة المخنقة إلى أن كسر سوارها الحديدي رقبة مريانا بينيدا.

لقد كانت مذنبة. لأنها طرزت راية، ولأنها لم تشِ بمتآمري الحرية، ولكنها رفضت تقديم غرامياتها للقاضي الذي أدانها.

عاشت ماريانا حياة قصيرة. وكان معجبة بالأفكار المحظورة، والرجال المحظورين، والطرحات السوداء، والشوكولاتة والأغنيات الهامسة.

مراوح يدوية

الليبراليات، من كانت تدعوهن شرطة قادس بهذا الاسم، كن يتآمرن برموز مشفرة. من جداتهن الأندلسيات تعلمن اللغة السرية للمراوح اليدوية التي تنفع في عدم الانصياع للزوج أو الملك على السواء: تلك الحركات بفتح المروحة ببطء أو طيها فجأة، وتلك الهفهفة، وذلك الخفق كالأجنحة. إذا كانت السيدات يرفعن الشعر عن جباههن بالمرحة اليدوية المطبقة، فإنهن يقلن: لا تنسني.

وإذا أخفين عيونهن وراء المروحة المفتوحة: أحبك.

وإذا فردن المروحة فوق شفاههن: قبلني.

وإذا أسندن شفاههن إلى المروحة المطبقة: لست واثقة.

وإذا لامست بأصابعها أسياخ المروحة: يجب أن نتبادل الحديث.

وإذا هوين بالمروحة بشدة ونظرن إلى الشرفة: فلنلتقِ خارجاً.

وإذا أطبقن المروحة عند الدخول: لا يمكنني الخروج اليوم.

وإذا هوين بالمروحة باليد اليسرى: لا تصدق تلك.

الفن الرسمي في الأرجنتين

٢٥ أيار ١٨١٠: المطر يهطل في بوينس آيرس. وتحت المظلات، يوجد حشد قبعات عالية. وتوزع إشارات سماوية وبيضاء. وفي اجتماعهم في ما صار يسمى اليوم ساحة مايو، كان السادة الذين يرتدون سترات الفراك يهتفون يحيا الوطن ويطالبون نائب الملك بالمغادرة.

أما في الواقع الواقعي، ودون تجميل الرسوم التوضيحية المدرسية، لم تكن هناك قبعات عالية، ولا إشارات، ولا سترات فراك، ويبدو أنه لم يكن هناك مطر ولا مظلات أيضاً. كان هناك جمع من الناس الذين عُبئوا كي يساندوا، من الخارج، القلة الذين كانوا يناقشون داخل مجلس الكابيلدو مسألة الاستقلال.

أولئك القلة هم من أصحاب المتاجر، والمهربين، والدكاترة المشهورين، والقادة العسكريين، هم الشخصيات السامية التي منحت أسماءً للجادات والشوارع الرئيسية.

وما إن أعلنوا الاستقلال، حتى فرضوا التجارة الحرة.

وهكذا اغتال ميناء بوينس آيرس جنينَ الصناعة الوطنية التي كانت تولد في ورش الغزل والنسيج، والتقطير، والسروج وغيرها من المشاغل الحرفية في كوردوبا، وكاتاماركا، وتوكومان، وسنتياغو دل إيستيرو، وكورينتيس، وسالتا، وميندوثا، وسان خوان...

بعد سنوات قليلة من ذلك، رفع القنصل البريطاني جورج كانينغ نخب الاحتفال بحرية المستعمرات الإسبانية في أميركا:

- أميركا الإسبانية صارت إنكليزية - أكد وهو يرفع كأسه.

فحتى أحجار رصف الشوارع كانت إنكليزية.

الاستقلال الذي لم يكن

هكذا أنهى أبطال تحرير أميركا اللاتينية حياتهم:

رمياً بالرصاص: ميغيل هيدالغو، خوسيه ماريا موريلوس، خوسيه ميغيل كاريرا، فرانثيسكو ميندوثا.

اغتيالاً: أنطونيو خوسيه دي سوكري.

شنقاً وتقطيعاً: تيرادينتس.

منفيين: خوسيه أرتيغاس، خوسيه دي سان مارتين، أندريس دي سانتا كروث، رامون بيتانثيس.

سجناء: توسان لوفيرتر، وخوان خوسيه كاستيلي.

أما خوسيه مارتي فسقط شهيداً في معركة.

وسيمون بوليفار مات في العزلة.

وفي العاشر من آب ١٨٠٩، بينما كانت مدينة كيتو تحتفل بالتحرر، كتبت يد مجهولة على جدار:

اليوم الأخير من الاستبداد،

واليوم الأول من الشيء نفسه.

بعد سنتين من ذلك، أكد أنطونيو نارينيو في بوغوتا:

- لقد استبدلنا الأسياد.

الخاسر

وعظ في الصحراء ومات وحيداً.

سيمون رودريغيث الذي كان معلم سيمون بوليفار، جال نصف قرن على دروب أميركا، على متن بغلة، يؤسس مدارس ويقول ما لا يريد أحد سماعه.

ذهب حريق بأوراقه كلها تقريباً. وهذه بعض الكلمات التي نجت:

* حول الاستقلال: إننا مستقلون ولكننا غير أحرار. افعل شيئاً لشعوب بائسة صارت أقل حرية مما كانت عليه. ففي السابق كان لها ملك راعٍ، لا يأكلها إلا بعد أن تموت. أما الآن فيأكلها حية أول الواصلين.

* حول الاستعمار الذهني: معرفة أوروبا وازدهار الولايات المتحدة هما، في أميركا، عدوان

لحرية التفكير. فالجمهوريات الجديدة لا تريد أن تتقبل شيئاً لا يأتي ومعه تصريح مرور... قلدوا الأصالة، بما أنكم تحاولون تقليد كل شيء!

* حول الاستعمار الاقتصادي: البعض يعتبرون ازدهاراً رؤية موانئهم مترعة بالسفن... الغريبة.

أرتيغاس

هندسة عمارة الموت اختصاص عسكري.

في العام ١٩٧٧، أقامت الدكتاتورية الأروغوائية نصباً في ذكرى خوسيه أرتيغاس.

ذلك الضريح الضخم كان سجناً مترفاً: لقد كانت هنالك شكوك راسخة بأنه يمكن لبطل تحرير أروغواي أن يهرب، بعد قرن ونصف قرن من موته.

ومن أجل تزيين الضريح، وإخفاء النوايا، بحثت الدكتاتورية عن عبارات مأثورة للشخصية البارزة. ولكن الرجل الذي حقق أول إصلاح زراعي في أميركا، والجنرال الذي طلب أن يُدعى المواطن أرتيغاس، كان قد قال إن أشد التعساء يجب أن يكونوا الأكثر تميزاً، وأكد أنه لن يبيع أبداً تراثنا الغني بثمن الحاجة البخس، وقد كرر مرة بعد أخرى أن سلطته تصدر عن الشعب وتنتهي أمام الشعب.

لم يجد العسكريون جملة واحدة غير خطرة.

فقرروا أن أرتيغاس كان أبكم.

وعلى جدران المرمر الأسود، لا وجود إلا لتواريخ وأسماء.

خائنان

دومينغو فاوستينو سارمينتو كره خوسيه أرتيغاس. لم يكره أحداً قدر كرهه له.

كان يسميه: خائن عرقه، وكان ذلك صحيحاً. فمع أن أرتيغاس أبيض، وله عينان زرقاوان، إلا أنه قاتل إلى جانب الغاوتشيين الخلاسيين والزنوج والهنود. وهُزم وخرج إلى المنفى ومات في العزلة والنسيان.

وسارمينتو كان خائناً أيضاً. لا حاجة إلى أكثر من رؤية لوحات صوره. ففي حربه ضد المرآة، وعظ ومارس إبادة الأرجنتينيين ذوي البشرة القاتمة، لاستبدالهم بأوروبيين بيض البشرة وزرق العيون. وقد كان رئيس بلاده والمبجل السامي، والمجيد المكرم، والبطل الخالد.

دساتير

الجادة الرئيسية في مونتيفيديو تسمى ١٨ تموز، تكريماً لولادة دستور أروغواي، الستاد الذي جرت فيه أول بطولة للعالم بكرة القدم شُيّد للاحتفال بمرور قرن على حياة ذلك القانون الأساسي.

نص العام ١٨٣٠ العظيم، المستنسخ عن مشروع الدستور الأرجنتيني، ينكر مواطنيّة النساء والأميين والعبيد وكل من هو خادم مأجور، أو عامل بأجر أو مجرد جندي عادي. واحد فقط من كل عشـرة أروغوائيين كان يتمتع بحق أن يكون مواطناً في البلد الجديد، وخمسة وتسعين بالمئة منهم لم يصوتوا في الانتخابات الأولى.

وهكذا كانت الحال في أميركا بأسرها، من الشمال إلى الجنوب. كل أممنا ولدت أكذوبة... فالاستقلال أنكر من قامروا بحياتهم في القتال من أجله. وهكذا لم تُدعَ النساء، ولا الفقراء، ولا الهنود، ولا الزنوج إلى الحفلة. الدساتير أضفت سمعة شرعية على هذا البتر.

بوليفيا احتاجت إلى مئة وثمانين عاماً لتعرف أنها بلاد ذات أغلبية من السكان الأصليين. الثورة جرت عام ٢٠٠٦. عندما استطاع إيفو موراليس، الهندي من قبيلة إيمارا، أن يكرس نفسه رئيساً بسيل عارم من الأصوات.

في تلك السنة بالذات، علمت تشيلي أن نصف التشيليين هم تشيليات، وصارت ميتشيليه باتشليت رئيسة للجمهورية.

أميركا حسب همبولدت

بينما كان القرن التاسع عشر يخطو خطواته الأولى، دخل الكسندر فون همبولدت إلى أميركا واكتشف أعماقها. وبعد سنوات من ذلك كتب:

* حول الطبقات الاجتماعية: المكسيك هي بلاد عدم المساواة. ويظهر سافراً للعيان انعدام المساواة المريع في الحقوق والثروات. البشرة البيضاء إلى هذا الحدّ أو ذاك تقرر الطبقة التي يحتلها الناس في المجتمع.

* حول العبيد: لا يوجد مكان يشعر فيه المرء بالعار لكونه أوروبياً كما في جزر الأنتيل، سواء أكان فرنسياً أو إنكليزياً، دنمركياً أو إسبانياً. فالجدال حول أي أمة تعامل الزنوج بصورة أفضل هو كالاختيار بين الطعن بالسكاكين أو السلخ.

* حول الهنود: بين سائر الأديان، لا وجود لديانة تُقَنّع التعاسة البشرية مثلما تفعل الديانة

المسيحية. فمن يرى عاثري الحظ الأمريكيين الخاضعين لسياط الكهنة، لا يعود راغباً في معرفة شيء عن الأوروبيين وسلطتهم الدينية.
* حول توسع الولايات المتحدة: غزوات الأمريكيين الشماليين تزعجني بشدة. أتمنى لهم أسوأ مصير في مكسيكو المدارية. والأفضل لهم أن يظلوا في بيتهم، بدل أن ينشروا عبوديتهم المجنونة.

تأسيس الإيكولوجية

هذا الألماني الفضولي والشجاع كان قلقاً من التطور المحتمل، قبل زمن طويل من تسميته هكذا. في كل مكان كان يذهله تنوع الثروات الطبيعية، وترعبه قلة الاحترام لها.
في جزيرة أوروانا، في نهر أورينوكو. لاحظ همبولدت أن الهنود لا يأخذون قسماً كبيراً من البيوض التي تضعها السلاحف على الشاطئ، كيما يتواصل التكاثر، غير أن الأوروبيين لم يحاكوا هذه العادة الحميدة وكانت شراهتهم تؤدي إلى انقراض ثروة وضعتها الطبيعة في متناول أيديهم.
لماذا ينخفض منسوب المياه في بحيرة بالنثيا الفنزولية؟ لأن المزارع الاستعمارية دمرت الغابات المحلية. ويقول همبولدت إن الأشجار القديمة تؤخر تبخر ماء المطر، وتحول دون تعرية الأرض وتضمن التوازن المنسجم للأنهار والأمطار. واغتيال الأشجار هو سبب الجفاف الشرس والفيضانات منقطعة النظير.
– ليس بحيرة بالنثيا وحدها – يقول – بل جميع أنهار المنطقة تقل غزارتها أكثر فأكثر. سلسلة الجبال تعرت من الغابات، المستوطنون الأوربيون يدمرون الغابات. الأنهار تجف خلال فترة لا بأس بها من السنة، وعندما تهطل الأمطار على سلسلة الجبال تتحول المياه إلى سيول تجرف الحقول.

بوليفيا محوها عن الخريطة

ذات ليلة من ليالي العام ١٨٦٧، علق سفير البرازيل على صدر دكتاتور بوليفيا، مريانو ميلغاريخو، وسام الصليب الإمبراطوري الكبير. وكان من عادة ميلغاريخو إهداء قطع من البلاد مقابل ما يُقدم إليه من أوسمة أو خيول. في تلك الليلة طفرت الدموع من عينيه، وحينئذ بالذات أهدى إلى السفير خمسة وستين ألف كيلومتر مربع من الأدغال البوليفية الغنية بالمطاط، وبهذه الهدية، إضافة إلى مئتي ألف كيلومتر مربع من الأدغال المحتلة بالحرب، سيطرت البرازيل على الأشجار التي تبكي مطاطاً للسوق العالمية.

في العام ١٨٨٤، خسرت بوليفيا حرباً أخرى، ضد تشيلي هذه المرة، وهي الحرب التي سميت حرب الباسفيك، ولكنها كانت حرب ملح البارود في الواقع. فملح البارود، ذلك البساط الشاسع لامع البياض، كان السماد الذي تطمع به الزراعة الأوروبية، ومكوّناً مهماً من مكونات الصناعة العسكرية. رجل الأعمال الإنكليزي جون توماس نورث، والذي كان يتنكر في الحفلات بزي هنري الثامن، التهم كل ملح البارود الذي كان من قبل للبيرو وبوليفيا. لقد كسبت تشيلي الحرب، وكان هو من حصد ثمارها. البيرو فقدت الكثير، وكذلك فقدت بوليفيا الكثير، حتى إنها ظلت دون مخرج إلى البحر، ودون أربعمائة كيلومتر من السواحل، ودون أربعة موانئ كانت لها، ودون سبعة مرافئ صغيرة، ودون مئة وعشرين ألف كيلومتر مربع من الصحارى الغنية بملح البارود.

غير أن هذه البلاد التي تعرضت للبتر مرات عديدة، لم تُمح رسمياً من الخريطة إلى أن وقعت حادثة دبلوماسية في مدينة لاباث.

قد تكون صحيحة وقد تكون غير صحيحة. لقد رووها لي مرات كثيرة، وبالطريقة نفسها أرويها: رحب ميلغاريخو، الدكتاتور السكير، بممثل إنكلترا بأن قدم إليه كأساً من التشيتشا، وهو شراب من الذرة المخمرة، ويعتبر المشروب الوطني. شكره الدبلوماسي وأطرى على منافع التشيتشا، ولكنه قال إنه يفضل الشوكولاتة. عندئذ كرّمه الرئيس، بمنتهى اللطف، بجرةٍ ضخمة مملوءة بالشوكولاتة. وقد أمضى السفير تلك الليلة كلها سجيناً، ومجبراً على شرب ذلك العقاب حتى القطرة الأخيرة، وعند الفجر جرى التجوال به على حمار، يركبه بالمقلوب، في شوارع المدينة.

عندما علمت الملكة فيكتوريا بالأمر، في قصرها في باكينجهام، أمرت أن يأتوها بخريطة العالم، وسألت أين هي تلك الشيطانية بوليفيا، فشطبت البلد بصليب من الطبشور وأصدرت حكمها:

- بوليفيا لا وجود لها.

أكلوا خريطة المكسيك

بين عامي ١٨٣٣ و١٨٥٥، كان أنطونيو لوبيث دي سانتا آنا رئيساً للمكسيك إحدى عشرة مرة.

وخلال تلك الفترة فقدت المكسيك أراضي تكساس، وكاليفورنيا، ونيو مكسيكو، وأريزونا، ونيفادا، وأوتا، وجزءاً لا بأس به من كولورادو ومن ويمينغ.

اختزلت المكسيك إلى النصف بسعر خمسة عشر مليون دولار وكمية من الجنود القتلى، ومن الهنود والخلاسيين الذين لم يُحصَ عددهم قطّ.

بدأ البتر بتكساس، وهي تسمى آنذاك تيخاس. كانت العبودية محظورة هناك، فقام سام هيوستن وستيفن أوستن، وهما مالكا عبيد، بقيادة الغزو الذي أعاد العبودية.

لصا الأراضي هذان يعتبران الآن بطلين من أبطال الحرية ومن آباء الوطن. الصحة والثقافة تحملان اسميهما. فهيوستن يقدم العلاج أو السلوى للمرضى الذين في حالة حرجة، وأوستن تمنح البريق للمثقفين.

أميركا الوسط مزقوا خريطتها

لم يمت فرانثيسكو موراثان من زخة الرصاص الأولى. بل نهض كيفما استطاع وأصدر بنفسه الأمر بالتصويب جيداً، ثم أمر بإطلاق النار. بعد ذلك، هشمت رصاصة الرحمة رأسه.

ومهشمة أيضاً ظلت أميركا الوسطى. خمسة أجزاء، وقد صارت سبعة الآن. هذه البلدان السبعة التي يجهل أحدها الآخر وتتبادل العداء، كانت في أزمنة موراثان جمهورية واحدة. كان قد ترأس أميركا الوسطى منذ ١٨٣٠ حتى ١٨٣٨. وقد أرادها متحدة، ومن أجلها قاتل.

في معركته الأخيرة، جمع ثمانين رجلاً، لمواجهة خمسة آلاف. عندما دخل مدينة سان خوسيه دي كوستاريكا، مقيداً إلى الحصان، نظر حشد إلى مروره بصمت. وعلى الفور صدر عليه الحكم وأُعدم رمياً بالرصاص، ولساعات طويلة بعد ذلك ظل يصفعه وابل المطر.

عندما ولد موراثان، في هندوراس، لم يكن هناك مدرسة عامة واحدة، ولا مستشفى واحد يمكن للفقراء الدخول إليه قبل انتقالهم إلى المقبرة. حوّل موراثان الأديرة إلى مدارس ومستشفيات، في هندوراس وفي أميركا الوسطى كلها، وشكا كبار رجال الكهنوت من أن ذلك الشيطان المطرود من السماء هو المسؤول عن انتشار وباء الجدري، وعن الجفاف، وعن الحرب التي أعلنتها عليه الكنيسة. بعد ثلاثة عشر عاماً من سقوط موراثان، غزا وليم وولكر تلك الأراضي.

المختار

في العام ١٨٥٦، أعلن وليم وولكر نفسه رئيساً لنيكاراغوا.

وكان الاحتفال يتضمن إلقاء خطابات، وعرضاً عسكرياً، وقداساً، ومأدبة يرافقها ثلاثة وخمسون نخباً من الأنبذة الأوروبية.

بعد أسبوع من ذلك، اعترف سفير الولايات المتحدة جون هـ. ويلير رسمياً بالرئيس الجديد، وقارنه في خطابه بكريستوف كولومبس.

فرض وولكر على نيكاراغوا دستور لويزيانا، وأقر العبودية التي كانت قد ألغيت قبل ثلاثين عاماً من ذلك في أميركا الوسطى كلها. وقد فعل ذلك من أجل مصلحة الزنوج، لأن الأعراق الدنيا لا يمكنها المنافسة مع العرق الأبيض، ما لم تُمد إليها يد بيضاء توجه طاقاتها.

هذا السيد الذي من تينيسي، المختار، يتلقى الأوامر مباشرة من الرب. رجل الكهف والمشانق هذا الذي يرتدي ملابس الحداد على الدوام، كان يقود عصابة مرتزقة، مجندين من الموانئ، ويقولون إنهم فرسان الدائرة الذهبية، كما يسمون أنفسهم، بتواضع، كتائب الخالدين.

الخمسة أو لا شيء، كان وولكر يعلن ذلك، ويهدف إلى غزو أميركا الوسطى كلها.

وبلدان أميركا الوسطى الخمسة، التي حلّ بينها الطلاق، والمتصارعة، والمسممة بأحقاد متبادلة، استعادت، للحظة على الأقل، وحدتها الضائعة: اتحدت ضده.

في العام ١٨٦٠ أعدموه رمياً بالرصاص.

استبدال الخريطة

في العام ١٨٢١، اشترت أميركان كولونيلزيشن سوسياتي قطعة من أفريقيا.

وفي واشنطن عمدوا البلد الجديد، سموه ليبيريا، وأطلقوا على العاصمة اسم منروفيا تكريماً لجيمس مونرو، وكان آنذاك رئيساً للولايات المتحدة. وفي واشنطن أيضاً صمموا العلم، وهو مماثل لعلمهم ولكن بنجمة واحدة، واختاروا السلطات. وفي هارفارد صاغوا الدستور.

مواطنو الأمة الوليدة كانوا عبيداً محررين، أو مطرودين بكلمة أدق، من مزارع الجنوب في الولايات المتحدة.

من كانوا عبيداً تحولوا على الفور إلى سادة فور نزولهم في الأراضي الأفريقية. وكان على السكان المحليين، وهم زنوج أدغال متوحشون، أن ينصاعوا لأولئك القادمين الجدد الآتين من الموقع الأخير ويريدون أن يكونوا في الموقع الأول.

وبحماية الزوارق المسلحة، استولوا على أفضل الأراضي، ومنحوا أنفسهم، حصرياً، حق التصويت.
وفي ما بعد، مع مرور السنوات، منحوا امتياز المطاط لشركتي فرستون وغودريش وأهدوا البترول والحديد والماس إلى شركات أمريكية أخرى.
ورثتهم، وهم مئة بالمئة من مجمل السكان، مازالوا يديرون تلك القاعدة العسكرية الأجنبية في أفريقيا. وبين فترة وأخرى، عندما يبدأ الفقر بإثارة القلاقل، يستدعون المارينز لفرض النظام.

استبدال الاسم

تعلمتْ القراءة بقراءة الأرقام. فاللعب بالأرقام هو أكثر ما تستمتع به، وفي الليل كانت تحلم بأرخميدس.
وكان الأب يمنع:
- ليس هذا من اختصاص النساء - يقول لها.
عندما أسست الثورة الفرنسية المعهد البوليتكنيكي، كان عمر صوفي جيرمان ثمانية عشر عاماً.
أرادت دخوله. فأغلقوا الأبواب في وجهها:
- ليس هذا من اختصاص النساء.
كانت ترسل أعمالها، بالبريد، إلى البروفيسور ليغران. وكانت صوفي توقع باسم أنطوان أغوست لوبلان، وبهذا كانت تتجنب أن يرد عليها المعلم العظيم بالقول:
- ليس هذا من اختصاص النساء.
كانت قد مضت عشر سنوات وهي تتبادل الرسائل معه، رسائل عالم رياضي إلى عالم رياضي، حين عرف البروفيسور أن ذلك الرجل ليس إلا هي.
منذ ذلك الحين، صارت صوفي هي المرأة الوحيدة المقبولة في أولمب العلوم الأوروبية: في علم الرياضيات، تعمق نظريات، وبعد ذلك في الفيزياء، حيث ثوّرت دراسة السطوح المرنة.
بعد قرن من ذلك، ساهمت إضافاتها في جعل بناء برج إيفل، فضلاً عن أشياء أخرى، ممكناً.
وقد نُقشت على البرج أسماء عدد من العلماء.
صوفي غير موجودة.
في شهادة وفاتها عام ١٨٣١، كُتب أنها ذات دخل، وليس عالمة:
- ليس هذا من اختصاص النساء.

أعمار آدا

في التاسعة عشرة هربت إلى ذراعي معلمها.

في العشرين تزوجت، أو زوجوها، على الرغم من عدم أهليتها الواضحة للشؤون المنزلية.

في الحادية والعشرين تبدأ، بمفردها، دراسة المنطق الحسابي. ليست هذه بالأعمال اللائقة لسيدة محترمة، ولكن الأسرة تتقبل نزوتها، لأنها قد تتعقل بتلك الطريقة وتنجو من الجنون الذي سترثه عن أبيها.

في الخامسة والعشرين تبتكر نظاماً لا يداخله الخطأ، يستند إلى نظرية الاحتمالات، كي تكسب أموالاً في سباق الخيول. تراهن بمجوهرات الأسرة. وتخسر كل شيء.

في السابعة والعشرين تنشر عملاً ثورياً. ولا توقّع الكتاب باسمها. أيمكن لامرأة أن تضع توقيعها على عمل علمي؟ ذلك الكتاب حوّلها إلى أول مُبَرمِجة في التاريخ: إنها تقترح نظاماً جديداً لتلقين مهمات لآلة من أجل اختصار أسوأ الأعمال الروتينية على عمال النسيج.

في الخامسة والثلاثين تسقط مريضة. يشخص الأطباء الحالة على أنها هستيريا. ولكنه السرطان.

في العام ١٨٥٢، تموت وهي في السابعة والثلاثين. وفي هذه السن نفسها كان قد مات أبوها، لورد بايرون، الشاعر الذي لم تره قطّ.

بعد قرن ونصف قرن من ذلك، يُطلق اسم آدا، تكريماً لها، على إحدى لغات برمجة الكمبيوتر.

هم هنّ

في العام ١٨٤٧، هزت ثلاث روايات القراء الإنكليز.

"مرتفعات وذرينغ"، لإليس بيل، وتروي قصة عاطفة كاسحة وانتقام. و"آغنيس غري" لأكتور بيل، تعري نفاق المؤسسة الأسرية. و"جين إير" لكورر بيل، تبرز شجاعة امرأة مستقلة.

لم يكن هناك من يعرف أن المؤلفين الثلاثة هم مؤلفات. وأن الأخوة بيل هم الأخوات برونتي.

أولئك العذراوات الضعيفات: إميلي، وآن، وشارلوت، كن يخففن من وطأة الوحدة بكتابة قصائد وروايات في قرية منسية في سهوب بوكشير. ولأنهن دخيلات في مملكة الأدب الرجولية، وضعن أقنعة رجال كي يسامحهن النقاد على جرأتهن. ولكن النقاد أساؤوا معاملة أعمالهن الفظة، الفجة، البذيئة، المتوحشة، البهيمية، المنحلة...

فلورا

فلورا تريستان، جدة بول غوغان، مناضلة متنقلة، جوالة الثورة، كرست حياتها المضطربة للنضال ضد حق الزوج بامتلاك المرأة، وحق رب العمل على العامل، والسيد على العبد.

في العام ١٩٣٣، سافرت إلى البيرو. وفي ضواحي ليما زارت مصنعاً للسكر. عرفت المعاصر التي تهرس القصب، والمراجل التي يغلي فيها الرحيق، والمصفاة التي تكرر السكر وتصنعه. ورأت في كل الأنحاء عبيداً زنوجاً يأتون ويروحون، يعملون بصمت. لم يعلموا حتى بحضورها.

قال لها السيد إن لديه تسعمئة. وفي أزمنة أفضل كان لديه ضعف العدد:

- إنه الإفلاس - قال شاكياً.

وقال كل ما هو متوقع منه قوله: إن الزنوج كسالى مثل الهنود، وإنهم لا يعملون إلا تحت ضرب السوط، وإنهم...

وبينما هي تنصرف، اكتشفت فلورا وجود سجن في أحد أطراف المزرعة.

ودون طلب الإذن دخلت إليه.

وهناك، في ظلمة إحدى الزنازين المطبقة، توصلت إلى تمييز زنجيتين عاريتين، منزويتين في أحد الأركان.

- إنهن أقل من البهائم - قال الحارس بازدراء - فالبهائم لا تقتل جراءها.

كانت العبدتان قد قتلتا جراءهما.

الاثنتان نظرتا إلى المرأة التي كانت تنظر إليهما من الجانب الآخر للعالم.

كونثيبثيون

أمضت حياتها تناضل بالروح والحياة ضد جحيم السجون ومن أجل كرامة النساء السجينات في سجون متنكرة كبيوت.

وضد عادة الحكم بالتعميم، لم تكن تتورع عن تسمية الأشياء بأسمائها:

- حين يكون الجميع مذنبين، لا يكون هنالك مذنب - كانت تقول.

وهكذا كسبت بعض العداوات.

ومع أن شهرتها، على المدى الطويل، لم تعد محل جدال، إلا أن بلادها لم تستطع تصديق ذلك. وليس بلادها فحسب، بل عصرها أيضاً.

في ١٨٤٠ وبضع سنوات. كانت كونثيبثيون آرينال تواظب على الدراسة في كلية الحقوق، متنكرة بزي رجل، وصدرها مضغوط بمشد مزدوج.

وفي ١٨٥٠ وبضع سنوات، كانت تواصل التنكر كرجل كي تتمكن من التردد على جلسات السمر المدريدية، حيث تُناقش موضوعات غير مناسبة في ساعات غير مناسبة.

وفي حوالي ١٨٧٠ وبضع سنوات،عينتها منظمة إنكليزية واسعة الشهرة، جمعية هوارد لإصلاح السجون، رئيسة لفرعها في إسبانيا. وثيقة اعتمادها صدرت باسم السيد كونثيبثيون آرينال.

بعد أربعين عاماً من ذلك، كانت إيميليا باثان أول امرأة تشغل منصب أستاذ كرسي في جامعة إسبانية. ولم يكن أي طالب يتنازل بالاستماع إليها. كانت تعطي دروساً إلى لا أحد.

فينوس

انتُزعت من جنوبي أفريقيا وبيعت في لندن. وعُمدت بسخرية باسم فينوس هوتينتوتس.

بدفع شلنين اثنين يمكن رؤيتها محبوسة في قفص وهي عارية، بثدييها الطويلين إلى حد يمكن الرضاعة منهما من وراء ظهرها. وبدفع السعر مضاعفاً يمكن لمس مؤخرتها التي هي الأضخم في العالم.

إعلان يوضح أن تلك المتوحشة هي نصف بشر ونصف بهيمة، وتجسيد لكل ما ليس هم عليه المتحضرون الإنكليز لحسن الحظ.

ومن لندن انتقلت إلى باريس. كان خبراء متحف التاريخ الطبيعي يريدون تقصي ما إذا كانت فينوس تلك تنتمي إلى جنس يتموضع بين الإنسان وقرد الأورانغتان.

كان عمرها بضعاً وعشرين سنة عندما ماتت. وقد قام جورج كوفير، عالم الطبيعيات المشهور

بإجراء التشريح. وأعلن أن لها جمجمة قرد، ودماغاً ضئيلاً، ومؤخرة قرد مندريل.
وقد قطع كوفير الشفة السفلى من الرحم، وهي قطعة لحم ضخمة، ووضعها في دورق.
بعد قرنين من ذلك، كان الدورق لا يزال معروضاً بباريس، في متحف الإنسان، إلى جانب عضوين تناسليين أنثويين آخرين، أحدهما لأفريقية أخرى والثاني لهندية من البيرو.
وقريباً جداً كانت، في مجموعة دوارق أخرى، أدمغة بعض العلماء الأوربيين.

أعماق أميركا

الملكة فيكتوريا استقبلتهما في باكينجهام، ومرا من البلاطات الأوروبية، وفي واشنطن دُعيا إلى البيت الأبيض.
بارتولا وماكسيمو كانا ضئيلين إلى حدّ لم يسبق له مثيل. جون هنري أندرسون الذي اشتراهما، كان يعرضهما وهما يرقصان على راحتي يديه. إعلانات السيرك كانت تقول إنهما من أزتيك، بالرغم من أنهما آتيان حسب أندرسون من إحدى مدن المايا المختفية في أدغال يوكاتان، حيث الديوك تصيح تحت الأرض والسكان الأصليون يضعون عمائم ويأكلون اللحم البشري.
العلماء الأوروبيون الذين درسوا جمجمتيهما النادرتين شخصوا أن تلك الأدمغة الصغيرة جداً لا تتسع للمبادئ الأخلاقية، وأن بارتولا وماكسيمو يتحدران من أسلاف أمريكيين غير قادرين على التفكير أو التكلم. ولهذا ليس بإمكانهم أن يرددوا أية كلمة، مثل الببغاوات، ولا يفهمون سوى أوامر السيد المالك.

حمية هواء

في أواسط القرن التاسع عشر، اجتذب برنارد كافيناه حشوداً في إنكلترا. أعلن أنه لن يأكل لقمة واحدة ولن يشرب قطرة واحدة طوال سبعة أيام وسبع ليالٍ، وإذا كان ذلك قليلاً، أعلن أنه منذ خمس سنوات ونصف يحافظ على تلك الحمية. لم يكن كافيناه يتقاضى رسم دخول، ولكنه يتقبل تبرعات يقدمها فوراً إلى يدي الروح القدس والعذراء المقدسة.
بعد لندن، قدم عرضه المؤثر في مدن أخرى، منتقلاً من صيام إلى صيام، وهو محبوس دوماً في أقفاص أو في حجرات محكمة الإغلاق، وخاضع دوماً لرقابة صحية وحراسة شرطية، ومحاط على الدوام بحشود نهمة.
عندما مات، اختفت جثته، ولم يُعثر عليها قطّ. كثيرون ظنوا أن كافيناه قد أكل نفسه. لقد كان أيرلندياً، ولم يكن في ذلك ما هو مستغرب في تلك السنوات.

مستعمرة كثيفة السكان

لم يكن يخرج دخان من مداخن البيوت. ففي العام ١٨٥٠، بعد أربع سنوات من الجوع والأوبئة، كانت أرياف أيرلندا قد أقفرت من سكانها، وشيئاً فشيئاً تداعت البيوت الخاوية. فقد رحل الناس إما إلى المقبرة أو إلى موانئ شمالي أميركا.

لم تكن الأرض توفر البطاطس أو أي شيء آخر. ولم يكن هنالك ما ينمو سوى إنتاج المجانين. فمستشفى المجانين في دبلن الذي دفع تكاليف إنشائه جوناثان سويفت، كان فيه تسعون نزيلاً عند إنشائه. وبعد قرن من ذلك صار فيه أكثر من ثلاثة آلاف نزيل.

في أوج المجاعة، أرسلت لندن مساعدة مستعجلة. ولكن ذلك الإحسان نفد خلال بضعة شهور. ورفضت الإمبراطورية مواصلة إغاثة تلك المستعمرة القلقة. فالشعب الأيرلندي، كما أوضح رئيس الوزراء لورد راسل، شعب ناكر للجميل، يقابل الكرم بالتمرد وتشويه السمعة، وهذا يثير استياء الرأي العام.

أما تشارلز تريفيلين، الموظف الكبير المكلف بالأزمة الأيرلندية فعزا المجاعة إلى المشيئة الإلهية. ففي أيرلندا أعلى كثافة سكانية في أوروبا كلها، وبما أن الزيادة المفرطة في السكان لا يمكن تجنبها بوساطة البشر، فقد تولى الرب حلها بكل حكمته، بطريقة غير مفاجئة، غير متوقعة، ولكن بفعالية كبيرة.

تأسيس حكايات الحوريات

في النصف الأول من القرن السابع عشر، فرض جيم الأول وتشارلز الأول، ملكا إنكلترا، بعض الإجراءات المكرسة لحماية الصناعة البريطانية الوليدة. فحظرا تصدير الصوف غير المشغول، وأجبرا الناس على استخدام المنسوجات الوطنية حتى في ملابس الحداد، وأغلقا الباب أمام قسم كبير من المواد المصنعة التي كانت تأتي من فرنسا وهولندا.

في بداية القرن الثامن عشر، كتب دانييل ديفو، مبدع "روبنسون كروزو"، بعض الدراسات حول موضوعات اقتصادية وتجارية. وفي أحد أعماله الأوسع انتشاراً، أشاد ديفو بدور حماية الدولة في تطوير صناعة النسيج البريطانية: لولا هذين الملكين اللذين ساعدا كثيراً في الازدهار الصناعي بحواجزهما الجمركية وضرائبهما كان يمكن لإنكلترا أن تظل ممولاً للصناعة الأجنبية بالصوف الخام. وانطلاقاً من نمو إنكلترا الصناعي، صار بإمكان ديفو أن يتخيل عالم المستقبل كمستعمرة هائلة خاضعة لمنتجات إنكلترا الصناعية.

في ما بعد، وبينما كان حلم ديفو يتحول إلى واقع، راحت القوة الإمبراطورية تمنع، بالخنق أو بالمدافع، محاولة بلدان أخرى اقتفاء أثرها والسير على خطاها.

- عندما صارت في الأعلى ركلت السلَّم بقدمها - قال الاقتصادي الألماني فريدريك ليست. عندئذ اخترعت بريطانيا حرية التجارة. وفي أيامنا هذه مازالت البلدان الغنية تواصل رواية هذه الحكايات للبلدان الفقيرة في ليالي الأرق.

مستعمرة عنيدة

كانت الهند تبيع لإنكلترا منسوجاتها القطنية والحريرية الفاخرة، وكانت الحكومة البريطانية تبحث عن طريقة للحيلولة دون هذا الغزو. منذ العام ١٦٨٥، عوقبت المنسوجات الهندية بضرائب باهظة. وبعد ذلك راحت الضرائب تتعاظم، حتى بلغت مستويات عالية جداً، وتخللتها مراحل من إغلاق الأبواب.

ولكن الوقت كان يمضي دون أن تتوصل الحواجز وقرارات الحظر إلى إقصاء المنافسة. بعد نصف قرن من الآلات البخارية والثورة الصناعية الإنكليزية، ظلت المنسوجات الهندية عصية على الهزيمة. فعلى الرغم من وسائطها التقنية البدائية، ظلت تلك المنسوجات فاخرة النوعية ورخيصة السعر تجد زبائن.

لم يتم القضاء على أولئك المنافسين العنيدين إلى أن أنجزت الإمبراطورية البريطانية بالدم والنار، في بدايات القرن التاسع عشر، غزوها العسكري لمعظم أراضي الهند وأجبرت النساجين على دفع ضرائب فلكية.

وفي ما بعد، تكرمت بكسوة الناجين من المجزرة. ففي منتصف القرن التاسع عشر، عندما كانت أنوال الهند ترقد غارقة في أعماق نهر التايمز، كان الهنود هم أفضل زبائن صناعة النسيج في مانشستر.

في تلك الأثناء، كانت داكا التي قارنها السير روبرت كليف الأسطوري بلندن ومانشستر قد أصبحت خاوية. فأربعة من كل خمسة من ساكنيها غادروها. كانت داكا هي المركز الصناعي في البنغال، والبنغال لم تعد تنتج منسوجات، وإنما صارت تنتج أفيوناً. وكان فاتحها كليف قد مات بجرعة زائدة، غير أن زراعة الخشخاش كانت تنعم بصحة جيدة وسط الدمار الشامل. داكا الآن هي عاصمة بنغلاديش، بلد فقير بين الفقراء.

تاج محل

في منتصف القرن السابع عشر كانت أنوال الهند والصين مجتمعة تُنتج أكثر من نصف ما تنتجه مانوفكتورات العالم كله.

في تلك الأزمنة، أزمنة الازدهار، شيد الإمبراطور شاهجيهان تاج محل، على ضفاف نهر يامونا، كي يكون لزوجته، المفضلة بين زوجاته، بيت في مماتها.

كان الأرمل يقول إنها هي وبيتها متشابهان، لأن المعبد يتبدل، مثلما كانت هي تتبدل، بحسب ساعات النهار أو الليل.

يقال إن تاج محل صممه الفارسي يوستاد أحمد، وهو مهندس، وفلكي، وله ألقاب كثيرة أخرى.

يقال إنه شُيد بعمل عشرين ألف عامل على امتداد عشرين عاماً.

يقال إنه بني بالمرمر الأبيض، والرمل الأحمر، واليشب والفيروز، حملها ألف فيل من أماكن بعيدة.

يقال ويقال. ولكن من يرونه، يرون بهاءً خفيفاً، بياضاً طافياً، يتساءلون إن لم يكن تاج محل قد صُنع من هواء.

في أواخر العام ٢٠٠٠، جعله أشهر ساحر في الهند يختفي لمدة دقيقتين، أمام حشد من مفتوحي الأفواه دهشة.

قال إنه فعل ذلك بفنون سحره.

– لقد جعلته يتلاشى – قال.

أتراه جعله يتلاشى، أم أن الهواء لاشاه؟

هوكوساي

هوكوساي، أشهر فنان في تاريخ اليابان قاطبة، كان يقول إن بلاده أرض طافية. لقد عرف، بإيجاز أنيق، كيف يراها ويقدمها.

ولد وهو يُدعى كاوامورا توكيتارو ومات وهو يُدعى فوجيورا ليتسو. وخلال الطريق استبدل الاسم والنسبة ثلاثين مرة، بسبب الثلاثين انبعاثاً له في الفن والحياة، وانتقل من بيت لبيت ثلاث وتسعين مرة.

لم يخرج من الفقر قطّ، بالرغم من أنه كان يعمل منذ الفجر حتى الليل وأبدع ما لا يقل عن

ثلاثين ألف لوحة رسم وحفر.

كتب عن أعماله:

من كل ما رسمته حتى بلوغي السبعين، لا وجود لما يستحق الذكر. في سن الثانية والسبعين، تعلمت أخيراً بعض الشيء حول النوعية الحقيقية للطيور، والحيوانات، والحشرات، والأسماك، وحول الطبيعة الحيوية للأعشاب والأشجار. وحين أبلغ المئة عام، سأكون رائعاً.

ولم يتجاوز التسعين.

تأسيس اليابان الحديثة

في أواسط القرن التاسع عشر، وتحت تهديد السفن الحربية الموجهة إلى شواطئها، وافقت اليابان على اتفاقية لا يمكن القبول بها.

وضد هذه الإهانات والإذلال المفروض من القوى العظمى الغربية، ولدت اليابان الحديثة.

إمبراطور جديد دشن عصر ميجي، والدولة اليابانية المجسدة بشخصه المقدس.

أنشأ ووفر الحماية لمصانع، وملكيات خاصة، طورت ستين قطاعاً من النشاطات الصناعية.

تعاقد مع تقنيين أوروبيين دربوا التقنيين اليابانيين وأطلعوهم على آخر التطورات.

أنشأ شبكة عامة من القطارات والتلغراف.

أمم أراضي السادة الإقطاعيين.

نظم جيشاً جديداً، هزم الساموراي وأجبرهم على التحول عن مهنتهم.

فرض التعليم العام المجاني والإجباري.

وضاعف أحواض بناء السفن والمصارف.

فوكوزاما يوكيشي الذي أسس أهم جامعة في عصر ميجي، لخص برنامج ذلك الحكم كما يلي:

- يجب ألا يخاف أي بلد من الدفاع عن حريته في مواجهة أي تدخل، حتى لو كان العالم بأسره معادياً له.

وهكذا تمكنت اليابان من إلغاء الاتفاقيات المهينة التي فُرضت عليها، وتحولت البلاد المُذَلَّة إلى قوة مُذِلَّة. وقد عرف ذلك، دون تأخير، الصين وكوريا وجيران آخرون.

حرية تجارة؟ لا، شكراً

عندما كان عصر ميجي يخطو خطواته الأولى، قام رئيس الولايات المتحدة أوليسيس غرانت بزيارة الإمبراطور الياباني.

نصحه غرانت بعدم الوقوع في حبائل المصارف البريطانية، لأن بعض الدول يروقها جداً أن تُقرض أموالاً، وهي لا تفعل ذلك بدافع الكرم المحض، وهنأه على سياسته في الحماية الاقتصادية.

قبل الانتخابات التي جعلته رئيساً، كان غرانت هو الجنرال المنتصر في الحرب التي كسبها الشمال الصناعي ضد جنوب المزارع الشاسعة، وهو يعرف جيداً أن الضرائب الجمركية كانت سبباً لا يقل أهمية عن العبودية في الحرب. فالجنوب تأخر أربع سنوات ودفع ستمئة ألف قتيل قبل أن يعلم أن الولايات المتحدة قد قطعت صلات تبعيتها الاستعمارية مع إنكلترا.

وبعد أن صار رئيساً، ردّ غرانت على الضغوط البريطانية المتواصلة كما يلي:

- بعد مئتي عام، عندما نكون قد حصلنا من الحماية الجمركية على كل ما يمكنها أن تقدمه إلينا من فوائد، سوف نتبنى نحن أيضاً حرية التجارة.

وهكذا إذاً، في العام ٢٠٧٥، سوف تتبنى أشد الدول حماية في العالم مبدأ حرية التجارة.

تعليم الدرس بالدم

بينما كانت الولايات المتحدة واليابان تمضيان قدماً باستقلالهما، دُمِّر بلد آخر، باراغواي، لأنه أقدم على الأمر نفسه.

كانت باراغواي البلد الأمريكي اللاتيني الوحيد الذي يرفض أن يشتري من التجار والمصرفيين الإنكليز أطواق نجاة من الرصاص. فكان على جيرانه الثلاثة: الأرجنتين والبرازيل وأوروغواي أن يلقنوه، بالدم والنار، درساً حول أساليب الأمم المتحضرة، مثلما أوضحت صحيفة "ستاندرد" الإنكليزية التي كانت تُطبع في بوينس آيرس.

الجميع انتهوا إلى أسوأ حال.

التلاميذ أبيدوا.

والأساتذة أفلسوا.

كان قد أُعلن أن باراغواي ستتلقى خلال ثلاثة شهور الدرس المناسب، ولكن الدرس استمر خمسة أعوام.

المصارف البريطانية موّلت تلك المهمة التربوية، وتقاضت الثمن غالياً جداً. فالبلدان الثلاثة المنتصرة خرجت مدينة بضعف ما كانت تدين به قبل خمس سنوات، والبلد المهزوم الذي لم يكن مديناً لأحد بسنتٍ واحد، أُجبر على تدشين دينه الخارجي: تلقت باراغواي قرضاً بقيمة مليون جنيه إسترليني. وكان القرض مخصصاً لدفع تعويضات للبلدان المنتصرة. البلد المقتول يدفع للبلدان القاتلة، بسبب الكلفة الكبيرة التي تحملتها في قتله.

اختفت من الباراغواي الضرائب الجمركية التي كانت تحمي الصناعة الوطنية.

واختفت مؤسسات الدولة، والأراضي العامة، وأفران صناعة الصلب، وسكك الحديد التي كانت إحدى أولى الشبكات في أميركا الجنوبية.

واختفى الأرشيف الوطني، أُحرق بما فيه من وثائق ثلاثة قرون من التاريخ.

واختفى البشر.

الرئيس الأرجنتيني دومنغو فاوستينو سارمينتو المؤَّدِب المؤَدَب، أكد في العام ١٨٧٠:

- انتهت الحرب. لم يبق شخص واحد في باراغواي يزيد عمره على عشرة أعوام.

واحتفل بالحدث:

- كان لابد من تطهير الأرض من تلك الزائدة البشرية.

ملابس تقليدية

أميركا الجنوبية هي السوق التي كانت تقول "نعم" على الدوام.

وهكذا كانت ترحب بكل ما يأتي من إنكلترا.

البرازيل التي لا تعرف الثلج تشتري أدوات تزلج على الثلج. وبوليفيا تشتري قبعات عالية وقبعات فطر هي الآن أزياء تقليدية لنسائها من السكان الأصليين.

واللباس التقليدي للرعاة الفرسان الغاوتشو في الأرجنتين وأروغواي، والذي لا يغيب عن الحفلات التقليدية، كانت قد صنَّعته الصناعة النسيجية البريطانية للجيش التركي. وعندما انتهت حرب القرم، حوّل التجار الإنكليز إلى نهر لابلاتا ما لديهم من آلاف وآلاف السراويل التركية الفضفاضة الفائضة، فتحولت إلى سراويل غاوتشية.

بعد عقد من السنوات، ألبست إنكلترا بذلك الزي التركي القوات البرازيلية والأرجنتينية والأروغوائية التي نفذت أوامرها بإبادة باراغواي.

هنا كانت باراغواي

إمبراطورية البرازيل كان يسكنها مليون ونصف مليون من العبيد وحفنة من الدوقات والمركيزات والكونتات والفيسكونتات والبارونات.

ومن أجل إنهاء تحرير باراغواي، سلّمت إمبراطورية العبودية تلك قيادة قواتها إلى الكونت ديبو، حفيد ملك فرنسا وزوج ولية العهد.

في صوره المرسومة، يبدو بذقن مائلة، وأنف شامخ، وصدر مغطى بالأوسمة. لم يكن المدعو ماريشال النصر يتمكن من مداراة القرف الذي تبعثه فيه تلك المسألة المزعجة التي تسمى حرباً.

كان يعرف على الدوام كيف يبقى على مسافة أمان عن ميادين المعارك، حيث كان جنوده الأبطال يواجهون أطفالاً باراغوايين قساة مزودين بلحى اصطناعية ومسلحين بالعصي.

ومن بعيد أنجز مأثرته الأخيرة: عندما رفضت قرية بيريبيبوي الاستسلام، أمر بأن تُسدّ نوافذ وأبواب المستشفى الممتلئ بجرحى، وإحراقه بكل من فيه.

ظل في الحرب أكثر قليلاً من سنة، ولكنه حين رجع اعترف:

- حرب باراغواي سببت لي قرفاً دائماً من أي عمل طويل الأمد.

تأسيس اللغة

في باراغواي المبادة، ظل على قيد الحياة ما هو أولي: وسط كل ذلك الموت، ظلت الولادة على قيد الحياة.

ظلت اللغة الأصلية، لغة الغوارني، وظل معها اليقين بأن الكلمة مقدسة.

إحدى أقدم الحكايات التقليدية تروي أن الجدجد الأحمر غنّى على تلك الأراضي، وغنى الجندب الأخضر، وغنى الحجل، وعندئذ غنى الخنزير: ومن روح الخنزير دوى الغناء الذي سمى أول الباراغوائين بلغة الغواراني.

لم يكونوا موجودين.

لقد ولدوا من الكلمة التي سمتهم.

تأسيس حرية الضغط

كان الأفيون محظوراً في الصين.

وكان التجار البريطانيون يُدخلون تهريباً الأفيونَ الذي يأتون به من الهند. وبفضل جهودهم راحت تتكاثر أعداد الصينيين العالقين بهذه النبتة المخدرة، أم الهيروين والمورفين، والتي كانت تخدعهم بسعادة كاذبة وتدمر حياتهم.

كان المهربون ضجرين من المضايقات التي تسببها لهم السلطات الصينية. فتطور السوق يتطلب حرية التجارة وحرية التجارة تتطلب الحرب.

المحسن وليم جاردن، أكبر تجار المخدرات، كان يترأس الهيئة الطبية الخيرية التي تقدم في الصين علاجاً لضحايا الأفيون الذي يبيعه هو نفسه.

اهتم جاردن بشراء بعض الكتاب والصحفيين النافذين في لندن، من أجل خلق أجواء ملائمة للحرب. الكاتب البست سيلر صمويل وارين وآخرون من محترفي الاتصال رفعوا إلى السماء صيحات الحرية. حرية التعبير في خدمة حرية التجارة: مطر من الكتيبات والمقالات انهال على الرأي العام البريطاني مشيداً بتضحية المواطنين الشرفاء الذين يتحدون الاستبداد الصيني ويجازفون بالتعرض للسجن والتعذيب والموت في مملكة القسوة تلك.

وبعد خلق الأجواء، انفلتت العاصفة. استمرت حرب الأفيون، مع توقف لبعض السنوات، منذ العام ١٨٣٩ حتى ١٨٦٠.

سيدة البحار، ملكة تجارة المخدرات

بيع البشر كان أربح تجارة للإمبراطورية البريطانية. ولكن السعادة، كما هو معروف، لا تدوم. فبعد ثلاثة قرون من الازدهار، اضطرت الإمبراطورية إلى الانسحاب من تجارة الرقيق، وتحولت تجارة الأفيون إلى أكبر مصدر أرباح لمجد الإمبراطورية.

لم تجد الملكة فيكتوريا مفراً من تقويض أبواب الصين المغلقة. وفي سفن الأسطول الحربي الإمبراطوري، رافق المبشرون بيسوع محاربي حرية التجارة. ومن ورائهم جاءت السفن التي كانت تنقل عبيداً من قبل وصارت تحمل الآن سموماً.

في المرحلة الأولى من حرب الأفيون، استولت الإمبراطورية البريطانية على جزيرة هونغ كونغ. وقد صرح الحاكم الجديد، السير جون بورينغ:

- حرية التجارة هي يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو حرية التجارة.

هنا كانت الصين

خارج حدودهم، كان الصينيون يتاجرون قليلاً، ولم تكن الحرب من عادتهم. كانوا يزدرون التجار والمحاربين، ويطلقون تسمية البرابرة على الإنكليز والأوروبيين القليلين الذين يعرفونهم.

وهكذا كان معلناً، يجب أن تسقط الصين مهزومة أمام البحرية الحربية الأشد فتكاً في العالم، وأمام هذه البنادق التي يمكنها بطلقة واحدة أن تخترق اثني عشر عدواً مصطفين في رتل.

في العام ١٨٦٠، وبعد تدمير الكثير من الموانئ والمدن، دخل الإنكليز إلى بكين، يرافقهم الفرنسيون، واندفعوا لنهب القصر الصيفي وقدموا بعض بقايا الغنيمة لجنودهم الاستعماريين المجندين من الهند ومن السنغال.

القصر الذي كان مركز سلطة سلالة مانشو، هو في الواقع قصور كثيرة، أكثر من مئتي مقر إقامة وباغودا وسط بحيرات وحدائق شبيهة جداً بالفردوس. وقد سرق المنتصرون كل شيء، كل شيء بالكامل، الأثاث والستائر، منحوتات اليشب، ملابس الحرير، عقود اللؤلؤ، الساعات الذهبية، قلائد الماس... الشيء الوحيد الذي نجا هو المكتبة، وتليسكوب وبندقية كان قد أهداها الملك الإنكليزي للصين قبل ستين عاماً.

عندئذ ظلت المباني خاوية. ألسنة اللهب صبغت الأرض والسماء بالحمرة لليالٍ ونهارات كثيرة، ولم يكن أكثر من رماد كل ذلك الذي كان.

الغنيمة الصغيرة

اللورد إيلغين الذي أمر بإحراق القصر الإمبراطوري، وصل إلى بكين على أذرع ثمانية حمالين يرتدون كسوات خدم قرمزية، وبحراسة أربعمئة فارس. لورد إيلغين هذا هو ابن اللورد إيلغين الذي كان قد باع للمتحف البريطاني منحوتات البارثينون، وقد أهدى إلى المتحف البريطاني مكتبة القصر كلها، ولهذا السبب أنقذت من النهب ومن الحريق. وبعد قليل من ذلك قدَّم قصرٌ آخر، قصر باكينجهام، إلى الملكة فيكتوريا صولجان الملك الصيني المهزوم المصنوع من الذهب واليشب، وأول كلب بكيني سافر إلى أوروبا. وكان الكلب الصغير جزءاً من الغنيمة أيضاً. وقد عمدوه باسم Lootie، الغنيمة الصغيرة.

أُجبرت الصين على دفع تعويض لجلاديها، بسبب الكلفة الباهظة التي أسفرت عن ضمها إلى مجتمع الأمم المتحضرة، وتحولت بعد قليل إلى السوق الأساسي للأفيون وأكبر مشتر لمنسوجات لانكشير الإنكليزية.

في بدايات القرن التاسع عشر، كانت المشاغل الصينية تُنتج ثلث مجمل الإنتاج العالمي. وفي نهاية القرن التاسع عشر، صارت تنتج ستة بالمئة فقط.
في أثناء ذلك تعرضت الصين للغزو الياباني. ولم يكن الغزو صعباً. فقد كانت أمة مبَلَّعة بالمخدرات، مهانة ومدمرة.

كوارث طبيعية

صحراء خاوية من الخطوات ومن الأصوات، لا شيء سوى غبار تذروه الرياح. صينيون كثيرون كانوا يشنقون أنفسهم كيلا يقتلوا أنفسهم جوعاً أو يقتلهم الجوع. التجار البريطانيون المنتصرون في حرب الأفيون أسسوا في لندن صندوق الإغاثة من الجوع في الصين.
هذه المؤسسة الخيرية كانت تعد بتنصير تلك البلاد الوثنية عن طريق الجهاز الهضمي: المأكولات ستسقط من السماء مرسلة من يسوع.
في العام ١٨٧٩، بعد ثلاثة شتاءات دون مطر، نقص الصينيون خمسة عشر مليوناً.

كوارث طبيعية أخرى

في العام ١٨٧٩، بعد ثلاثة شتاءات دون مطر، نقص الهنود تسعة ملايين. الطبيعة هي المذنبة:
- إنها كوارث طبيعية - يقول العارفون.
غير أنه في الهند، في تلك السنوات المريعة، كانت السوق أشد قسوة من الجفاف. من أجل قانون السوق يُضيِّق على الحرية. وحرية التجارة التي تُجبر على البيع، تمنع من الأكل.
الهند هي مزرعة استعمارية، وليست مؤسسة خيرية. السوق يأمر. ويده غير المرئية حكيمة، تحل وتربط، ويجب ألا يتدخل أحد لتصويبها.
الحكومة البريطانية تقتصر على مساعدة بعض المحتضرين على الموت في معسكرات عمل مسماة معسكرات إغاثة، وتطالب بالضرائب التي لا يمكن للفلاحين دفعها. الفلاحون يفقدون أراضيهم التي تباع مقابل لا شيء. ومقابل لا شيء تباع الأيدي التي تعمل فيها، بينما الشح يوصل إلى السحاب أسعارَ الحبوب التي يحتكرها التجار. المصدرون يبيعون أكثر من أي وقت آخر. جبالٌ من الحنطة والرز تُفرغ في مينائي لندن وليفربول. والهند، المستعمرة الجائعة، لا تأكل ولكنها تقدم الطعام... البريطانيون يأكلون جوع الهنود.
تُسَعَّر جيداً في السوق هذه البضاعة المسماة جوعاً، والتي توسع فرص الاستثمار، وتقلص تكاليف الإنتاج وترفع أسعار المنتجات.

أمجاد طبيعية

كانت الملكة فيكتوريا أشد المتحمسين تقديراً، والقارئة الوحيدة، لأشعار اللورد ليتون، نائبها في الهند.

ومدفوعاً بالامتنان الأدبي أو الحماسة الوطنية، أقام نائب الملكة الشاعر مأدبة هائلة على شرفها. فعندما أعلنت فيكتوريا إمبراطورة، استقبل ليتون في قصره في دلهي سبعين ألف مدعو، ولمدة سبعة أيام وسبع ليال.

وحسب إطراء جريدة "التايمز"، كانت تلك أغلى وأضخم مأدبة في التاريخ العالمي كله.

في أوج الجفاف، بينما الشمس تشوي الحقول والليل يجمدها، قرأ نائب الملكة في المأدبة الرسالة المشجعة المرسلة من الإمبراطورة فيكتوريا التي تتنبأ لرعاياها الهنود بالسعادة، والازدهار والرفاهية.

الصحفي الإنكليزي وليم ديبي، وكان هناك، قدّر أن نحو مئة ألف هندي قد ماتوا من الجوع خلال سبعة أيام وسبع ليالي الوليمة.

طوابق عليا وطوابق سفلى

في طقوس بطيئة ومعقدة، وخطابات متبادلة، وتبادل للشعارات والهدايا، كان الأمراء الهنود يتحولون إلى سادة إنكليز ويقسمون قسم الولاء للملكة فيكتوريا. أمراء تابعون. وكانت مقايضة الهدايا، على حد قول سفير لصاحبة الجلالة، مبادلة قبعات بضرائب.

الأمراء العديدون يقيمون في القمة. والسلطة الاستعمارية تعيد، في نسخة متقنة، إنتاج هرم نظام السلالات.

لم تكن الإمبراطورية بحاجة لأن تفرق كي تسود. فالحدود الاجتماعية والعرقية والثقافية جاءت هدية من التاريخ ومكرسة بالوراثة.

منذ العام ١٨٧٢ كانت الإحصائيات البريطانية تصنف سكان الهند وفق طوائفهم. ولم يقتصر النظام الأجنبي على ترسيخ شرعية هذا التقليد الوطني، وإنما استخدمه كذلك لتنظيم مجتمع أشد طبقية وأشد صرامة. وما كان بإمكان أي شرطي أن يتخيل شيئاً أفضل من ذلك من أجل مراقبة مهمة ومصير كل شخص. الإمبريالية قننت هذه التراتبية والعبودية، ومنعت أياً كان من التحرك من مكانته.

أيد خشنة

الأمراء، في خدمة التاج البريطاني، يعيشون في ضيق بسبب شح النمور في الغابات وأزمة الغيرة التي تجتاح الحريم.

في ذروة القرن العشرين، يحاولون التسلية كيفما يستطيعون:

مهراجا بهاراتبور اشترى كل سيارات الرولز رايز المتوفرة في لندن وخصصها لجمع القمامة في ممتلكاته.

ومهراجا جونغاده كان يملك كلاباً كثيرة لكل كلب منها غرفة خاصة وهاتف وخادم.

ومهراجا ألوار أحرق ميدان سباق الخيل عندما خسر حصانه بوني سباقاً.

ومهراجا كابورثالا شيد نسخة مماثلة تماماً لقصر فرساي.

ومهراجا ميسور شيد نسخة مماثلة تماماً لقصر ويندسور.

ومهراجا غواليور اشترى قطاراً مصغراً من الذهب والفضة ليجوب صالة طعام القصر حاملاً الملح والبهارات لمدعويه.

ومدافع مهراجا بارودا كانت من الذهب الخالص.

ومهراجا حيدرآباد كان يستخدم ثقالة أوراق هي عبارة عن ماسة زنة مئة وأربعة وثمانين قيراطاً.

رحلة داروين

تشارلز داروين الشاب لم يكن يعرف ما يفعله في حياته. كان الأب يشجعه:

- ستكون كارثة على نفسك وأسرتك.

في أواخر العام ١٨٣١، رحل.

رجع إلى لندن بعد خمس سنوات من الإبحار عبر جنوبي أميركا وجزر غالباغو وأمكنة أخرى.

أحضر معه ثلاث سلاحف عملاقة، واحدة منها ماتت في العام ٢٠٠٧، في إحدى حدائق الحيوان في أستراليا.

رجع متبدلاً. حتى إن أبوه انتبه إلى ذلك:

- صار لجمجمتك شكل آخر!

لم يأتِ بسلاحف فقط. وإنما جاء يحمل أسئلة كذلك. كان رأسه ممتلئاً بالأسئلة.

أسئلة داروين

لماذا كان الماموت مغطى بجلد سميك؟ ألا يكون الماموت فيلاً اكتسى بالجلد الخشن عند بدء العصر الجليدي؟

لماذا عنق الزرافة طويل جداً؟ ألا يكون أنه راح يستطيل مع مرور الزمن من أجل الوصول إلى أعلى الثمار في قمم الأشجار؟

الأرانب التي تركض على الثلج، هل كانت بيضاء منذ البدء أم أنها راحت تكتسب البياض لتخدع الثعالب؟

لماذا لطائر البنزون مناقير تختلف باختلاف المكان الذي يعيش فيه؟ ألا تكون هذه المناقير قد تأقلمت مع الجو، على امتداد سيرورة التطور، من أجل كسر قشور الثمار، أو التقاط الحشرات، أو امتصاص الرحيق؟

ربما أن ألف سؤال وسؤال مثل هذه الأسئلة هي التي راحت تتحول، مع مرور السنوات والشكوك والتناقضات، إلى صفحات كتابه المتفجر حول أصل الأنواع وتطور الحياة في العالم.

فكرة تجديفية، درس لا يطاق في المهانة: لقد كشف داروين أن الرب لم يخترع العالم في أسبوع، ولم يشكلنا على هيئته وصورته.

الخبر المشؤوم لم يُستقبل بارتياح. من يظن هذا السيد نفسه ليأتي ويصحح الكتاب المقدس؟

فكان أسقف أكسفورد يسأل قراء داروين:

- وهل حضرتك سليل القرد من جهة جدك أم من جهة جدتك؟

أُريك العالم

اعتاد داروين الاستشهاد بملاحظات رحلة جيمس كولمان.

لم يكتشف أحدٌ خيراً منه مملكة الحيوان في المحيط الهندي.

سماء جبل فيزوف المشتعلة. وميض ليالي صحراء العرب.

لون الحر في زنجبار. هواء سيلان الذي هو من قرفة.

ظلال الشتاء في إدنبره. ورمادية السجون الروسية.

يسبقه عكازه الأبيض، قام كولمان بالدوران حول العالم، من أقصاه إلى أقصاه.

هذا الرحالة الذي ساعدنا كثيراً في الرؤية، كان أعمى.

- أنا أرى بقدمي - كان يقول.

بشر صغار

أخبرنا داروين أننا أبناء عمومة القردة، وليس الملائكة. وعلمنا بعد ذلك أننا جئنا من الأدغال الأفريقية ولم يأتِ بنا أي طائر لقلق من باريس. ومنذ وقت قريب جداً عرفنا أن جيناتنا مطابقة تقريباً لجينات الفئران.

لم نعد نعرف إذا ما كنا أعمالاً بارعة أنجزها الرب، أم أننا مزحة خبيثة من عمل الشيطان.

فنحن، البشر الصغار:

مبيدو كل شيء.

صيادو القريب.

مخترعو القنبلة الذرية، والقنبلة الهدروجينية، وقنبلة النيترون التي هي أكثر صحية من جميع الأخريات لأنها تبيد الأفراد وتترك الأشياء الأخرى سليمة.

إننا الحيوانات الوحيدة التي تخترع آلات.

والوحيدون الذين يعيشون في خدمة الآلات التي اخترعوها.

والوحيدون الذين يلتهمون بيتهم.

والوحيدون الذين يسممون الماء الذي يوفر لهم الشراب والأرض التي توفر لهم الطعام.

والوحيدون القادرون على تأجير أنفسهم أو بيعها وعلى استئجار أمثالهم أو بيعهم.

والوحيدون الذين يقتلون لمتعة القتل.

والوحيدون الذين يعذبون.

والوحيدون الذين يغتصبون.

ونحن أيضاً:

الوحيدون الذين يضحكون.

والوحيدون الذين يحلمون مستيقظين.

ومن يصنعون حريراً من فم الدودة.

ومن يحوّلون القمامة إلى جمال.

ومن يكتشفون ألواناً لا يعرفها قوس قزح.

ومن يمنحون موسيقى جديدة لأصوات العالم.

ويبدعون كلمات كيلا يصيب البكم
الواقع وذاكرتهم.

جنون الحرية

حدث في واشنطن، عام ١٨٤٠. أجري إحصاء رسمي لقياس العته بين الزنوج في الولايات المتحدة. وحسب الإحصاء، كان هنالك مجانين أكثر بتسع مرات بين الزنوج الأحرار مما بين الزنوج العبيد.

الشمال كان مستشفى مجانين فسيحاً؛ ومع التوغل أكثر في الشمال يصير الوضع أسوأ. أما عند التوجه من الشمال نحو الجنوب بالمقابل، فيبدأ التحول من الجنون إلى التعقل. فالجنون بين العبيد العاملين في مزارع القطن والتبغ والرز المزدهرة قليل أو معدوم.

ويؤكد الإحصاء يقين المالكين. فالعبودية دواء جيد، يطور التوازن الأخلاقي والتعقل. أما الحرية بالمقابل فتولد الجنون.

ففي خمس وعشرين مدينة في الشمال لم يُعثر على زنجي عاقل واحد، وفي تسع وثلاثين مدينة بولاية أوهايو، وعشرين مدينة في نيويورك يبلغ عدد الزنوج المجانين أكثر من مجموع عدد الزنوج الموجودين هناك.

لم يكن الإحصاء جديراً جداً بالتصديق، ولكنه ظل حقيقة رسمية طوال ربع قرن، إلى أن حرر أبراهام لينكولن العبيد، فكسب الحرب وخسر حياته.

إعصار الذهب

حدث في واشنطن، عام ١٨٨٠. منذ سنوات وجون سوتر يجول، مجرجراً قدميه، في محيط الكابيتول والبيت الأبيض، بزي كولونيل مرقع وبحقيبته المترعة بالوثائق. وعندما يجد، بمعجزة، من هو مستعد لسماعه، يُخرج مستندات ملكيته لمدينة سان فرانسيسكو وضواحيها الفسيحة، ويروي قصة المليونير الذي جُرد من كل شيء بسبب إعصار الذهب.

لقد أقام إمبراطوريته في وادي سكرامينتو واشترى أعداداً من الأتباع الهنود ورتبة كولونيل وبيانو موديل بلييِّل، عندئذ انبثق الذهب مثل القمح وجرى اقتحام أراضيه وبيوته، وأُكلت أبقاره وأغنامه، وأُتلفت مزروعاته.

فقد كل شيء، وأمضى حياته منذ ذلك الحين في خوض المحاكمات. وعندما أعطاه أحد القضاة الحق، قام حشد بإحراق قصر العدل. انتقل إلى واشنطن. وهناك عاش منتظراً، ومنتظراً مات.

الآن، هنالك شارع في مدينة سان فرانسيسكو يحمل اسم سوتر. لقد جاء العزاء متأخراً جداً.

وايتمان

حدث في بوسطن، ١٨٨٢. جمعية نيو إنجلند للقضاء على الفساد تمكنت من تفادي توزيع طبعة جديدة من "أوراق العشب".

قبل سنوات من ذلك، كان المؤلف والت وايتمان قد فقد وظيفته عند ظهور الطبعة الأولى.

فإشادته بمتع الليل بدت لا تطاق في نظر الأخلاق العامة.

مع العلم أن وايتمان أعاد إصلاح الأشعار بصورة معقولة كي يداري ما هو أشد حظراً فيها.

وقد تمكن من التلميح إلى ذلك في مقطع ما من "أوراق العشب"، أما في القصائد الأخرى، وحتى في مذكراته الحميمة، فتكبد مشقة التصحيح باستخدام his بدلاً من her، وبكتابة هي حيث كان قد كتب هو.

الشاعر الكبير الذي تغنى بالعري المتألق، لم يجد مفراً من التنكر كي يظل حياً. اختلق ستة أبناء لم يكونوا لديه قطّ، واختلق كذباً مغامرات مع نساء ليس لهن وجود، ورسم نفسه كالملتحي المتثاقل الذي يجسد ذكورة أميركا وهو يفتض فتيات لم يمسسن ومروجاً عذراء.

إيميلي

حدث في أمهرست، ١٨٨٦. عند وفاة إيميلي ديكنسون، اكتشفت أسرتها ألفاً وثمانمئة قصيدة محفوظة في مخدعها.

لقد عاشت على رؤوس أصابع قدميها، وعلى رؤوس أصابع قدميها كانت تكتب. لم تنشر سوى إحدى عشرة قصيدة طوال حياتها، وجميعها تقريباً مغفلة أو باسم آخر.

لقد ورثت عن أسلافها البوريتانيين عادة الضجر، وهذه علامة فارقة في سلالتها وطبقتها: ممنوع تلمس النفس، ممنوع البوح.

السادة يمارسون السياسة والتجارة، والسيدات يتكفلن بمواصلة النوع والعيش مريضات.

سكنت إيميلي العزلة والصمت. ومعتكفة في حجرتها كانت تخترع قصائد تخرق القوانين، قوانين النحو وقوانين حبسها نفسه، وهناك كانت تكتب رسالة كل يوم إلى زوجة أخيها سوزان، وترسلها إليها بالبريد، بالرغم من أنها تسكن في البيت المجاور.

تلك القصائد وتلك الرسائل أسست صومعتها السرية، حيث شاءت آلامها الخفية ورغباتها المحظورة أن تكون حرة.

عناكب كونية

حدث في شيكاغو، ١٨٨٦. عندما شلّ الإضراب العمالي شيكاغو ومدناً أخرى شخصت جريدة "فيلادلفيا تريبيون" الحالة: العنصر العمالي لدغه نوع من العناكب الكونية، وصار مجنوناً تماماً.

مجانين تماماً كان العمال الذين يناضلون من أجل يوم عمل من ثماني ساعات ومن أجل الحق بالتنظيم النقابي.

في العام التالي، أربعة عمال متهمين بالقتل، حُكم عليهم دون أدلة في محكمة مضحكة. جورج إينغل، وأدولف فيشر، وألبرت بارسونز، وأغوست سبيس اقتيدوا إلى المشنقة. أما المحكوم الخامس ففجر رأسه في زنزانته.

في كل أول أيار يتذكرهم العالم بأسره.

مع مرور الوقت، منحتهم القناعات الدولية، والمؤسسات والقوانين الحق.

ومع ذلك فإن أوسع الشركات نجاحاً مازالت دون علم بذلك. فهي تحظر النقابات العمالية، وتقيس يوم العمل بتلك الساعات الذائبة التي رسمها سلفادور دالي.

السيد كوربوريشن

حدث في واشنطن، عام ١٨٨٦. الشركات العملاقة حصلت على الحقوق القانونية نفسها التي للمواطنين العاميين.

محكمة العدل العليا ألغت أكثر من مئتي قانون تنظم وتحد من نشاط الأعمال، ووسعت في الوقت نفسه حقوق الإنسان لتشمل الشركات الخاصة. اعترف القانون للشركات الكبيرة بالحقوق نفسها التي للأفراد، كما لو أنها هي أيضاً تتنفس: الحق بالحياة، وحرية التعبير، والخصوصية...

وفي بداية القرن الحادي والعشرين، مازالت الحال نفسها.

لا تدوسوا لي الأزهار

في العام ١٨٧١، اندلعت ثورة أخرى وضعت باريس، للمرة الثانية، في أيدي الكومونيين.
شارل بودلير قارن الشرطة بالإله جوبيتير، وحذر من أن ثقافة الجمال تختفي عندما لا تكون هنالك أرستقراطية.

تيوفيل غوتيه قدم شهادة:

- البهائم كريهة الرائحة، بصرخاتها المتوحشة، تهاجمنا.

حكومة الكومونة سريعة الزوال أحرقت المقصلة، واحتلت الثكنات، وفصلت الدين عن الدولة، وسلّمت للعمال المصانع التي أغلقها أرباب العمل، ومنعت العمل الليلي، وأقرت التعليم العلماني المجاني والإجباري.

- التعليم العلماني المجاني والإجباري لن يؤدي إلا إلى زيادة أعداد البلهاء - تنبأ غوستاف فلوبير.

لم تستمر الكومونة إلا قليلاً. شهران وبضعة أيام. القوات العسكرية التي كانت قد هربت إلى فرساي عادت للهجوم، وبعد عدة أيام من القتال، اكتسحت المتاريس العمالية، واحتفلت بانتصارها في عمليات إعدام رمياً بالرصاص. استمروا في الإعدامات ليلاً ونهاراً طوال أسبوع، كل زخة من الرصاص تقتل عشرين شخصاً بعد عشرين. عندئذ نصح فلوبير بعدم التعامل برحمة مع الكلاب المسعورة وكوسيلة علاج أولية أوصى بإلغاء الاقتراع العام، لأنه عارٌ على الروح الإنسانية.

أناتول فرانس احتفى أيضاً بالمجزرة:

- الكومونيون لجنة من القتلة، شرذمة من الصعاليك. أخيراً ها هي حكومة الإجرام والديمقراطية تتعفن أمام فصائل الإعدام.

وأعلن إميل زولا:

- شعب باريس سيهدئ حماسته وسيتعاظم البهاء والحكمة.

أقام المنتصرون كنيسة القلب المقدس على رابية مونتمار حمداً للرب على هبة النصر.
كعكة الكريما الهائلة تلك تجتذب السياح بكثرة.

كومونيات

كل السلطة للأحياء. وكل حي كان جمعية عامة. وفي كل مكان كنَّ هنَّ: عاملات، خياطات، خبازات، طباخات، بائعات أزهار، مربيات أطفال، كواءات، نادلات حانات. العدو يطلق تسمية pétroleuses، مشعلات النار، على أولئك الناريات اللاتي يطالبن بحقوق ينكرها عليهن المجتمع الذي يطالبهن بالكثير من الواجبات.

وكان حق الاقتراع النسائي أحد تلك الحقوق. في الثورة السابقة، ثورة عام ١٨٤٨، كانت حكومة الكومونة قد رفضت ذلك بحصيلة ثمانمئة وتسعة وتسعين صوتاً مقابل صوت واحد مؤيد (إجماع ناقص واحد).

هذه الكومونة الثانية واصلت صم أذنيها عن طلبات النساء، ولكنهن خلال الوقت الذي دامته الكومونة، وما دامته كان قليلاً، كنّ يبدين رأيهن في كل المناظرات ويُقمن متاريس، ويعالجن جرحى، ويقدمن الطعام للجنود، ويحملن أسلحة الشهداء واستشهدن وهنّ يقاتلن، وكنَّ يضعن المنديل الأحمر حول أعناقهن، فكان الزي المميز لكتائبهن. بعد ذلك، عند الهزيمة، حين جاءت ساعة انتقام السلطة المهانة، أكثر من ألف امرأة حوكمنَ أمام المحاكم العسكرية.

إحدى المحكوم عليهن بالنفي تدعى لويز ميشيل. هذه المعلمة الفوضوية دخلت النضال بطبنجة قديمة وخلال المعركة كسبت بارودة من نوع ريمينغتون، جديدة جداً. وفي الفوضى الأخيرة، نجت من الموت؛ ولكنهم أرسلوها بعيداً جداً. انتهى بها الأمر في جزيرة كاليدونيا الجديدة.

لويز

- أريد أن أعرف ما يعرفونه - قالت.

رفاقها في المنفى حذروها من أن أولئك المتوحشين لا يعرفون شيئاً سوى أكل اللحم البشري:

- لن تخرجي حية.

ولكن لويز ميشيل تعلمت لغة السكان الأصليين في كاليدونيا الجديدة وتوغلت في الغابة وخرجت منها حية. أخبروها بأحزانهم وسألوها لماذا أُرسلت إلى هناك:

- هل لأنكِ قتلتِ زوجكِ؟

فأخبرتهم بكل شيء عن الكومونة:

- آه - قالوا لها - أنتِ مهزومة. مثلنا.

فيكتور هوغو

هو كان عصره. وكان أمته.

كان ملكياً وكان جمهورياً.

جسد مُثل الثورة الفرنسية وبسحر ريشته عرف كيف يحول نفسه إلى البائس الذي يسرق بدافع الجوع وإلى أحدب نوتردام، ولكنه آمن كذلك بالمهمة الفادية للأسلحة الفرنسية في العالم.

في ١٨٧١، أدان، بانفراد، القمع ضد الكومونيين.

قبل ذلك كان قد صفق، برفقة كثيرين، للغزوات الاستعمارية:

- إنها الحضارة تواجه الهمجية. إنه شعب متنور يمضي بحثاً عن شعب في الظلام. إننا إغريق العالم، وعلينا تنوير العالم.

درس في الثقافة الاستعمارية

في العام ١٨٥٦ تعاقدت الحكومة الفرنسية مع روبير هودين، الساحر معلم السحرة، على تنوير الجزائر.

كان عليه أن يلقن السحرة الجزائريين درساً. فأولئك المخادعون الذين يبتلعون زجاجاً ويشفون جراحاً بمجرد لمسها، يمضون زارعين بذور التمرد ضد السلطة الاستعمارية.

عرض هودين أعاجيبه. كبار الشيوخ والسحرة المحليين الأوسع شعبية ذهلوا من تلك القدرات الخارقة.

وفي ذروة الحفل، وضع المبعوث الأوروبي صندوقاً صغيراً على الأرض وطلب من أقوى أقوياء الجزائر أن يرفعه. لم يستطع ذو العضلات رفعه. جرب مرة، وأخرى، ثم أخرى، ولم تكن ثمة طريقة. وفي المحاولة الأخيرة سقط أرضاً على مؤخرته، تهزه رعشة عنيفة، وهرب مذعوراً.

بعد تلك المهانة، ظل هودين وحيداً في الخيمة. التقط الصندوق وحمل مغناطيسه الكهربائي القوي المخبأ تحت دكة خشبية على الأرض، وكذلك ذراع التدوير التي تحدث شحنات صدم كهربية.

هنا كانت الهند

بيير لاتيه، كاتب فرنسي كان يبيع غرائب آسيوية للجمهور الفرنسي، زار الهند في ١٨٩٩.

في كل محطة كانت تنتظره جوقات الجوع.

أعلى من ضجيج القاطرة كانت تدوي تضرعات أولئك الأطفال، أو هياكل الأطفال العظمية بعبارة أدق، شفاه بنفسجية، عيون غائرة في محاجرها، يغطيهم الذباب، يتوسلون صدقة. قبل سنتين أو ثلاث سنوات من ذلك كانت الطفلة أو الطفل يباع بروبية واحدة، أما الآن فليس هناك من يريدهم حتى كهدية مجانية.

لم يكن القطار يحمل ركاباً فقط. ففي المؤخرة عدة عربات مملوءة بالرز والدُّخن للتصدير. الحراس يحرسون وأصابعهم على الزناد. لا يمكن لأحد أن يقترب هناك. الحمائم وحدها هي التي تنقر الأكياس ثم تبتعد طائرة.

الصين تُقدَّم على مائدة أوروبا

كانت الصين تنتج مجاعات، وأوبئة، ومواسم محل لا تنتهي.

المدعوين بوكسر، والذين بدؤوا كجمعية سرية، كانوا يريدون استعادة الكرامة الوطنية بطرد الأجانب والكنائس المسيحية.

- إذا كان المطر لا يهطل - كانوا يقولون - فلا بد من سبب. الكنائس لا تتورع عن إغلاق السماء.

في أواخر القرن بدؤوا من الشمال تمرداً أشعل الأرياف الصينية ووصل إلى بكين.

عندئذ عمدت ثماني دول، هي بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا والنمسا وروسيا واليابان والولايات المتحدة، إلى إرسال سفنها الحربية المحملة بجنود فرضوا النظام بقطع رأس كل من له رأس.

وعلى الفور قطَّعوا الصين كما لو أنها بتزا وتوزعوا فيما بينهم موانئ وأراض ومدناً، سلمتها إليهم السلالة الصينية الشبحية كامتيازات لمدة تسعة وتسعين عاماً.

أفريقيا تُقدَّم على مائدة أوروبا

وباقتفاء أثر بريطانيا، اكتشفت أوروبا ذات يوم طيب أن العبودية مبعث للغضب في عيني الرب.

عندئذ بدأت أوروبا، متوغلة في أفريقيا، غزوها الاستعماري. في السابق، لم يكن رجال الأراضي الباردة يدخلون إلى ما هو أبعد من الموانئ حيث يشترون زنوجاً، ولكنّ الكشافين في هذه السنوات شقوا الطريق في الأراضي الحارة، ووراءهم جاء المحاربون يمتطون المدافع، ووراءهم جاء المبشرون مسلحين بصلبان، ووراءهم التجار. الشلالات الأشد إعجازاً والبحيرة الأكثر اتساعاً في أفريقيا سميا فيكتوريا، تكريماً للملكة التي لم تكن أفريقية جداً، وعمَّد الغزاة أنهاراً وجبالاً مصدقين حكاية أنهم يكتشفون ما يرونه. ولم يعودوا يطلقون تسمية عبيد على الزنوج المخضعين للعمل العبودي.

في العام ١٨٨٥، في برلين، وبعد سنة من الصراع الشديد، تمكن الغزاة من الاتفاق على التقاسم.

بعد ثلاثة عقود من ذلك، خسرت ألمانيا الحرب العالمية الأولى وخسرت في الطريق أيضاً المستعمرات الأفريقية التي كانت من نصيبها: البريطانيون والفرنسيون تقاسموا توغو والكاميرون، وانتقلت تنزانيا الحالية إلى أيدٍ بريطانية، واحتفظت بلجيكا برواندا وبوروندي.

في أثناء ذلك، كان فريدريك هيغل قد أوضح منذ زمن أن أفريقيا ليس لها تاريخ وأنها يمكن أن تكون مفيدة فقط في دراسة البربرية والوحشية، وكان مفكر آخر، هيربرت سبيندر، قد أصدر حكمه بأنه يتوجب على الحضارة أن تمحو عن الخريطة الأعراق الدنيا، وسواء أكان الأمر إنسانياً أو فظاً، لا بد من إزالة أي نوع من العوائق.

أُطلقت تسمية حقبة السلام العالمي على العقود الثلاثة التي انتهت إلى حرب ١٩١٤. في تلك السنوات العذبة، استقر ربع العالم في كرش نصف دزينة من الأمم.

قبطان الظلام

عند اقتسام أفريقيا، تلقى ملك بلجيكا ليوبولد الكونغو كملكية خاصة.

بإعدام الفيلة رمياً بالرصاص، حوّل مستعمرته إلى أعظم مصدر للعاج، وبجلد الزنوج وبتر أطرافهم، قدم مطاطاً وفيراً ورخيصاً لعجلات السيارات التي بدأت تدور على دروب العالم.

لم يذهب إلى الكونغو قطّ بسبب البعوض. أما الكاتب جوزيف كونراد فكان هناك. في "قلب الظلام"، روايته الأوسع شهرة، كان كورتز هو الاسم الأدبي للقبطان ليون روم، الضابط المتميز في القوات الاستعمارية. كان الوطنيون يتلقون أوامره وهم على أربع قوائم، بينما يدعوهم هو بهائم غبية. عند مدخل بيته، بين أزهار الحديقة، ينتصب عشرون رمحاً تكمل الديكور. كل رمح منها يحمل رأس زنجي متمرد. وعند مدخل مكتبه، بين أزهار حديقته الأخرى، تنتصب مشنقة يؤرجحها الهواء.

وفي ساعات فراغه، عندما لا يكون مشغولاً باصطياد الزنوج أو الفيلة، كان القبطان يرسم مناظر طبيعية بالألوان الزيتية، ويكتب قصائد، ويجمع فراشات.

ملكتان

قبل قليل من موتها، ابتهجت الملكة فيكتوريا بضم درّة أخرى إلى تاجها المترع بالدرر. فمملكة أشانتي، منجم الذهب الفسيح، تحولت إلى مستعمرة بريطانية.

المعركة النهائية اندلعت عندما طلب الإنكليز من الأشانتيين أن يسلموا إليهم التاج المقدس، حيث تستقر روح الأمة.

كان الأشانتيون أناساً محاربين جداً، فقدانهم أفضل من اللقاء بهم، ولكن امرأة هي التي قادت المعركة النهائية، إنها الملكة الأم، ياي أسانتيوا، استبعدت القادة المحاربين:

- أين هي الشجاعة؟ إنها ليست فيكم.

كان القتال شرساً. وبعد ثلاثة شهور، فرضت المدافع البريطانية رأيها.

الملكة فيكتوريا المنتصرة، ماتت في لندن.

ياي أسانتيوا، الملكة المهزومة، ماتت بعيداً عن أرضها.

المنتصرون لم يعثروا قطّ على التاج المقدس.

وبعد سنوات، كانت مملكة أشانتي، المسماة غانا، هي أول مستعمرة في أفريقيا تحقق استقلالها.

وايلد

اللورد شامبلين في المملكة البريطانية كان أكثر بكثير من جرسون. فبين مهامه الأخرى، كان يتولى رقابة المسرح. ويقرر بمساعدة خبرائه ما هي الأعمال المسرحية التي يجب الاقتطاع منها أو حظرها من أجل حماية الجمهور من مخاطر غير الأخلاقية.

في العام ١٨٩٢ أعلنت سارا برنارد أن عملاً جديداً لأوسكار وايلد، بعنوان "سالومي"، سيفتتح موسمها في لندن. وقبل أسبوعين من الافتتاح، حُظرت المسرحية.

لم يحتجَ أحدٌ باستثناء المؤلف. فقد تذكر وايلد أنه أيرلندي يعيش في أمة من الطرطوفات، ولكن الإنكليز احتفوا بالنكتة. فذلك الأكرش العبقري الذي يضع وردة بيضاء في عروة سترته وسكيناً في لسانه، هو الشخص الأوسع توقيراً في مسارح لندن وصالوناتها.

كان وايلد يسخر من الجميع، ومن نفسه أيضاً:

- أنا قادر على مقاومة كل شيء، ما عدا الغواية - كان يقول.

وذات ليلة تقاسم فراشه مع ابن مركيز كوينسبيري، مفتوناً بجماله الواهن، الشبابي بصورة غامضة، والغسقي في الوقت نفسه. وكانت تلك هي الليلة الأولى من ليالٍ أخرى. علم الماركيز بالأمر، وأعلن عليه الحرب. وكسبها.

وبعد ثلاث محاكمات مذلة، وفرت وليمة يومية للصحافة واستثارت سخط المواطنين ضد هذا المنحط فاسد العادات، أدانه المحلفون، لأنه ارتكب أفعالاً شنيعة غير محتشمة مع فتيان وجدوا السعادة في الشكوى ضده.

ظل سنتين في السجن، يعمل بالفأس والمعول. باع دائنوه بالمزاد ممتلكاته كلها. وعندما خرج، كانت كتبه قد اختفت من المكتبات، ومسرحياته من المسارح. ولم يعد هناك من يصفق له، ولا من يدعوه.

كان يعيش وحيداً، ويشرب على انفراد، ويتلفظ - إلى لا أحد - بعباراته اللامعة.

وقد كان الموت لطيفاً. لم يتأخر طويلاً.

أبو الكشافة

تلقى أرثر كونان دول لقب سير، ولم يكن ذلك بسبب مزايا شرلوك هولمز. لقد أدخل الكاتب النبالة الإنكليزية في أعمال دعاية كتبها في خدمة القضية الإمبراطورية.

أحد أبطاله كان الكولونيل بادن باول، مؤسس الحركة الكشفية. وكان قد تعرف عليه وهو يقاتل ضد المتوحشين الأفارقة.

- لقد كان هناك على الدوام شيء رياضي في تقديره المرهف للحرب - يقول السير آرثر.

بارع جداً في فن اقتفاء أثر الآخرين ومحو آثاره الخاصة. وكان بادن باول قد مارس بنجاح كبير رياضة صيد الأسود، والخنازير البرية، والغزلان، وأبناء قبائل الزولو، والأشانتي، والندبلي.

وضد الندبلي شن معركة قاسية في جنوبي أفريقيا.

مات فيها مئتان وتسعة زنوج وإنكليزي واحد.

وأخذ الكولونيل كتذكار القرن الذي كان العدو ينفخ فيه ليطلق صوت الإنذار. وهذا القرن كان خاصاً، إنه قرن الظبي "كودو"، وقد ضُم إلى عادات الكشافة، وتحوَّل إلى شعار الفتيان الذين يحبون الحياة الصحية.

أبو الصليب الأحمر

الصليب الأحمر ولد في جنيف. وكان ثمرة مبادرة بعض المصرفيين السويسريين الذين أرادوا تقديم عون لجرحى الحروب الذين يُهجرون في ميادين المعارك.

الرئيس الأول، غوستاف موينير، ترأس خلال أكثر من أربعين عاماً اللجنة الدولية. وكان يوضح أن الصليب الأحمر، المؤسسة المستوحاة من الأخلاق الإنجيلية، تُستقبل على أحسن وجه في البلدان المتحضرة، ولكنها تلقى نكران الجميل في البلدان المستعمرة.

- الشفقة - كتبَ يقول - ليست معروفة عند تلك القبائل المتوحشة، فليس في لغاتها أي كلمة تعبر عن هذه الفكرة.

تشرشل

كلّيّ السطوة كان نفوذُ ورثة اللورد مارلبورو، المدعو مامبو؛ والشاب ونستون تشرشل تمكن، بفضل أسرته، من الانضمام إلى أحد ألوية الرماة الذاهبة للقتال في السودان.

كان جندياً ومدوناً لأحداث معركة أم درمان، في العام ١٨٩٨، على مقربة من الخرطوم، على ضفاف نهر النيل.

كان التاج البريطاني يرتب ممراً من المستعمرات يخترق أفريقيا من القاهرة في الشمال حتى مدينة الكاب في أقصى الجنوب. وكان غزو السودان أساسياً في هذا المشروع التوسعي الإمبراطوري، توضحه لندن بالقول:

- إننا نحضر أفريقيا من خلال التجارة.

بدل الاعتراف:

- إننا نتاجر بأفريقيا من خلال الحضارة.

كانت البعثة التبشيرية المُخَلِّصَة تشق طريقها بالدم. ولأن الأفارقة المشهورين بخراقتهم لا يمكنهم فهم ذلك، فإن أحداً لم يشغل نفسه بسؤالهم عن رأيهم.

في قصف مدينة أم درمان، اعترف تشرشل، مات عدد كبير من عاثري الحظ غير المقاتلين، وهم ضحايا من النوع الذي صار يسمى بعد قرن من ذلك أضراراً جانبية. ولكن الأسلحة الإمبراطورية حققت أخيراً، حسب كلامه، أشد الانتصارات غير المسبوقة بلاغة لأسلحة العلم ضد أسلحة الهمجية، وبينت هزيمة أقوى جيش بربري وأفضله تسليحاً، أنه لا يمكن له الوقوف ضد جيش أوروبي حديث.

ووفق معطيات المنتصرين الرسمية، هذه كانت حصيلة معركة أم درمان:

اثنان بالمئة من الإصابات في صفوف القوات المتحضرة.

تسعون بالمئة من الإصابات في صفوف القوات الهمجية.

عملاق رودوس

كان له مشروع بائس في حياته:

- لو كان بمقدوري غزو كواكب أخرى.

حماسته بدأت من المهد:

- إننا العرق الأول في العالم. وكلما سكنا مزيداً من العالم، سيكون ذلك أفضل للجنس البشري.

سيسل رودوس، أغنى رجل في أفريقيا، ملك الماس، ومالك خط سكة الحديد الوحيد المتاح له الدخول إلى مناجم الذهب، كان يتكلم بوضوح:

- علينا الاستيلاء على مزيد من الأراضي - كان يوضح -. وإليها سنرسل فائض السكان لدينا، وسنجد هناك أسواقاً جديدة لمنتجات مصانعنا ومناجمنا. فالإمبراطورية، وقد قلتُ ذلك على الدوام، هي مسألة مَعِدة.

في أيام الآحاد كان رودوس يتسلى بإلقاء قطع عملة في المسبح، كي يلتقطها أتباعه الزنوج بأسنانهم، ولكنه في أيام الأسبوع الأخرى كان ينهمك في التهام الأراضي. وقد وسع هذا النهم خريطة إنكلترا إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه، بنهب الزنوج، كحق طبيعي، وطرد بيض آخرين من الموعوين بوير، في منافسة استعمارية. ومن أجل إنجاز المهمة، كان لا بد من اختراع معسكرات الاعتقال في نسخة بدائية صقلها الألمان في ناميبيا ثم طوّروها في ما بعد في أوروبا.

وفي تكريم لمآثر الغازي الإنكليزي، صار اسم بلدين أفريقيين روديسيا.

روديارد كيبلنغ، القيثارة المتأهبة على الدوام لتكون عند قدمي المدفع، كان من نَظَم الكتابة على لوحة قبره.

عرش من ذهب

قبل بضع سنوات من سيسل رودوس، رغب ميداس، ملك فريجيا، أن يتحول العالم إلى ذهب بسحر يده.

كان يحتاج إلى تحويل كل ما يلمسه إلى ذهب، وطلب من الإله ديونيزو أن يمنحه هذه القدرة.

وديونيزو الذي كان يؤمن بالنبيذ وليس بالذهب، منحه ما طلبه.

عندئذ قطع ميداس غصناً من شجرة دردار، فتحول الغصن إلى قضيب من ذهب. لمس طوبة فصارت سبيكة. غسل يديه فخرج من الطست مطر من الذهب. وعندما جلس ليأكل، كسرت المأكولات أسنانه ولم يكن بإمكان أي شراب أن يمر من حلقه. وعانق ابنته وإذ بها تصير تمثالاً من الذهب.

أوشك ميداس على الموت من الجوع والعطش والوحدة.

أشفق عليه ديونيزو وجعله يغطس في نهر باكتول.

ومنذ ذلك الحين صارت رمال النهر ذهبية وفقد ميداس السحر ونجا بحياته، وكانت له أذنا حمار، يخفيهما دون نجاح تحت قبعة فريجية حمراء.

تأسيس معسكرات الاعتقال

عندما حققت ناميبيا استقلالها، في العام ١٩٩٠، ظلت تطلق اسم غورنغ على الشارع الرئيسي في العاصمة. ليس نسبة إلى هيرمان غورنغ، القائد النازي المشهور، وإنما تكريماً لأبيه هنريش غورنغ الذي كان أحد مرتكبي إحدى أولى عمليات الإبادة الجماعية في القرن العشرين.

فغورنغ ذاك، ممثل الإمبراطورية الألمانية في ذلك البلد الأفريقي، تكرم في العام ١٩٠٤ بتأكيد أمر الإبادة الذي أصدره الجنرال لوثر فون تروتا.

كان الهِرير، وهم رعاة زنوج، قد انتفضوا متمردين. فالسلطة الاستعمارية طردتهم جميعاً، وحذرت بأنها ستقتل من ستجده منهم في ناميبيا، سواء أكانوا رجالاً أو نساء أو أطفالاً، مسلحين أو غير مسلحين.

من كل أربعة هِرير مات ثلاثة. صرعتهم المدافع وشموس الصحراء التي أُبعدوا إليها.

ومن نجوا من المذبحة انتهى بهم الأمر إلى معسكرات الاعتقال التي برمجها غورنغ. عندئذ كان للمستشار الألماني فون بولو شرف النطق أول مرة بكلمة Konzentrationslager (معسكر تجميع).

المعسكرات المستوحاة من السابقة البريطانية في جنوبي أفريقيا، كانت تتضمن الحبس، وأعمال السخرة والتجارب العلمية. والسجناء الذين يستنفدون حياتهم في مناجم الذهب والماس، كانوا خنازير تجارب بشرية للأبحاث حول الأعراق الدنيا. وفي تلك المختبرات كان يعمل تيودور مولسون وأوجين فيشر، معلما جوزيف مينغل.

وقد استطاع مينغليه تطوير تعاليمهما منذ العام ١٩٣٣ . ففي ذلك العام أسس غورنغ الابن معسكرات التجميع الأولى في ألمانيا، متبعاً النموذج الذي جربه أبوه في أفريقيا.

تأسيس الفار وست

المشاهد المكانية في أفلام الغرب – حيث يطلق المسدس رصاصاً أكثر مما يطلقه مدفع رشاش – كانت قرى صغيرة، خلائط تافهة، حيث الصوت الوحيد هو التثاؤب وكان التثاؤب يدوم أكثر من صخب العربدة والسُّكر.

والكاوبوي، أولئك السادة قليلو الكلام، الفرسان المنتصبون الذين يجتازون العالم لإنقاذ آنسات محترمات، كانوا عمالاً مأجورين يقتلهم الجوع، دون أي رفقة أنثوية سوى الأبقار التي يقودونها، عبر الصحراء، مجازفين بحياتهم مقابل أجور بائسة. ولا يشبهون ولو قليلاً غاري كوبر، ولا جون واين، ولا آلان لاد، لأنهم كانوا زنوجاً أو مكسيكيين أو بيضاً منخوري الأسنان لم يمروا يوماً بين يدي عاملة مكياج.

والهنود المحكوم عليهم بالعمل ككومبارس في دور الأشرار شديدي الخبث، لا علاقة لهم بهؤلاء المتخلفين ذهنياً، ذوي الريش والأجساد المخططة بالألوان الذين لا يعرفون التكلم ويولولون حول عربة البريد التي تخترقها السهام.

مأثرة الفار وست كانت من اختراع حفنة رجال أعمال قادمين من أوروبا الشرقية. لقد كانت لأولئك المهاجرين، من أمثال لاميل، وفوكس، وورنر، وماير، وزوكور، عين تجارية صائبة، وفبركوا في استوديوهات هوليود الأسطورة الكونية الأوسع نجاحاً في القرن العشرين.

بوفالو بيل

في القرن الثامن عشر، كانت مستوطنة ماساشوستيس تدفع مئة جنيه إسترليني مقابل كل فروة رأس هندي منتزعة مع شعرها.

عندما حققت الولايات المتحدة استقلالها، صارت فروات الرأس مع شعرها تُسعر بالدولار.

في القرن التاسع عشر، تكرس بوفالو بيل أعظم سَلاخ هنود وأكبر مبيد لثيران البوفالو التي منحته الشهرة والاسم.

وعندما تقلص عدد السبعين مليون بوفالو إلى أقل من ألف، ودفع الجوع آخر الهنود المتمردين إلى الاستسلام، جال بوفالو بيل العالم باستعراضه الكبير: "وايلد وست سيركوس". بإيقاع مدينة كل يومين، كان ينقذ عربات بريد يحاصرها المتوحشون، ويمتطي خيولاً جامحة، ويطلق رصاصات تشطر الذبابة إلى نصفين.

قطع البطل استعراضه كي يُمضي مع الأسرة أول عيد ميلاد في القرن العشرين. وبينما هو محاط بذويه، في دفء المنزل، رفع الكأس، شرب النخب، وسقط مصعوقاً على الأرض.

في طلب الطلاق، اتهم زوجته لولو بتسميمه. وقد اعترفت هي بأنها دست له شيئاً في الشراب، ولكنها قالت إن ما أضافته هو أكسير حب، ماركة دم التنين، باعها إياه غجري.

أعمار "الثور الجالس"

في الثانية والثلاثين من عمره، وفي التعميد بالنار، يحمي "الثور الجالس" قبيلته من هجوم قوات معادية.

في السابعة والثلاثين، تختاره أمته من السكان الأصليين زعيماً لها.

في الحادية والأربعين، يجلس "الثور الجالس". في أوج المعركة، على ضفاف نهر يلوستون، يمشي باتجاه الجنود الذين يطلقون النار ويجلس على الأرض. يشعل غليونه. الرصاص يئز كأنه النحل. وهو ثابت، يدخن.

في الثالثة والأربعين، يعلم أن البيض قد وجدوا ذهباً في مرتفعات بلاك هيل، في الأراضي المخصصة للهنود، وأنهم قد بدؤوا الغزو.

في الرابعة والأربعين، وبعد رقصة طقوسية طويلة، يرى رؤيا: آلاف الجنود يسقطون كالجراد من السماء. وفي تلك الليلة، يخبره حلم: جماعتك سيهزمون العدو. هنود السيوكس وهنود

تشييني، متحدين معاً، يوجهون صفعة هائلة إلى الجنرال جورج كوستر وإلى جميع جنوده معه.
في الثانية والخمسين، بعد سنوات من النفي والسجن، يوافق على قراءة خطاب تكريم لقطار شمال الباسفيك الذي أنهى بناء خطوط سكته. وقبل إنهاء الخطاب، يضع الأوراق جانباً، ويواجه الجمهور قائلاً: - البيض جميعهم لصوص وكاذبون.
والمترجم يترجم: - نحن نقدم الشكر للحضارة.
الجمهور يصفق.
في الرابعة والخمسين، يشتغل في استعراض بوفالو بيل. وعلى رمل السيرك، يمثل "الثورُ الجالس" الثورَ الجالس. لم تكن هوليود قد صارت هوليود بعد، ولكن المأساة كانت تتكرر كاستعراض.
في الخامسة والخمسين، أنذره حلم: شعبك سيقتلك.
في التاسعة والخمسين، يقتله شعبه. هنود يرتدون زي الشرطة يحملون أمراً بالقبض عليه. وخلال تبادل إطلاق النار، يسقط قتيلاً.

تأسيس الاختفاءات

آلاف الموتى غير المدفونين يهيمون على وجوههم في سهوب البامبا الأرجنتينية. إنهم من أخفت آثارهم الدكتاتورية العسكرية الأخيرة.
دكتاتورية الجنرال بيديلا طبقت عمليات الإخفاء كسلاح حربي بمعدلات لم يُعرف لها مثيل. طبقتها ولكنها لم تبتكرها. فقبل قرن من ذلك، استخدم الجنرال روكا ضد الهنود اختراع القسوة البارع ذاك، بجعل كل ميت يموت عدة مرات، والحكم على محبيه بأن يصابوا بالجنون وهم يلاحقون شبحه المتهرب.
في الأرجنتين، كما في أميركا بأسرها، كان الهنود هم أول المختفين. اختفوا قبل أن يظهروا. أطلق الجنرال روكا تسمية اقتحام الصحراء على غزوه أراضي السكان الأصليين. كانت منطقة باتاغونيا مكاناً خاوياً، مملكة اللاشيء، يسكنها لا أحد.
وواصل الهنود الاختفاء بعد ذلك. من أذعنوا وتخلوا عن الأرض وعن كل شيء، أُطلقت عليهم تسمية الهنود المُخضعين: مخضعين حتى الاختفاء. ومن لم يستسلموا جرت هزيمتهم بالرصاص والسيوف، واختفوا متحولين إلى أرقام، موتى بلا أسماء، في التقارير العسكرية. واختفى أبناؤهم أيضاً: تم اقتسامهم كغنيمة حرب، وأسموهم بأسماء أخرى، وأُفرغوا من الذاكرة، واستعبدوا على أيدي قتلة آبائهم.

التمثال الأكثر ارتفاعاً

في أواخر القرن التاسع عشر انتهى، برصاص ريمنغتون، إفراغ باتاغونيا الأرجنتينية.
الهنود القليلون الذين تجاوزوا المجزرة غنوا، عند ذهابهم:
أرضي الحبيبة: لا تبتعدي عني،
مهما ابتعدتُ عنك.
وكان تشارلز داروين قد نبه، في رحلته إلى المنطقة، إلى أن الهنود لا ينقرضون بفعل الاصطفاء الطبيعي، وإنما لأن إبادتهم تتجاوب مع سياسة حكومية. وكان دومينغو فاوستينو سارمينتو يرى أن القبائل المتوحشة تشكل خطراً على المجتمع. وكان قائد حملة السفاري الأخيرة، الجنرال خوليو أرخينتينو روكا، يسمي ضحاياه الحيوانات المتوحشة.
مضى الجيش قُدماً في عمليات الصيد باسم الأمن العام. فقد كان الهنود تهديداً وكانت أراضيهم إغواء. وعندما هنأته الجمعية الريفية على إنجاز مهمته، أعلن الجنرال روكا:
- لقد تحررتْ إلى الأبد، من سيطرة الهندي، هذه الأراضي الفسيحة التي تُقدمُ الآن مترعة بوعود مبهرة للمهاجرين ولرأس المال الأجنبي.
ستة ملايين هكتار انتقلت إلى أيدي سبعة وستين مالكاً. وعندما مات روكا في العام ١٩١٤، خلّف لورثته خمسة وستين ألف هكتار من الأراضي المنتزعة من الهنود.
في حياته، لم يعرف جميع الأرجنتينيين تقدير نكران محارب الوطن ذاك للذات، ولكن الموت حسَّن كثيراً من وضعه: فهو يملك الآن أعلى تمثال في البلاد، وخمسة وثلاثين نصباً آخر، وصورته تزيّن أغلى ورقة نقدية، وتحمل اسمه مدينة وعدة جادات ومتنزهات ومدارس.

مارتي

كان الأب وابنه يتمشيان في شوارع هافانا المزهرة، عندما مرا بسيد نحيل، أصلع، يمشي كمن وصل متأخراً.
نبه الأب ابنه:
- حذار من هذا. إنه أبيض من الخارج، ولكنه أسود من الداخل.
الابن هو فرناندو أورتيث، وكان في الرابعة عشرة من عمره.
بعد بعض الوقت، سيصبح فرناندو الرجل الذي استطاع أن يكشف، خلافاً لقرون من الإنكار العنصري، عن الجذور الزنجية للشخصية الكوبية.

أما ذلك السيد الخطر، النحيل، الأصلع، والذي كان يمشي كمن وصل متأخراً. فكان ابن إسبان، والكوبي الأشد كوبانية، وكان يندد:

- لقد كنا أقنعة متنكرة بسراويل إنكليزية، وصدار باريسي، وجاكيت أمريكية شمالية، وقبعة إسبانية.

ومقت زيف سعة العلم المدعوة حضارة، وطالب:

- كفى عبادات رومانية وكتفيات دينية.

وأثبت أن:

- أمجاد العالم كلها تتسع لها حبة ذرة.

بعد قليل من ذلك اللقاء في هافانا، صعد خوسيه مارتي إلى الجبال. وكان يقاتل من أجل كوبا عندما أسقطته، في خضم المعركة، رصاصة إسبانية عن حصانه.

عضلات

كان خوسيه مارتي قد أعلن واستنكر: الأمة الأمريكية الشمالية الفتية ستتحول إلى إمبراطورية شرهة، وسيكون لديها جوع لا يشبع إلى العالم. كانت قد التهمت آنذاك أراضي السكان الأصليين كلها وأكلت نصف المكسيك، ولم تكن قادرة على التوقف.

- لا يمكن لانتصار أي سلام مهما كان عظيماً أن يصل إلى عظمة الانتصار الحربي - هكذا كان يدعو تيد روزفلت الذي تلقى جائزة نوبل للسلام.

السيد تيد كان رئيساً حتى العام ١٩٠٩، حين تخلى عن غزو بلدان وسافر ليقاتل ضد الكركدنات في أفريقيا.

خليفته وليم تافت كان يدعو إلى النظام الطبيعي.

- الكوكب كله سيكون لنا فعلياً، مثلما هو لنا الآن أخلاقياً بفضل تفوقنا العرقي.

مارك توين

عندما غزا الرئيس جورج بوش العراق، أعلن أن حرب تحرير جزر الفيليبين هي النموذج الذي استوحاه. الحربان كلتاهما أوحي بهما من السماء.

الرئيس بوش كشف عن أن الرب قد أمره بأن يفعل ما فعله. وقبل قرن من ذلك، كان الرئيس وليم ماك كينلي أيضاً قد سمع صوت الغيب:

- الرب قال لي إنه لا يمكن لنا ترك الفيليبين في أيدي الفيليبينيين أنفسهم، لأنهم غير مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم، ولا يمكننا عمل شيء سوى أن نتحمل مسؤوليتهم ونعلمهم ونرفهم ونحضرهم، ونُنَصِّرهم.

وهكذا تم تحرير الفيليبين من الخطر الفيليبيني، وفي طريقها أيضاً، أنقذت الولايات المتحدة كوبا، وبورتريكو، وهندوراس، وكولومبيا، وبنما، وجمهورية الدومينيكان، وهاواي، وغوام، وساموا...

في ذلك الحين أكد الكاتب أمبروس بيرس:

- الحرب هي الطريق التي اختارها لنا الرب لنتعلم الجغرافية.

وزميله مارك توين، قائد الرابطة المناهضة للإمبريالية، صمم راية وطنية جديدة، تتألق عليها جماجم بدل النجوم.

الجنرال فريديريك فونستون قال إن هذا السيد يستحق الشنق لخيانته الوطن،
لكن توم سوير وهاك فين دافعا عن أبيهما.

كيبلنغ

وبالمقابل، كانت حروب الغزو تبث الحماسة في روديارد كيبلينغ. فهذا الكاتب المولود في بومباي، إنما المصنوع في لندن، نشر في تلك الأثناء قصيدته الرائجة جداً "عبء الرجل الأبيض".

وفي أبياته الشعرية يحث كيبلنغ الأمم الغازية على البقاء في الأراضي المغزوة إلى أن تنجز مهمتها التمدينية:

تولي عبء الرجل الأبيض قدمي أفضل أبنائك،
أجبريهم على المنفى على خدمة احتياجات سباياك،
تلك الشعوب الهمجية، الحاقدة، إنها نصف شياطين، ونصف أطفال.

ويحذر الشاعر الهندي المولد من أن الخدم جهلة إلى حدّ يجهلون معه ما هم بحاجة إليه،

وجاحدون إلى حدّ لا يُقدّرون معه تضحيات أسيادهم من أجلهم:

تولي عبء الرجل الأبيض مقابل المكافأة القديمة:
لعنة من تلقوا أفضل معاملة، حقد من نالوا أفضل رعاية،
شكوى أفضل من اقتيدوا (آه، يا للأسف!) إلى النور...

سيف الإمبراطورية

في ويند يد ني، وجد الجنرال نيلسون ميلز حلاً للمسألة الهندية بخردقة النساء والأطفال.
وفي شيكاغو، حلّ الجنرال نيلسون ميلز المشكلة العمالية بإرسال قادة إضراب شركة بالمان إلى المقبرة.
وفي سان خوان دي بويرتو ريكو، وجد الجنرال نيلسون ميلز حلاً للمسألة الاستعمارية، بإنزال راية إسبانيا ورفعه في مكانها راية الخطوط والنجوم. وعلق في كل مكان إعلانات تنبه English spoken here، إذا كان هناك من لم ينتبه. وأعلن نفسه حاكماً، وشرح للمغزوين أن الغزاة لم يأتوا للحرب، وإنما على العكس، ليوفروا الحماية، ليس لكم فقط، وإنما لمتلكاتكم أيضاً، وتشجيع ازدهاركم، و...

الرز المتحضر

اعتمد خلاص جزر الفيليبين، منذ البدء، على مساهمة لا تقدر من سيدات الإحسان.
تلك الأرواح الطيبة، زوجات كبار موظفي القوات الغازية وقادتها العسكريين، بدأن بزيارة سجن مانيلا. وهناك لاحظن أن السجناء شديدو الهزال. وعندما دخلن إلى المطبخ ورأين ما يأكله أولئك التعساء، سقطت أرواحهن حتى أقدامهن. فقد كان ما يأكلونه رزاً همجياً، الرز المعهود لدى الشعوب البدائية: حبات متفاوتة الأحجام، كامدة، قاتمة، مع القشور والمشيمة وكل شيء.
توسلن المساعدة من أزواجهن الذين لم يتنكروا لعمل الخير. وحملت أول سفينة، من الولايات المتحدة، شحنة من الرز المتحضر: حبوب متساوية الحجم كلها، مقشورة ومصقولة ولامعة وشديدة البياض كأنها بودرة التالك.
منذ أواخر العام ١٩٠١ بدأ السجناء الفيليبينيون يأكلون منه. في الشهور العشرة الأولى، أصابت جائحة ٤٨٢٥ سجيناً، وأودت بحياة ٢١٦ منهم. عزا الأطباء الأمريكيون الكارثة إلى جرثومة من تلك التي يسببها عدم النظافة في البلدان المتخلفة، ولإزاحة الشكوك أمروا بأن تعود السجون إلى النظام الغذائي السابق.
حين عاد السجناء إلى أكل الرز الهمجي، انتهى الوباء.

تأسيس الديمقراطية

في العام ١٨٨٩ مات ملك البرازيل.

في ذلك الصباح استيقظ الملكيون وقد تحولوا إلى جمهوريين.

بعد سنتين من ذلك صدر الدستور الذي أقر الاقتراع العام. الجميع يمكنهم التصويت، باستثناء الأميين والنساء.

وبما أن جميع البرازيليين تقريباً كانوا أميين أو نساء، فإن أحداً لم يصوت تقريباً.

في تلك الانتخابات الديمقراطية الأولى لم يستجب ثمانية وتسعون من كل مئة برازيلي لنداء صناديق الاقتراع.

مزارع بُنٍّ متنفذ، اسمه برودنتي دي مورايس، اختير رئيساً للأمة. وقد جاء من سان باولو إلى ريو ولم يعلم بمجيئه أحد. لم يذهب أحد لاستقباله، ولم يتعرف عليه أحد.

إنه يتمتع الآن بشيء من الشهرة، فقد صار شارعاً في شاطئ أيبانيما الأنيق.

تأسيس الجامعة

في العهد الاستعماري، كانت الأسر البرازيلية القادرة على هذا الترف، ترسل أبناءها للدراسة في جامعة كويمبرا في البرتغال.

بعد ذلك صارت هناك في البرازيل بعض المدارس لإعداد دكاترة في الحقوق أو الطب: دكاترة قليلون، لأن زبائن تلك المدارس كانوا قليلين في بلاد كثيرون فيها ممن لا يملكون أي حق، ولا علاج آخر سوى الموت.

لم يكن للجامعة وجود.

ولكن ملك بلجيكا ليوبولد الثالث أعلن في العام ١٩٢٢ أنه سيزور تلك البلاد، ومثل ذلك الحضور الجليل يستحق لقب دكتور شرف الذي لا يمكن أن تمنحه إياه إلا الصناعة الجامعية.

لهذا ولدت الجامعة. لقد اختُرعت على عجل، في الدار التي كان يشغلها المعهد الإمبراطوري للمكفوفين. وللأسف، لم يكن هنالك مفر من طرد المكفوفين.

وهكذا تمكنت البرازيل التي تدين للزنوج بأفضل موسيقاها، وأفضل كرة قدمها، ومأكولاتها وبهجتها، تمكنت من منح درجة دكتوراه لملك ميزته الوحيدة أنه وريث أسرة متخصصة في إبادة زنوج الكونغو.

تأسيس الحزن

مدينة مونتيفيديو لم تكن رمادية. لقد رُمِّدَت.

هناك في العام ١٨٩٠، أحد الرحالة الذين زاروا عاصمة لأورغواي استطاع تقديم تكريمه إلى المدينة التي تنتصر فيها الألوان الحيوية. إذ كانت لا تزال للبيوت وجوه حمراء وصفراء وزرقاء...

بعد قليل من ذلك، أوضح المتفقهون أن هذه العادة الهمجية لا تليق بشعب أوروبي. فمن أجل أن تكون أوروبياً، مهما كان ما تقوله الخريطة، يجب أن تكون متحضراً. ولكي تكون متحضراً، يجب أن تكون جدّياً. ولكي تكون جدّياً، يجب أن تكون حزيناً.

وفي عامي ١٩١١ و ١٩١٣ فرضت الأوامر البلدية وجوب أن يكون رمادياً بلاط الشوارع، ووضعت قواعد إجبارية لواجهات البيوت، حيث لا يُسمح إلا بالأصبغة التي تحاكي مواد البناء، مثل لون الرمل، الطوب، والأحجار عموماً.

وكان الرسام بيدرو فيغاري يسخر من هذه البلاد الكولونيالية:

- الموضة تطالب بأن تُطلى حتى الأبواب والنوافذ وستائر النوافذ الخارجية باللون الرمادي. فمدننا جميعها تريد أن تكون باريسات... مونتيفيديو المدينة المشعة، يلطخونها، يسيئون إليها، يخصونها...

وأُخضعت مونتيفيديو لعملية الاستنساخ.

مع أن أروغواي كانت في تلك السنوات مركز الجرأة الأمريكية اللاتينية، وكانت تثبت بالأفعال نشاطها الخلاق. فالبلاد عرفت التعليم المجاني والعلماني قبل إنكلترا، وحق التصويت النسائي قبل فرنسا، ويوم العمل من ثماني ساعات قبل الولايات المتحدة، وقانون الطلاق قبل سبعين عاماً من إقراره في إسبانيا. والرئيس خوسيه باتل، دون بيبي، أمم الخدمات العامة، وفصل الكنيسة عن الدولة واستبدّل تسميات التقويم الديني. فالأسبوع المقدس مازال يسمى في أروغواي أسبوع السياحة، كما لو أن يسوع قد تعرض لسوء طالع جعله يُعذَّب ويُقتل في مثل هذا الأسبوع.

خارج المكان

أحد مشاهد يوم الأحد التقليدية تلك اللوحة التي تمنح إدوارد مانيه الشهرة: رجلان وامرأتان في نزهة على العشب خارج باريس.

لا شيء غريب، باستثناء تفصيل صغير. الرجلان يرتديان ثياب سادة لا تشوبها شائبة. والمرأتان عاريتان تماماً. الرجلان يتبادلان الحديث حول موضوع جدّي، في شأن من شؤون الرجال. والمرأتان تبديان اهتماماً أقل من اهتمام أشجار المنظر الطبيعي.

المرأة التي تظهر في البعد الأول تنظر إلينا. ربما تسألنا، من غربتها، أين أنا، وما الذي أفعله هنا.

إنهما فائضتان عن الحاجة. وليس في اللوحة فحسب.

شريرات

أرسطو كان يعرف ما يقوله:

- الأنثى أشبه بذكرٍ مشوه. ينقصها عنصر أساسي: الروح.

الفنون التشكيلية كانت مملكة محظورة على الكائنات التي بلا روح.

ففي القرن السادس عشر، كان في بولونيا خمسمئة وخمسة وعشرون رساماً ورسامة واحدة.

وفي القرن السابع عشر، كان في أكاديمية باريس أربعمئة وخمسة وثلاثون رساماً وخمس عشرة رسامة، جميعهن زوجات أو بنات الرسامين.

وفي القرن التاسع عشر كانت سوزان فالدون بائعة خضار، ولاعبة أكروبات في السيرك، وموديلاً للرسام تولوز لوتريك. وكانت تضع صدارات مصنوعة من الجزر، ووتتقاسم مرسمها مع عنزة. ولم يفاجأ أحد في كونها الفنانة الأولى التي تجرأت على رسم رجال عراة. لا بد أنها مجنونة.

لقد كان إراسمو دي روتردام يعرف ما يقوله:

- المرأة هي المرأة دائماً، أي أنها: مجنونة.

انبعاث كاميل

العائلة أعلنت أنها مجنونة وأدخلتها مستشفى للمجانين.

أمضت كاميل كلودل سجينة هناك آخر ثلاثين سنة من حياتها.

كان ذلك لخيرها، قالوا.

في مستشفى المجانين، وهو سجن جليدي، رفضت أن ترسم أو أن تنحت.

أمها وأختها لم تزوراها قط.

سمحت لنفسها مرة أو مرتين برؤية أخيها بول، الفاضل.

عندما ماتت كاميل، الخاطئة، لم يطالب أحد بجثمانها.

تأخر العالم في اكتشاف أن كاميل لم تكن فقط العشيقة الذليلة لأغوست رودان.

فبعد نصف قرن تقريباً من موتها، انبعثت أعمالها وارتحلت متجولة وأذهلت: برونز يرقص، رخام يبكي، حجر يحب. في طوكيو، طلب المكفوفون أن يُسمح لهم بلمس المنحوتات. استطاعوا لمسها. وقالوا إن المنحوتات تتنفس.

فان جوخ

أربعة أعمام وأخ كانوا متخصصين في تجارة الأعمال الفنية، أما هو فتمكن من بيع لوحة وحيدة، لوحة واحدة فقط، طيلة حياته كلها. بدافع الإعجاب أو الشفقة، دفعت له أخت صديق أربعمئة فرنك مقابل لوحة زيتية، لوحة حقل الكرمة الأحمر التي رسمها في آرل.

بعد أكثر من قرن صارت لوحاته خبراً على صفحات المال في جرائد لم يقرأها قط.

إنها أعلى أعمال الرسم سعراً في صالات الفنون التي لم يدخلها قط.

والأكثر إقبالاً لمشاهدتها في متاحف جهلت وجوده.

والأكثر تقديراً في الأكاديميات التي نصحته بالتحول إلى عمل آخر.

فان غوخ يزين الآن مطاعم يمكن أن تنكر عليه الطعام.

وعيادات أطباء يحبسونه في مستشفى مجانين.

ومكاتب محامين يسعون لزجه في السجن.

هذه الصرخة

سمع ادفارد مونتش أن السماء تصرخ.

كان الغسق قد انقضى ولكن الشمس لا تزال ثابتة، بألسنة نار تتعالى من الأفق عندما صرخت السماء.

رسم مونتش تلك الصرخة.

ومن يرى لوحته الآن يغطي أذنيه.

فالقرن الجديد وُلد صارخاً.

أنبياء القرن العشرين

كارل ماركس وفريدريك انجلز كتبا "البيان الشيوعي" في منتصف القرن التاسع عشر. لم يكتباه ليفسرا العالم، وإنما للمساعدة على تغييره. بعد قرن من ذلك، كان ثلث البشرية يعيش في مجتمعات تستلهم ذلك المنشور الذي لا يزيد على ثلاث وعشرين صفحة.

كان "البيان" نبوءة صائبة. فالرأسمالية هي ساحر غير قادر على كبح القوى التي يُطلق لها العنان، هذا ما قاله الكاتبان، ويمكن لأي شخص له عينان في وجهه أن يتبين ذلك في أيامنا هذه بالعين المجردة.

ولكن لم يخطر ببال الكاتبين أنه يمكن أن تكون للساحر أرواح أكثر من أرواح الهرّ.

ولا أنه يمكن لكبار الصناعيين أن يفرقوا اليد العاملة ليقلصوا تكاليف الإنتاج وتهديدها بالتمرد.

ولا أنه يمكن للثورات الاشتراكية أن تحدث في البلدان التي كانت تسمى همجية، أكثر مما في البلدان المسماة متحضرة.

ولا أن وحدة عمال العالم يمكن لها أن تكون أقل تواتراً من انقسامهم.

ولا أن تكون دكتاتورية البروليتاريا هي الاسم الفني لدكتاتورية البيروقراطية.

وهكذا، وبالرغم من النعم واللا، أكد البيان الصواب الأكثر عمقاً لمؤلفيه: الواقع أشد قوة وإدهاشاً من مفسريه. رمادية هي النظرية، وخضراء شجرة الحياة، هذا ما قاله غوته على لسان الشيطان. وماركس كان يحذر من أنه ليس ماركسياً، مستبقاً بذلك من سيحولون الماركسية إلى علم منزه أو ديانة لا تقبل الجدل.

تأسيس الإعلان

الطبيب الروسي إيفان بافلوف اكتشف الانعكاسات الشرطية.

وقد أطلق تسمية التعلم على عملية المحرضات والاستجابات:

يُقرع الجرس، يتلقى الكلب طعاماً، ويفرز الكلب لعاباً.

بعد ساعات، يُقرع الجرس، ويتلقى الكلب طعاماً، ويفرز الكلب لعاباً.

في اليوم التالي، يُقرع الجرس، يتلقى الكلب طعاماً، ويفرز الكلب لعاباً.

وتتكرر العملية، ساعات بعد ساعات، ويوماً بعد يوم، إلى أن يُقرع الجرس، ولا يتلقى الكلب طعاماً، ولكنه يفرز لعاباً.

بعد ساعات، وبعد أيام، يواصل الكلب إفراز اللعاب، حين يُقرع الجرس، أمام الطبق الفارغ.

أشربة شافية

أشربة الحبوب البوستم تقودك عبر طريق السعادة نحو مدينة الرفاه ونور الشمس. لوريقاتها الطافية خصائص دينية، فلسبب ما تُسمى مَنّ إلياس (النبي)، وجوزها يُشفي الزائدة الدودية والسل والملاريا وتساقط الأسنان.

في العام ١٨٨٣ أنفق البروفيسور هولواي خمسين ألف جنيه للترويج لمنتج مركّب أساساً من الصابون والصبر، وكان دواء مؤكداً ضد خمسين مرضاً ترد مرتبة في النشرة الدعائية.

مسحوق الدكتور غريغوري المعوي يجدد معدتك تماماً بفضل تركيبته العجيبة من الرند التركي، والمنغيسيا المحروق وزنجبيل جامايكا. ومرهم الدكتور فيرون، المعترف به من أعضاء في الأكاديمية الطبية، يقضي على الرشح والربو والحصبة.

وزيت الأفاعي الذي كان يروجه الدكتور ستانلي، لم تكن له أية علاقة بالأفاعي، وكان مزيجاً من الكيروسين والكافور والتربنتين، يقتل الروماتيزم. ويقتل مرضى الروماتيزم أيضاً في بعض الأحيان، ولكن هذه المعلومة غير مذكورة في الإعلان.

والإعلان الدعائي لا يذكر شيئاً عن المورفين الذي يتضمنه شراب السيدة وينسلو المهدئ للأعصاب، لأن من يقوم بتحضيره هي أسرة ذات عادات هادئة. والإعلانات لا تقول كذلك ما هي الكوكا المعنية في اسم الكوكاكولا، الشراب المثالي للدماغ الذي كان يبيعه الدكتور بيمبرتون.

تسويق

في نهاية عقد العشرينيات نشرت الدعاية هذا الخبر الجديد الرائع مرفقاً بقرع طبول: أنت قادر على الطيران! فالبنزين الممزوج بالرصاص يمنح سرعة أكبر، ومن يسرع أكثر يحقق الفوز في الحياة. وكانت الإعلانات تعرض طفلاً يشعر بالخجل، في سيارة تمضي ببطء سلحفاة: آه يا بابا، الجميع يسبقونك.

البنزين المضاف إليه رصاص جرى اختراعه في الولايات المتحدة، ومن الولايات المتحدة فرضه القصف الدعائي على العالم بأسره. في العام ١٩٨٦، عندما قررت حكومة تلك البلاد حظره أخيراً، كانت أعداد ضحايا التسمم في الكوكب كله تفوق الحصر. ولكن كان يُعرف أن البنزين الممزوج بالرصاص يقتل البالغين الأمريكيين بمعدل خمسة آلاف في السنة، وأنه تسبب خلال ستين عاماً من استخدامه بأضرار في الجهاز العصبي وفي المستوى الذهني لملايين ملايين الأطفال.

أول منفذي الجريمة كانا مديرين تنفيذيين في جنرال موتورز، هما تشارلز كيترنغ وألفرد سلوين. وقد دخلا التاريخ باعتبارهما محسنين إلى الإنسانية، لأنهما أقاما مستشفى ضخمة.

ماري

كانت أول امرأة تحصل على جائزة نوبل، وقد حصلت عليها مرتين.

وكانت أول امرأة تشغل أستاذية كرسي في السوربون، والوحيدة لسنوات طويلة.

وفي ما بعد، عندما لم يعد بإمكانها الاحتفال بذلك، كانت أول امرأة تقبل عضويتها في البانتيون، الضريح العجيب المخصص حصراً لرجال فرنسا، بالرغم من أنها ليست رجلاً، وولدت وترعرعت في بولونيا.

في أواخر القرن التاسع عشر، اكتشفت ماري سكلودوفسكا وزوجها بيير كوري عنصراً يطلق إشعاعات أكبر بأربعمئة مرة من اليورانيوم. أسمياه بولونيو، تكريماً لبلاد ماري. بعد قليل من ذلك، اخترعا كلمة radioactivité نشاط إشعاعي وبدأا تجاربهما على الراديوم، وهو أشد قوة من اليورانيوم. وتلقيا معاً جائزة نوبل.

لقد كانت لدى بيير شكوكه منذ ذلك الحين: أتراهما نقلا تقدمة من النعيم أم الجحيم؟ ففي محاضرته في ستوكهولم، حذر من أن حالة ألفرد نوبل نفسه، مخترع الديناميت، كانت نموذجية:

- المتفجرات القوية أتاحت للإنسانية إنجاز أعمال عظيمة. ولكنها في الوقت نفسه وسيلة تدمير مرعبة في أيدي كبار المجرمين الذين يجرجرون الشعوب إلى الحرب.
بعد قليل من ذلك مات بيير حين صدمته عربة محملة بأربعة أطنان من المواد العسكرية.
ظلت ماري على قيد الحياة، ودفع جسدها ثمن نجاحاتهما. الإشعاعات سببت لها حروقاً وقروحاً وآلاماً شديدة، إلى أن ماتت أخيراً بفقر دم خبيث.
وابنتهما إيرين التي حصلت أيضاً على جائزة نوبل لإنجازاتها في ميدان النشاط الإشعاعي، قتلها سرطان الدم.

أبو المصابيح

كان يبيع الصحف في القطارات. وفي الثامنة من عمره دخل المدرسة. استمر ثلاثة أشهر فقط. المعلم أعاده إلى البيت: هذا الطفل أجوف، فسر الأمر.
وعندما كبر توماس ألفا إديسون، نال براءة ألف ومئة اختراع: المصباح المتوهج، القاطرة الكهربائية، جهاز عرض الصور السينمائية...
في العام ١٨٨٠ أسس شركة جنرال إلكتريك واخترع أول محطة للطاقة الكهربائية.
بعد ثلاثين سنة من ذلك، تبادل مضيء الحياة الحديثة هذا حديثاً مع الصحافي ألبرت هوبارد. وقال:
- ذات يوم سيتمكن أحدهم من اختراع طريقة لتركيز ضوء الشمس وتخزينه، بدلاً من وسيلة النار البروميثيوسية القديمة والسخيفة.
وقال أيضاً:
- ضوء الشمس هو شكل من أشكال الطاقة، والرياح والأمواج هي مظاهر طاقة. أترانا نستخدمها؟ آه، لا! إننا نحرق خشباً وفحماً، وكأننا مستأجرو بيت يلقون إلى النار السياج الخشبي الذي أمام البيت.

تسلا

نيكولاي تسلا كان يقول طوال الوقت إنه هو من اخترع المذياع، ولكن كوغليلمو ميركوني هو الذي نال جائزة نوبل. وفي العام ١٩٤٣، بعد دعوى قضائية استمرت لسنوات طويلة اعترفت المحكمة العليا في الولايات المتحدة بأن براءة اختراع تسلا هي السابقة، ولكنه لم يعرف ذلك. لأنه كان يرقد منذ خمسة شهور في قبره.

تسلا كان يقول على الدوام إنه من اخترع مولد التيار المتناوب الذي يضيء اليوم مدن العالم، ولكن الاختراع دُشّن في تفحيم محكومين بالإعدام على الكرسي الكهربائي، فمنحه ذلك سوء السمعة.

وتسلا كان يقول طوال الوقت إنه قادر على إشعال مصباح دون أسلاك وعن بُعد أربعين كيلومتراً، ولكنه حين تمكن من تحقيق ذلك تسبب في انفجار محطة توليد الكهرباء في كولورادو سبرينغ وطارده أهالي المنطقة بالعصي.

تسلا قال طوال الوقت إنه اخترع رجالاً صغاراً من الفولاذ يُوجَهون بجهاز توجيه عن بعد، وأشعة قادرة على تصوير الجسم من الداخل، ولكن قلة من أخذوا على محمل الجد كلام ساحر السيرك ذاك الذي كان يتحدث إلى صديقه المتوفى مارك توين ويتلقى رسائل من المريخ.

تسلا توفي في فندق في نيويورك، بجيوب فارغة مثلما كانت قبل سبعين سنة. والآن تسمى تسلا، تخليداً لذكراه، وحدة قياس الدفق المغناطيسي والوشيعة التي توّلد أكثر من مليون فولت.

تأسيس القصف الجوي

في ١٩١١ ألقت طائرات إيطالية رمانات يدوية على بعض قرى الصحراء الليبية.

هذه التجربة أثبتت أن الهجمات من الجو تكون أشد تدميراً، وأسرع، وأرخص كلفة من الهجمات البرية. وقد أُبلغت قيادة القوات الجوية:

– لقد كان للقصف نتائج رائعة في كسر الروح المعنوية للعدو.

وكانت التجارب التالية، أيضاً، مجازر أوروبية ضد مدنيين عرب. ففي العام ١٩١٢، هاجمت الطائرات الفرنسية المغرب، واختارت أماكن مكتظة بالسكان، من أجل عدم الخطأ في إصابة الهدف. وفي العام التالي، دشن الطيران الإسباني، في المغرب أيضاً، السلاح الجديد الآتي للتو من ألمانيا: قنابل انشطارية باهرة النجاح تنثر شظايا فولاذية قاتلة في كل الأنحاء.

وبعد ذلك...

أعمار سانتوس دومونت

في الثانية والثلاثين من عمره، تلقى الطيار البرازيلي ألبيرتو سانتوس دومونت الذي ظل حياً بطريقة لا يمكن تفسيرها بعد عمليات تحليق كثيرة، تلقى وسام فارس جوقة الشرف في فرنسا. وكرسته الصحافة على أنه الرجل الأكثر أناقة في باريس.

في الثالثة والثلاثين من عمره، صار أبا الطائرة الحديثة. لقد اخترع هيكلاً طائراً بمحرك ينطلق دون الاستعانة بأداة قذف، ويرتفع ويطير على ارتفاع ستة أمتار عن الأرض. وعندما حطّ، أعلن:

- لدي ثقة كبرى بمستقبل الطائرة.

في التاسعة والأربعين من عمره، بعد قليل من الحرب العالمية الأولى، حذر عصبة الأمم:

- مآثر الآلات الجوية تتيح لنا أن نستشف، برعب، القدرة التدميرية الهائلة التي يمكن أن تبلغها كآلات لزرع الموت، ليس بين القوات المقاتلة وحسب، وإنما كذلك - لسوء الحظ - بين الناس العزل.

وفي الثالثة والخمسين:

- لا أدري لماذا لا يمكن حظر الطائرات التي تلقي متفجرات، في الوقت الذي يحظر فيه إلقاء سموم في الماء.

وفي التاسعة والخمسين، تساءل:

- لماذا اخترعتُ هذا الذي بدل أن يساعد في الحب يتحول إلى سلاح حرب ملعون؟

وشنق نفسه. ولأنه ضئيل جداً، بلا وزن تقريباً، وبلا حجم تقريباً، كانت ربطة العنق وحدها كافية.

صور: واحد من كثيرين

ميونخ، أودينبلاتز، آب ١٩١٤.

الراية الإمبراطورية ترفرف عالياً. وتحتها يجتمع حشد يشعر بالنشوة الجرمانية.

لقد أعلنت ألمانيا الحرب. الحرب، الحرب، يصرخ الناس، وقد أصابتهم السعادة بالجنون، ويتلهفون للوصول بأسرع ما يمكن إلى ميادين المعركة.

في الزاوية السفلى من الصورة، ضائعاً بين الحشد، يظهر رجل في حالة مناجاة ربانية، عيناه إلى السماء، وفمه مفتوح. من يعرفونه يمكنهم أن يخبرونا بأن اسمه أدولف، وأنه نمساوي،

قبيح، يتكلم بصوت صارخ، وهو على الدوام على حافة انفجار عصبي، ينام لياليه في عليّة ويبيع بمشقة في البارات، متنقلاً من منضدة إلى منضدة، الرسوم المائية التي يرسمها مستنسخاً مناظر من لوحات التقاويم.

المصور هينريش هوفمان لا يعرفه. ليست لديه أدنى فكرة عن أنه في بحر الرؤوس، سجلت آلة تصويره حضور المسيح الدجال، فادي عرق أبناء الضباب والفالكيرات، سيغفريد الذي سينتقم لهزيمة ألمانيا العظمى ومهانتها، ومن سيغني لمسيرة من مستشفى المجانين إلى المسلخ.

كافكا

عندما كانت طبول المجزرة العالمية الأولى تدوي قريباً منه. كتب فرانز كافكا "التحول". وبعد قليل، مع بدايات الحرب، ولدت "المحاكمة".

إنهما كابوسان جماعيان:

رجل يستيقظ وقد تحول إلى صرصار هائل، ولا يتمكن من فهم السبب، إلى أن يكنسوه أخيراً بمكنسة.

ورجل آخر يُعتقل، يُحاكم ويُدان، ولا يتوصل إلى فهم السبب، إلى أن يطعنه في نهاية الأمر السجانون.

لقد كانت هذه القصص، هذه الأعمال، تتواصل كل يوم، بطريقة ما، على صفحات الجرائد التي تقدم أخباراً عن حسن سير آلة الحرب.

المؤلف، وهو شبح بعينين محمومتين، ظلٌّ بلا جسد، كان يكتب على حدّ الكآبة الأخير.

كتب أشياء قليلة، ولم يقرأه أحد تقريباً.

غادر بصمت، مثلما عاش. وفي احتضاره المؤلم، تكلم فقط ليطلب من الطبيب:

- إذا لم تكن قاتلاً، اقتلني.

نيجينسكي

في سويسرا، في العام ١٩١٩، في إحدى قاعات فندق سان مورتز، رقص فاكلاف نيجينسكي آخر مرة.

أمام جمهور من المليونيريين، أعلن أشهر راقص في العالم إنه سيرقص الحرب. وعلى ضوء الشمعدانات رقصها.

كان نيجينسكي يدور في دوامات غاضبة وينفصل عن الأرض ويتكسر في الهواء ويسقط على الأرض مصعوقاً، ويتقلب كما لو أنه في الوحل على الأرضية الرخامية، ويأخذ في الدوران من جديد ويتكسر حين يرتفع عن الأرض، مرة بعد أخرى، إلى أن ارتطمت أخيراً هذه البقية منه، هذه الولولة الصامتة، بالنافذة وضاع في الثلج.

دخل نيجينسكي في عالم الجنون، أرض منفاه. ولم يعد قطّ.

تأسيس الجاز

كان العام ١٩٠٦ يتقدم. الناس يذهبون ويأتون، كما في كل يوم، على امتداد الشارع الضائع في أحد أحياء نيوأورلينز الفقيرة. وكان طفل في الخامسة من عمره يطل من النافذة، يتأمل ذلك الضجر، بعينين وأذنين مفتوحة على اتساعها، كما لو أنه ينتظر شيئاً على وشك الحدوث.

وحدث. انفجرت الموسيقى عند الناصية، واحتلت الشارع بكامله. رجل ينفخ بوقاً مرفوعاً نحو السماء، وفي ما حوله تضرب الجموع أكفها وتغني وترقص. ولويس أرمسترونغ، طفل النافذة، يتدلى كثيراً حتى يوشك على السقوط من هناك في الأعلى.

بعد أيام من ذلك، انتهى المطاف برجل البوق إلى مستشفى المجانين. حبسوه في القسم المخصص للزنوج.

وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي ظهر فيها اسمه، بادي بولدين، في الصحف. ومات بعد ربع قرن من ذلك، في مستشفى المجانين نفسه، ولم تعلم الصحف بالأمر. ولكن موسيقاه التي لم تُكتب ولم تسجل قط، ظلت تتردد في أعماق من استمتعوا بها في الحفلات أو في المآتم.

وحسب ما يقوله العارفون، كان ذلك الشبح هو مؤسس موسيقى الجاز.

انبعاث دجانجو

ولد في قافلة غجر. أمضى سنوات حياته الأولى على دروب بلجيكا، يرافق رقصات دبّ ومعزاة بالعزف على طُمبرة.

كان في الثامنة عشرة عندما احترقت عربته. وخرج أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. فقد ساقاً. فقد يداً. وداعاً للدروب، وداعاً للموسيقى، قال له الأطباء. ولكنه استعاد الساق حين كانوا على وشك أن يبتروها، ومن اليد المفقودة تمكن من إنقاذ إصبعين. وبهذا توصل إلى التحول إلى أحد أفضل عازفي الجيتار في تاريخ الجاز كله.

كان هناك اتفاق سري بن دجانجو رينهاردت وجيتاره. من أجل أن يعزف عليه هو نفسه، يقدم له الجيتار الأصابع الناقصة.

تأسيس التانغو

ولدت في منطقة ريو دي لابلاتا. في مرابع الضواحي. كان الرجال يرقصون على وقعها فيما بينهم، لتمضية وقت الانتظار بينما النساء يقدمن خدماتهن لزبائن آخرين في الفراش. كانت إيقاعاتها البطيئة، المتلعثمة، تضيع في الأزقة التي تسودها السكاكين والحزن.

التانغو يحمل علامة منشئه على جبهته: أحياء القاع، الحياة الخبيثة. ولهذا كان محظوراً عليه الخروج.

ولكن هذه الموسيقى المشينة شقت طريقها. ففي العام ١٩١٧، اندفعت التانغو، بيد كارلوس غارديل، إلى مركز بوينس آيرس وصعدت إلى منصة مسرح إزميرالدا وقُدمت باسمها. غنى غارديل "ليلتي الحزينة" وصُفق له. وانتهى نفي التانغو. ومنحتها الطبقة الوسطى الهادئة، مستحمة بالدموع، ترحيبها الحار وسلمتها شهادة حسن سلوك.

كانت تلك هي أول أغنية تانغو سجلها غارديل على أسطوانة. ومازالت تصدح، وفي كل يوم تصدح أفضل من اليوم السابق. إنهم يطلقون على غارديل لقب الساحر، وهم لا يبالغون مقدار ذرة واحدة في ذلك.

تأسيس السامبا

ومثل التانغو، لم تكن السامبا موسيقى محتشمة: إنها موسيقى رخيصة، موسيقى زنوج.
في العام ١٩١٧، العام نفسه الذي فتح فيه غارديل البوابة الكبيرة كي تدخل منها موسيقى التانغو وقع أول انفجار سامبا في كرنفال ريو دي جانيرو. في تلك الليلة التي استمرت أعواماً، غنى حتى البكم، ورقصت حتى أعمدة النور على النواصي.
بعد وقت غير طويل سافرت السامبا إلى باريس. وأصاب باريس مس من الجنون. إنها لا تُقاوم هذه الموسيقى التي تتواجد فيها كل موسيقى أمة موسيقية بإعجاز، ولكن الحكومة البرازيلية التي لم تكن تقبل آنذاك بوجود زنوج في منتخب كرة القدم الوطني، لم تستحسن تلك البادرة الفرنسية. فالموسيقيون الزنوج هم الأوسع شهرة، وهناك خطر أن تظن أوروبا أن البرازيل في أفريقيا.
الأكثر موسيقية بين أولئك الموسيقيين، بيكسينغينها، معلم الفلوت والساكسيفو، ابتدع أسلوباً لا يمكن الخطأ فيه. لم يسمع الفرنسيون شيئاً مثل ذلك قطّ. ما فعله كان أكثر من عزف، كان يلعب. وبينما هو يلعب، يدعو الآخرين إلى اللعب.

تأسيس هوليود

على صهوات جيادهم يمضي المقنَّعون ذوو العباءات البيضاء والصلبان البيضاء رافعين المشاعل عالياً. والزنوج الذين بهم جوع إلى آنسات بيضاوات يرتجفون أمام أولئك الفرسان المنتقمين لفضيلة السيدات وشرف الفرسان. عمليات اللنشنغ في أوجها، إنه فيلم د. و. غريفث، "ميلاد أمة" يرفع نشيد مديحه للكوكلاكس كلان.
هذا هو أول إنتاج هوليودي ضخم وأعظم نجاح لشباك التذاكر في تاريخ السينما الصامتة. وهو كذلك أول فيلم أقيم عرض افتتاحه في البيت الأبيض. والرئيس ودرو ويلسون صفق له واقفاً. صفق له، يصفق، حامل راية الحرية ذاك الذي هو مؤلف النصوص الأساسية التي ترافق صور الفيلم الملحمية.
كلمات الرئيس توضح أن تحرير العبيد كان هزيمة حقيقة لحضارة الجنوب، الجنوب الأبيض تحت عقب الجنوب الأسود. منذ ذلك الحين سادت الفوضى، لأن الزنوج بشر يجهلون استخدام السلطة، باستثناء تطاولهم ووقاحتهم.
ولكن الرئيس يضيء نور الأمل: أخيراً ولدت إلى الحياة منظمة كوكلاكس كلان العظيمة. حتى إن يسوع نفسه ينزل شخصياً من السماء، في نهاية الفيلم، ليقدم مباركته.

تأسيس الفن الحديث

منذ الأزل ينحت النحاتون الأفارقة أعمالهم وهم يغنون. ولا يتوقفون عن الغناء إلى أن ينتهي عملهم، كي تتغلغل الموسيقى في المنحوتات وتظل تصدح بها.

في ١٩١٠ أصيب ليو فروبِنيوس بالحوَل أمام منحوتات قديمة وجدها في "ساحل العبيد". كان جمالها سامياً إلى حدّ ظن معه المكتشف الألماني أنها أعمال إغريقية، جيء بها من أثينا، أو أنها من إبداعات قارة أتلانتس المفقودة. واتفق زملاؤه مع هذا الرأي. فأفريقيا، ابنة الازدراء، وأم العبيد، لا يمكن لها أن تكون صانعة تلك الأعاجيب.

ولكن بلى. تلك المنحوتات الممتلئة بالموسيقى جرى إبداعها، قبل نحو أربعة قرون، في سُرّة العالم، في "يوفي"، المكان المقدس حيث قدم آلهة اليوربا ولادة النساء والرجال.

وفي أفريقيا تواصل توالد ينبوع لا ينضب من الفن الجديد بالحفاوة. والجدير بأن يُسرق.

يبدو أن بول غوغان، الرجل الساهي جداً، قد وضع توقيعه على اثنتين من منحوتات الكونغو. وقد كان الخطأ مثيراً للعدوى. فمنذ ذلك الحين، حدث أن بيكاسو، وموديغلياني، وكلي، وجياكوميتي، وإرنست، ومور وفنانين أوروبيين كثيرين قد أخطؤوا أيضاً، وبكثرة.

وأفريقيا المنهوبة بالحق الاستعماري، لم تدرِ بالكثير الذي تدين لها به ألمع انجازات الرسم والنحت في أوروبا القرن العشرين.

تأسيس الرواية الحديثة

قبل ألف سنة كتبت امرأتان يابانيتان ما يبدو أنه قد كُتب الآن.

وحسب رأي خورخي لويس بورخيس ومرغريت يورسنر، لم يكتب أحد قط رواية أفضل من "قصة جينجي"، لموراساكي شيكيبي، إعادة إبداع باهرة لمغامرات ذكورية وإذلالات أنثوية.

يابانية أخرى، اسمها ساي شوناغون، تتقاسم مع موراساكي الشرف النادر بأن تُمتدح بعد ألف عام. فمؤلفها "كتاب الوسادة" كان البشارة بولادة الجنس الأدبي المسمى زويهيتسو، ويعني حرفياً سيالة الريشة. إنه فسيفساء متعدد الألوان، مؤلف من قصص مقتضبة، وملاحظات، وتأملات، وأخبار، وقصائد: هذه المقاطع التي تبدو مشتتة ولكنها متنوعة، تدعونا إلى التوغل في ذلك المكان وذلك الزمان.

الجندي المجهول

فقدت فرنسا مليوناً ونصف مليون رجل في الحرب العالمية الأولى.
أربعمئة ألف منهم، أي الثلث تقريباً، كانوا قتلى بلا أسماء.
وتكريماً لأولئك الشهداء المجهولين، قررت الحكومة حفر قبر للجندي المجهول.
وجرى لا على التعيين اختيار أحد شهداء معركة فردان.
وعند رؤية الجثة، لاحظ أحدهم أنها لجندي زنجي، من أحد فيالق مستعمرة السنغال الفرنسية.
تم تصحيح الخطأ في الوقت المناسب.
فميت مجهول آخر، إنما أبيض البشرة، دُفن تحت قوس النصر في الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٢٠. وملفوفاً بالعلم الوطني، تلقى الخطابات والتشريفات العسكرية.

ممنوع أن تكون فقيراً

المجرم يولد ولا يُصنع، هذا ما كان يقوله الطبيب الإيطالي سيزر لومبروسو، وكان يفاخر بقدرته على التعرف على المجرم من ملامحه الجسدية، وبمجرد النظر إليه.
ومن أجل التأكد من أن homo criminalis (الإنسان المجرم) يولد مكرساً للشر، قام الطبيب البرازيلي سيباستياو لياو بدراسة سجناء سجن بورتو أليغري. ولكن أبحاثه كشفت:
أن السجناء الزنوج، أفراد عرق يعتبر أدنى، هم مثل الآخرين أو أكثر منهم ذكاء.
وأن السجناء الخلاسيين، أفراد عرق يعتبر ضعيفاً ومنحطاً، يصلون راضين جداً إلى الشيخوخة.
وأنه تكفي قراءة الأشعار المكتوبة على الجدران لمعرفة أنه ليس جميع الجانحين هم أناس أجلاف.
وأن العلامات الجسدية الفارقة التي ينسبها لومبروسو إلى أصدقاء السكين، من ذقن بارزة، وأذنين مجنحتين، وأنياب بارزة، أقل وجوداً في السجن مما هي عليه في الشارع.
وأن عدم وجود اللحية لا يمكن أن يكون ملمحاً مميزاً لأعداء الأمن العام، مثلما يؤكد لومبروسو، لأنه بين سجناء بورتو أليغري الكثيرين لم يكن هناك أكثر من عشرة غير ملتحين.
وأن الجو الحار لا يساعد على الجريمة، لأن مؤشرات الإجرام لا تزداد في الصيف.

اللامرئيون

في العام ١٨٦٩ جعلت قناة السويس الإبحار بين بحرين أمراً ممكناً.

نعرف أن فرديناند ديلسبس كان صاحب المشروع، وأن الباشا سعيد وورثته باعوا القناة إلى الفرنسيين والإنكليز مقابل القليل أو مقابل لا شيء، وأن جوسيبي فيردي وضع موسيقى أوبرا عايدة كي تُغنى في حفل الافتتاح، وأنه بعد تسعين عاماً من ذلك، وبعد صراع طويل ومؤلم، تمكن الرئيس جمال عبد الناصر من جعل القناة مصرية... من يتذكر مئة وعشرين ألف سجين وفلاح حُكم عليهم بأعمال السخرة في شق القناة، وسقطوا اغتيالاً بالجوع والإنهاك والكوليرا؟

في العام ١٩١٤، أحدثت قناة بنما شقاً بين محيطين.

نحن نعرف أن فرديناند ديلسبس هو صاحب المشروع، وأن الشركة المقاولة قد أفلست، في واحدة من أكبر الفضائح المدوية في تاريخ فرنسا، وأن رئيس الولايات المتحدة، تيد روزفلت استولى على القناة وعلى بنما وكل ما وجده في طريقه، وأنه بعد ستين عاماً من ذلك، وبعد صراع طويل ومؤلم، تمكن الرئيس عمر توريخوس من جعل القناة بنمية. من يتذكر العمال الأنتيليين والهنود والصينيين الذين سقطوا وهم يشقونها؟ في كل كيلومتر مات ستمئة منهم، اغتالهم الجوع والإنهاك والحمى الصفراء والملاريا.

ممنوع أن تكون فلاحاً

بينما كان بانتشو بييّا، سارق المواشي المبتهج، يحرق شمالي المكسيك، كان إيميليانو ثاباتا، البغّال الكئيب، يقود ثورة الجنوب.

الفلاحون في كافة أنحاء البلاد انتفضوا ممتشقين السلاح.

– العدالة صعدت إلى السماء ولم يعد لها وجود هنا – كانوا يقولون.

ولكي يُنزلوها كانوا يقاتلون.

لا توجد وسيلة أخرى.

في الجنوب، يسود السكر، وراء أسوار قلاعه، والذرة لا تنمو في الأراضي كثيرة الحجارة.

السوق العالمية تذّل السوق المحلية، ومغتصبو الأرض والماء ينصحون الفلاحين المطرودين:

– ازرعوا الذرة في الأصص.

المنتفضون كانوا أناس أرض، وليسوا أناس حرب، يوقفون الثورة من أجل أن يزرعوا أو من أجل أن يحصدوا.

وجالساً بين الأهالي الذين يتبادلون الحديث عن الديوك والخيول في ظلال أشجار الغار، كان ثاباتا يسمع كثيراً ويتكلم قليلاً. ولكنه تمكن من جعل الخبر الطيب عن إصلاحه الزراعي يستنهض أكثر المناطق بُعداً. لم تعرف الأمة المكسيكية مثل ذلك التبدل قطّ. ولم تعرف الأمة المكسيكية مثل ذلك العقاب قط بسبب التبدل.

مليون قتيل. جميعهم، أو جميعهم تقريباً، كانوا فلاحين، وإن كان بعضهم يرتدون الزي العسكري.

صورة: العرش

مدينة مكسيكو، القصر الوطني، كانون الأول ١٩١٤.

الريف المنتفض في ثورة، ينقض على كوكب المدينة. بانتشو بييّا وإيميليانو ثاباتا فتحا مدينة مكسيكو.

وبينما كان جنودهما تائهين كالعميان في تبادل إطلاق نار، يجوبون الشوارع طالبين طعاماً ومتفادين آلات لم يروها من قبل، دخل بييّا وثاباتا إلى قصر الحكومة.

قدم بييّا إلى ثاباتا كرسي الرئاسة المذهب.

لم يقبله ثاباتا.

- علينا أن نحرقه - قال - إنه مسحور. عندما يجلس عليه رجل طيب، يتحول إلى شرير.

ضحك بييّا كما لو أن ما سمعه نكتة، وألقى بجسده الضخم على الكرسي لتصوره كاميرا أغوسطين فيكتور كاساسولا.

إلى جانبه يبدو ثاباتا غريباً، غائباً، ولكنه ينظر إلى الكاميرا كما لو أنها تطلق رصاصاً، وليس وميض فلاشات، ويقول بعينيه:

- مكان بديع لمغادرته.

وبعد لحظات يغادر زعيم الجنوب إلى قريته انينيكويلكو، مهده، صومعته، ليواصل من هناك استعادة الأراضي المغتصبة.

لم يتأخر بييّا بالحذو حذوه، ويغادر قصر الرئاسة:

- هذا الكوخ rancho كبير جداً علينا.

من سيجلسون بعد ذلك على الكرسي المشتهى، كرسي النقوش الذهبية، سيترأسون المذابح التي تعيد استتباب النظام.

أما ثاباتا وبييّا فيسقطان غيلة برصاص الغدر.

انبعاث ثاباتا

ولد، يقولون، وعلى صدره وشم يد.

مات مخترقاً بسبع رصاصات.

القاتل تلقى ألف بيزو ورتبة لواء.

المقتول تلقى حشوداً من الفلاحين، زاروا موته وقبعاتهم في أيديهم.

من أجدادهم الهنود ورثوا الصمت.

لا يقولون شيئاً، أو يقولون:

- يا للمسكين المحبوب.

لا شيء آخر كانوا يقولون.

ولكن في ما بعد، شيئاً فشيئاً، في ساحات القرى راحت ألسنتهم تنطلق:

- لم يكن هو.

- إنه آخر.

- رأيته بديناً جداً.

- تنقصه الشامة التي فوق عينه.

- لقد ذهب في سفينة، خرج من مرفأ أكابولكو.

- لقد طار في الليل، على حصان أبيض.

- ذهب إلى أعلى.

- إنه موجود هناك في بلاد العرب.

- بلاد العرب بعيدة، أبعد من أوكساكا.

- الآن سيرجع.

لينين

لم يكتب قطّ، ومن يدري إن كان قد قال حقاً جملته الأوسع شهرة:

- الغاية تبرر الوسيلة.

نُسبت إليه أيضاً خبائث أخرى.

وعلى كل حال، لا شك في أنه فعل ما فعله لأنه كان يعرف ما يريد فعله وما عاش من أجله. كان يقضي أيامه ولياليه في التنظيم، المناقشة، الدراسة، الكتابة، التآمر. ويمنح لنفسه الإذن بالتنفس والأكل. أما النوم فلا، أبداً.

أمضى عشر سنوات في المنفى بسويسرا، منفاه الثاني: كان متقشفاً، يرتدي ملابس قديمة وأحذية غير لائقة، يسكن في غرفة فوق محل إسكافي يرقع الأحذية، ويشعر بالغثيان من رائحة السجق التي تصعد إليه من محل الجزارة المجاور. كان يقضي اليوم كله في المكتبة العامة، وكان على اتصال بهيغل وماركس أكثر من اتصاله بعمال وفلاحي موطنه وزمنه.

في ١٩١٧، عندما صعد إلى القطار الذي أعاده إلى سان بطرسبورغ، المدينة التي سُميت باسمه في ما بعد، قلة من الروس كانوا يعرفون من يكون. والحزب الذي أسسه، والذي سيقتحم السلطة المطلقة، كان لا يزال ضئيل التجذر الشعبي ويكاد يكون إلى يسار القمر.

ولكن لينين عرف، أفضل من الجميع، أن ما يحتاج إليه الشعب الروسي أكثر من أي شيء آخر هو السلام والأرض، وما كاد ينزل من القطار ويلقي أول خطاب له في أول محطة، حتى استطاع حشدٌ ملّ الحروب والإذلال أن يتعرف فيه على الناطق بمشاعره وأداته.

ألكساندرا

من أجل أن يكون الحب طبيعياً ونظيفاً، مثل الماء الذي نشربه، يجب أن يكون حراً ومتقاسماً؛ ولكن الرجل يُطالب بالطاعة وينكر المتعة. ودون أخلاق جديدة، دون تغيير جذري في الحياة اليومية، لن يكون ثمة انعتاق كامل. وإذا كانت الثورة الاجتماعية لا تكذب، فعليها أن تلغي، من القانون ومن العادات، حق تملك الرجل للمرأة والأعراف الجامدة المعادية لتنوع الحياة.

بكلمة زائدة أو كلمة ناقصة، هذا ما طالبت به ألكسندرا كولونتاي، المرأة الوحيدة بمرتبة وزير في حكومة لينين.

وبفضلها لم يعد الشذوذ الجنسي والإجهاض جريمتين، ولم يعد الزواج حكماً بالمؤبد، وصار للنساء الحق بالتصويت والمساواة بالآخر، وصارت هناك حضانات للأطفال، وقاعات طعام

عامة، ومحلات مشتركة لغسل الملابس.
بعد سنوات من ذلك، عندما قطع ستالين رأس الثورة، حافظت ألكسندرا على رأسها. ولكنها لم تعد هي ألكسندرا نفسها.

ستالين

تعلم الكتابة باللغة الجيورجية، لغة بلاده، ولكن الكهنة أجبروه على التكلم بالروسية في المدرسة الدينية.

بعد سنوات، في موسكو، كانت لهجة جنوبي القفقاس لا تزال تكشفه.

عندئذ قرر أن يصير الأكثر روسية بين الروس. أولم يكن نابليون، وهو الكورسيكي، أشد فرنسية من الفرنسيين؟ وكاترين ملكة روسيا، وهي الألمانية، ألم تكن أشد روسية من الروس؟

الجيورجي لوسيف تشوغاشفيلي اختار اسماً روسياً. سمى نفسه ستالين، ويعني فولاذ.

ومن الفولاذ يجب أن يكون وريث الرجل الذي من فولاذ: ياكوف، ابن ستالين، سُقي منذ الطفولة بالنار والثلج، وبضربات المطرقة جرت صياغته.

لم تكن ثمة وسيلة، لقد خرج الابن لأمه. وفي التاسعة عشرة من عمره، لم يشأ ياكوف، لم يستطع، تحمل المزيد.

ضغط على الزناد.

قتلته الطلقة.

استيقظ في المستشفى.

عند حافة السرير، علق الأب:

- حتى هذا لم تستطع فعله.

إثبات الغيبة

قيل، يقال: الثورات الاجتماعية، بتعرضها لهجوم المتنفذين في الداخل والإمبرياليين في الخارج، لا يمكن لها منح نفسها ترف الحرية.

ومع ذلك، كانت الأزمنة الأولى من الثورة الروسية، في أوج الحصار المعادي، وسنوات الحرب الأهلية والغزو الخارجي، هي أكثر فترات ازدهار نشاطها المبدع تحرراً.

بعد ذلك، وفي أزمنة أفضل، عندما كان الشيوعيون يسيطرون على البلاد، فرضت دكتاتورية البيروقراطية حقيقتها الوحيدة وأدانت التنوع كهرطقة لا تغتفر.

مارك شاغال وفاسيلي كاندنسكي رسامان، سافرا، ولم يرجعا قطّ.

فلاديمير ماياكوفسكي، شاعر، أطلق رصاصة على قلبه.

سيرغي أيزنين، شاعر أيضاً، شنق نفسه.

إسحاق بابيل، قصاص، أُعدم رمياً بالرصاص.

فسفولود مرهولد الذي صنع الثورة في مشاهد التعري في المسرح، أعدم رمياً بالرصاص أيضاً.

وأعدم كذلك نيكولاي بوخارين، وغريغوري زينوفيف، وليف كامينيف، القادة الثوريون في الساعة الأولى، بينما سقط ليون تروتسكي، مؤسس الجيش الأحمر، غيلة في المنفى.

لم يبق أحد من ثوريي الساعة الأولى. جرى تطهيرهم جميعاً: دفناً أو سجناً، أو نفياً. وجرى محوهم من الصور البطولية وحذفهم من الكتب التاريخية.

الثورة حملت إلى العرش أشد قادتها وسطية.

ضحى ستالين بمن يشكلون ظلاً له، من يقولون لا، من لا يقولون نعم، خطيرو اليوم وخطيرو الغد، على ما فَعَلْتَهُ وما ستَفْعَله، كعقاب أو كشكوك.

صور: أعداء الشعب

موسكو، ميدان مسرح البولشوي، أيار ١٩٢٠.

لينين يخطب بالجنود السوفييت الذاهبين إلى القتال ضد الجيش البولندي على جبهة أوكرانيا.

إلى جانب لينين، على المنصة المرتفعة فوق الحشود، يظهر ليون تروتسكي، الخطيب الآخر في هذا المهرجان، وليف كامينيف.

صورة ج.ب. غولدشتاين، تتحول إلى رمز كوني للثورة الشيوعية.

ولكن بعد سنوات قليلة، يختفي تروتسكي وكامينيف من الصورة ومن الحياة.

من الصورة يمحوهما الرتوشيون، ويستبدلونهما بخمسة درجات من الخشب، ومن الحياة يمحوهما الجلادون.

محاكم التفتيش في أزمنة ستالين

إسحاق بابيل كان كاتباً محظوراً. ويشرح هو نفسه:

- المسألة أنني اخترعت جنساً أدبياً جديداً: الصمت.

في العام ١٩٣٩ جرى اعتقاله.

في العام التالي جرت محاكمته.

المحاكمة استمرت عشرين دقيقة.

اعترف بأنه ألف كتباً وأن نظرته البرجوازية الصغيرة تشوه الواقع الثوري.

اعترف بأنه ارتكب جرائم ضد الدولة السوفييتية.

اعترف بأنه تكلم مع جواسيس أجانب.

اعترف بأنه في رحلاته إلى الخارج أجرى اتصالات مع تروتسكيين.

اعترف بأنه كان على اطلاع على مؤامرة لاغتيال الرفيق ستالين، ولم يشِ بها.

اعترف بأنه شعر بالانجذاب إلى أعداء الوطن.

اعترف بأن كل ما اعترف به كان زائفاً.

أعدموه في ليلة ذلك اليوم.

علمت زوجته بإعدامه بعد خمسة عشر عاماً.

روزا

ولدت في بولونيا، وعاشت في ألمانيا. كرست حياتها للثورة الاجتماعية، إلى أن سقطت غيلة. في بداية العام ١٩١٩، عَمَدَ ملائكة الرأسمالية الألمانية الحماة إلى تهشيم جمجمتها ضرباً بأعقاب البنادق.

قبل قليل من ذلك، كانت روزا لوكسمبورغ قد كتبت مقالاً حول الخطوات الأولى للثورة الروسية. المقال ولد في السجن الألماني الذي كانت سجينه فيه، وقد عارضت الطلاق بين الاشتراكية والديمقراطية.

* حول الديمقراطية الجديدة: الديمقراطية الاشتراكية ليست شيئاً لا يبدأ إلا في الأرض الموعودة بعد أن تكون قد ترسخت أسس الاقتصاد الاشتراكي. وهي لا تصل مثل هدية عيد الميلاد إلى الناس الذين يستحقونها لأنهم تحملوا، في المرحلة الانتقالية، حفنة من الدكتاتوريين الاشتراكيين. الديمقراطية الاشتراكية تبدأ في آن واحد مع تدمير الطبقة السائدة وبناء الاشتراكية.

* حول طاقة الشعب: الدواء الذي وجده تروتسكي ولينين، بإلغاء الديمقراطية كديمقراطية، هو أمر أسوأ من الداء الذي ينويان علاجه، لأنه يغلق المصدر الوحيد لتصحيح كل محدودية المؤسسات الاجتماعية. وهذا المصدر هو حياة أوسع جماهير الشعب السياسية الفعالة وغير المقيدة والمنشطة.

* حول الرقابة العامة: الرقابة العامة ضرورة لا غنى عنها. وعندما لا توجد، يقتصر تبادل التجارب على دائرة قادة النظام الجديد المغلقة. ويصبح الفساد أمراً حتمياً.

* حول الحرية: اقتصار الحرية على أنصار الحكومة وحدهم، أو على أعضاء حزب وحيد، مهما كانت أعدادهم، لست حرية. الحرية هي دوماً وحصرياً حرية من لهم رأي مختلف.

* حول الدكتاتورية البيروقراطية: دون انتخابات عامة، ودون حرية صحافة بلا قيود وحرية الاجتماع، ودون جدال آراء حر، تموت الحياة في المؤسسات العامة، وتتحول إلى كاريكاتير حياة، حيث البيروقراطية وحدها هي الفاعلة. تسقط الحياة العامة في غيبوبة النوم بالتدريج، ويقوم بالحكم والأمر عدد ضئيل من القادة ذوي الطاقة التي لا تعرف التعب، والخبرة غير المحدودة. ويكون بينهم نحو دزينة من الرؤوس يقودون فعلياً، وأقلية مختارة من الطبقة العاملة تدعى، بين حين وآخر، إلى اجتماعات لتصفق لخطابات القادة وتصادق على القرارات بالإجماع.

تأسيس بلدين

يقال إن تشرشل قال:

- الأردن كان فكرة خطرت لي في الربيع، في حوالي الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر.

الواقع أنه في شهر آذار ١٩٢١، وخلال ثلاثة أيام، قام وزير المستعمرات البريطاني ومعاونوه الأربعون باختراع خريطة جديدة للشرق الأوسط، خلقوا بلدين، عمدوهما، واختاروا ملكيهما ورسموا حدودهما بخط إصبع على الرمل. وأطلقت تسمية عراق على الأراضي التي يحتضنها نهرا دجلة والفرات، طين الكتب الأولى؛ وتسمية أردن على البلد الجديد المقتطع من فلسطين.

كان أمراً مستعجلاً أن تتبدل أسماء المستعمرات وتكون، أو تبدو، ممالك عربية. وكان مستعجلاً أيضاً تقسيم تلك المستعمرات، تمزيقها: الذاكرة الإمبراطورية علمته ذلك.

وبينما كانت فرنسا تخترع لبنان، سلّم تشرشل إلى فيصل، الأمير التائه، تاج العراق. وصادق على ذلك استفتاء، بحماسة مشكوك فيها، وبموافقة ست وتسعين بالمئة. أما أخوه الأمير عبد الله فكان ملك الأردن. الملكان كلاهما ينتميان إلى أسرة ضُمت إلى الميزانية البريطانية بتوصية من لورنس العرب.

صناع البلدين وقعوا على شهادة ميلاد العراق والأردن في فندق سميراميس في القاهرة وذهبوا للقيام بنزهة بين الأهرامات. سقط تشرشل عن الجمل وتأذت يده.

لحسن الحظ أن الجرح كان بسيطاً: الفنان الذي يقدره تشرشل أكثر من سواه تمكن من مواصلة رسم مناظر طبيعية.

الملك الجاحد

في العام ١٩٣٢ أنهى ابن سعود حربه الطويلة للاستيلاء على مكة والمدينة، وأعلن نفسه ملكاً وسلطاناً على هاتين المدينتين المقدستين وكل الصحراء المحيطة بهما.

وفي فعل تواضع، عمّد ابن سعود مملكته باسم أسرته: العربية السعودية. وفي فعل فقدان ذاكرة، سلّم البترول لشركة ستاندر أويل، ناسياً بذلك أنه هو وأسرته كانوا يأكلون منذ عام ١٩١٧ حتى ١٩٢٤ من يد الإمبراطورية البريطانية، مثلما هو مثبت في الحسابات الرسمية.

تحولت العربية السعودية إلى نموذج للديمقراطية في الشرق الأوسط. وقد احتاج أمراؤها الخمسة آلاف إلى ثلاثة وسبعين عاماً من أجل تنظيم أول انتخابات. وفي انتخابات الموظفين البلديين تلك، لم تشارك الأحزاب السياسية، لأنها محظورة. ولم تشارك النساء كذلك، لأنهن محظورات أيضاً.

أعمار جوزفين

في التاسعة من عمرها كانت تعمل في تنظيف البيوت في سانت لويس، على ضفاف نهر المسيسيبي.
في العاشرة، تبدأ الرقص في الشوارع، مقابل قطع نقدية.
في الثالثة عشرة، تتزوج.
في الخامسة عشرة، تتزوج مرة أخرى. من زوجها الأول لم يبق ولو القليل من الذكرى السيئة. ومن الثاني، احتفظت باسمه، لأنها معجبة بوقعه.
في السابعة عشرة، ترقص جوزفين بيكر الشالستون في برودواي.
في الثامنة عشرة، تجتاز الأطلسي وتغزو باريس. تظهر فينوس السوداء عارية على منصة المسرح، دون أية ملابس سوى حزام من الموز.
في الحادية والعشرين، يحولها مزيجها من مهرجة وامرأة قدرية إلى النجمة الأوسع تقديراً والأفضل أجراً في أوروبا بأسرها.
في الرابعة والعشرين، هي أكثر امرأة تُلتقط لها صور في الكوكب. بابلو بيكاسو يرسمها جاثياً. ولكي يتشبهن بها، تفرك السيدات الباريسيات الشاحبات جلودهن بكريم الجوز لجعل بشرتهن قاتمة.
في الثلاثين، تتعرض لمشاكل في بعض الفنادق، لأنها تسافر وبرفقتها شمبانزي، وأفعى، ومعزاة، وببغاوان، وعدة أسماك، وثلاث قطط، وسبعة كلاب، وفهدة تدعى تشيكيتا تزهو بعقد من الألماس، وخنزير صغير، ألبرت، تحممه هي نفسها بعطر Je reviens.
في الأربعين، تتلقى وسام جوقة الشرف لما قدمته من خدمات للمقاومة الفرنسية خلال الاحتلال النازي.
في الحادية والأربعين، عندما كانت تتجه نحو زواجها الرابع، تتبنى اثني عشر طفلاً من مختلف الألوان ومختلف الأمكنة وتسميهم قبيلتي القوس قزحية.
في الخامسة والأربعين، تعود إلى الولايات المتحدة، وتطالب بأن يحضر استعراضاتها الجميع دون تمييز: بيض وزنوج، وإلا لن تمثل.
في السابعة والخمسين تتقاسم المنبر مع مارتن لوثر كينغ وتتكلم ضد التمييز العنصري أمام المسيرة الضخمة نحو واشنطن.
في الثامنة والستين، تستعيد توازنها من إفلاس مدوٍ وتحتفل في مسرح بوبين في باريس بمرور خمسين عاماً على تمثيلها في هذا العالم. وتغادر.

سارا

- أنا أُمثّل دوماً - كانت تقول - أمثّل في المسرح وخارج المسرح. إنني دوبلير نفسي.

لم يكن يُعرف ما إذا كانت سارا برنار هي أفضل ممثلة في التاريخ أم أعظم كاذبة في العالم، أم أنها الأمران كلاهما في آن واحد.

في بدايات عقد العشرينيات، وبعد أكثر من نصف قرن من الملكية المطلقة، كانت لا تزال الملكة في مسارح باريس وتنظم جولات لا تنتهي. بلغت الثمانين من عمرها، وكانت نحيلة إلى حدّ تبدو أن لا ظل لها، وكان الجراحون قد بتروا إحدى ساقيها: باريس بأسرها كانت تعرف ذلك. ولكن باريس بأسرها كانت تظن أن تلك الصبية التي لا تُقَاوم، والتي تنتزع التنهدات عند مرورها، إنما كانت تمثل على أروع وجه دور عجوز فقيرة مبتورة الساق.

استسلام باريس

عندما كان صبياً حافياً، يركل كرات من خرق في شوارع بلا أسماء، كان يفرك ركبتيه ورسغيه بشحم سحلية. هذا ما يقولونه، ومن هنا أتى سحر ساقيه.

خوسيه لِياندرو اندرادي كان قليل الكلام. لا يحتفي بأهدافه ولا بغرامياته. المشية المتكبرة نفسها، والمزاج الساهي، كان يحمل الكرة ملتصقة بقدمه، يراقص الخصوم، ويمسك المرأة ملتصقة إلى جسده، يراقصها التانغو.

في الدورة الأولمبية عام ١٩٢٤ أبهر باريس. أصيب الجمهور بالهذيان، الصحافة أطلقت عليه لقب المعجزة السوداء. ومن الشهرة تنبثق السيدات. كن يحملن له رسائل، لا يمكنه قراءتها، مكتوبة على ورق معطر من سيدات يكشفن عن ركبهن ويطلقن دخاناً على شكل دوائر من مباسم تدخين طويلة ومذهبة.

عندما رجع إلى أوروغواي، أحضر معه كيمونو من الحرير، وقفازات حمراء وساعة تزين معصمه.

لم يدم ذلك كله إلا قليلاً.

في تلك الأزمنة كانت كرة القدم تُلعب مقابل النبيذ والطعام والسعادة.

باع جرائد في الشوارع.

باع ميدالياته.

كان أول نجم زنجي في كرة القدم العالمية.

ليالي حريم

الكاتبة فاطمة المرنيسي رأت، في متاحف باريس، المحظيات التركيات اللاتي رسمهن هنري ماتيس. إنهن لحم حريم: شهوانيات، متراخيات، مذعنات.

نظرت فاطمة إلى تواريخ اللوحات، وقارنت، وأكدت: حين كان ماتيس يرسمهن على ذلك النحو، في العشرينيات والثلاثينيات، كانت النساء التركيات يصبحن مواطنات، ويدخلن الجامعات والبرلمان، ويحصلن على حق الطلاق، وينتزعن الحجاب.

الحريم، سجن النساء، كان قد حظر في تركيا، ولكن ليس في المخيلة الأوروبية. فالسادة الوقورن، دعاة الزواج الأحادي في اليقظة، وتعدد الزوجات في أحلامهم، يتمتعون بحرية الدخول إلى ذلك الفردوس، حيث الإناث البلهاوات، الخرساوات، المفتونات بمنح اللذة للذكر السجان. وباستطاعة أي موظف بيروقراطي عادي أن يغمض عينيه ليتحول على الفور إلى خليفة كليّ القدرة، تداعبه حشود من العذارى العاريات ممن يرقصن رقصة هز البطن، ويتوسلن نعمة الحصول على ليلة إلى جانب سيدهن ومولاهن.

لقد ولدت فاطمة وترعرعت في حريم.

شخوص بيسوا

كان واحداً، كان كثيرين، كان الجميع، لم يكن أحداً.

فرناندو بيسوا، موظف كئيب، سجين الساعة، مؤلف متوحد لرسائل حب لم تُرسل قطّ، وكان هناك مستشفى مجانين في داخله.عن نزلائه نعرف الأسماء، وتواريخ، بل وساعات الولادة، والأبراج، والأوزان، والقامات. وكذلك الأعمال، لأنهم جميعهم شعراء.

ألبيرتو كاييّرو، وثني، ساخر من الميتافيزيقية وغيرها من بهلوانيات المثقفين الذين يختزلون الحياة إلى مفاهيم، وكان يكتب اندفاعات.

ريكاردو رييس، ملكي، هيليني، ابن الثقافة الكلاسيكية، ولد عدة مرات وكانت له عدة أبراج، وكان يكتب أبنية.

برناردو سواريس، معلم التناقض الظاهري، شاعر نثر، عالم يدّعي أنه مساعد متحمس لأمين مكتبة، وكان يكتب تناقضات.

وأنطونيو مورا، طبيب نفساني ومعتوه، نزيل مستشفى كاسكايس، كان يكتب قصائد جدّ وجنون. وكان بيسوا يكتب أيضاً، عندما ينامون هم.

وول ستريت

منذ بدايات القرن العشرين، كانت الأجراس الآلية تحيي بداية ونهاية كل يوم في بورصة نيويورك. ذلك الرنين هو تكريم لتفاني عمل المضاربين الذين يهزون الكوكب، ويقررون قيمة الأشياء والأمم، ويصنعون مليونيرات ومتسولين، وهم قادرون على قتل أناس أكثر من أي حرب أو وباء أو جفاف.

في الرابع والعشرين من تشرين الأول ١٩٢٩، رنت الأجراس البهيجة كما هي العادة، ولكن ذلك اليوم كان أسوأ يوم في تاريخ كاتدرائية الأموال. وسقوطها أغلق مصارف ومصانع، ورفع نسب البطالة حتى السحاب، وألقى بالأجور إلى القبو، ودفع العالم بأسره الحساب.

وزير الخزانة في الولايات المتحدة، أندرو ميلون، واسى الضحايا. قال إن للأزمة جانبها الإيجابي، لأن الناس سيعملون بجد أكبر وسيعيشون حياة أكثر أخلاقية.

ممنوع كسب انتخابات

ومن أجل أن يعمل الناس بجد أكبر ويعيشوا حياة أكثر أخلاقية، أطاحت أزمة وول ستريت بأسعار البن، وأطاحت بحكومة السلفادور المدنية.

أمسك بزمام البلاد الجنرال ماكسيميليانو إيرنانديث مارتينث، وكان يستخدم بندولاً سحرياً لاكتشاف السم في الحساء والعدو على الخريطة.

دعا الجنرال إلى انتخابات ديمقراطية، ولكن الشعب أساء الاستفادة من الفرصة المتاحة. الأغلبية صوتت للحزب الشيوعي. لم يجد الجنرال مفراً من إلغاء نتائج التصويت، فاندلعت الانتفاضة الشعبية وانفجر في الوقت نفسه بركان إثالكو الذي كان خامداً منذ سنوات طويلة.

البنادق الرشاشة فرضت السلام. مات الآلاف. كم هو العدد، لا أحد يعرف. كانوا عمالاً أجراء، كانوا فقراء، كانوا هنوداً: الاقتصاد يدعوهم اليد العاملة والموت يدعوهم موتى مجهولين.

زعيم السكان الأصليين خوسيه فيلثيانو آما كانوا قد قتلوه عدة مرات قبل أن يُعلق على فرع شجرة زيتون. وهناك ظل، يتأرجح مع الريح، كي يراه أطفال المدارس الآتون من كافة أنحاء البلاد ويشهدوا ذلك الدرس في التربية المدنية.

ممنوع أن تكون خصباً

ومن أجل أن يعمل الناس بجد أكبر ويعيشوا حياة أكثر أخلاقية، أدت أزمة وول ستريت أيضاً إلى انهيار سعر السكر.

هذه الكارثة أثرت بقسوة على جزر البحر الكاريبي وأطلقت رصاصة الرحمة على منطقة شمال شرقي البرازيل.

لم تكن منطقة الشمال الشرقي مركز السكر في العالم، لا شيء من هذا القبيل بأي حال، ولكنها كانت أشد الورثة مأساوية لأحادية زراعة القصب.

قبل زمن من التضحية بالمنطقة على مذبح السوق العالمي، كانت تلك الصحراء الفسيحة جنة خضراء. لقد اغتال السكر الغابات والأراضي الخصيبة. وراحت منطقة الشمال الشرقي تنتج كميات متناقصة من السكر وكميات أكبر من الشوك والمجرمين.

في تلك العزلات كان يسكن تنين الجفاف وقاطع الطريق لامبياو.

قبل كل مهمة ينفذها، كان لامبياو يقبّل الخنجر:

- هل لديك الجرأة؟

- الجرأة، لا أدري. ولكن لدي العادة.

وأخيراً، فقد عادته ورأسه. فقد قطع رأسه الملازم جواو بيزيرا، مقابل اثنتي عشرة سيارة كمكافأة. عندئذ نسيت الحكومة أنها منحت لامبياو رتبة نقيب في الجيش، كي يصطاد شيوعيين، وقد عرضَ بظفرٍ ممتلكاتهم المصادرة: قبعة نابليونية تتدلى منها قطع عملة، خمسة خواتم ماس مزيف، زجاجة ويسكي وايت هورس، قارورة عطر ماركة أزهار الحب، معطف مطري، وزينات أخرى.

ممنوع أن تكون وطناً

تحت قبعته ذات الحواف يكاد لا يُرى.

منذ العام ١٩٢٦، قملة تدعى أغوسطو ثيسر ساندينو تسبب الجنون للعملاق الغازي.

آلاف المارينز موجودون منذ سنوات في نيكاراغوا، ولكن آلة الولايات المتحدة العسكرية الثقيلة لا تتمكن من سحق جيش الفلاحين الوطنيين المتنقل.

- الرب والجبال هما حليفانا - يقول ساندينو.

ويقول إن نيكاراغوا، وهو نفسه، يمتلكان فوق ذلك حسن الطالع بالإصابة بداء حب أميركا

اللاتينية الحاد.
كان ساندينو يعتمد على معاونين اثنين، ذراعين أيمنين: أحدهما السلفادوري أغوسطين فاربوندومارتي، والثاني هو الهندوراسي خوسيه إستيبان بافيليتش. والجنرال مانويل ماريا خيرون روانو، غواتيمالي، هو الوحيد الذي يفهم المدفع الصغير المسمى "تشولا" القادر بين يديه على إسقاط طائرات. وفي ميدان المعركة اكتسب مواقع قيادية كل من خوسيه ليون دياث، سلفادوري، ومانويل غونثالث، هندوراسي، والفنزويلي كارلوس أبونتي، والمكسيكي خوسيه دي باريديس، والدومينيكاني غريغوريو أوربانو جيلبرت والكولومبيين ألفونسو ألكسندر وروبين أرديلا غوميث.
كان الغزاة يطلقون تسمية قاطع طريق على ساندينو.
- لقد كان جورج واشنطن قاطع طريق إذاً، لأنه قاتل من أجل الهدف نفسه؟
وكان يشكرهم على هداياهم: بنادق البراوننغ، ورشاشات الطومبسون، وكل الأسلحة والذخائر التي يخلفونها في هروبهم الشجاع.

انبعاث ساندينو

في العام ١٩٣٣ غادروا نيكاراغوا مهانين.
غادروا، ولكنهم ظلوا. ففي مكانهم خلّفوا أناستاسيو سوموزا وجنوده المدربين على يد الغزاة ليحلوا محلهم.
وساندينو الشجاع في الحرب، هُزم بالخيانة.
في العام ١٩٣٤ وقع في كمين. لم تكن هنالك طريقة لقتله إلا من الخلف.
- يجب عدم أخذ الموت على محمل الجد - اعتاد أن يقول - إنه ليس أكثر من لحظة استياء.
ومضى الوقت، وعلى الرغم من أن اسمه كان محظوراً، ومحظورة كانت ذاكرته، إلا أن الساندينيين، بعد خمسة وأربعين عاماً، أسقطوا دكتاتورية قاتله وأبناء قاتلهم.
وعندئذ تمكنت نيكاراغوا، البلد الصغير، البلد الحافي، اقتراف وقاحة مقاومة هجمات القوة العسكرية العظمى في العالم طوال عشر سنوات. حدث ذلك منذ العام ١٩٧٩، بفضل عضلات سرية لا تظهر في أي بحث تشريحي.

تاريخ مختصر لزراعة الديمقراطية في أميركا

في العام ١٩١٥، غزت الولايات المتحدة هايتي. وباسم الحكومة، أعلن روبرت لانسينغ أن العرق الأسود عاجز عن حكم نفسه بنفسه، بسبب ميله الموروث إلى حياة التوحش وعجزه البدني عن التحضر. بقي الغزاة تسعة عشر عاماً. وعُلق الزعيم الوطني شارلمان بيرالت على صليب إلى إحدى البوابات.

واحد وعشرون عاماً استمر احتلال نيكاراغوا ليصب بعدها في دكتاتورية سوموزا، وتسعة أعوام استمر احتلال جمهورية الدومينيكان ليصب بعد ذلك في دكتاتورية تروخييّو.

في العام ١٩٥٤ دشنت الولايات المتحدة الديمقراطية في غواتيمالا من خلال عمليات قصف قضت على الانتخابات الحرة وشرور أخرى. وفي العام ١٩٦٤، تلقى الجنرالات الذين وضعوا حداً للانتخابات الحرة وشرور أخرى في البرازيل أموالاً وأسلحة، وبترولاً، وتهنئة من البيت الأبيض. وشيء مماثل حدث في بوليفيا، حيث توصل أحد الدارسين إلى نتيجة أن الولايات المتحدة هي البلاد الوحيدة التي لا تحدث فيها انقلابات عسكرية، لأنه لا وجود فيها لسفارة الولايات المتحدة.

وقد تأكدت هذه النتيجة عندما أطاع الجنرال بينوشيت إنذار هنري كيسنجر وحال دون أن تصير تشيلي شيوعية بسبب انعدام حس المسؤولية لدى شعبها.

قبل قليل، أو بعد قليل من ذلك، قصفت الولايات المتحدة ثلاثة آلاف بنمي بائس من أجل أن تلقي القبض على عميل غير مخلص، وأنزلت قوات عسكرية في سانتو دومينغو للحيلولة دون عودة رئيس صوّت له الشعب، ولم تجد مفراً من مهاجمة نيكاراغوا للحيلولة دون أن تقوم نيكاراغوا بغزو الولايات المتحدة عبر تكساس.

وفي أثناء ذلك، كانت كوبا قد تلقت زيارات مودّة قامت بها طائرات، وسفن حربية، وقنابل، ومرتزقة، ومليونيرات مبعوثون من واشنطن في مهمة تربوية. ولكنهم لم يتمكنوا هناك من تجاوز خليج الخنازير.

ممنوع أن تكون عاملاً

يرفع شارلوت خرقة حمراء يلتقطها من الشارع. يتساءل ما هو هذا الشيء، ولمن تراه يكون، فيجد نفسه فجأة يترأس - دون أن يدري كيف، ودون أن يدري لماذا - مظاهرة عمالية تصطدم بالشرطة.

"الأزمنة الحديثة" هو الفيلم الأخير لهذه الشخصية. وشابلن، أبو الشخصية، لم يكن يقول وداعاً لشخصيته المحبوبة. بل كان يودع كذلك، وإلى الأبد، السينما الصامتة.

الفيلم لا يستحق ولو مجرد تنويه من الأوسكار. فهوليود لا تروقها آنية الموضوع المزعجة. إنها ملحمة رجل صغير عالق بعجلات الحقبة الصناعية، في السنوات التالية لأزمة العام ٢٩.

مأساة تحمل على الضحك، صورة متقنة، حميمة، للأزمنة التي تجري: الآلات تأكل بشراً وتسرق وظائف، اليد البشرية لا تتميز عن الأدوات الأخرى، والعمال الذين يحاكون الآلات، لا يمرضون: إنهم يصدؤون.

في بدايات القرن التاسع عشر، كان لورد بايرون قد أثبت:

- الآن صار صنع أشخاص أسهل من صنع آلات.

ممنوع أن تكون غير طبيعي

غير الطبيعيين بدنياً أو ذهنياً أو أخلاقياً، والقتلة، والفاسدون، والمشوهون، والحمقى، والمجانين، والسكيرون، والكسالى، والمتسولون، وبنات الهوى يترصدون، إنهم مستعدون لزرع بذرتهم الخبيثة في أراضي الولايات المتحدة الفاضلة.

في العام ١٩٠٧، كانت ولاية إنديانا أول مكان في العالم يبيح فيها القانون التعقيم القسري.

في العام ١٩٤٢، أُجبر على تعقيم أنفسهم أربعون ألف مريض في المستشفيات العامة في سبع وعشرين ولاية. جميعهم فقراء، وجد فقراء؛ وكثيرون منهم زنوج وكذلك بعض البورتوريكيين وغير قليل من الهنود الحمر.

رسائل تتوسل المساعدة كانت تملأ صناديق بريد مؤسسة بيترمينت الإنسانية، وهي منظمة مكرسة للحفاظ على النوع. تروي طالبة أنها كانت ستتزوج من شاب طبيعي في الظاهر، غير أن أذنيه كانتا صغيرتين جداً وتبدوان موضوعتين بالمقلوب:

- حذرني الطبيب من أننا قد ننجب أبناء غير أسوياء.

رجل وامرأة طويلا القامة، طويلان جداً، يطلبان المساعدة:

- لا نريد أن نأتي إلى الدنيا بأبناء طويلين بصورة غير طبيعية.
في رسالة تعود إلى شهر حزيران ١٩٤١، وشت طالبة برفيقة لها في الصف ضعيفة ذهنياً، وقد وشت بها لأنها قد تتعرض لخطر إنجاب أطفال مجانين.
هاري لافلين، أيديولوجي المؤسسة، تلقى عام ١٩٣٦ دكتوراه شرف من جامعة هيديلبيرغ بفضل مساهمته بقضية الرايخ في النقاء العرقي.
كان لدى لافلين هوس ضد المصابين بالصرع. وكان يؤكد أنهم يعادلون المتخلفين ذهنياً ولكنهم أشد خطراً، ولا وجود لمكان لهم في مجتمع طبيعي. قانون هتلر بشأن الوقاية من النسل المعيب يفرض تعقيم المتخلفين ذهنياً، والمصابين بانفصام الشخصية، والمهووسين - المحبطين، والمشوهين جسدياً، والصم، والعميان... ومرضى الصرع.
لافلين كان مصاباً بالصرع. ولم يكن الأمر معروفاً.

ممنوع أن تكون يهودياً

في العام ١٩٣٥، كان قانون حماية نقاء الدم والشرف الألماني وقوانين أخرى مرافقة هي الأساس البيولوجي للأمة الألمانية.
فمن فيه دم يهودي، ولو قطرات قليلة فقط، لا يمكنه أن يكون مواطناً ألمانياً ولا يمكنه الزواج من مواطنة ألمانية.
ووفق السلطات الألمانية، اليهود ليسوا يهوداً بسبب دينهم، ولا بسبب لغتهم، وإنما بسبب عرقهم. وتحديدهم لم يكن بالأمر السهل. وقد وجد الخبراء النازيون الإلهام في التاريخ العنصري العالمي الغزير، واعتمدوا على مساعدة لا تقدر بثمن من شركة IBM.
فمهندسو IBM صمموا الاستمارات والبطاقات المثقبة التي تحدد الخصائص البدنية والتواريخ الجيني لكل شخص. وشغّلوا جهازاً أوتوماتيكياً عالي السرعة وواسع المدى، أتاح تحديد اليهود الكاملين، وأشباه اليهود، ومن لديهم نسبة ستة عشرة بالمئة من الدم اليهودي في عروقهم.

نظافة اجتماعية، نقاء عنصري

نحو مئتين وخمسين ألف ألماني جرى تعقيمهم ما بين عامي ١٩٣٥ و١٩٣٩.
بعد ذلك أتت الإبادة.
المشوهون والمتخلفون الذهنيون والمجانين دشنوا حجرات الغاز في معسكرات هتلر.
سبعون ألف مريض نفسي جرى قتلهم في عامي ١٩٤٠ و١٩٤١.
وتلا ذلك تطبيق الحل النهائي ضد اليهود، والحمر، والغجر، والشاذين جنسياً...

خطر في الطريق

في محيط إشبيلية، شتاء ١٩٣٦: الانتخابات الإسبانية تقترب.
سيد إقطاعي يجول على أراضيه، وفي الطريق يصادف رجلاً بأسمال.
ودون أن يترجل عن حصانه، يناديه السيد ويضع في يده قطعة نقدية وقائمة انتخابية.
يفلت الرجل الشيئين، قطعة النقد والقائمة، ويقول وهو يدير ظهره للسيد:
- في جوعي، أنا الآمر.

فيكتوريا

مدريد، شتاء ١٩٣٦: فيكتوريا كينت تُختار نائبة في البرلمان.
شعبيتها أتت من إصلاح السجون.
عندما بدأت بذلك الإصلاح، اتهمها أعداؤها، وهم كثر، بأنها تضع إسبانيا، البلد الأعزل، بين أيدي المجرمين. ولكن فيكتوريا التي عملت في السجون، ولم تكن تعرف الألم البشري من خلال السماع، واصلت قدماً ببرنامجها:
أغلقت السجون غير الصالحة للإقامة، وكانت معظم السجون.
دشنت أذون الخروج.
أطلقت سراح جميع السجناء الذين تزيد أعمارهم عن السبعين عاماً.
أنشأت ملاعب رياضة وورش عمل طوعي.
ألغت زنازين العقاب الانفرادية.
صهرت كل الشِّباك والسلاسل والقيود الحديدية
وحوّلت ذلك الحديد كله إلى تمثال ضخم لكونثيبثيون آرينال.

الشيطان أحمر

مليلة، صيف ١٩٣٦: يندلع الانقلاب العسكري ضد الجمهورية الإسبانية. الخلفية الإيديولوجية سيكشف عنها، فيما بعد، وزير الإعلام غابرييل آرياس سالغادو:

- الشيطان يعيش في أحد آبار البترول في باكو، ومن هناك يوجه التعليمات إلى الشيوعيين. البخور ضد الكبريت، الخير ضد الشر، صليبيو المسيحية ضد أحفاد قابيل. لابد من القضاء على الحمر، قبل أن يقضي الحمر على إسبانيا: السجناء يعيشون حياة الراحة، والمعلمون يُبعدون الكهنة من المدارس، والنساء يصوتن في الانتخابات كما لو أنهم رجال، والطلاق يدنس الزواج المقدس، والإصلاح الزراعي يهدد ملكية الكنيسة للأراضي...

الانقلاب يولد قاتلاً، وهو واضح جداً منذ البدء.

الجنرال يسمو فرانثيسكو فرانكو: - سأنقذ إسبانيا من الماركسية مهما كان الثمن.

- حتى لو كلف ذلك إعدام نصف إسبانيا؟ - فليكلف ما يكلف.

الجنرال خوسيه ميّان استراي: - يحيا الموت!

الجنرال إميليو مولا: - كل شخص يدعم الجبهة الشعبية، سواء أكان بالسر أم العلن، يجب أن يُعدم.

الجنرال غونثالو كيبو دي ليّانو: - ابدؤوا بحفر القبور!

الحرب الأهلية هو الاسم الذي أُطلق على حمام الدم الذي أطلقه الانقلاب العسكري. وهكذا تضع اللغة علامة المساواة بين الديمقراطية التي تدافع عن نفسها والانقلاب الذي يهاجم، بين الميليشيا الشعبية والعسكريين، بين الحكومة المنتخبة بالتصويت الشعبي والزعيم المختار من نعمة الرب.

الرغبة الأخيرة

لاكورونيا، صيف ١٩٣٦: بيبيل غارثيا يموت رمياً بالرصاص.

بيبيل هو أعسر في اللعب وفي التفكير.

في الستاد يرتدي قميص فريق ديبورتيفو دي لا كورونيا. وعند الخروج من الستاد يضع قميص الشبيبة الاشتراكية.

بعد أحد عشر يوماً من انقلاب فرانكو، وحين كان بيبيل قد أكمل واحداً وعشرين عاماً، واجه فصيلة الإعدام.

ـ لحظة واحدة ـ قال آمراً.
والجنود، وهم من غاليسيا مثله، ولاعبو كرة قدم مثله، يطيعونه.
عندئذ يفتح بيبيل فتحة بنطاله ببط، زراً بعد زر، وفي مواجهة فصيلة الإعدام يبول طويلاً.
بعد ذلك يزرر فتحة بنطاله:
ـ الآن، جاهز.

روساريو

بيّاريخو دي سابانيس، صيف ١٩٣٦: روساريو سانتشث مورا تذهب إلى الجبهة.
كانت تتلقى دروساً في الخياطة والتفصيل حين جاء رجل من الميليشيا بحثاً عن متطوعات. ألقت ما كانت تخيطه إلى الأرض، وبقفزة واحدة صعدت إلى الشاحنة، بسنوات عمرها السبع عشرة المكتملة حديثاً، وبتنورتها ذات الكشاكش حديثة التدشين، وبندقية زنة ستة كيلوغرامات تحملها، مثل طفل، بين ذراعيها.
في الجبهة، تصبح ناسفة بالديناميت. وفي إحدى المعارك، حين تشعل فتيل قنبلة مصنوعة محلياً، في علبة حليب مكثف مملوءة بمسامير، تنفجر القنبلة قبل أن تلقي بها. فتفقد يدها ولكنها تظل حية بفضل صديق يربط الجرح بضاغطة لوقف النزيف ارتجلها من رباط صندله.
بعد ذلك أرادت روساريو أن تواصل في الخنادق، ولكنهم لم يسمحوا لها. فالميليشيا الجمهورية يجب أن تتحول إلى جيش، وفي الجيش لا مكان للنساء. وبعد جدل طويل تتوصل إلى أن يسمحوا لها على الأقل بأن توزع رسائل، برتبة رقيب، في الخنادق.
بعد الحرب، جيرانها في القرية يقدمون لها الجميل بالوشاية بها إلى السلطات التي تحكم عليها بالإعدام.
قبل كل فجر كانت تنتظر رميها بالرصاص.
يمر الوقت.
ولا يعدمونها.
بعد سنوات، عندما تخرج من السجن، تبيع سجائر مهربة في مدريد، في محيط تمثال الربة سيبيل.

غيرنيكا

باريس، ربيع ١٩٣٦: بابلو بيكاسو يستيقظ ويقرأ.
يقرأ الجريدة بينما هو يتناول الفطور في مرسمه.
تبرد القهوة في فنجانه.
الطيران الألماني قصف مدينة غيرنيكا. وطوال ثلاث ساعات لاحقت الطائرات النازية بالرشاشات الناس الهاربين من بين النيران.
الجنرال فرانكو يؤكد أن غيرنيكا قد أحرقت على يد ناسفين أستوريين ومشعلي حرائق باسكيين منضوين في صفوف الشيوعيين.
بعد سنتين من ذلك، في مدريد، يكون فولفرام فون ريختهوفن، قائد القوات الألمانية في إسبانيا، برفقة فرانكو على منصة النصر: بقتل الإسبان، جرب هتلر حربه العالمية القادمة.
بعد سنوات طويلة من ذلك، في نيويورك، كولن باول يلقي خطاباً في الأمم المتحدة، ويعلن عن تدمير العراق الوشيك.
وبينما هو يتكلم، لا تظهر خلفية القاعة، غيرنيكا لا تظهر. نسخة لوحة بيكاسو التي تزين الجدار، غُطيت بالكامل بقطعة قماش زرقاء ضخمة.
سلطات الأمم المتحدة قررت أن تلك اللوحة ليست الخلفية المناسبة للإعلان عن مجزرة جديدة.

القومندان القادم من بعيد

برونيتي، صيف ١٩٣٧: في أوج المعركة، تهشم رصاصة صدر أوليفر لاو.
كان أوليفر زنجياً وأحمر وعاملاً. من شيكاغو جاء ليقاتل في سبيل الجمهورية الإسبانية، في صفوف لواء لينكولن.
لم يكن زنوج اللواء يشكلون كتيبة منفصلة. فلأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة كان البيض والزنوج مختلطين. ولأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة أيضاً، كان جنود بيض يطيعون أوامر قومندان زنجي.
إنه قومندان غريب الأطوار: عندما يُصدر أوليفر لاو أمراً بالهجوم، لا يراقب رجاله بمنظار، وإنما يندفع إلى الهجوم قبلهم.
ولكنهم غريبو الأطوار، في نهاية المطاف، جميع أولئك المتطوعين في الألوية الأممية الذين لا

يقاتلون من أجل الحصول على أوسمة، ولا من أجل احتلال أراض، ولا من أجل سرقة آبار بترول.
في بعض الأحيان كان أوليفر يتساءل:
- إذا كانت هذه الحرب حرب بيض، والبيض قد استعبدونا لقرون، فما الذي أفعله أنا هنا؟ ما الذي أفعله أنا الزنجي هنا؟
ويرد على نفسه:
- يجب كنس الفاشيين.
ثم يضيف ضاحكاً، كما لو أن ما يقوله نكتة:
- سيكون على بعضنا أن يموتوا وهم ينجزون هذا العمل.

رامون

البحر الأبيض المتوسط، خريف ١٩٣٨: رامون فرانكو يتفجر في الجو.
في العام ١٩٢٦ كان قد اجتاز المحيط الأطلسي من ويلبا في إسبانيا حتى بوينس آيرس، في طائرة تدعى بلوس أولترا. وبينما العالم كله يصفق لمأثرته، كان هو يحتفي بها في ليالي عربدة، يشرب المجد ويغني المارسييز ويلعن الملوك والباباوات.
ليس بعد زمن طويل من ذلك، انقض بطائرته على القصر الملكي في مدريد، ولم يلقِ القنابل لأن أطفالاً كانوا يلعبون في الحدائق.
وجمع وواصل: رفع الراية الجمهورية، وشارك في تمرد للفوضويين، وكان نائباً منتخباً عن الوطنيين الكتلانيين، ووشت به امرأة لأنه متزوج بامرأتين، مع أنه كان متزوجاً بثلاث في الواقع.
ولكن عندما تمرد أخوه فرانثيسكو فرانكو، أصيب رامون فرانكو فجأة بنوبة تعصب عائلي وانضم إلى صفوف أنصار الصليب والسيف.
بعد سنتين من الحرب، فُقدت بقايا الطائرة، طائرته، في مياه البحر المتوسط. كان رامون محملاً بالقنابل ومتوجهاً إلى برشلونة. كان ذاهباً ليقتل من كانوا رفاقه وليقتل المجنون الرائع الذي كانه هو نفسه.

ماتشادو

الحدود، شتاء ١٩٣٩، الجمهورية الإسبانية آخذة بالانهيار.

من برشلونة، من بين القنابل، يتمكن أنطونيو ماتشادو من الوصول إلى فرنسا.

إنه أشد هرماً من سنوات عمره.

يسعل، يمشي مستنداً إلى عكاز.

يطل على البحر.

وعلى قصاصة يكتب:

شمس الطفولة هذه.

إنه الشيء الوحيد الذي يكتبه.

ماتيلدي

سجن بالما دي مايوركا، خريف ١٩٤٢: النعجة الضالة.

كل شيء جاهز. السجينات ينتظرن في صف عسكري. يصل المطران والحاكم المدني. فاليوم، ماتيلدي لاندا، الحمراء وزعيمة الحمر، الملحدة راسخة المعتقد والمعترفة به، ستتحول إلى الإيمان الكاثوليكي وستتلقى سرّ التعميد المقدس. وستنضم النادمة إلى قطيع الرب، بينما سيخسر الشيطان واحدة من أتباعه.

الوقت يتأخر.

ماتيلدي لا تظهر.

إنها في العلية، ولا أحد يراها.

ومن هناك، من أعلى تلقي بنفسها.

الجسد يفرقع، مثل قنبلة، على أرضية فناء السجن.

لا أحد يتحرك.

تُنجز الطقوس المهيأة مسبقاً.

يرسم المطران إشارة الصليب، ويقرأ صفحة من الأناجيل، يدعو ماتيلدي إلى إنكار الشيطان. يرتل فعل الإيمان ويلمس جبهتها بماء مقدس.

أرخص السجون في العالم

فرانكو يوقّع أحكام الإعدام، كل صباح، أثناء تناوله الفطور. من لم يُعدموا رمياً بالرصاص، سُجنوا. المحكومون بالإعدام يحفرون قبورهم بأنفسهم، والسجناء يبنون سجونهم بأنفسهم. تكاليف اليد العاملة، لا وجود لها. السجناء الجمهوريون الذين شيدوا سجن كاراباتشيل المشهور في مدريد، وسجون أخرى كثيرة في كل أنحاء إسبانيا، كانوا يعملون ما لا يقل أبداً عن اثنتي عشرة ساعة يومياً، مقابل حفنة من قطع العملة، معظمها غير مرئية. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يتلقون أجوراً أخرى: بهجة المساهمة في تجددهم السياسي، وتقصير فترة الحكم عليهم بالبقاء أحياء، لأن السل سيقضي عليهم بسرعة.

طوال سنوات وسنوات، كان عمل آلاف وآلاف المجرمين، المذنبين بأنهم قاوموا الانقلاب العسكري، لا يقتصر على بناء السجون. فقد أُجبروا كذلك على إعادة بناء قرى مدمرة، وبناء سدود، وقنوات ري، وموانىء، ومطارات، واستادات، وحدائق، وجسور، وطرقات، وقد مدوا خطوط سكك حديد جديدة، وخلّفوا فتات رئاتهم في مناجم الفحم والزئبق والأمينت والقصدير.

ومدفوعين بحراب البنادق، شيدوا كذلك نصب وادي الشهداء الضخم، تكريماً لجلاديهم.

انبعاث الكرنفال

الشمس تطلع في الليل. الموتى يهربون من قبورهم.

أي مهرج هو ملك. مستشفى المجانين يُنصّب الملوك.

المتسولون هم السادة. والسيدات يُطلقن لهيباً.

وأخيراً، عندما يحل يوم أربعاء الرماد، يخلع الناس الأقنعة، وهي أقنعة لا تكذب، ويعيدون وضع وجوههم، حتى العام التالي.

في القرن السادس عشر، أصدر الإمبراطور كارلوس في مدريد مرسوم عقاب الكرنفال وانحلاله: إذا كان الشخص من الطبقة الدنيا، يُجلد مئة جلدة أمام الملأ. وإذا كان نبيلاً، يُنفى ستة شهور...

بعد أربعة قرون من ذلك، حظر الجنراليسمو فرانثيسكو فرانكو الكرنفال في واحد من مراسيمه الحكومية الأولى.

يا للكرنفال الوثني العصي على الهزيمة: كلما حظروه أكثر، يعود بقوة أكبر.

ممنوع أن تكون زنجياً

هايتي وجمهورية الدومينيكان بلدان يفصل بينهما نهر يدعى نهر ماسكارا (قناع).

وكان يسمى هكذا في العام ١٩٣٧، ولكن تكشف أن الاسم كان نبوءة: فعلى ضفاف ذلك النهر، سقط قتلاً بمناجل الماتشيتي آلاف العمال الهايتيين الذين كانوا يعملون بقطع قصب السكر، في الجانب الدومينيكاني. الجنراليسمو رافائيل ليونيداس تروخييّو، وجه الفأر، قبعة نابليون، أصدر أمر إبادة أولئك الزنوج، من أجل تبييض السلالة وتطهير دمه هو نفسه غير النقي.

الصحف الدومينيكانية لم تعلم بهذا الخبر. ولا الصحف الهايتية أيضاً. بعد ثلاثة أسابيع من الصمت، نُشر شيء ما، بضعة سطور قليلة، وحذّر تروخييّو من أنه يجب عدم المبالغة، فالموتى لم يكونوا أكثر من مئتي ألف.

وبعد جدال طويل، انتهى إلى دفع خمسة وعشرين دولاراً مقابل كل ميت.

وقاحة

في الدورة الأولمبية لعام ١٩٣٦، هُزمت بلاد مسقط رأس هتلر أمام منتخب البيرو بكرة القدم.

الحكم الذي ألغى ثلاثة أهداف، فعل كل ما يستطيعه، وأكثر، ليجنب الفوهرر ذلك الإزعاج، ولكن النمسا خسرت ٤/ ٢.

في اليوم التالي وضعت سلطات كرة القدم الأمور في نصابها.

أُلغيت المباراة. ليس لأن الهزيمة تجعل النتيجة غير مقبولة أمام خط هجوم يُسمى، لسبب ما، المدحلة السوداء، وإنما لأن الجمهور، بحسب تلك السلطات، اندفع إلى الملعب قبل انتهاء المباراة.

غادرت البيرو الدورة الأولمبية، واحتل فريق هتلر الموقع الثاني في المنافسة.

وإيطاليا، إيطاليا موسوليني، كسبت الموقع الأول.

زنجي مجنح

في تلك الدورة الأولمبية التي نظمها هتلر كي يكرس تفوق عرقه، كان النجم الأشد تألقاً زنجياً، حفيد عبيد، مولوداً في ألاباما.

ولم يجد هتلر مفراً من ابتلاع أربعة ضفادع: الميداليات الذهبية الأربع التي نالها أوينز في الجري والقفز العريض.

العالم بأسره احتفى بتلك الانتصارات للديمقراطية على العنصرية.

عندما رجع البطل إلى بلاده، لم يتلق أية تهنئة رئاسية، ولم يدعَ إلى البيت الأبيض. ورجع إلى ما كان عليه دائماً:

صعد إلى الحافلات من الباب الخلفي.

أكل في مطاعم للزنوج.

استخدم حمامات للزنوج.

نزل في فنادق للزنوج.

وعاش لسنوات يكسب لقمة عيشه بالجري مقابل النقود. وقبل أن تبدأ بطولات البيسبول، كان البطل الأولمبي يسلي الجمهور بالتسابق مع أحصنة، وكلاب، وسيارات، ودراجات نارية. وفي ما بعد، عندما لم تعد الساقان ما كانتا عليه، تحول أوينز إلى محاضر، وقد لقي نجاحاً كبيراً في تشجيع الفضائل الوطنية، والدين والأسرة.

نجم أسود

البيسبول كان شأناً من شؤون البيض.

في ربيع ١٩٤٧، خرق جاكي روبينسون، وهو حفيد عبيد أيضاً، ذلك القانون غير المكتوب، ولعب في تصفيات الدوري الكبرى وكان الأفضل بين الأفضلين.

دفع الثمن غالياً. كانت أخطاؤه تُحسب مضاعفة، وإصاباته تساوي النصف. لم يكن زملاؤه يكلمونه، والجمهور يدعوه للعودة إلى الأدغال، وأبناؤه يتلقون تهديدات بالقتل.

وكان يتحمل ابتلاع السم.

وبعد سنتين، حظرت الكوكلاكس كلان مباراة فريق مراوغي بروكلين، وهو فريق جاكي، التي سيلعبها في أتلانتا. ولكن الحظر لم يتحقق. زنوج وبيض صفقوا لجاكي روبينسون حين دخل إلى ميدان اللعب، وعندما خرجت لحقت به حشود. كي تعانقه، لا لتشنقه.

دم أسود

كان دم خروف هو أول ما استُخدم في عمليات نقل الدم، وانتشرت إشاعة تقول إن ذلك الدم يؤدي إلى نمو صوف على البدن. في العام ١٦٧٠، حظرت أوروبا إجراء تلك التجارب.

بعد زمن طويل من ذلك، في العام ١٩٤٠، أضافت أبحاث تشارلز دريو تقنيات جديدة لمعالجة وتخزين البلازما. ولتميز أبحاثه التي أنقذت ملايين الحيوات خلال الحرب العالمية الثانية، عُيِّن دريو أول مدير لبنك دم الصليب الأحمر في الولايات المتحدة.

ثمانية شهور بقي في المنصب.

ففي العام ١٩٤٢، حظر أمر عسكري اختلاط الدم الأسود بالدم الأبيض في عمليات نقل الدم.

دم أسود؟ دم أبيض؟ ما هذا إلا محض سخافة، قال دريو، ورفض تمييز الدماء.

إنه يفهم في الموضوع: فقد كان عالماً، وكان زنجياً.

وعندئذ استقال، أو أقالوه.

صوت أسود

شركة كولومبيا رفضت تسجيل الأغنية، فاضطر المؤلف إلى توقيعها باسم آخر.

ولكن عندما غنت بيللي هوليدي أغنية Strange fruit، سقطت حواجز الرقابة والخوف.

لقد غنت بعينين مغمضتين وكانت الأغنية نشيداً دينياً بفضل نعمة ذلك الصوت المولود لغنائها، ومنذ ذلك الحين تحول كل زنجي مشنوق باللنشنغ إلى ما هو أكثر من ثمرة غريبة معلقة بشجرة، تتعفن تحت الشمس.

بيللي،

من كانت تتوصل وهي في الرابعة عشرة من عمرها إلى تحقيق معجزة الصمت في مواخير هارلم الصاخبة، حيث كانت تقايض موسيقى مقابل الطعام،

ومن كانت تخبىء سكيناً تحت تنورتها،

من لم تستطع الدفاع عن نفسها من ضرب عشاقها وأزواجها.

من عاشت سجينة المخدرات والسجن،

من كان جسدها قد تحول إلى خريطة وخزات إبر وقروح،

من كانت تغني على الدوام كما لم يغنِ أحد.

النجاة من العقاب هي ابنة النسيان

الإمبراطورية العثمانية كانت تسقط فتاتاً، والأرمن هم من دفعوا الثمن. فبينما الحرب العالمية الأولى تدور، قضت مجزرة منظمة على نصف أرمن تركيا:

بيوت منهوبة ومحروقة. قوافل من العراة ألقي بهم إلى الدروب بلا ماء ولا أي شيء. نساء يُغتصبن في وضح النهار في ساحة القرية. أجساد مقطعة الأطراف تطفو في الأنهار.

من لم يمت من العطش أو الجوع أو البرد، مات بسكين أو رصاصة. أو بمشنقة. أو بالدخان: فالأرمن المطرودون من تركيا، حُبسوا في مغاور في الصحراء وخُنقوا بالدخان، في ما يشبه نبوءة بحجرات الغاز في ألمانيا النازية.

بعد عشرين عاماً، كان هتلر ينظم، مع مستشاريه، عملية غزو بولونيا. وفي قياس لسلبيات وإيجابيات العملية، لاحظ هتلر أن هنالك اعتراضات، فقد تنفجر فضيحة عالمية، صراخ ما، ولكنه أكد أن مثل ذلك الصخب لا يستمر طويلاً، وسأل مؤكداً:

– من الذي يتذكر الأرمن؟

ممنوع أن تكون غير فعال

كان البيت ملاصقاً للمصنع. ومن نافذة غرفة نومه كانت تُرى المداخن.

المدير يرجع إلى البيت كل ظهيرة، يجلس إلى جانب امرأته وأبنائه الخمسة، يصلي "أبانا الذي في السماء"، يتناول الغداء، وبعد ذلك يجول في الحديقة على الأشجار، والأزهار، والدجاجات، والعصافير المغردة، ولكنه لا يرفع بصره لحظة واحدة عن حسن سير الإنتاج الصناعي.

كان أول من يصل إلى المصنع وآخر من يغادر. إنه محترم ومرهوب، يظهر في أي وقت، دون إشعار مسبق، في أي مكان.

لم يكن يطيق تبديد الموارد. ارتفاع التكاليف وانخفاض الإنتاجية تسبب المرارة في حياته. ويشعر بالغثيان من نقص النظافة والنظام. يمكن له أن يغفر أي خطيئة. ولكنه لا يغفر عدم الفعالية.

كان هو من استبدل حمض الكبريت وأول أكسيد الكربون بغاز "زيكلون ب" الصاعق، وكان هو من ابتدع أفران حرق أكثر إنتاجية بعشر مرات في القتل وفي وقت أقصر، وكان هو من أبدع أفضل مركز للإبادة في تاريخ البشرية كله.

في العام ١٩٤٧، شُنق رودولف هيس في أوشفيتز، معسكر الاعتقال الذي شيده هو نفسه وأداره، وقد شُنق بين الأشجار المزهرة الذي خصها ببعض قصائده.

مينغليه

لأسباب تتعلق بالنظافة، كانت هنالك عند مدخل حجرات الغاز شِباك حديدية. وعليها كان الموظفون ينظفون الوحل عن أحذيتهم.

أما المحكومون بالمقابل فيدخلونها حفاة. يدخلون من الباب ويخرجون من المداخن، بعد أن يُجردوا من أسنانهم الذهبية، والشحم، والشعر، وكل ما يمكن أن يكون ذا قيمة.

وهناك، في أوشفيتز، كان الدكتور جوزيف مينغليه يقوم بتجاربه.

ومثل علماء نازيين آخرين، كان يحلم بمداجن تفريخ قادرة على توليد العرق البشري المستقبلي الخارق. ومن أجل الدراسة وتجنب الشوائب والعيوب الموروثة، كان يشتغل على ذبابات بأربعة أجنحة، وعلى فئران بلا قوائم، وعلى أقزام ويهود. ولكن لم يكن هنالك ما يستثير شغفه مثل الأطفال التوائم.

كان مينغل يوزع شوكولاتة وتربيتات حانية على أرانب تجاربه من الأطفال، بالرغم من أنهم لم ينفعوا في توصله إلى نتائج مفيدة لتطور العلم.

حاول تحويل بعض التوائم إلى أخويين سياميين، فكان يشق ظهورهم كي يصل بين أوردتهم؛ فماتوا منفصلين وهم يصرخون من الألم.

وحاول استبدال جنس آخرين؛ فماتوا مبتوري الأعضاء.

وأجرى لآخرين عمليات في الحبال الصوتية، من أجل استبدال أصواتهم؛ فماتوا بكماً.

ومن أجل تجميل العرق، حقن صبغة زرقاء في التوائم ذوي العيون السوداء؛ فماتوا عمياناً.

الرب

في معسكر الاعتقال في فلوسينبرغ، يُسجن ديتريش بونهوفر.

الحراس يجبرون السجناء جميعاً على حضور تنفيذ حكم الإعدام بثلاثة محكومين.

إلى جانب ديتريش، يهمس أحدهم:

– والرب، أين هو؟

فيشير، وهو اللاهوتي، إلى المشنوقين الذين يتأرجحون على ضوء الفجر.

– هناك.

بعد أيام، يجيء دوره.

أحبني كثيراً

أصدقاء هتلر سيئو الذاكرة، ولكن المغامرة النازية ما كانت ممكنة دون العون الذي تلقته منهم.
فمثل زميليه موسوليني وفرانكو، اعتمد هتلر على رضا الكنيسة الكاثوليكية المبكر.
هوغو بوس زار جيشه.
بيرتيلسمان نشر المؤلفات التي دربت ضباطه. طائراته كانت تحلق بفضل وقود ستاندر أويل وجنوده كانوا يتنقلون في شاحنات وسيارات جيب ماركة فورد.
هنري فورد، صانع تلك السيارات ومؤلف كتاب "اليهودي العالمي" كان ملهمه. وقد شكره هتلر بتقليده وساماً.
وقلد وساماً أيضاً لرئيس شركة IBM التي جعلت تحديد هوية اليهود أمراً ممكناً.
مؤسسة روكفلر، موّلت أبحاثاً عرقية وعنصرية للطب النازي.
جو كينيدي، أبو الرئيس، كان سفيراً للولايات المتحدة في لندن، ولكنه كان يبدو أقرب إلى أن يكون سفيراً لألمانيا. وبرسكوت بوش، أبو وجد الرئيسين، كان متعاوناً مع فريتز تيسين الذي وضع ثروته في خدمة هتلر.
والدوتش بنك موّل بناء معسكر الاعتقال في أوشفيتز.
مجموعة كونسوسيوم "إغي فاربن" عملاق الصناعة الكيميائية الألمانية، التي تحول اسمها بعد ذلك إلى باير، أو باسف، أو هيخست، كانت تستخدم سجناء معسكرات الاعتقال كأرانب اختبار، وتستخدمهم كذلك كيد عاملة. وكان هؤلاء العبيد يُنتجون كل شيء، بما في ذلك الغاز الذي سيقتلهم.
كان السجناء يعملون أيضاً لشركات أخرى، مثل كروب، وتيسين، وسيمنز، وفارتا، وبوش، ودايملر بنز، وفوكسفاغن، وBMW، التي كانت تشكل القاعدة الاقتصادية للهذيان النازي.
المصارف السويدية كسبت أموالاً طائلة بشرائها من هتلر ذهب ضحاياه: حلاهم وأسنانهم.
كان الذهب يدخل إلى سويسرا بسهولة مذهلة، بينما كانت الحدود مغلقة بإحكام أمام الهاربين الذين من لحم وعظم.
كوكاكولا اخترعت مشروب "فانتا" من أجل السوق الألماني في أوج الحرب. وفي تلك الفترة أيضاً ضاعفت شركات يونليفل، ووستنغهاوس، وجنرال إلكتريك استثماراتها وأرباحها هناك. وعندما انتهت الحرب، تلقت شركة ITT تعويضاً مليونياً لأن قصف الحلفاء ألحق أضراراً بمصانعها في ألمانيا.

صورة: راية النصر

جزيرة إيو جيما، بركان سوريباتشي، شباط ١٩٤٥.

ستة من جنود المارينز يرفعون راية الولايات المتحدة على قمة البركان التي انتهوا من الاستيلاء عليها بعد معركة قاسية ضد اليابانيين.

هذه الصورة التي التقطها جو روزينثال ستتحول إلى رمز للوطن المنتصر في هذه الحرب وفي الحروب التالية، وستُستنسخ ملايين المرات في الملصقات والطوابع البريدية وحتى في سندات الخزينة. الحقيقة أنها الراية الثانية في ذلك اليوم نفسه. فالأولى، كانت صغيرة جداً وغير مناسبة للصور الملحمية، وقد غُرست قبل ساعات من ذلك، دون أية استعراضية. وعندما التقطت الصورةُ ذلك الانتصار، لم تكن المعركة قد انتهت بعد، وإنما كانت قد بدأت للتو. ثلاثة من أولئك الجنود لن يعودوا أحياء. وسبعة آلاف مارينز آخرين سيموتون في تلك الجزيرة الصغيرة جداً في المحيط الهادئ.

صورة: خريطة العالم

ساحل القرم، يالطا، شباط ١٩٤٥.

يجتمع المنتصرون في الحرب العالمية الثانية.

تشرشل، وروزفلت، وستالين يوقعون اتفاقيات سرية. القوى العظمى تقرر مصير عدة بلدان ستحتاج لسنتين أخريين كي تعرف ما جرى. بعضها سيظل رأسمالياً، وبعضها الآخر سيصير شيوعياً، كما لو أن مثل تلك القفزة التاريخية المهولة يمكن أن تُختزل في استبدال اسم يُقرر من الخارج ومن فوق.

ثلاثة أشخاص يرسمون خريطة العالم، يؤسسون الأمم المتحدة ويخصون أنفسهم بحق الفيتو الذي يضمن لهم سلطة مطلقة.

كاميرتا ريتشارد سارنو وروبرت هوبكنز تسجلان ابتسامة تشرشل غير المبالية، ووجه روزَفلت الذي بدأ الموت يزوره، وعيني الماكر ستالين.

كان ستالين لا يزال العم جو، ولكنه عما قريب سيؤدي دور الوغد في الفيلم المسمى الحرب الباردة قريبة التدشين.

صور: راية نصر أخرى

برلين، الرايخشتاغ، أيار ١٩٤٥.

جنديان يرفعان علم الاتحاد السوفييتي فوق قبة السلطة الألمانية. هذه الصورة التي التقطها يفغيني جالدي، تصور انتصار الأمة التي فقدت من أبنائها أكثر من الجميع في الحرب.

وكالة تاس وزعت الصورة. ولكنها قبل ذلك قامت بتصحيحها. فالجندي الروسي الذي يضع ساعتين في معصمه صار يضع ساعة واحدة. فمحاربو البروليتاريا لا يسطون على الجثث.

أبو البنسلين وأمه

كان يسخر من شهرته. واعتاد ألكسندر فيلمينغ أن يقول إن من اخترع البنسلين هي الجراثيم التي تسللت إلى حوض استنبات آخر مستغلة الفوضى السائدة في مختبره. وكان يقول إن امتياز اختراع المضادات الحيوية ليس له، وإنما هو للباحثين الذين حوّلوا ذلك الفضول العلمي إلى عقار عملي.

بمساعدة الجرثومة الدخيلة، اكتشف فيلمينغ البنسلين عام ١٩٢٨. لم يلتفت أحد لأقواله. وتطور عقار البنسلين بعد سنوات من ذلك. وكان ابن الحرب العالمية الثانية. كانت الالتهابات تقتل أكثر من القنابل، وكان الألمان يتميزون عن الآخرين منذ اخترع غيرهارد دوماك عقار السلفاميد. وتحول إنتاج البنسلين إلى مسألة ملحة ومستعجلة بالنسبة للحلفاء. فالصناعة الطبية، وقد تحولت إلى صناعة حربية، مجبرة على إنقاذ حيوات وقتل حيوات أيضاً.

انبعاث فيفالدي

أنطونيو فيفالدي وعزرا باوند، رجلا شُعورٍ طويلة ملتهبة ومشتعلة، خلّفت خطواتهما أثراً عميقاً. العالم سيكون أقل قابلية للحياة لو لم توجد موسيقى فيفالدي وأشعار باوند.

موسيقى فيفالدي ظلت صامتة لقرنين.

باوند استعاده. تلك الألحان التي كان العالم قد نسيها كانت تفتتح وتغلق برنامج الشاعر الإذاعي الذي كان يبث دعاية فاشية، من إيطاليا، باللغة الإنكليزية. البرنامج الإذاعي كسب مناصرين قليلين لموسوليني، إن كان قد كسب أحدهم. ولكنه اجتاح محبين كثيرين لموسيقِيٍّ فينيسيا.

عندما انهارت السلطة الفاشية، وقع باوند أسيراً. عسكريو الولايات المتحدة، بلاده، حبسوه في قفص أسلاك شائكة، في العراء، كي يرميه الناس بقطع عملة ويبصقوا عليه، ثم أرسلوه بعد ذلك إلى مستشفى المجانين.

صور: فطر كبير كالسماء

سماء هيروشيما، آب ١٩٤٥.

الطائرة ب - ٢٩ تدعى "إينولا غاي"، مثل اسم والدة الطيار.

"إينولا غاي" تحمل طفلة في بطنها. الوليدة تدعى "الطفل الصغير" Little Boy، طولها ثلاثة أمتار ووزنها أكثر من أربعة أطنان.

في الساعة الثامنة والربع صباحاً، تسقط. تحتاج إلى دقيقة كي تصل. الانفجار يعادل قوة أربعين مليون إصبع ديناميت.

وهناك حيث كانت هيروشيما، ترتفع سحابة ذرية. من مؤخرة الطائرة، يُطلق المصور العسكري جورج كارون كاميراته.

ذلك الفطر الأبيض الهائل، البديع، يتحول إلى شعار "لوغو" لخمس وخمسين مؤسسة في نيويورك، ولمسابقة ملكة جمال القنبلة الذرية في لاس فيغاس.

في العام ١٩٧٠، بعد ربع قرن، تُنشر أول مرة بعض صور ضحايا الإشعاعات، بعد أن كانت سراً عسكرياً.

في العام ١٩٩٥،تعلن مؤسسة سميثسونيان في واشنطن عن معرض كبير حول انفجاري هيروشيما وناغازاكي.

الحكومة تمنع المعرض.

الفطر الآخر

بعد ثلاثة أيام من هيروشيما، طائرة ب - ٢٩ أخرى فوق اليابان.

الهدية التي تحملها أكثر بدانة، وتدعى "الرجل البدين" Fat Man.

الخبراء يريدون أن يجربوا حظهم مع البلوتونيوم بعد تجربة اليورانيوم في هيروشيما. ولكن سقفاً من الغيوم يغطي كوكورا، المدينة المختارة. وبعد الدوران ثلاث مرات دون جدوى، تغيّر الطائرة وجهتها. سوء الحالة الجوية وقلة الوقود يحسمان أمر إبادة ناغازاكي.

وكما في هيروشيما، آلاف وآلاف القتلى هم من المدنيين. وكما في هيروشيما، آلاف آخرون سيموتون في ما بعد. لقد طلع فجر العصر الذري، وولد مرض جديد، إنه آخر صرعات الحضارة: التسمم بالإشعاعات الذي سيواصل، بعد كل انفجار، قتل الناس لقرون وقرون.

أبو القنبلة

القنبلة الذرية الأولى جُربت في صحراء نيو مكسيكو. السماء اشتعلت، وروبرت أوبينهايمر الذي قاد الاختبارات، شعر بالفخر بعمله المتقن.

ولكن بعد ثلاثة شهور من الانفجارين في هيروشيما وناغازاكي، قال أوبينهايمر للرئيس هاري ترومان:

- أشعر أن يديّ ملوثتان بالدم.

والرئيس ترومان قال لوزير خارجيته دين أشيسون:

- لا أريد أن أرى بعد اليوم ابن القحبة هذا في مكتبي.

صور: أحزن عينين في العالم

نيو جرسي، برنستون، أيار ١٩٤٧.

المصور فيليب هالسمان يسأله:

- أتظن أن السلام سيعم؟

وبينما الكاميرا تُطلق صوت "كليك"، يقول ألبرت أينشتاين، أو يهمس:

- لا.

يظن الناس أن أينشتاين تلقى جائزة نوبل عن نظريته في النسبية، وأنه صاحب العبارة الشهيرة: كل شيء نسبي، وأنه مخترع القنبلة الذرية.

الحقيقة أنه لم يُمنح جائزة نوبل عن نظريته في النسبية ولم يقل قطّ تلك العبارة. ولم يكن كذلك مخترع القنبلة، مع أن حدوث ما جرى في هيروشيما وناغازاكي لم يكن ممكناً لو لم يكتشف ما اكتشفه.

وقد كان يعرف جيداً أن حصيلة أبحاثه التي ولدت من الاحتفال بالحياة، قد أدت إلى تدميرها.

لم يكونوا أبطال هوليود

الاتحاد السوفييتي قدم القتلى.

هذا ما تتفق عليه كافة الإحصائيات حول الحرب العالمية الثانية. في تلك الحرب، الأكثر دموية في التاريخ، الشعب الذي أذل نابليون جعل هتلر يعض تراب الهزيمة. ومرتفعاً جداً كان الثمن: القتلى السوفييت كانوا أكثر من نصف مجموع قتلى كل البلدان المتحالفة مجتمعة وأكثر من ضعف قتلى دول المحور المعادي كلها.

بعض الأمثلة، بأرقام دون كسور:

حصار لنينغراد قَتَلَ مليون شخص جوعاً.

معركة ستالينغراد خلّفت سلسلة من ثمانمئة ألف سوفييتي بين قتيل وجريح.

في الدفاع عن موسكو، سقط سبعمئة ألف، وسبعمئة ألف في معركة كوسك.

وفي احتلال برلين سقط مئتا ألف.

وعبور نهر الدنيبر كلف من الضحايا عشرة أضعاف من سقطوا في إنزال النورماندي، ولكنه كان أقل شهرة بمئة مرة.

قياصرة

إيفان الرهيب، أول قيصر لعموم روسيا، بدأ مسيرته منذ طفولته، عندما أمر بقتل الأمير الذي يرافقه، وأنهاها، بعد أربعين سنة من ذلك، بتهشيم جمجمة ابنه بعصا.

وما حدث بين نقطتي الطريق هاتين، اكسبه شهرته.

محاربو حراسه الأسود، ذوي الخيول السوداء، والعباءات الطويلة السوداء، كانوا يبعثون الخوف حتى في الحجارة.

مدافعه الهائلة، وحصونه المتينة التي لا تُهزم، وعادته بإطلاق تسمية خونة على كل من لا ينحنون لدى مروره، وميله إلى قطع أعناق أشد ندمائه موهبة، وكاتدرائيته المسماة القديس باسيل، رمز موسكو، شيدها كي يقدم للرب غزواته الإمبراطورية.

وإرادته في أن يكون حجر زاوية المسيحية في الشرق،

وأزماته الصوفية الطويلة، حين يندم ويبكي دماً، ويضرب صدره، ويخمش الجدران، ويولول متوسلاً الغفران عن ذنوبه.

بعد أربعة قرون من ذلك، في أشد ساعات الحرب العالمية الثانية مأساوية، في ذروة الغزو

الألماني، كلف ستالين السينمائي سيرغي إيزشتاين بصنع فيلم عن إيفان الرهيب.
صنع إيزشتاين فلماً فنياً.
كان التكليف بعمل دعائي، ولم يفهم إيزشتاين ذلك: ستالين الرهيب، قيصر عموم روسيا الأخير، السوط الذي لا يستكين ضد أعدائه، أراد أن يحوّل إلى مأثرة شخصية تلك المقاومة الوطنية للهجمة النازية. فتضحية الجميع تلك لم تكن ملحمة الكرامة الجماعية، وإنما هي الإلهام العبقري لمختار وحيد، والعمل البارع للكاهن الأعلى لديانة تسمى الحزب ولرب يسمى الدولة.

تموت حرب، وحرب أخرى تولد

في ٢٨ نيسان ١٩٤٥، بينما كان موسوليني يتأرجح معلقاً ورأسه إلى أسفل، في ساحةٍ بميلان، كان هتلر مزروباً في ملجأ محصن ببرلين. كانت المدينة تشتعل باللهيب، والقنابل تنفجر قريباً جداً، ولكنه كان يضرب المنضدة بقبضته ويصرخ بالأوامر إلى لا أحد، ويشير بإصبعه إلى الخريطة ويأمر بنشر قوات لا وجود لها، وبالهاتف الذي لا يعمل يدعو جنرالاته الميتين أو الفارين إلى اجتماع.
في الثلاثين من نيسان، أطلق هتلر رصاصة على نفسه، بينما كان العلم السوفييتي يرفرف فوق الرايخشتاغ. وفي ليلة السابع من أيار، استسلمت ألمانيا.
في الثامن من أيار، منذ الصباح الباكر، ملأت الحشود شوارع مدن العالم. لقد كانت نهاية كابوس عالمي، بعد ست سنوات وخمسة وخمسين مليون قتيل.
الجزائر أيضاً كانت احتفالاً. جنود جزائريون كثيرون فقدوا حياتهم أيضاً من أجل الحرية، حرية فرنسا، في الحربين العالميتين.
في مدينة صطيف، وفي أوج الاحتفال، ارتفعت، بين الرايات المنتصرة، الراية المحظورة من السلطات الاستعمارية. الراية الخضراء والبيضاء، الرمز الوطني للجزائر الذي أعلنته المظاهرة، وشاب جزائري يدعى صائل بوزيد استشهد ملتفاً بها، ومخترقاً بالرصاص. زخة الرصاص قتلته من الخلف.
وانفجر الغضب.
في الجزائر وفي فيتنام وفي كل الأنحاء.
نهاية الحرب العالمية كانت تنير انتفاضة المستعمرات. فالرعايا الذين كانوا لحم المدافع في الخنادق الأوروبية، انتفضوا ضد أسيادهم.

هُو

لم يتغيب أحد.

الجميع حضروا إلى الساحة.

فلاح هزيل، عظمي، له لحية جَدْي، تكلم إلى الحشد المجتمع في هانوي.

كانت له أسماء كثيرة. واسمه الآن هو شي مين.

كان رجل كلمات متقطعة وناعمة، مثل خطواته. دون تعجل كان قد جاب كثيراً من العالم وتجاوز الكثير من المحن. وبدا كما لو أنه يتحدث إلى جيران في الضيعة عندما قال للحشد الهائل:

- تحت راية الحرية والمساواة والإخاء، بنت فرنسا في بلادنا سجوناً أكثر من المدارس.

كان قد أفلت من المقصلة، وسُجن عدة مرات، ووضعت السلاسل الثقيلة في قدميه. وكانت بلاده لا تزال أسيرة، ولكن لا، أبداً: في ذلك الصباح من أيلول العام ١٩٤٥، أعلن هو شي مين الاستقلال. بهدوء، ببساطة، قال:

- إننا أحرار.

وأعلن:

- لن نُذل بعد اليوم. أبداً!

ضجت الساحة.

هشاشة هوشي منه القوية كانت تتضمن طاقة أرضه المسلحة، مثله، بالألم والصبر.

من كوخه الخشبي، قاد "هو" حربيّ تحرير طويلتي الأمد.

قتله السل قبل أن يرى الانتصار النهائي.

كان يريد لرماده أن يُنثر بحرية مع الريح، لكن رفاقه حوّلوه إلى مومياء وحبسوه في ناووس من بلور.

لم يكن هدية

على امتداد ثلاثين عاماً من الحرب، وجهت فيتنام ضربات رهيبة إلى قوتين إمبرياليتين: هزمت فرنسا وهزمت الولايات المتحدة.

عظمة وهول الاستقلال الوطني:

عانت فيتنام من قنابل تزيد على كل القنابل التي أُلقيت خلال الحرب العالمية الثانية.

وعلى غاباتها وحقولها سُكب أكثر من ثمانين مليون لتر من المبيدات الكيماوية.

ومات أكثر من مليوني فيتنامي.

ولا حصر لأعداد مشوهي الحرب، والقرى المهدمة، والغابات المدمرة، والأراضي القاحلة والسموم التي ورثتها الأجيال التالية.

الغزاة تصرفوا بإفلات من العقاب يمنحه التاريخ وتضمنه القوة.

كشف متأخر: في العام ٢٠٠٦، بعد حوالي أربعين عاماً من السرية، عُرف بوجود تقرير من تسعة آلاف صفحة يتضمن تحقيقات دقيقة للبنتاغون. ويُثبت التقرير أن جرائم حرب قد ارتكبت ضد السكان المدنيين، وقد اقترفتها جميع الوحدات العسكرية الأمريكية في فيتنام.

الإعلام الموضوعي

في البلدان الديمقراطية، واجب الموضوعية يوجه وسائل الاتصال الجماهيري.

وتتلخص الموضوعية في نشر وجهات نظر كل طرف من الأطراف المتورطة في حالة نزاع.

في سنوات الحرب في فيتنام، قدمت وسائل الاتصال الجماهيري في الولايات المتحدة إلى الرأي العام موقف حكومتها وكذلك موقف العدو.

جورج بايلي الفضولي في هذه الأمور، حَسَبَ الوقت المكرس لكل جانب في القنوات التلفزيونية ABC، وCBS، وNBC بين عامي ١٩٦٥ و١٩٧٠: وجهة نظر البلد الغازي شغلت سبعة وتسعين بالمئة من الوقت، ووجهة نظر البلد المغزو شغلت ثلاثة بالمئة.

سبعة وتسعون مقابل ثلاثة.

للمغزوين واجب معاناة ويلات الحرب، وللغازين الحق بروايتها.

الإعلام يصنع الواقع، وليس العكس.

ملح هذه الأرض

في العام ١٩٤٧ تحولت الهند إلى بلد مستقل.

عندئذ بدلت رأيَها الصحفُ الهندية الكبرى المكتوبة بالإنكليزية التي كانت قد سخرت من المهاتما غاندي، شخص ضئيل مضحك، عندما أطلق مسيرة الملح في العام ١٩٣٠.

كانت الإمبراطورية البريطانية قد أقامت سوراً من الجذوع بطول أربعة آلاف وستمئة كيلومتر، بين الهملايا وساحل أوريسا، لتمنع مرور الملح من تلك الأراضي. فحرية المنافسة تمنع الحرية: الهند ليست حرة في استخدام ملحها، حتى وإن كان أفضل من الملح المستورد من ليفربول وأرخص منه ثمناً.

ومع الوقت، شاخ الجدار ومات. ولكن الحظر تواصل، وضد هذا الحظر أطلق مسيرتَه رجلٌ ضئيل، عظميٌّ، ضعيف البصر، يمضي شبه عارٍ، ويمشي مستنداً إلى عصا من البامبو.

على رأس عدد ضئيل من الحجاج، بدأ المهاتما غاندي مسيرة باتجاه البحر. وبعد شهر، بعد كثير من المسير، كان يرافقه حشد غفير. وعندما وصلوا إلى الساحل، حمل كل واحد منهم حفنة ملح. وهكذا، خرق كل واحد منهم القانون. وكان العصيان المدني ضد الإمبراطورية البريطانية.

بعض العصاة سقطوا برصاص الرشاشات وأكثر من مئة ألف اقتيدوا معتقلين.

بلادهم أيضاً كانت معتقلة.

بعد سبعة عشر عاماً من ذلك، حررها العصيان.

التربية في أزمنة فرانكو

قام أندريس سوبينيا مونسالفي بمراجعة لكتبه المدرسية.

* حول الإسبان والعرب واليهود: ونعلن عالياً أيضاً أن إسبانيا لم تكن بلداً متخلفاً قط، فمنذ بداية الأزمنة حققت اختراعات مفيدة مثل نعال الخيل، وعلمتها لشعوب الأرض الأكثر تقدماً.

على الرغم من أن العرب، عند مجيئهم إلى إسبانيا، لم يكونوا إلا محاربين بسطاء وقساة من الصحراء، إلا أن اتصالهم بالإسبان أيقظ فيهم آمال الفن والمعرفة.

في مناسبات عديدة قام اليهود بتعذيب أطفال مسيحيين تعذيباً رهيباً. ولهذا كله، يكرههم الشعب.

* حول أميركا: في أحد الأيام تقدم إلى دونيا إيزابيل الكاثوليكية ملاح يدعى كريستوف كولومبس، وقال لها إنه يريد أن يجوب البحار ويبحث عن أراض قد يجدها فيها، ويُعلّم الجميع كيف يكونوا طيبين وكيف يُصَلّون.

وقد أشفقت إسبانيا كثيراً على أولئك الناس في أميركا.

* حول العالم: الإنكليزية والفرنسية لغتان مستهلكتان، تمضيان على طريق التحلل الكامل.

الصينيون لا يعرفون يوم الراحة الأسبوعي وهم بدنياً وروحياً أدنى من بقية البشر.

* حول الأغنياء والفقراء: ولأن كل شيء مغطى بالثلج والجليد، فإن العصافير الصغيرة لا تجد ما تأكله، وهي فقيرة الآن. لهذا أقدم لها الطعام، مثلما يقدم الأغنياء الأود والطعام للفقراء.

الاشتراكية تنظم الفقراء كي يدمروا الأغنياء.

* حول رسالة الجنراليسمو فرانكو: حلمت روسيا بغرس منجل شعارها الدموي في هذا الجزء البديع من أوروبا، وكافة الجموع الشيوعية والاشتراكية في الأرض، ومعهم الماسونيون واليهود، كانوا يتلهفون للانتصار في إسبانيا... وعندئذ ظهر الرجل، المنقذ، الزعيم.

تكليف الشعب الذي لم يدرس ولم يتعلم فن الحكم الشاق، بمسؤولية قيادة الدولة، ما هو إلا فقدان للحس السليم أو عمل خبيث.

* حول الصحة الجيدة: المهيجات مثل القهوة والتبغ والكحول والصحف والسياسة والسينما والرفاه تدمر الجسد وتستنفده باستمرار.

العدالة في أزمنة فرانكو

فوق، في أعلى المنصة، ملتفاً بعباءته السوداء، يجلس رئيس المحكمة.
إلى اليمن، يجلس المحامي.
إلى اليسار، المدعي العام.
وبضع درجات إلى أسفل يوجد مقعد المتهمين الذي مازال فارغاً.
محاكمة جديدة سوف تبدأ.
يتوجه القاضي ألفونسو هيرناندث باردو إلى الحاجب، ويأمره:
- فليدخل المحكوم.

دريّة

في القاهرة، في العام ١٩٥١، داهمت ألف وخمسمئة امرأة البرلمان.
ظلت النساء هناك لساعات، ولم تكن ثمة طريقة لإخراجهن. كن يهتفن أن البرلمان كذبة، لأن نصف الشعب لا يستطيع التصويت ولا الترشح.
الزعماء الدينيون، ممثلو السماء، أطلقوا صرختهم حتى عنان السماء: التصويت يحط من قدر المرأة ويخالف الطبيعة!
الزعماء الوطنيون، ممثلو الوطن، اتهموا المناضلات من أجل حق الاقتراع النسوي بخيانة الوطن.
حق التصويت كان مكلفاً. ولكنه خرج مع مرور الوقت. وكان أحد إنجازات اتحاد بنات النيل. وقد منعت الحكومة آنذاك تحولهن إلى حزب سياسي، وحكمت بالإقامة الجبرية على دريّة التي كانت الرمز الحي للحركة.
وليس ذلك بغريب. فجميع نساء مصر تقريباً كن محكومات بالإقامة الجبرية في بيوتهن. لا يستطعن التحرك دون إذن من الأب أو الزوج، وكثيرات منهن لم يكنّ يخرجن من بيوتهن إلا في ثلاث مناسبات: من أجل الذهاب إلى الحج في مكة، ومن أجل الذهاب إلى الزواج، ومن أجل الذهاب إلى مدفنهن.

لوحة عائلية من الأردن

في أحد أيام العام ١٩٩٨ دخلت ياسمين عبد الله إلى بيتها باكية. ولم تكن تجد ما تقوله وتكرره إلا القول: - لم أعد بنتاً.

كانت قد ذهبت لزيارة أختها الكبرى. وقد اغتصبها زوج أختها. انتهى الأمر بياسمين في سجن جويدة، إلى أن أخرجها أبوها من هناك متعهداً برعايتها ودفع الكفالة المستحقة.

في أثناء ذلك كان الأب والأم والأعمام وستمئة من الجيران قد قرروا، في اجتماع عام، أنه يتوجب غسل عار الأسرة بالدم.

كان عمر ياسمين ستة عشر عاماً. أخوها سرحان أطلق أربع رصاصات على رأسها. أمضى سرحان ستة شهور في السجن. وقد عُومل كبطل. وعومل كأبطال كذلك سبعة وعشرون رجلاً معتقلين لأسباب مماثلة.

من كل أربع جرائم تُرتكب في الأردن، واحدة منها جريمة شرف.

فولان

خطرت لفولان ديفي الفكرة السيئة بالولادة فقيرة وامرأة، وفي واحدة من أدنى الفئات الاجتماعية في الهند. في العام ١٩٧٤، وهي في الحادية عشرة من عمرها، زوَّجها أبواها من سيد ينتمي إلى طبقة ليست بمثل دنو طبقتها، وأعطوه بقرة كمهر لها.

ولأن فولان لم تكن تعرف الواجبات الزوجية، كان زوجها يعلمها بالضرب والاغتصاب. وعندما هربت، تقدم بشكوى ضدها، فعذبها رجال الشرطة واغتصبوها. وحين رجعت إلى قريتها كان الثور، ثورها، هو الوحيد الذي لم يتهمها بالدنس. وذهبت. تعرفت إلى لص صاحب سجل حافل، وكان هذا هو الرجل الوحيد الذي سألها إن كانت تشعر بالبرد، وإن كانت تشعر أنها على ما يرام.

سقط عشيقها مخردقاً بالرصاص في قرية بيهماي، وجُرجرت هي في الشوارع وعُذبت واغتُصبت على يد عدد من مالكي الأراضي. وبعد زمن من ذلك، رجعت فولان إلى بيهماي ليلاً على رأس عصبة من قطاع الطريق، وبحثت عن أولئك الرجال، من بيت لبيت، فوجدت اثنين وعشرين منهم وأيقظتهم، وقتلتهم واحداً واحداً.

في تلك الأثناء كانت فولان ديفي قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها. وكانت المنطقة المحاذية لنهر يامونا بأسرها تعرف أنها ابنة الربة دورغا، وأنها جميلة وعنيفة مثل أمها.

خريطة الحرب الباردة

فحل، بكل ما تعنيه كلمة فحل، رجل يغطي الشعر صدره، إنه السيناتور مكارثي. في منتصف القرن العشرين كان يضرب المنضدة بقبضته ويزمجر متذمراً بأن الوطن معرض لخطر الوقوع في براثن الشمولية الحمراء، مثل ممالك الرعب تلك القابعة وراء الستار الحديدي حيث
تُخنق الحرية،
وتُمنع كتب،
وتحظر أفكار،
والمواطنون يَشون بالآخرين قبل أن يشي الآخرون بهم،
من يفكر يهدد الأمن الوطني
ومن يخالف هو جاسوس في خدمة العدو الإمبريالي.
السيناتور مكارثي يزرع الخوف في الولايات المتحدة. وبأمر الخوف الذي يأمر خائفاً،
تُخنق الحرية،
وتُمنع كتب،
وتحظر أفكار،
والمواطنون يَشون بآخرين قبل أن يشي الآخرون بهم،
من يفكر يهدد الأمن الوطني
ومن يخالف هو جاسوس في خدمة العدو الشيوعي.

أبو الكمبيوترات

لأنه ليس فحلاً، بكل ما تعنيه كلمة فحل، رجل يغطي الشعر صدره، أُدين آلان تارينغ.
إنه يصرخ، ينعق، يتلعثم. يستخدم ربطة عنق قديمة بدل الحزام. ينام قليلاً ويقضي أياماً دون أن يحلق ذقنه، ويأكل وهو يذرع المدن من أقصاها إلى أقصاها، وفي أثناء ذلك يصوغ في ذهنه معادلات رياضية معقدة.
في عمله للمخابرات البريطانية، قبل سنوات من ذلك، ساعد في اختصار أمد الحرب العالمية الثانية عندما اخترع الآلة القادرة على حلّ ما لا يمكن حله من رموز شيفرة القيادة العسكرية الألمانية العليا.
وفي أثناء ذلك كان قد تخيل نموذجاً أولياً للكمبيوتر الإلكتروني، وأرسى الأسس النظرية

للمعلوماتية. ثم توجه إلى بناء أول كمبيوتر يعمل ببرامج مدمجة. وكان يلعب مع الجهاز أدوار شطرنج لا تنتهي، ويصوغ له أسئلة تسبب للآلة الجنون، ويطلب منها أن تكتب له رسائل حب. وكانت الآلة تستجيب وترد برسائل أقرب إلى عدم التماسك. ولكن شرطة من لحم وعظم هم من اعتقلوه في العام ١٩٥٢، في مانشستر، لإخلال خطير بالآداب.

وبإخضاعه للمحاكمة، اعترف تارينغ بأنه مذنب بالشذوذ الجنسي.

ولكي يطلقوا سراحه وافق على الخضوع لعلاج شافٍ.

قصف العقاقير أصابه بالعجز. نمى له ثديان. انطوى على نفسه معتكفاً. لم يعد يذهب إلى الجامعة. وكان يسمع همهمات، ويشعر بأن نظرات تطلق عليه النار من الخلف.

وقبل أن ينام، كان من عادته أن يأكل تفاحة.

وذات ليلة، حقن سيانور في التفاحة التي سيأكلها.

أم الحقوق المدنية وأبيها

في حافلات النقل العام التي كانت تجوب شوارع مدينة مونتغمري، ولاية ألباما، رفضت راكبةٌ زنجية تدعى روزا باركس أن تتخلى عن مقعدها لراكب أبيض.

استدعى السائق الشرطة.

جاء الشرطيون وقالوا: القانون هو القانون، واعتقلوا روزا لأنها تُخل بالنظام.

عندئذ أطلق كاهن مجهول يدعى مارتن لوثر كنغ، من كنيسته، مقاطعة استخدام الحافلات.

وقد طرحها على النحو التالي:

الجبن يسأل: - أهذا مؤكد؟

المنفعة تسأل: - أهذا مناسب؟

والغرور يسأل: - أهذا شعبي؟

ولكن الوعي يسأل: - أهذا عادل؟

واقتيد هو أيضاً معتقلاً. دامت المقاطعة أكثر من سنة وتولدت عنها موجة جامحة، من الشاطئ إلى الشاطئ، ضد التمييز العنصري.

في العام ١٩٦٨، في مدينة ممفيس الجنوبية، هشمت رصاصة وجه القس كنغ، حين كان يكشف أن الآلة العسكرية تلتهم زنوجاً في فيتنام.

لقد كان شخصاً خطيراً في نظر مكتب التحقيقات الفيدرالي.

مثل روزا. ومثل رئات ريح كثيرة أخرى.

الحقوق المدنية في كرة القدم

العشب ينمو في الاستادات الخاوية. القدم العاملة قدم مناضلة: لاعبو أروغواي، عبيد أنديتهم، طالبوا ببساطة أن يعترف المسؤولون بأن نقابتهم موجودة ولها الحق بالوجود. وقد كان السبب عادلاً بصورة فاضحة جداً، فأيد الناسُ اللاعبين المضربين، مع أن الزمن كان يمضي، وكل يوم أحد بلا كرة قدم هو تثاؤب لا يُطاق.

المسؤولون لا يسمحون بليّ ذراعهم، وهم يجلسون منتظرين الاستسلام بدافع الجوع، ولكن اللاعبين لم يضعفوا. لقد ساعدهم كثيراً نموذج رجل عالي الجبهة وقليل الكلام، يكبر في العقاب، ويُنهض من يسقطون ويدفع من يتعبون. إنه أبودوليو فاريلا، زنجي، شبه أمي، لاعب كرة قدم وعامل بناء. وهكذا، بعد ستة شهور، كسب لاعبون أروغواي إضراب الأقدام المتقاطِعة. وفي العام التالي كسبوا أيضاً مونديال كرة القدم.

البرازيل، صاحبة البيت، كانت الرابح المفضل الذي لا جدال فيه. فقد تغلبت على إسبانيا ٦/ ١، وفازت على السويد ٧/ ١. وحكم القدر أن تكون أروغواي هي الضحية التي ستُقدم قرباناً في حفل المونديال النهائي. وهذا ما كان يحدث، فقد كانت أروغواي تخسر، وكان مئتا ألف شخص يزمجرون على المدرجات عندما ضغط أبودوليو على أسنانه. ومن كان قائد الإضراب صار لحظتئذ قائد الانتصار المستحيل.

ماراكانا

المحتضرون أخّروا موتهم والأجنة سرعت ولادتها. ريو دي جانيرو، السادس عشر من تموز ١٩٥٠، ستاد ماراكانا. في الليلة السابقة، لم يكن بمقدور أحد النوم.

في الصباح التالي، لم يرغب أحد في الاستيقاظ.

بيليه

فريقان بريطانيان يتنافسان في مباراة البطولة الأخيرة. لم يعد هناك وقت طويل لصافرة النهاية، وكانا لا يزالان متعادلين عندما اصطدم لاعب بآخر وسقط على الأرض مفتوح الساقين. أخرجته حمالة من الملعب وبلحظة واحدة انهمك الفريق الطبي كله في العمل، لكن المغمى عليه لم يستجب.

مرت الدقائق، القرون، وكان المدرب يبتلع الساعة مع عقاربها وكل شيء. كان قد أجرى

التبديلات النظامية. شبابه، وقد صاروا عشرة ضد أحد عشر، كانوا يدافعون قدر استطاعتهم، ولكن ما يستطيعونه لم يكن كثيراً.
بدت الهزيمة آتية، عندما هرع الطبيب إلى المدرب فجأة وقال له بابتهاج:
- لقد نجحنا! إنه يستيقظ!
ثم أضاف بصوت خفيض: - ولكنه لا يعرف من هو.
اقترب المدرب من اللاعب الذي كان يترنح دون تماسك بينما هو يحاول النهوض، وقال له في أذنه: - أنت بيليه.
كسبوا خمسة لصفر.
منذ سنوات سمعتُ في لندن هذه الكذبة التي تقول الحقيقة.

مارادونا

لم يُدِن أي لاعب مكرس، إدانة مباشرة ودون تردد، أسيادَ تجارة كرة القدم. كان الرياضي الأوسع شهرة والأوسع شعبية في كل الأزمنة هو من رفع الصوت دفاعاً عن اللاعبين الذين ليسوا مشهورين ولا شعبيين.
هذا المعبود الكريم والتضامني كان قادراً على أن يجترح، في خمس دقائق، الهدفين الأشد تناقضاً في تاريخ كرة القدم كله. ومحبوه كانوا يوقرونه للهدفين: لم يكن جديراً بالإعجاب هدف الفنان فقط، الموشى بشيطنة ساقيه، وإنما كذلك، وربما أكثر، هدف اللص الذي سرقته يده. لم يكن دييغو آرماندو مارادونا معبوداً بسبب بهلوانياته وحسب، وإنما كذلك لأنه كان إلهاً قذراً، خاطئاً، أشد الآلهة بشرية. يمكن لأي شخص أن يجد فيه ملخصاً جوالاً لأصناف الضعف البشري، أو الذكوري على الأقل: زير نساء، محب للشراب، سكير، مخادع، كذاب، متبجح، متهور.
ولكن الآلهة لا يتقاعدون مهما كانوا بشراً.
ولم يستطع هو قط العودة إلى مجهولية الحشود التي يتحدر منها.
الشهرة التي أنقذته من البؤس جعلت منه سجيناً.
لقد حُكم على مارادونا أن يؤمن بأنه مارادونا وأُجبر أن يكون نجم كل حفلة، وطفل كل تعميد، وميت كل جنازة.
عقار النجاح المدوي أشد تدميراً من الكوكائين. وتحاليل البول أو الدم غير قادرة على اكتشاف هذا العقار.

صور: العقرب

لندن، ستاد ويمبلي، خريف العام ١٩٩٥.

منتخب كرة القدم الكولومبي يتحدى كرة القدم الإنكليزية الموقرة في أضخم معابدها، ورينيه هيغيتا يرسل رمية منحرفة لم يُرَ لها مثيل قط.

لاعب دفاع إنكليزي يوجه رمية صاعقة. وبجسد أفقي في الفضاء، يسمح حارس المرمى للكرة بالدخول ويعيدها بكعبيه طاوياً ساقيه مثلما يثني العقرب ذيله.

من الجدير التوقف للنظر في صور هذه الوثيقة عن الهوية الكولومبية. قوة الكشف فيها ليست في المأثرة الرياضية، وإنما في الابتسامة التي تملأ وجه هيغيتا من أذن إلى الأذن الأخرى بينما هو يقترف إهانته التي لا تغتفر للمقدسات.

برخت

كان برتولت برخت مولعاً بالسخرية من الأقنعة التي يستخدمها الواقع.

في العام ١٩٥٣ اندلعت الاحتجاجات العمالية في ألمانيا الشيوعية.

اندفع العمال إلى الشوارع وتولت الدبابات السوفيتية إخراس أفواههم. عندئذ نشرت الصحيفة الرسمية رسالة من بريخت يدعم فيها الحزب الحاكم. الرسالة المبتورة لم تقل ما قاله.

لكن بريخت تدبر الأمر ليسخر من الرقابة ويوزع، عبر سبل سرّية، قصيدة تقترح:

بعد انتفاضة السابع عشر من حزيران\
وزع أمين نقابة الكتاب\
في شارع ستالين، بعض المنشورات\
يمكن أن يُقرأ فيها أن الشعب\
قد فقد الثقة بالحكومة\
وأنه بجهد كبير فقط\
يمكن له أن يستعيدها.\
ألن يكون من الأسهل\
أن تحلّ الحكومة الشعب\
وتختار شعباً آخر؟

مئة زهرة وحديقة واحدة

في الصين، خلال سنوات ماو الأخيرة، كان يقترف خيانة الوطن كل من يتجرأ على إثبات أن الواقع هو ما عليه في الواقع وليس كما يأمر الحزب أن يكون.

ولكن ماو لم يكن، في أزمنة أخرى، ما انتهى إلى أن صار إليه. فعندما كان في العشرين وبضع سنوات من عمره، كان يقترح توليفة من لاو تسي وكارل ماركس، ويتجرأ على صياغتها كما يلي: المخيلة فكر، والحاضر ماضٍ ومستقبل، الصغير كبير، المذكر مؤنث، الكثيرون واحد، والتغيير هو استمرار.

ولكن كان هناك آنذاك ستون شيوعياً في الصين.

بعد أربعين سنة من ذلك، كانت الثورة قد استولت على السلطة، وماو على رأسها. ولم تكن هناك نساء يمشين بمشقة كبيرة وأقدامهن ضامرة عملاً بتقليد فظيع، ولم تكن توجد إعلانات تحدّ تقول:

يمنع دخول الكلاب والصينيين

كانت الثورة تبدل حياة ربع عدد الجنس البشري. ولم يكن ماو يخفي اختلافه مع العادات الموروثة عن ستالين الذي كان يرى أن التناقضات ليست دليلاً على الحياة وليست رياح تاريخ، وإنما هي منغصات توجد من أجل تصنيفها وحسب.

كان ماو يقول: - الانضباط الذي يخنق الإبداع والمبادرة يجب أن يُلغى.

ويقول: - الخوف ليس حلاً. فكلما كنتَ أكثر خوفاً، يكون عدد الأشباح التي تزورك أكبر.

وأطلق شعار: - فلتتفتح مئة زهرة، ولتتواجه مئة مدرسة فكرية.

ولكن التفتح لم يدم إلا قليلاً.

ففي العام ١٩٥٧، وضع الربان العظيم موضع التنفيذ خطته في القفزة الكبرى إلى الأمام، وأعلن أن الاقتصاد الصيني سوف يُذِلُ عما قريب أغنى الاقتصادات في العالم. ومنذ ذلك الحين صار الاختلاف والشك محظورين. وصار إجبارياً الإيمان بالأرقام التي يكذب بإعلانها البيروقراطيون كيلا يفقدوا وظائفهم أو حياتهم.

لم يكن ماو يسمع إلا أصداء صوته الذي يقول له ما يرغب في سماعه. والقفزة الكبرى إلى الأمام كانت قفزة في الفراغ.

الإمبراطور الأحمر

بعد ثلاث سنوات من القفزة الكبرى إلى الأمام، كنتُ في الصين. ولم يكن هناك من يتحدث في الموضوع. لقد كان أحد أسرار الدولة.

رأيتُ ماو يقدم التكريم لماو. يقف في أعالي بوابة السلام السماوي، ويترأس ماو الاستعراض الضخم الذي يتصدره تمثال ماو الذي من جبس يرفع يده، وماو اللحم والعظم، يرد على تحيته. الحشود تهتف بحماسة للاثنين، في بحر من الأزهار والبالونات الملونة.

كان ماو صينياً، وكانت الصين صومعته. كان ماو يحض على الاقتداء بمثال لي فنغ ولي فنغ يحض على الاقتداء بمثال ماو. كان لي فنغ، رسول الشيوعية الشاب، وصاحب الوجود الأقرب إلى الريبة، يقضي أيامه في مواساة المرضى، والعمل من أجل الأرامل وتقديم وجبة طعامه للأيتام، وفي الليل يقرأ أعمال ماو الكاملة. وحين ينام يحلم بماو الذي يقود خطواته في النهار. لم يكن للي فنغ خطيبة ولا خطيب، لأنه لا يضيع الوقت في التفاهات، ولم تكن تخطر لباله فكرة أن الحياة يمكن أن تكون متناقضة والواقع متعدد ومتنوع.

الإمبراطور الأصفر

كان بو يي في الثالثة من عمره عندما جلس في العام ١٩٠٨ على العرش المخصص لابن السماء. الإمبراطور الضئيل كان الصيني الوحيد الذي يستطيع استخدام اللون الأصفر. وكان تاج اللآلئ الضخم يغطي عينيه، ولكن لم تكن هناك أشياء كثيرة لرؤيتها. فهو الغارق في عباءات الحرير والذهب، كان يضجر في اتساع المدينة المحرَّمة، قصره وسجنه، المحاطة على الدوام بحشود من الخصيان.

عندما سقطت الملكية، تحول بو يي إلى هنري، وعمل في خدمة الإنكليز. وبعد ذلك أجلسه اليابانيون على عرش منشوريا وكان لديه ثلاثمئة نديم يأكلون فضلات وجباته المؤلفة من تسعين طبقاً.

السلحفاة وطائر الرّهو يرمزان في الصين إلى الحياة الأبدية. ولكن بو يي الذي لم يكن سلحفاة ولا رهواً، تمكن من الحفاظ على رأسه فوق كتفيه، وهو أمر غريب ونادر جداً في مهنته الخطرة.

في العام ١٩٤٩، عندما استولى ماو على السلطة، توج بو يي مسيرته بالتحول إلى الماركسية اللينينية.

في أواخر العام ١٩٦٣، عندما التقيت به في بكين، كان يلبس، مثل الآخرين جميعاً، زياً أزرق مغلق الأزرار حتى العنق، ومن خلال الكمين يبرز معصما القميص الباليان. كان يكسب عيشه من العمل في تقليم النباتات في حديقة النبات ببكين.

وقد أبدى مفاجأته لأن هناك من هو مهتم بالتحدث إليه. رتل عليّ ندمه، إنني خائن، وبصوت رتيب ألقى عليّ الشعارات طوال نحو ساعتين.

وبين حين وآخر كنتُ أتمكن من مقاطعته. عن عمته، الإمبراطورة العنقاء، لا يتذكر إلا أن لها وجه ميتة. عندما رآها خاف وبكى. قدمت إليه قطعة سكاكر فألقى بها إلى الأرض.

وعن زوجاته قال لي إنه كان يتعرف إليهن دوماً من صور يقدمها إليه الموظفون الصينيون أو الإنكليز أو اليابانيون. إلى أن تمكن أخيراً، بفضل الرئيس ماو، من الزواج عن حب حقيقي.

- بمن تزوجت، إذا لم يكن ذلك سراً؟

- إنها عاملة، ممرضة في المستشفى. تزوجنا في يوم أول أيار.

سألته إن كان عضواً في الحزب الشيوعي. لا، لم يكن عضواً.

سألته إن كان يريد ذلك.

المترجم كان يدعى وانغ، وليس فرويد. ولكنه بدا متعباً، لأنه ترجم:

- سيكون ذلك شرفاً كبيراً لي.

ممنوع أن تكون مستقلاً

في منتصف العام ١٩٦٠ احتُفل باستقلال الكونغو التي كانت، حتى ذلك الحين، مستعمرة بلجيكية.

وخطاباً إثر خطاب، راح الجمهور يذوب من الحر ومن الضجر. فالكونغو، التلميذ الممتن، كان يعد بحسن السلوك. وبلجيكا، المعلمة الصارمة، كانت تحذر من أخطار الحرية.

عندئذ انفجر خطاب باتريس لومومبا. تحدث ضد إمبراطورية الصمت، ومن خلال فمه تكلم الصامتون. وقدَّم معكّرُ صفو الحفلة التكريمَ لصانعي الاستقلال، من قتلى وسجناء ومعذبين ومنفيين ناضلوا طوال سنوات طويلة ضد العبودية المذلة التي فرضتها السلطة الاستعمارية.

استُقبلت كلماته بصمت جليدي من جانب المنصة الأوروبية، وقُوطعت ثماني مرات بتصفيق حماسي من جانب الجمهور الأفريقي.

لقد حدد ذلك الخطاب مصيره.

فلوموميا الخارج لتوه من السجن، كان قد كسب الانتخابات الحرة الأولى في تاريخ الكونغو، وترأس حكومته الأولى، ولكن الصحافة البلجيكية أطلقت عليه اسم الهذياني واللص الأميّ.
وفي مراسلات المخابرات البلجيكية أُطلقت على لومومبا تسمية ستالين. ومدير المخابرات المركزية الأمريكية آلان دالس، أرسل تعليمات إلى موظفيه:

- يجب أن يكون استبدال لومومبا هدفنا المستعجل.

دوايت إيزنهاور، رئيس الولايات المتحدة، قال للمستشار البريطاني لورد هيوم:

- أتمنى لو يسقط لومومبا في نهر يغص بالتماسيح.

وقد احتاج لورد هيوم إلى أسبوع كي يردّ:

- لقد حان الوقت لنتخلص منه.

ووزارة الشؤون الأفريقية في الحكومة البلجيكية أدلت بدلوها في جولة الآراء:

- لا بد من تصفية لومومبا مرة وإلى الأبد.

ضباط بلجيكيون على رأس ثمانية جنود وتسعة شرطيين، رموه بالرصاص، في أوائل العام ١٩٦١ مع اثنين من أقرب معاونيه إليه.

وخوفاً من انتفاضة شعبية، أخفت الحكومة البلجيكية وأدواتها الكونغولية، موبوتو وتشومبي، خبر الجريمة.

بعد خمسة عشر يوماً، أعلن رئيس الولايات المتحدة الجديد جون كينيدي:

- لن نوافق على عودة لومومبا إلى الحكومة.

ولومومبا الذي كان في ذلك الحين قد أُعدم وأذيب في برميل من حمض كلور الماء، لم يعد إلى الحكومة.

انبعاث لومومبا

اغتيال لومومبا كان عملية استرداد استعمارية.

الثروات المنجمية من نحاس، وكوبالت، وماس، وذهب، ويورانيوم، وبترول، كانت تُصدِر الأوامر من باطن الأرض.

وجرى تنفيذ الحكم بالتواطؤ مع الأمم المتحدة. وقد كانت لدى لومومبا أسباب وجيهة لعدم الثقة بضباط القوات التي تدعي أنها دولية، وكان يندد بعنصرية وأبوية أولئك الناس الذين يختزلون أفريقيا إلى صيد أسوُد، وأسواق عبيد، وغزو استعماري. إنهم يتفاهمون بالطبع مع البلجيكيين. فهم لهم التاريخ نفسه والطمع نفسه بثرواتنا.

موبوتو، بطل العالم الحر الذي أصطاد لومومبا وأمر بالقضاء عليه، تمتع بالسلطة طوال أكثر من ثلاثين عاماً. وقد اعترفت هيئات القروض الدولية بمزاياه وكانت سخية معه. وعندما مات، كانت ثروته الشخصية تساوي أقل بقليل من مجموع الدين الخارجي للبلاد التي كرّس لها أفضل طاقاته.

كان لومومبا قد أعلن:

– سيكون للتاريخ كلمته ذات يوم. ليس التاريخ الذي تمليه الأمم المتحدة، أو واشنطن، أو باريس، أو بروكسل. أفريقيا ستكتب تاريخها بنفسها.

الشجرة التي قيدوا إليها لومومبا حيث رُمي بالرصاص مازالت موجودة في غابة موادينغاشا. مثقوبة بالرصاص، مثله، ما تزال.

ماو ماو

في الخمسينيات كان الرعب أسود، وكان اسمه ماو ماو، يترصد في ظلمات الأدغال الكينية.

كان الرأي العام العالمي يظن أن رجال الماو ماو يرقصون وهم يذبحون إنكليزيين، ويفرمون لحمهم، وفي احتفالات شيطانية يشربون دماءهم.

في العام ١٩٦٤، زعيم أولئك المتوحشين، جومو كيناتا، الخارج لتوه من السجن، صار أول رئيس لبلاده الحرة.

وبعد ذلك عُرف أنه في سنوات حرب الاستقلال، قُتل أقل من مئتي بريطاني، بمن في ذلك المدنيون والعسكريون. أما الوطنيون الذين شُنقوا، أو أعدموا رمياً بالرصاص، أو ماتوا في معسكرات الاعتقال، فكانوا أكثر بخمسمئة مرة.

الإرث الأوروبي

في الكونغو، تركت بلجيكا ما مجموعه ثلاثة زنوج في مناصب مسؤولية في الإدارة العامة.
وفي تنزانيا، تركت بريطانيا العظمى مهندسين اثنين واثني عشر طبيباً.
في الصحراء الغربية، تركت إسبانيا طبيباً واحداً، ومحامياً وخبير محاسبة واحداً.
وفي موزمبيق، تركت البرتغال تسعة وتسعين بالمئة من السكان أميين، ودون حاصل واحد على الثانوية، ودون جامعي واحد.

سانكارا

توماس سانكارا غيّر اسم فولتا العليا. وتحولت المستعمرة الفرنسية السابقة لتصير بوركينا فاسو، أرض الرجال الشرفاء.
بعد السيطرة الاستعمارية الطويلة، ورث الرجال الشرفاء الصحراء: حقول مستنفدة، أنهار جافة، غابات خربة. واحد من كل اثنين من المواليد لا يصل حياً إلى سن الثلاثة شهور.
تزعَّم سانكارا التغيير. الطاقة المشتركة وُضعت في خدمة تكثير الأغذية، ومحو الأمية، وإعادة توليد الغابات الوطنية والدفاع عن الماء، وهو قليل ومقدس.
ترددت أصداء صوت سانكارا مضاعفة من أفريقيا إلى العالم بأسره:
- نقترح أن تخصص لإنقاذ الحياة على الكوكب ما نسبته واحد بالمئة من المبالغ الهائلة التي تُنفق لدراسة الحياة في كواكب أخرى.
- البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ينكران علينا أرصدة للبحث عن الماء على عمق مئة متر، ولكنهم يعرضون علينا حفر آبار بعمق ثلاثة آلاف متر من أجل البحث عن بترول.
- نشجب البشر الذين تتسبب أنانيتهم في بؤس الآخر. فمازال يمر بلا عقاب في العالم تدمير الجو، بهذه الهجمات القاتلة ضد الأرض والهواء.
في العام ١٩٨٧، قرر ما يسمى المجتمع الدولي التخلص من هذا اللومومبا الجديد.
أوكلت المهمة إلى صديقهم المفضل بليز كومباوري.
وقد منحته الجريمة سلطة مؤبدة.

تأسيس كوبا

ثورة، ثورة: الزنوج يدخلون شواطئ الاستحمام التي كانت محظورة على من يصبغون الماء، وجميع "الكوبات" التي كانت كوبا تخبئها برزت إلى الضوء.

في أعماق سلسلة الجبال، في أعماق كوبا، أطفال لم يروا السينما من قبل تحولوا إلى أصدقاء لشارليتو شابلن، ومعلمو محو الأمية يحملون حروفاً إلى أماكن منسية حيث لم تكن هذه الأمور الغريبة تصل ولو لرؤيتها.

وفي أوج نوبة الجنون التروبكالي، تسافر الأوركسترا السيمفونية الوطنية بكاملها، مع بيتهوفن وكل شيء، إلى قرى صغيرة ساقطة عن الخريطة، والأهالي المبتهجون يخربشون إعلانات دعوة:

- إلى الرقص والاستمتاع مع السيمفونية الوطنية.

كنت أمضي في مقاطعة أورينتي، هناك حيث الحلزونات الملونة تسقط كالمطر من الأشجار، وحيث جبال هايتي الزرقاء تطل في الأفق البعيد.

على درب ترابي التقيت بزوجين.

هي آتية على متن حمار، تحت مظلة تحميها من الشمس.

وهو يمضي على قدميه.

كلاهما بملابس الأعياد، ملكة وملك تلك الأنحاء، غير عابئين بالطقس ولا بالوحل: بلا تجعيدة واحدة، ولا لطخة، تعكر بياض تلك الثياب التي كانت تنتظر منذ سنوات أو قرون، منذ يوم الزفاف، في أعماق خزانة ما.

أسألهما إلى أين هما ذاهبان. ويجيبني هو:

- إننا ذاهبان إلى هافانا. إلى كباريه تروبيكانا، لدينا بطاقتا دخول ليوم السبت.

وتلمس جيبه، مؤكداً.

أنا قادر

في العام ١٩٦١، تعلم مليون كوبي القراءة والكتابة، وآلاف المتطوعين محوا الابتسامات الساخرة والنظرات المشفقة التي تلقوها عندما أعلنوا أنهم سينجزون المهمة خلال عام واحد.

بعد زمن من ذلك، جمعت كاترين مورفي ذكريات الناس:

* غريسيلدا أغيليرا: أبواي كانا يمحوان أميتهما هنا في هافانا. كنتُ أطلب منهما، ولكنهما لا يسمحان لي بالذهاب. كل صباح، في وقت مبكر جداً، يذهبان معاً، ويتركانني في البيت، حتى الليل. وفي أحد الأيام، بعد كثير من المكالبة والمطالبة، سمحا لي بالذهاب. رافقتهما. كارلوس بيريث إيسلا كان اسم معلمي الأول. وكان عمره ثمانية وخمسين عاماً. أنا كنت في السابعة.

* سيستو خيمينث: أنا أيضاً لم يسمحوا لي. كان عمري اثني عشر عاماً، وكنت أعرف القراءة والكتابة وفي كل يوم كنتُ أطلب وأجادل دون نتيجة. الأمر خطير جداً، كانت أمي تقول. وفي تلك الأيام بالذات جاء الغزو على خليج الخنازير، أولئك المجرمون كانوا آتين للانتقام، جاؤوا والدم في عيونهم، إنهم هم أسياد كوبا. نحن كنا نعرفهم جيداً، ففي الأزمنة القديمة أحرقوا بيتنا مرتين، هناك في سلسلة الجبال. وعندئذ أَعدّت لي أمي الجعبة. وقالت لي: وداعاً.

* سيلا أوسوريو: أمي محت الأمية في الجبال، ما وراء مانثانيّو. كان من نصيبها أسرة لها سبعة أبناء. لم يكن أي منهم يعرف القراءة أو الكتابة. ستة شهور ظلت أمي تعيش في ذلك البيت. خلال النهار، تشارك في جني محصول البن وإحضار الماء... وفي الليل، تقوم بالتعليم. وعندما صاروا جميعهم يعرفون القراءة والكتابة، غادرت. كانت قد ذهبت إليهم وحدها، ولكنها لم تغادر وحدها. تصور: لولا حملة محو الأمية ما كان لي أنا أن أكون في الوجود.

* خورخي أوبييدو: كنتُ في الرابعة عشرة عندما جاء المتطوعون إلى بالما سوريانو. لم أكن قد ذهبتُ إلى المدرسة قطّ. ولكن كان درس محو الأمية الأول، رسمتُ بعض العصي وانتبهت إلى الأمر: هذا شأني أنا. وفي صباح اليوم التالي هربت من البيت وانطلقت سائراً. كنت أحمل تحت إبطي مرجع المتطوعين. سرتُ طويلاً، حتى وصلت إلى قرية صغيرة محشورة هناك في جبال أورينتي. قدمتُ نفسي كمعلم محو أمية. أعطيتُ الدرس الأول، رددت ما كنت قد سمعته هناك في بالما سوريانو. كنت أتذكر كل شيء. ومن أجل الدرس الثاني، درستُ، أو بكلمة أصح خمنتُ، ما يقوله المرجع. ومن أجل الدروس التالية...

لقد كنت معلم محو أمية قبل أن تُمحى أميتي. أو كنت كل شيء في آن واحد، لا أدري.

صور: العينان الأكثر اتساعاً في العالم

هافانا، ميدان الثورة، آذار ١٩٦٠.

انفجرت سفينة في المرفأ. ستة وستون عاملاً لقوا حتفهم. كانت السفينة آتية بأسلحة وذخائر للدفاع عن كوبا، وكانت حكومة إيزنهاور قد حظرت على كوبا أن تدافع عن نفسها.

الحشود تملأ شوارع المدينة.

ومن المنصة، كان تشي غيفارا يتأمل ذلك الغضب المحتشد.

كانت الجموع في عينيه.

المصور كوردا التقط تلك الصورة حين لم يكن قد مرّ على الملتحين إلا أكثر قليلاً من عام واحد في السلطة.

جريدته لم تنشرها. الإدارة لم تر فيها شيئاً متميزاً.

وستمر سنوات. وستكون تلك الصورة رمزاً لزماننا.

المتوالد

لماذا لدى تشي غيفارا هذه العادة الخطرة بمواصلة التوالد؟ فكلما احتكروه أكثر، وكلما خانوه أكثر، ازداد توالداً. إنه الأكثر توالداً من الجميع.

ألا يكون السبب في أن تشي كان يقول ما يفكر فيه، ويعمل ما يقوله؟ ألا يكون السبب في أن ذلك لا يزال استثنائياً، في عالم نادراً ما تلتقي فيه الكلمات بالأفعال، وعندما تلتقيان لا تتصافحان، لأن إحداهما لا تتعرف على الأخرى.

فيدل

أعداؤه يقولون إنه كان ملكاً بلا تاج وأنه كان يخلط بين الوحدة والإجماع. وأعداؤه محقون في هذا الأمر.

أعداؤه يقولون إنه لو كان لدى نابليون جريدة يومية مثل "غرانما"، لما علم أي فرنسي بأمر كارثة ووترلو. وأعداؤه محقون في هذا.

أعداؤه يقولون إنه مارس السلطة وهو يتكلم كثيراً ويستمع قليلاً، لأنه معتاد على الأصداء أكثر من الأصوات. وأعداؤه محقون في هذا.

ولكن أعداءه لا يقولون إنه لم يعرض صدره للرصاص عندما جاء الغزو لمجرد أن يدخل التاريخ،

وأنه واجه الأعاصير مواجهة الند للند، مواجهة إعصار لإعصار.

وأنه تجاوز ستمئة وسبع وثلاثين محاولة اغتيال.

وأن عدوى نشاطه المتدفق كانت حاسمة في تحويل مستعمرة إلى وطن.

وأنه ليس بفعل سحر الماندينغا ولا بمعجزة من الرب تمكن ذلك الوطن الجديد من البقاء متجاوزاً عشرة رؤساء للولايات المتحدة كانوا يضعون الفوطة على صدورهم ويتأهبون بالشوكة والسكين لتناوله على الغداء.

وأعداؤه لا يقولون إن كوبا بلد غريب لا يشارك في بطولة العالم في التذلل.

ولا يقولون إن هذه الثورة التي نمت في ظل العقوبات هي ما أمكن لها أن تكونه وليس ما أرادت أن تكونه. ولا يقولون إن الجدار بين الرغبة الواقع كان يصبح أكثر ارتفاعاً وسماكة بفعل الحصار الإمبراطوري الذي أغرق تطور ديمقراطية كوبا، ودفع إلى عسكرة المجتمع ووفر للبيروقراطية التي لديها لكل حلّ مشكلة، ما تحتاجه من شهادات إثبات لتبرر وجودها وديمومتها.

ولا يقولون إنه على الرغم من كل النكبات، وعلى الرغم من كل الاعتداءات الخارجية والتعسف الداخلي، استطاعت هذه الجزيرة المعذبة، إنما المصرة على المرح، أن تنجب المجتمع الأمريكي اللاتيني الأقل جوراً.

ولا يقول أعداؤه إن هذه المأثرة كانت حصيلة تضحية شعبه، ولكنها كانت كذلك حصيلة إرادة عنيدة وحس كرامة عريق لدى هذا السيد الشهم الذي ناضل على الدوام في سبيل الخاسرين، مثل ذلك الزميل المشهور في سهول المانتشا.

صور: قبضات مرفوعة نحو السماء

مدينة مكسيكو، الستاد الأولمبي، تشرين الأول ١٩٦٨.

راية الخطوط والنجوم تخفق، منتصرة، على أعلى سارية، بينما تتردد أنغام النشيد الوطني للولايات المتحدة.

يصعد إلى المنصة الأبطال الأولمبيون. وعندئذ، في لحظة الذروة، تومي سميث، صاحب الميدالية الذهبية، وجون كارلوس، بالميدالية الفضية، كلاهما زنجي، وكلاهما أمريكي، يرفعان قبضتيهما المطبقتين، في قفازين أسودين، يرفعانهما نحو سماء الليل.

مصور مجلة "لايف"، جون دومينس، يسجل الحدث. هاتان القبضتان المرفوعتان، رمز حركة الفهود السود الثورية، تستنكران أمام العالم الإذلال العنصري في الولايات المتحدة.

تومي وجون طردا على الفور من القرية الأولمبية. ولن يستطيعا أبداً بعدها المشاركة في أي بطولة رياضية. فأحصنة السباق، وديوك المصارعة، والرياضيون البشريون لا حق لهم بتعكير جو الحفلة.

زوجة تومي طلبت الطلاق. وزوجة جون انتحرت.

بعد عودتهما إلى بلدهما لم يهتم أحد بهذين المشاغبين. جون تدبر أموره كيفما استطاع، وتومي الذي حطم أحد عشر رقماً قياسياً عالمياً، يغسل سيارات مقابل إكرامية تُقدم إليه.

علي

كان ريشة ورصاصاً. يرقص ويسحق وهو يلاكم.

في ١٩٦٧ رفض محمد علي الذي ولد كاسيوس كلاي، أن يرتدي الزي العسكري.

- تريدون إرسالي للقتل في فيتنام - قال - من الذي يُذّل الزنوج في بلادي؟ أهم الفيتناميون؟ إنهم لم يفعلوا لي شيئاً قط.

أسموه خائناً للوطن. وهددوه بالسجن، ومنعوه من مواصلة الملاكمة. انتزعوا منه لقب بطل العالم.

وقد كان ذلك العقاب هو انتصاره. فبانتزاعهم التاج منه كرسوه ملكاً.

بعد خمس سنوات من ذلك، طلب منه بعض الطلبة الجامعيين أن يلقي عليهم شيئاً. فاخترع لهم أقصر قصيدة في الأدب العالمي: - Me، we.

أنا، نحن.

البستاني

في أواخر العام ١٩٦٧، وفي أحد مستشفيات أفريقيا الجنوبية، قام كريستيان برنارد بأول عملية زراعة قلب بشري وتحول إلى أشهر طبيب في العالم. وفي إحدى الصور، ظهر زنجي بين مساعديه. وقد أوضح مدير المستشفى إنه قد اندس في الصورة.

في تلك الأثناء، كان هاملتون ناكي يعيش في كوخ بلا نور كهربائي ولا تمديدات ماء. لم يكن يحمل شهادة، بل إنه لم ينه مرحلة الدراسة الابتدائية، ولكنه كان الذراع الأيمن للدكتور برنارد. كان يعمل سراً إلى جانبه. وكان القانون أو العرف يحظر على الزنجي لمس لحم البيض أو دمهم. وقبل قليل من موته، اعترف برنارد: - ربما كان هو أفضل مني تقنياً.

وفي نهاية المطاف، ما كان يمكن لمأثرته أن تتحقق دون ذلك الرجل ذي الأصابع السحرية الذي جرب زرع القلب، عدة مرات، على الخنازير والكلاب.

في جدول العاملين في المستشفى، يظهر اسم ناكي كبستاني. وقد تقاعد كبستاني.

التاسعة

حال الصمم دون أن يتمكن بيتهوفن من سماع نغمة واحدة من سيمفونيته التاسعة، وحال موته دون أن يعلم بأمر مغامرات ونكبات عمله البارع.

الأمير بسمارك أعلن أن التاسعة تلهم العرق الألماني، وباكونين سمع فيها موسيقى الفوضوية، وإنجلز أعلن أنها ستكون نشيد الإنسانية وقال لينين إنها أكثر ثورية من النشيد الأممي.

فون كارجان قادها في كونشيرتو للحكومة النازية، وبعد سنوات من ذلك كرس بها وحدة أوروبا الحرة.

التاسعة رافقت الكاميكازي اليابانيين الذين كانوا يموتون في سبيل إمبراطورهم، والمقاتلين الذين قدموا حياتهم وهم يقاتلون ضد كل الإمبراطوريات.

كان يغنيها من يقاومون الهجمة الألمانية، وكان يدندنها هتلر الذي قال في إحدى نوبات تواضعه إن بيتهوفن هو الفوهرر الحقيقي.

بول روبينسون غناها ضد العنصرية، وعنصريو أفريقيا الجنوبية استخدموها خلفية موسيقية في الدعاية للأبارتايد.

في العام ١٩٦١، على وقع التاسعة، انتصب جدار برلين.

وفي العام ١٩٨٩، على وقع التاسعة، سقط جدار برلين.

جدران

كان جدار برلين خبر كل يوم. منذ الصباح حتى الليل كنا نقرأ ونرى ونسمع: جدار العار، جدار الخزي، الستار الحديدي...

وأخيراً، سقط هذا الجدار الذي يستحق السقوط. لكن جدراناً أخرى انبثقت، ومازالت تنبثق، في العالم. ومع أنها جدران أكبر بكثير من جدار برلين، يجري الحديث عنها قليلاً أو لا يجري أبداً.

قلما يجري الحديث عن الجدار الذي ترفعه الولايات المتحدة على الحدود المكسيكية، وقلما يجري الحديث عن الأسلاك الشائكة حول سبتة ومليلة.

وليس هناك أي حديث تقريباً عن جدار الضفة الغربية الذي يديم الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية وسيكون أكبر خمسة عشر مرة من جدار برلين.

لماذا يا ترى توجد جدران عالية الصوت جداً وجدران شديدة البكم؟

صور: سقوط الجدار

برلين، تشرين الثاني ١٩٨٩. فرديناد سيسانا يصور رجلاً يدفع عربة يدوية. إنه يحمل بمشقة رأساً ضخماً لستالين. الرأس البرونزي فُصل حين كان الغضب الشعبي يحطم بضربات المطارق الجدار الذي يقسم برلين إلى مدينتين.

الجدار لم يسقط وحده. فمع الجدار انهارت الأنظمة التي بدأت بإعلان دكتاتورية البروليتاريا وانتهت إلى ممارسة دكتاتورية الموظفين. انهار الوعي السياسي المختزل إلى إيمان ديني على يد أحزاب كانت تنادي بماركس، ولكنها تمارس ككنائس تستلهم ذلك الحكم للبابا غريغوريو السابع: الكنيسة لم تخطئ قطّ، وحسب شهادات الكتابات المقدسة لن تخطئ أبدا.

دون إراقة دمعة واحدة، أو قطرة دم واحدة، كان الشعب في كل أنحاء أوروبا الشرقية يشهد، وهو متقاطع الذراعين، احتضار السلطة التي كانت تتصرف باسمه.

وفي أثناء ذلك، كان دينغ شياو بنغ، خليفة ماو في الصين، يطلق شعار تحول المرء إلى الثراء أمر مجيد. وفي خدمة الإثراء المجيد لقادتها، تقدم الصين للسوق العالمي ملايين أيديها العاملة الرخيصة جداً والمطيعة جداً، وهواءها، وأرضها وماءها، وطبيعتها معروضة للتضحية على مذبح النجاح. والبيروقراطيون الشيوعيون تحولوا إلى رجال أعمال. لهذا السبب كانوا قد درسوا "رأس المال": كي يعيشوا على فوائده.

نور إلهي، نور قاتل

تفرقع ألسنة اللهب.

وفي محرقة الجثث يشتعل فراش تالف، وكراسٍ غير صالحة للاستخدام، وإطارات غير صالحة للاستخدام.

ويشتعل إله لم يعد صالحاً للاستعمال: فالنار تلتهم جسد بول بوت.

في نهاية صيف ١٩٩٨ مات في بيته، في فراشه، هذا الرجل الذي قتل الكثيرين.

لم يختزل أي وباء عدد سكان كمبوديا مثله. ففي مناداته بأسماء ماركس ولينين وماو المقدسة، أقام بول بوت مسلخاً هائلاً. ومن أجل عدم إنفاق الوقت أو المال، كان كل اتهام يتضمن الحكم، وكان لكل سجن باب يؤدي إلى قبر جماعي. البلاد بأسرها كانت قبراً جماعياً ومعبداً مكرساً لعبادة بول بوت الذي يطهّر البلاد لتكون جديرة بخدماته.

الطهارة الثورية تتطلب تصفية الدنسين.

والدنسون هم: من يفكرون، من يختلفون في الرأي، من يتشككون، من يرفضون الانصياع.

الجريمة تدفع

في نهاية سنواته الطويلة في السلطة، لم يكن بمقدور الجنرال سوهارتو حصر أعداد قتلاه أو أمواله.

في العام ١٩٦٥، بدأ سيرته بإبادة الشيوعيين الأندونيسيين. كم عددهم. إنه غير معروف. ليسوا أقل من نصف مليون، وربما أكثر من مليون. من الصعب حساب عددهم. فعندما أعطى العسكريون الضوء الأخضر بالقتل في القرى، تحول فجأة إلى شيوعيين يستحقون المشنقة كل من لديهم بقرة تستثير الحسد أو بعض الدجاجات التي يطمع الجيران بها.

وقد أعرب السفير مارشال غرين، باسم حكومة الولايات المتحدة، عن التعاطف والتقدير لما يقوم به الجيش. ومجلة "تايم" قالت إن الموتى يحولون دون التمكن من الإبحار في الأنهار، ولكنها احتفت بما يحدث باعتباره أفضل خبر منذ سنوات طويلة.

بعد عقدين من ذلك، كشفت هذه المجلة نفسها أن لدى الجنرال سوهارتو قلباً رقيقاً. وفي تلك الأثناء كان هو نفسه قد فقد القدرة على حصر عدد موتاه الكثيرين، بالرغم من أنه كان يعمل على إطالة القائمة بتحويل بساتين جزيرة تيمور إلى قبور.

لم تكن ضئيلة كذلك حسابات توفيره عندما أجبر على الاستقالة، بعد أكثر من ثلاثين عاماً في

خدمة الوطن.

جيب عميقة بلا قرار: عبد الرحمن وحيد، الرئيس الوريث، قدر أن سوهارتو قد راكم ثروة شخصية تساوي كل ما تدين به اندونيسيا لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

من المعروف أن شوارع المصارف، في زيوريخ وجنيف، كانت أماكن تجوله المفضلة، لأنه معجب جداً بالمناظر السويسرية، ولكنه لم يتوصل قطّ إلى تذكر أين أودع أمواله.

في العام ٢٠٠٠، فحصت لجنة طبية الجنرال سوهارتو وأعلنت أنه عاجز جسدياً وذهنياً عن الخضوع لمحاكمة.

حالة عفو أخرى

أقر تقرير طبي أن الجنرال أغوسطو بينوشيت يعاني من خرف الشيخوخة.

ولأنه ليس بكامل قواه العقلية، لا يمكن إخضاعه لمحاكمة.

اجتاز بينوشيت دون ارتباك ثلاثمئة دعوى جرمية ومات دون أن يصدر عليه حكم واحد. فالديمقراطية التشيلية عادت للولادة مجبرة على دفع ديونه وعلى نسيان جرائمه، وكان هو يشارك في العفو الرسمي.

كان قد قَتَلَ، وكان قد عذَّب، ولكنه كان يقول:

- لم أكن أنا، كما أنني لا أتذكر. وإذا تذكرت، لم أكن أنا.

في لغة كرة القدم العالمية مازالوا يطلقون تسمية بينوشيت على الفرق السيئة جداً، لأنها تملأ الستادات من أجل تعذيب الناس؛ غير أن الجنرال لم يعدم معجبين به. فجادة الحادي عشر من أيلول في سنتياغو لم تعمد بهذا الاسم تخليداً لذكرى ضحايا الهجوم الإرهابي الذي قوض برجي نيويورك، وإنما تكريماً للانقلاب العسكري الإرهابي الذي قوض الديمقراطية في تشيلي.

وفي إيماءة توافق غير إرادي، مات بينوشيت في اليوم العالمي لحقوق الإنسان.

وفي أثناء ذلك، كان قد أكتُشف وجود أكثر من ثلاثين مليون دولار، سرقها هو نفسه، في مئة وعشرين حساباً في عدة بنوك في العالم. هذا الكشف أثر قليلاً على سمعته. ليس لأنه كان لصاً، وإنما لأنه كان لصاً غير كفء.

صور: هذه الرصاصة لا تكذب

سنتياغو دي تشيلي، القصر الحكومي، أيلول ١٩٧٣.

مجهول اسم المصور. هذه هي الصورة الأخيرة لسلفادور ألليندي: إنه يعتمر خوذة، يمشي والسلاح في يده، ينظر إلى السماء، الطائرات تبصق قنابل.

رئيس تشيلي، المنتخب في انتخابات حرة، كان قد قال:

- أنا لا أخرج حياً من هنا.

هذه العبارة روتينية في التاريخ الأمريكي اللاتيني: لقد قالها رؤساء كثيرون فضلوا في لحظة الحقيقة أن يظلوا أحياء، كي يواصلوا ترديدها.

ألليندي لم يخرج حياً من هناك.

قبلة فتحت أبواب الجحيم

لقد كانت الإشارة، مثلما في الأناجيل:

- من أُقبّلها هي المطلوبة.

وفي أواخر العام ١٩٧٧، في بوينس آيرس، قبّل الملاك الأشقر، واحدة بعد أخرى، كلاً من إستير باليسترينو، وماريا بونثي، وأثوثينا بيّافلور، مؤسسات حملة أمهات ساحة مايو، والراهبتين إليثي دومون وليونيه دوكيت.

وابتلعتهن الأرض. وزير داخلية الدكتاتورية العسكرية أنكر أن تكون الأمهات معتقلات، وقال إن الراهبتين قد ذهبتا إلى مكسيكو لتمارسا الدعارة.

بعد ذلك عُرف أنهن جميعهن، الأمهات والراهبتين، قد خضعن للتعذيب وألقي بهن وهن على قيد الحياة إلى البحر من طائرة.

وقد جرى التعرف إلى الملاك الأشقر. فعلى الرغم من اللحية، ومن القبعة، تم التعرف إليه عندما نشرت الصحف صورة النقيب ألفريدو أستيث وهو يوقّع، مطأطئ الرأس، وثيقة الاستسلام أمام الإنكليز. كان ذلك في نهاية حرب المالفين ولم يكن قد أطلق طلقة واحدة. فقد كان متخصصاً في نوع آخر من البطولات.

صورة أسرة في الأرجنتين

الشاعر الأرجنتيني ليوبولدو لوغونيس هتف:

– لقد دقت، من أجل خير العالم، ساعة السيف!

هكذا صفق في العام ١٩٣٠ للانقلاب العسكري الذي أقام دكتاتورية عسكرية.

وفي خدمة تلك الدكتاتورية، اخترع ابن الشاعر، المفوض بولو لوغونيس، آلة اللسع الكهربائي وغيرها من الأدوات المناسبة التي كان يجربها على أجساد غير المنصاعين.

بعد بضعة وأربعين عاماً من ذلك، تعرض غير منصاع يدعى بيري لوغونيس، حفيد الشاعر، وابن المفوض، للمعاناة بجسده بالذات من اختراعات أبيه، في حجرات تعذيب دكتاتورية أخرى.

هذه الدكتاتورية أخفت آثار ثلاثين ألف أرجنتيني.

من بينهم، آثارها هي نفسها.

أعمار آنا

في سنواتها الأولى، كانت آنا تعتقد أن أبويها قد ماتا في حادث. هذا ما قاله لها جداها. قالوا لها إن أبويها كانا آتيين لأخذها عندما سقطت الطائرة التي تقلهما.

في الحادية عشرة، أخبرها أحدهم بأن أبويها قد ماتا وهما يناضلان ضد الدكتاتورية العسكرية الأرجنتينية. لم تسأل شيئاً، لم تقل شيئاً. لقد كانت طفلة ثرثارة، ولكنها منذ ذلك الحين صارت تتكلم قليلاً أو لا تتكلم أبداً.

في السادسة عشرة من عمرها، صارت تجد صعوبة في التقبيل. فقد كانت هناك قرحة تحت لسانها.

وفي الثامنة عشرة، صارت تجد صعوبة في الأكل. فالقرحة كانت تزداد عمقاً.

في التاسعة عشرة أجروا لها عملية جراحية.

وفي العشرين، ماتت.

الطبيب قال إن سرطان فم قد قتلها.

الجدة قالت إن الحقيقة قتلتها.

ساحرة الحي قالت إنها ماتت لأنها لم تصرخ.

الاسم الذي يُلمس أكثر

في ربيع العام ١٩٧٩، سافر أوسكار أرنولفو روميرو، مطران السلفادور، إلى الفاتيكان. طلب، توسل، تسول لقاء مع البابا يوحنا بولس الثاني:

- انتظر دورك.

- لا نعرف متى.

- عد غداً.

وأخيراً، اصطف ضمن صفوف المؤمنين الذين ينتظرون المباركة، واحداً بين الجمع، فاجأ روميرو قداسة البابا واستطاع أن يختلس بضع دقائق من وقته.

حاول تسليمه تقريراً ضخماً مع صور وشهادات، ولكن البابا أعاده إليه:

- لا وقت لدي لقراءة كل هذه الأشياء!

وتلعثم روميرو قائلاً إن آلاف السلفادوريين قد عُذبوا وقُتلوا على يد السلطة العسكرية، وبينهم كثير من الكاثوليكيين وخمسة كهنة، وإنه يوم أمس بالذات، عشية هذا اللقاء، قتل الجيش بالرصاص خمساً وعشرين شخصاً أمام أبواب الكاتدرائية.

أوقفه زعيم الكنيسة بجفاء:

- لا تبالغ أيها السيد المطران!

وقد استمر اللقاء لوقت أطول قليلاً.

وريث كرسي القديس بطرس طالب، أمر، جزم:

- عليكم أن تتفاهموا مع الحكومة! فالمسيحي الطيب لا يخلق المشاكل للسلطات! الكنيسة تريد السلام والوئام!

بعد عشرة شهور من ذلك، سقط المطران روميرو صريعاً في إحدى كنائس سان سلفادور. الرصاصة قلبته وهو في ذروة القداس، عندما كان يرفع خبز القربان.

ومن روما، أدان الحبر الأعظم الجريمة.

لقد نسي أن يدين المجرمين.

بعد سنوات من ذلك، في حديقة كوسكاتلان، يوجد جدار طويل بلا نهاية، يذكّر بضحايا الحرب المدنيين. أنها آلاف وآلاف الأسماء المحفورة بالأبيض على رخام أسود. اسم المطران هو الوحيد المتآكل.

متآكل من لمس أصابع الناس للتبرك به.

المطران الذي مات مرتين

الذاكرة سجينة في المتاحف ولا تملك إذناً بالخروج.

المطران خوان خيراردي أشرف على التحقيقات حول الرعب في غواتيمالا.

في إحدى ليالي ربيع ١٩٩٨، قدم المطران النتائج، ألف وأربعمئة صفحة، أكثر من ألف شهادة، في فناء الكاتدرائية، وقال:

- نحن نعرف جيداً أن هذا الطريق، طريق الذاكرة، مفعم بالمخاطر.

بعد ليليتين من ذلك، ظهر ممدداً على دمه، وجمجمته مهشمة بالحجارة.

وفي الحال، كما في فنون السحر، جرى غسل الدم وتم محو الآثار. وسُمعت اعترافات هي بكلمة أدق تشويشات، وهكذا أُطلقت عملية عالمية ضخمة لتحويل الاغتيال إلى متاهة لا يمكن تجاوزها.

وهكذا حدث الموت الثاني للمطران. شارك في المهمة القذرة محامون، وصحفيون، وكتّاب وخبراء جرائم مأجورين. مذنبون جدد، وقصص جديدة، كانت تظهر وتختفي بإيقاع دواريّ، كلمات مشينة فوق جسد الضحية، من أجل الإبقاء على الحصانة المنيعة لمقترفي هذه الجريمة ومئتي ألف جريمة قتل أخرى:

- أحد الشيوعيين المتسللين إلى الكنيسة.

- الطاهية.

- مدبرة المنزل.

- ذلك السكير الذي ينام قبالة بيت الأبرشية.

- الدافع هو الغيرة.

- عملية تهشيم الرأس عادة تقليدية بين المخنثين.

- إنه انتقام أقسم عليه أحد الكهنة.

- إنه ذلك الكاهن، والكلب.

- أنه...

الضريبة العالمية

الحب الذي يمضي، الحياة التي تُثقل، الموت الذي يطأ.

هناك آلام لا يمكن تجنبها، هكذا وحسب، ولا وسيلة للخلاص منها.

ولكن سلطات الكوكب تضيف آلاماً إلى الآلام، وتتقاضى منا فوق ذلك هذا الصنيع الذي تقدمه لنا.

بنقود عداً ونقداً ندفع، كل يوم، ضريبة القيمة المضافة.

وبتعاسة عداً نقداً ندفع، كل يوم، ضريبة الألم المضاف.

الألم المضاف يتنكر على شكل كارثة من القدر، كما لو أن الغم الذي يولد من هروب الحياة والغم الذي يولد من هروب الوظيفة هما الشيء نفسه.

ليست أخباراً

في جنوبي الهند، في مستشفى نالامادا، ينبعث منتحرٌ حياً.

حول سريره يبتسم من أعادوه إلى الحياة.

المنبعث حياً ينظر إليهم، ويقول:

- ماذا تنتظرون؟ أتريدون أن أشكركم؟ أنا مدين بمئة ألف روبية. وسأدين الآن بتكاليف أربعة أيام في المستشفى. أنتم أيها الحمقى يا من قدمتم لي هذا الصنيع.

نعرف الكثير عن الإرهابيين الانتحاريين. وسائل الإعلام تحدثنا عنهم كل يوم. ولكنها لا تحدثنا أي شيء بالمقابل عن المزارعين الانتحاريين.

بوتيرة ألف كل شهر، حسب الأرقام الرسمية، يقتل المزارعون الهنود أنفسهم، منذ أواخر القرن العشرين وهذه السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين.

كثيرون من المزارعين الانتحاريين يموتون بشرب المبيدات التي لا يستطيعون دفع ثمنها.

السوق يجبرهم على الاستدانة، والديون التي لا يمكن دفعها تجبرهم على الموت. ففي كل مرة ينفقون أكثر ويجنون في كل مرة أقل. يشترون بأسعار عملاقة ويبيعون بأسعار قزمة. إنهم رهائن الصناعات الكيميائية الأجنبية، بذور مستوردة، زراعات جينية محسنة وراثياً: الهند التي كانت تُنتج لتأكل، صارت تُنتج الآن لتُؤكل.

علم الإجرام

في كل سنة، تقتل المبيدات الكيماوية ما لا يقل عن ثلاثة ملايين فلاح.
في كل يوم، تقتل حوادث العمل ما لا يقل عن عشرة آلاف عامل.
كل دقيقة، يقتل البؤس ما لا يقل عن عشرة أطفال.
هذه الجرائم لا تظهر في الأخبار. إنها مثل الحروب، أكل عادي للحوم البشر.
المجرمون يمضون طلقاء. السجون لم تُبنى لمن ينزعون أحشاء حشود. فبناء السجون هي خطة تعمير المساكن التي يستحقها الفقراء.
منذ أكثر من قرنين تساءل توماس بَين:
- لماذا من النادر شنق شخص غير فقير؟
تكساس، القرن الحادي والعشرون: العشاء الأخير يكشف نوعية زبائن منصة الإعدام. ليس هناك من يختار اللنغوستا أو فيليه مينيون، على الرغم من أن الطبقين واردان في قائمة الوداع. المحكومون بالإعدام يفضلون أن يودعوا العالم بأكل همبرغر مع بطاطا مقلية، مثلما هي عادتهم في الأكل.

بث حي ومباشر

البرازيل كلها تتابع.
استعراض في الزمن الواقعي.
التلفزيون لا يضيع أي تفصيل، منذ اللحظة التي يحوّل فيها المجرم، ويجب أن يكون زنجياً، ركاب حافلة في ريو دي جانيرو إلى رهائن، في صباح يوم من العام ٢٠٠٠.
الصحفيون يصفون ما يحدث وكأنه مزيج من كرة القدم والحرب، والانفعال يمزق قلوباً كما في مباراة نهائي كأس العالم يصفها مذيع بنبرة ملحمية تراجيدية كوصف عملية الإنزال في النورماندي.
الشرطة فرضت حصاراً على الحافلة.
وفي تبادل إطلاق النار الطويل، تسقط فتاة. الجمهور يطلق اللعنات ضد المتوحش الضاري الذي لا يتردد بالتضحية بأرواح بشرية بريئة.
وأخيراً، بعد أربع ساعات من تبادل الرصاص الكثيف والكثير من الأوبرا، تُسقط رصاصة النظام ذلك الخطر العام. رجال الشرطة يعرضون غنيمتهم: يعرضون المجرم الجريح جرحاً

بليغاً، والمستحم بدمه، أمام الكاميرات.
الجميع يريدون شنقه، آلاف ممن هم هناك وملايين من غير الموجودين هناك ولكنهم يرون.
رجال الشرطة ينتزعونه من أيدي الحشود المتأججة غضباً.
يدخل حياً إلى سيارة الدورية. ويخرج مخنوقاً.
في مروره القصير في العالم سُمي ساندرو دو ناسيمنتو. كان واحداً من أطفال الشوارع الكثيرين الذين كانوا ينامون على أدراج كنيسة كانديلاريا، في إحدى ليالي العام ١٩٩٣، عندما أمطرت رصاصاً. ومات ثمانية منهم.
ومن ظلوا على قيد الحياة، قتلوا جميعهم تقريباً بعد قليل من ذلك.
ساندرو كان محظوظاً، ولكنه كان ميتاً في إجازة.
سبع سنوات بعد ذلك، أُنجز الحكم عليه.
لقد كان يحلم على الدوام بأن يكون نجماً تلفزيونياً.

بث مباشر وحي

الأرجنتين بأسرها تشاهد. استعراض في الزمن الواقعي.
التلفزيون لا يضيع تفصيلاً واحداً، منذ اللحظة التي يظهر فيها الثور، ويجب أن يكون أسود، في أحد شوارع ضاحية من ضواحي بوينس آيرس، في صباح يوم من العام ٢٠٠٤. الصحفيون يصفون ما يجري كما لو أنه مزيج من مصارعة ثيران وحرب، الانفعال يمزق قلوباً كما في وصف مصارعة في ميدان مصارعة الثيران في اشبيلية يُروى بالنبرة الملحمية التراجيدية لسقوط برلين.
تمر فترة الصباح والشرطة لا تصل.
البهيمة المتوعدة ترعى. الأهالي المذعورون ينظرون من بعيد.
حذار، يحذر أحد الصحفيين وهو يمضي بين الجموع والميكروفون في يده: حذار، يمكن له أن يهتاج.
المتوحش يجتر عشباً، غير مبال بأي شيء، مركزاً على تلك القطعة من الريف التي وجدها بين الأبنية الرمادية.
وأخيراً، تصل سيارات الدورية محملة برجال شرطة ينتشرون حوله ينظرون إليه دون أن يدروا ماذا يفعلون.

عندئذ ينفصل بعض المبادرين عن الحشد، ويُظهرون شجاعة وبراعة بانقضاضهم على الثور الجامح. يطرحونه أرضاً، يضربونه بالقبضات والركلات ويقيدونه بأصفاد. الكاميرات تسجل اللحظة التي يضع فيها أحدهم قدمه فوق الغنيمة بانتصار.
يحملونه في عربة. رأسه يتدلى خارجاً. وعندما يرفعه، يوجهون إليه الضربات. والأصوات تستنكر: - يريد الهرب! يريد الهرب من جديد!
وهكذا ينتهي هذا العجل، هذا المراهق الذي بدأ قرناه بالظهور حديثاً، والذي هرب من المسلخ.
الطبق هو مصيره.
لم يحلم يوماً قط بأن يكون نجماً تلفزيونياً.

خطر في السجون

في العام ١٩٩٨ تلقت الإدارة العامة لنظام السجون في جمهورية بوليفيا رسالة موقعة من جميع سجناء سجن وادي كوتشابامبا.
السجناء يطلبون من السلطات بأن تتفضل بزيادة ارتفاع سور السجن، لأن الجيران يقفزون بسهولة ويسرقون لهم ملابسهم التي يعلقونها في الفناء لتجف.
ولأنه لم تكن هنالك ميزانية متوفرة، لم يجد السجناء بداً من العمل بأنفسهم. وقد رفعوا السور جيداً، بطوب من الطين والقش، كي يحموا أنفسهم من المواطنين الذين يعيشون في محيط السجن.

خطر في الشوارع

منذ ما يزيد على نصف قرن، لم تكسب أروغواي أية بطولية عالمية بكرة القدم، ولكنها في زمن الدكتاتورية العسكرية حققت إنجازات في منافسات أخرى: إنها البلاد التي تضم أكبر عدد من السجناء السياسيين والمعذبين بالمقارنة مع عدد السكان.

أشد السجون كثافة سُمي سجن الحرية. وفي تكريم للاسم، هُربت الكلمات السجينة. فمن خلال قضبانه الحديدية، تسللت القصائد التي كتبها السجناء على قصاصات صغيرة جداً من ورق السجائر، مثل هذا القصيدة:

أحياناً تُمطر وأحبك.
أحياناً تطلع الشمس وأحبك.
السجن يكون أحياناً.
وأحبك دائماً.

خطر في جبال الأنديز

كان الثعلب آخذا بالنزول من السماء عندما قطعت الببغاوات، بمناقيرها، الحبل الذي ينزل عليه.

ارتطم الثعلب بقمم سلسلة جبال الأنديز العالية، وبتمزقه تناثرت حبات الكينوا التي في بطنه، وكان قد سرقها من المآدب السماوية.

وهكذا زُرع طعام الآلهة هذا في العالم.

ومنذ ذلك الحين صارت الكينوا تعيش في الأراضي شاهقة الارتفاع، حيث لا يستطيع سواها تحمل القحولة والبرد.

السوق العالمية لم تولِ أي اهتمام قط بطعام الهنود الحقير ذاك، إلى أن عُرف أن البذور الدقيقة القادرة على النمو حيث لا ينمو أي شيء، هي غذاء جيد، ولا تسبب السمنة، وتقي من بعض الأمراض. وفي العام ١٩٩٤، كانت الكينوا موضوع براءة اختراع لعالمين من جامعة ولاية كولورادو (براءة الاختراع رقم US ٥٣٠٤٧١٨ في الولايات المتحدة).

انفجر عندئذ غضب الفلاحين. أصحاب براءة الاختراع أكدوا أنهم لن يستخدموا حقهم الشرعي في منع الزراعة، ولا في تقاضي عمولة، لكن الفلاحين، وهم من سكان بوليفيا الأصليين، أجابوا:

- لسنا بحاجة لأن يأتي أي بروفيسور من الولايات المتحدة ليمنحنا ما هو لنا.
بعد أربع سنوات من ذلك، أجبرت الفضيحة العالمية جامعة ولاية كولورادو على إلغاء البراءة.

خطر في الهواء

إذاعة بايوامس ولدت في نيكاراغوا مع بدء القرن الحادي والعشرين.
البرنامج الأكثر استماعاً يشغل فترات الصباح. ويتابع برنامج "الساحرة المراسلة" آلاف النساء، ويُدخل الخوف في آلاف الرجال.
فللنساء، تقدم الساحرة أصدقاء غير معروفين، مثل ذاك المدعو "بابانيكول"، و"السيدة دستور" وتحدثهن عن حقوقهن، صفرٌ من العنف في الشارع، وفي البيت، وكذلك في الفراش، وتسألهن:
- كيف كانت ليلتكن؟ كيف عاملوكن؟ أكنتن راضيات أم جرى ذلك بعنف؟
وللرجال، تشهر بهم بالاسم واللقب عندما يغتصبون أو يضربون النساء. في الليل تتنقل الساحرة من بيت إلى بيت، طائرة على المقشة؛ وفي الفجر تداعب كرتها الزجاجية وتحزر الأسرار أمام المايكروفون:
- أحم؟ إنك هناك، إنني أراك. تضرب زوجتك. يا لك من همجي أيها التعيس!
الإذاعة تتلقى وتبث الشكاوى التي لا تردّ عليها الشرطة. فرجال الشرطة مشغولون بملاحقة سرقة الماشية، والبقرة أثمن من المرأة.

باربي تذهب إلى الحرب

يوجد أكثر من مليار "باربي" في العالم. الصين وحدها هي التي تتجاوز بعدد سكانها هذا الرقم الهائل.

المرأة الأكثر محبوبية في العالم لا يمكنها أن تتغيب عن شيء. وفي حرب الخير ضد الشر، تطوعت باربي، أدت التحية العسكرية وذهبت إلى حرب العراق.

وصلت إلى جبهة الحرب مرتدية زي البر والبحر والجو، مفصلة على مقاسها بعد أن تفحصها البنتاغون وصادق عليها.

إنها معتادة على تبديل المهنة، وتسريحة الشعر، والملابس. فقد كانت مغنية أيضاً، ورياضية، واختصاصية بالمستحاثات، وطبيبة أسنان، ورائدة فضاء، وإطفائية، وراقصة وما أدراني أية أشياء أخرى، وكل مهنة جديدة تتطلب "لوك" جديداً ومجموعة متكاملة من الملابس الجديدة، يجب على جميع طفلات العالم شراءها.

في شهر شباط ٢٠٠٤، رغبت باربي كذلك في استبدال زوجها. كانت قد أمضت قرابة نصف قرن وهي مع "كين" الذي لا يوجد أي بروز في جسده سوى الأنف، عندما وقعت في إغواء جنوبي دعاها إلى اقتراف خطيئة البلاستيك.

أعلنت شركة ماتيل، رسمياً، خبر انفصال باربي عن كين.

وقد كانت كارثة. انحدرت المبيعات رأسياً. فباربي يمكنها، بل يجب عليها، أن تستبدل المهنة والملابس، ولكن ليس لها الحق بأن تكون مثلاً سيئاً.

عندئذ أعلنت شركة ماتيل، رسمياً، المصالحة.

أبناء روبو كوب يذهبون إلى الحرب

في العام ٢٠٠٥ كشف البنتاغون عن أن حلم جيش الرجال الآليين الذين لا يتأثرون آخذ بالتحول إلى واقع.

فحربا أفغانستان والعراق، حسب المتحدث العسكري جوردن جونسون، كانتا عظميتي الفائدة في تقدم الروبوتات. فالروبوتات المزودة بأجهزة الرؤية الليلية والأسلحة الأوتوماتيكية صارت في وضع يسمح لها بتحديد منشآت العدو وتدميرها دون هامش خطأ تقريباً.

ولا وجود لمواصفات بشرية تحول دون مستوى أمثل من الفعالية:

- الروبوتات لا تشعر بالجوع ولا بالخوف - قال جونسون -، وهي لا تنسى الأوامر أبداً، ولا تهتم أدنى اهتمام إذا ما سقط مقتولاً برصاصةِ الشخص الذي يقاتل إلى جانبها.

حروب مقَنَّعة

في بدايات القرن العشرين، عانت كولومبيا من حرب الألف يوم.

في أواسط القرن العشرين، صارت عدد الأيام ثلاثة آلاف.

في بداية القرن الحادي والعشرين، صارت الأيام لا تُعد.

لكن هذه الحرب القاتلة بالنسبة لكولومبيا، ليس قاتلة إلى هذا الحد بالنسبة لأسياد كولومبيا؛

الحرب تضاعف الخوف، والخوف يحول الظلم إلى قدرية من القدر.

الحرب تضاعف الفقر، والفقر يوفر أيدي تعمل مقابل القليل أو اللاشيء.

الحرب تطرد الفلاحين من أراضيهم، فيبيعونها بالقليل أو بلا شيء؛

الحرب توفر ثروات لتجار الأسلحة ومختطفي المدنيين، وتوفر ملاذات لتجار المخدرات، من أجل أن يظل الكوكائين تجارة يدس فيها الأمريكيون أنوفهم ويدفع الكولومبيون فيها الموتى.

الحرب تغتال مناضلي النقابات، فتنظم النقابات جنازات أكثر مما تنظم إضرابات، وتتوقف عن إزعاج شركات تشكيتا براندس، أو كوكاكولا، أو نستله، أو دل مونتي، أو درموند ليمتد.

والحرب تغتال من يشهرون بأسباب الحرب، من أجل أن تظل الحرب غير قابلة للتفسير بقدر ما هي ضرورة.

الخبراء بعلوم العنف يقولون إن كولومبيا بلاد مغرمة بالموت.

إنه أمر يجري في دماء الناس، هكذا يقولون.

امرأة على ضفة النهر

إنها تمطر موتاً. في حلبة الموت يسقط الكولومبيون برصاصة أو بسكين، بضربة ماتشيتي أو ضربة هراوة. بالمشنقة أو بالنار، بقنبلة من السماء أو بلغم من الأرض.

وفي غابات أورابا، على إحدى ضفاف نهر بيرانتشو أو بيرانتشيّو، في بيتها الذي من أغصان وسعف، هناك امرأة تدعى إيليخيا، تهوّي بمروحتها اليدوية ضد الحر والبعوض، وضد الخوف أيضاً. وبينما المرحة تخفق، تقول هي بصوت عالٍ: - كم سيكون لذيذاً أن أموت ميتة طبيعية.

حروب أكاذيب

حملات إعلانية، عمليات ماركيتنغ. الرأي العام هو المتلقي. الحروب تُسوق بالكذب، مثلما تُسوق السيارات.

في آب ١٩٦٤، اشتكى الرئيس ليندون جونسون من أن الفيتناميين قد هاجموا سفينتين للولايات المتحدة في خليج تونكين.

عندئذ غزا الرئيس فيتنام، أرسل طائرات وقوات، وارتفعت شعبيته حتى الغيوم وهلل له الصحفيون والسياسيون، وصارت الحكومة الديمقراطية والمعارضة الجمهورية حزباً واحداً وحيداً ضد الاعتداء الشيوعي.

وعندما كانت الحرب قد انتزعت أحشاء جموع غفيرة من الفيتناميين، معظمهم من النساء والأطفال، اعترف روبرت مكنامارا، وزير دفاع جونسون، أن هجوم خليج تونكين لم يوجد قط. ولكن الموتى لم يُبعثوا إلى الحياة.

في آذار ٢٠٠٣، أعلن الرئيس جورج دبليو بوش أن العراق على وشك إبادة العالم بأسلحة التدمير الشامل التي يملكها، الأسلحة المهلكة التي لم يُخترع مثلها قط.

وعندئذ هاجم الرئيس العراق، أرسل طائرات وقوات وارتفعت شعبيته حتى السحاب، وهلل له الصحفيون والسياسيون، وصارت الحكومة الجمهورية والمعارضة الديمقراطية حزباً واحداً موحداً ضد الاعتداء الإرهابي.

وعندما كانت الحرب قد انتزعت أحشاء حشود من العراقيين، معظمهم من النساء والأطفال، اعترف بوش بأن أسلحة الدمار الشامل لم توجد قط. الأسلحة المهلكة التي لم يُخترع لها مثل اخترعها هو نفسه. في الانتخابات التالية، كافأه الشعب بإعادة انتخابه.

هناك في الطفولة، كانت أمي قد قالت لي إن حبل الكذب قصير. معلوماتها غير دقيقة.

تأسيس المعانقات

في العراق ولدت أول قصيدة حب في الأدب العالمي، قبل آلاف السنين من تدميره:

فلينسج المغني في نشيده

هذا الذي سأغنيك إياه.

النشيد أَنشد، باللغة السومرية، لقاءَ ربةٍ وراع.

إنانا، الربة، أحبت في تلك الليلة كما لو كانَت من البشر الفانين. ودوموزي، الراعي، كان خالداً طيلة ما دامته تلك الليلة.

حروب كاذبة

حرب العراق نشأت من ضرورة إصلاح الخطأ الذي ارتكبته الجغرافية عندما وضعت بترول الغرب تحت رمال الشرق، ولكن لا وجود لحرب تتمتع بنزاهة الاعتراف:

- أنا أقتل لأسرق.

مآثر حربية كثيرة أدى إليها ومازال يؤدي إليها براز الشيطان، مثلما تطلق ألسنة السوء على الذهب الأسود.

حشود من الناس فقدت حياتها في السودان بين نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين في حرب بترولية طويلة تقنعت بقناع إثني وديني. أبراج وحفارات، أنابيب وخطوط أنابيب تنبثق، بفعل السحر، فوق القرى المشتعلة والزراعات المدمرة. وفي منطقة دارفور، حيث تواصلت المجزرة، السكان جميعهم مسلمون، بدؤوا يتبادلون العداء عندما علموا أنه يمكن وجود بترول تحت أقدامهم.

وقد قيل كذلك حرب إثنية ودينية عن المجازر في هضاب رواندا، بالرغم من أن القاتلين والمقتولين كانوا جميعهم كاثوليك، ويعود إلى الزمن الذي قرر فيه البلجيكيون أن من يملكون أبقاراً هم التوتسي ومن يعملون في الأرض هم الهوتو، وأن على الأقلية التوتسي أن تسيطر على الأغلبية الهوتو.

في تلك السنوات، فقدت جموع غفيرة حياتها في جمهورية الكونغو الديمقراطية، خدمة للشركات الأجنبية التي تتنازع على "الكولتان". فهذا المعدن النادر لا غنى عنه من أجل تصنيع الهواتف الخلوية، والكمبيوترات، والرقائق الإلكترونية الدقيقة والبطاريات التي تُستخدم في وسائل الاتصال، والذي ينسون مع ذلك ذكره.

حروب نهمة

ألف مرة ومرة صوتت الأمم المتحدة ضد الاغتصاب الإسرائيلي للوطن الفلسطيني.

في العام ١٩٤٨، استدعى تأسيس دولة اسرائيل طرد ثمانمئة ألف فلسطيني. الفلسطينيون المطرودون من ديارهم حملوا معهم مفاتيح بيوتهم، مثلما فعل، قبل قرون، اليهود المطرودون من إسبانيا. اليهود لم يستطيعوا العودة إلى إسبانيا. الفلسطينيون لم يتمكنوا من العودة إلى فلسطين.

ومن ظلوا منهم حُكم عليهم بالعيش مذلين في أراض تختزلها الغزوات كل يوم.

سوسن عبد الله، فلسطينية، تعرف الوصفة الكفيلة بصنع إرهابي:

جرده من الماء والطعام.

حاصر بيته بأسلحة الحرب.

هاجمه بكل الوسائل وفي كل الأوقات، وخاصة في الليل.

اهدم بيته، أتلف أرضه المزروعة، اقتل أحبته، لاسيما الأطفال، أو شوههم.

مبروك: لقد خلقت جيشاً من البشر ـ القنابل.

حروب قاتلة العالم

في منتصف القرن السادس عشر، كشف الأسقف الأيرلندي جيمس يوشر أن العالم ولد في العام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، ما بين غروب يوم السبت ٢٢ تشرين الأول وليل اليوم التالي.

أما حول موت العالم، فلا تتوفر لدينا معلومات بمثل هذه الدقة. ولكن يُخشى، وهذا نعرفه، أن الوفاة لن تتأخر كثيراً، نظراً لأعمال القتل المحمومة. أعمال التقدم التكنولوجي في هذا القرن الحادي والعشرين تعادل عشرين ألف عام من التقدم في التاريخ البشري، ولكننا لا ندري في أي كوكب سيجري الاحتفال بهذا التقدم التكنولوجي. وقد تنبأ شكسبير بذلك: نكبة هذه الأزمنة هي في أن المجانين يقودون العميان.

تدعونا إلى الموت الآلات المخترعة لمساعدتنا على العيش.

المدن الكبرى تحظر التنفس والمشي. القصف الكيميائي يذيب القطبين وثلوج القمم الجبلية. وكالة سفر في كاليفورنيا تبيع رحلات إلى غرينلند للقول وداعاً للثلوج. البحر يبتلع الشواطئ، وشِباك الصيادين تلتقط مديوزات بدل أسماك القدّ. الغابات الطبيعية، حفلات التنوع الخضراء تلك، تتحول إلى غابات اصطناعية أو إلى صحارى حيث لا يمكن حتى للأحجار أن تفرخ. في عشرين بلداً، في بدايات هذا القرن، ألقى الجفاف بمئة مليون فلاح إلى دروب الله. "لقد تعبت الطبيعة جداً"، هذا ما كتبه الراهب الإسباني لويس ألفونسو دي كارفايّو. كان ذلك في العام ١٦٩٥ . وهو يناسبنا الآن.

حيث لا يوجد جفاف، يوجد طوفان. وسنة بعد سنة تتكاثر الفيضانات، والعواصف، والأعاصير، والزلازل التي بلا نهاية. يسمونها كوارث طبيعية، كما لو أن الطبيعة هي صانعتها وليست ضحيتها. كوارث قاتلة عوالم، كوارث قاتلة فقراء: في غواتيمالا يقولون إن تلك الكوارث الطبيعية تبدو أشبه بأفلام الكاوبوي القديمة، لأنه لا يموت فيها سوى الهنود.

لماذا ترتعش النجوم؟ ربما لأنها تخشى أن نغزو عما قريب كواكب أخرى في الفضاء.

مارد تولي

لقد رآها في العام ١٥٨٦ الأسقف الإسباني جوزيف أكوستا، رآها في قرية تولي، على بعد ثلاثة فراسخ عن أوكساكا: وتلك الشجرة ضربتها صاعقة من الأعالي، من القلب إلى أسفل.

وقبل أن تضربها الصاعقة، يقولون إن ظلالها كانت تتسع لألف رجل.

وفي العام ١٦٣٠، برنابيه كوبو كتب أن للشجرة ثلاثة أبواب، وهي أبواب كبيرة جداً يمكن المرور منها على حصان.

إنها لا تزال هناك. ولدت قبل المسيح، ومازالت هناك. إنها الكائن الحي الأكبر سناً والأضخم في العالم. في كثافة أغصانها تقيم آلاف الطيور بيوتها.

هذا الإله الأخضر محكوم بالعزلة. لا وجود لأدغال ترافقه.

تأسيس حركة المرور المدينية

الخيول تصهل، الحوذيون يلعنون، السياط تصفر في الهواء.

السيد النبيل يتحول إلى كتلة غضب. فهو ينتظر منذ قرون. لقد علقت عربته بسبب عربة أخرى، وعبثاً يحاول الاستدارة وسط عربات كثيرة أخرى. ويفقد ما هو متبق لديه من انعدام الصبر، فينزل، يستل سيفه ويبقر بطن أول حصان وجده أمامه.

حدث هذا عند غروب يوم سبت من العام ١٧٦٦، في ميدان فيكتوريا، في باريس.

السيد النبيل هو المركيز دو ساد.

أشد سادية بكثير هي الاختناقات المرورية الآن.

أحجية

إنها مدللة الأسرة.

وهي شرهة، تلتهم بترولاً، وغازاً، وقصب سكر، وأي شيء يأتي.

إنها سيدة الزمن البشري المكرس لغسلها وتقديم الطعام والغطاء لها، والتكلم عنها وشق الطرق لها.

تتكاثر أكثر منا، وقد صارت أكثر عشر مرات مما كانت عليه قبل نصف قرن.

تقتل أناساً أكثر من الحروب، ولكن لا أحد يدين اغتيالاتها، وأقل من لا أحد الصحف وقنوات التلفزيون التي تعيش على إعلاناتها.

تسرق منا الشوارع، وتسرق منا الهواء.

تضحكك عندما تسمعنا نقول: أنا أسوق.

تاريخ موجز للثورة التقنية

انمي وتكاثري، قلنا، ونمت الآلات وتكاثرت.

كانت قد وعدتنا بأنها ستعمل من أجلنا.

ونحن الآن من نعمل من أجلها.

تكثِّر الجوعَ الآلاتُ التي اخترعناها لتكثير الطعام.

تقتلنا الآلات التي اخترعناها لتحمينا.

تشلنا السيارات التي اخترعناها لتحركنا.

تباعد بيننا المدن التي اخترعناها لنلتقي فيها.

وسائل الاتصال الكبرى التي اخترعناها لنتواصل، لا تسمعنا ولا ترانا.

إننا آلات آلاتنا.

وهي تدعي البراءة.

ومعها حق.

بوبال

الكابوس أيقظ الأهالي في منتصف الليل: الهواء يشتعل.

في عام ١٩٨٤ انفجر مصنع لشركة يونيون كاربيد كوربوريشن في مدينة بوبال بالهند.

لم يعمل أي جهاز من أجهزة الأمان. أو بكلمة أدق، وبمصلحات اقتصادية: المردودية ضحت بالأمان حين فرضت تقليصاً شديداً في التكاليف.

هذه الجريمة المسماة حادثاً قتلت آلافاً، وخلَّفت آلافاً من المرضى إلى الأبد.

في جنوب العالم تُثمن الحياة البشرية بسعر الطلب. وبعد كثير من الشدّ والجذب، دفعت يونيون كاربيد ثلاثة آلاف دولار مقابل كل ميت، وألف دولار لكل مريض لا شفاء له. ورفض محامو الشركة المشهورون مطالب المتبقين على قيد الحياة، لأنهم أميون غير قادرين على فهم ما يبصمون عليه بإبهامهم. لم تنظف الشركة ماء وهواء بوبال، وظلا مسممين بغازات خانقة، ولم تنظف الأرض، وظلت مسممة بالزئبق والرصاص.

ولكن شركة يونيون كاربيد نظفت صورتها بالمقابل بدفع ملايين لأغلى خبراء التجميل سعراً.

بعد سنوات من ذلك، اشترى عملاق صناعة كيميائية آخر، "دوو كيميكال" تلك الشركة. لقد اشترى الشركة وليس مذكرتها: "دوو كيميكال" غسلت يديها، أنكرت أي مسؤولية في المسألة، ورفعت شكوى ضد النساء اللاتي احتججن أمام أبوابها، بتهمة الإخلال بالأمن العام.

وسائط حيوانية للاتصال

ذات ليلة من ربيع ١٩٨٦ انفجر مفاعل تشرنوبيل الذري.

أصدرت الحكومة السوفييتية الأمر بالصمت.

أشخاص كثيرون، حشود هائلة، ماتوا أو ظلوا على قيد الحياة متحولين إلى قنابل متجولة، ولكن التلفزيون والإذاعة والصحف لم تعلم. وبعد ثلاثة أيام، لم يكشفوا السر ليحذروا من أن ذلك الانفجار الإشعاعي هو هيروشيما جديدة، وإنما ليؤكدوا أنه مجرد حادث صغير، شيء تحت السيطرة، فلا يقلقن أحد.

أما فلاحو وصيادو الأراضي والمياه القريبة والبعيدة فعرفوا أن شيئاً خطيراً، وخطيراً جداً قد حدث. ومن نقل إليهم الخبر المشؤوم هو النحل والزنابير والطيور التي اندفعت طائرة واختفت عن الأنظار في الأفق، والديدان التي غارت إلى عمق متر تحت الأرض وتركت صيادي الأسماك بلا طعم لصنانيرهم والدجاجات بلا طعام.

بعد عقدين من ذلك، انفجر التسونامي في جنوب شرقي آسيا وابتلعت الأمواج الهائلة حشداً آخر.

عندما كانت المأساة تتحضر، وبدأت الأرض بالتململ في أعماق البحر، زمجرت الأفيال بخراطيمها في تأوهات يائسة لم يفهمها أحد، وكسرت السلاسل التي تقيدها وانطلقت مندفعة إلى أعماق الغابة.

وكذلك فعلت طيور النحام، والفهود، والنمور، والخنازير البرية، والغزلان، والجواميس، والقرود، والأفاعي، هربت جميعها قبل الكارثة.

ولم يمت سوى البشر والسلاحف.

الغانج

نهر الهند العظيم لم يكن يحمم الأرض. بل كان يحمم السماء، فهناك في الأعالي، هناك بعيداً، كان الآلهة يرفضون التخلي عن النهر الذي يمنحهم ماءً وبرودة.

وقد ظل الأمر على هذا النحو إلى أن قرر الغانج الانتقال، وجاء إلى الهند، حيث يتدفق الآن من الهملايا حتى البحر، كي يتطهر الأحياء بمياهه، ويجد رماد الموتى مستقراً فيه.

هذا النهر المقدس الذي أشفق على الأرضيين، لم يكن يتوقع أنه سيتلقى في العالم قرابين من القمامة وسموماً تجعل حياته مستحيلة.

النهر والأسماك

المثل القديم يقول إن تعليم الصيد أفضل من إعطاء سمكة.

الأسقف بيدرو كاسالداليغا الذي يعيش في منطقة الأمازون، يقول نعم، هذا أمر جيد جداً، إنه فكرة جيدة جداً. ولكن، ما الذي يحدث إذا ما اشترى أحدهم النهر الذي كان للجميع، ومنعنا من الصيد؟ أو إذا تسمم النهر وسمم أسماكه بالفضلات السامة التي يلقونها فيه؟ أو بعبارة أخرى، ما الذي سيحدث إذا ما حدث الذي يحدث الآن؟

النهر والغزلان

أقدم رسالة في التربية وضعتها امرأة.

دهودا دي غاسكونيا كتبت "مرجع من أجل ابني"، باللغة اللاتينية، في بداية القرن التاسع. لم تكن تفرض شيئاً. كانت تقترح، تنصح، تبيّن. وفي إحدى صفحات مؤلفها تدعونا للتعلم من الغزلان التي تجتاز النهر سابحة في صف، واحداً وراء الآخر، ورأس ورقبة كل واحد منها يستند إلى ظهر الذي أمامه. يسند بعضها بعضاً، وهكذا تتمكن الغزلان من اجتياز النهر بسهولة أكبر. وهي شديدة الذكاء والفطنة، فحين ترى أن من في الطليعة قد تعب، تجعله ينتقل إلى الموقع الأخير ويحتل آخر غيره المقدمة.

أذرع القطار

قطارات بومباي التي تنقل ستة ملايين راكب يومياً، تخرق قوانين الفيزياء: يصعد إليها مسافرون أكثر من طاقتها على الاستيعاب.

سوكيتو ميهتا الذي يعرف الكثير عن هذه الرحلات المستحيلة، يقول إنه عندما ينطلق قطار مزدحم جداً، هنالك أناس يلحقونه راكضين. فمن يضيع القطار يفقد عمله.

وعندئذ تبرز أذرع من القطار، أذرع تخرج من النوافذ أو تتدلى من سقوف العربات، وتساعد المتخلفين على التسلق. وتلك الأذرع لا تسأل الآتي راكضاً إن كان أجنبياً أو مولوداً هناك، ولا تسأله أي لغة يتكلم، ولا إذا كان يؤمن ببراهما أو بالله، ببوذا أو بيسوع، ولا تسأله إلى أي طبقة ينتمي، ولا إذا كان من طبقة ملعونة أو إذا لم يكن من أي طبقة.

خطر في الأدغال

سافيتري ذهبت.

أخذها المتوحش الذي سمع نداءها وجاء يبحث عنها، قلب الحواجز، أوقع الحراس ودخل إلى الخيمة.

كسرت هي سلاسلها واختفى الاثنان، معاً، متوغلين في الغابة.

صاحب سيرك أولمبيك قدّر الخسارة بحوالي سبعة آلاف دولار، وقال، وهذا هو الأسوأ، أن غاياتري صديقة سافيتري قد أصيبت باكتئاب شديد وهي ترفض العمل.

في أواخر شهر آب ٢٠٠٧، جرى تحديد مكان الثنائي الهارب على ضفة بحيرة، على بُعد حوالي مئتي كيلومتر عن كلكتا.

المطارِدون لم يتجرؤوا على الاقتراب منهما. فالفيل والفيلة كانا يشبكان خرطوميهما.

خطر في الينابيع

حسب ما جاء في سفر الرؤيا (٢١،٦)، سيقدم الرب عالماً جديداً، ويقول:

- سأعطي للعطشى ماء الينابيع مجاناً.

مجاناً؟ ألن يكون في العالم الجديد ولو مكان صغير للبنك الدولي، وللشركات المتخصصة في تجارة الماء النبيلة؟

هكذا يبدو. ولكن حتى ذلك الحين، في العالم القديم الذي ما زلنا نعيش فيه، ينابيع المياه هي محط جشع لا يقل عن الطمع باحتياطات البترول، وهي تتحول إلى ميادين معارك.

في أميركا، كانت حرب المياه الأولى هي حرب غزو هيرنان كورتيس للمكسيك. أما أحدث معارك الذهب الأزرق فوقعت في بوليفيا وفي أروغواي. في بوليفيا استعاد الشعب المنتفض المياه المفقودة. وفي أروغواي توصل استفتاء شعبي إلى تجنب فقدان الماء.

خطر على الأرض

في مساء يوم من عام ١٩٩٦، تعرض تسعة عشر فلاحاً للقتل بالرصاص، بدم بارد، على يد الشرطة العسكرية في ولاية بارا، بمنطقة الأمازون البرازيلية.

في بارا، وفي قسم لا بأس به من البرازيل، سادة الأرض يسودون، من خلال سرقة مسروقة أو سرقة موروثة، على مساحات شاسعة خاوية. حقهم بالملكية هو حق بعدم العقاب. بعد عشر سنوات من المجزرة، لم يُسجن أحد. لا الملاكون ولا أدواتهم المسلحون.

ولكن المأساة لم ترعب فلاحي حركة بلا أرض ولم تخمد همتهم. بل جعلتهم يتكاثرون، كما جعلتهم يتكاثرون كذلك الرغبة في العمل، وفي العمل بالأرض، حتى لو كان العمل في الأرض، في هذا العالم، جريمة لا تغتفر وجنوناً غير مفهوم.

خطر في السماء

في العام ٢٠٠٣، قلبت انتفاضة شعبية حكومة بوليفيا.

الفقر ملّ الانتظار. فحتى ماء المطر جرت خصخصته، ووضعت راية المزاد على بوليفيا مع البوليفيين وكل شيء فيها.

الانتفاضة هزت الأعلى، هناك أعلى من مدينة لاباث، حيث أشد الفقراء فقراً يشتغلون الحياة يوماً بعد يوم، وهم يمضغون الكآبة، في ارتفاعات عالية إلى حدّ أنهم يمشون وهم يدفعون غيوماً، وكل بيت هناك له باب يؤدي إلى السماء.

وإلى السماء ذهب من ماتوا في الانتفاضة. فهي أقرب إليهم من الأرض. وهم يثيرون الصخب الآن في الفردوس.

خطر في الغيوم

وفق الشهادات المؤكدة التي وصلت إلى الفاتيكان، أنطونيو غاودي يستحق الدخول في سجل القديسين بسبب معجزاته العديدة.

الفنان مبدع الكتلانية الحديثة توفي عام ١٩٢٦، ومنذ ذلك الحين شفى الكثيرين ممن لا شفاء لهم، وعثر على كثير لا سبيل إلى العثور عليه، وزرع وظائف ومساكن في كل مكان.

إجراءات عملية التطويب تتقدم.

خطر عظيم تتعرض له هندسة السماء. لأن ذلك البيوريتاني، العفيف، الذي لا يتخلف عن المواكب الدينية، كانت له يد وثنية، ويبدو ذلك واضحاً للعيان في المتاهات الجسدية التي صممتها يده في البيوت والحدائق.

ما الذي سيفعله الآن بسحابة القداسة التي ستُمنح له؟ ألن يدعونا للتنزه داخل آدم وحواء، في ليلة الخطيئة الأولى؟

قائمة عامة للعالم

أرتور بيسبو دو روساريو كان زنجياً، فقيراً، بحاراً، ملاكماً، وفناناً على باب الله.

عاش في مستشفى المجانين في ريو دي جانييرو.

وهناك، نقل إليه الملائكة الزرق السبعة الأمر الإلهي: الرب يأمرك بأن تضع قائمة عامة بالعالم.

هائلة هي المهمة المطلوبة. عمل أرتور ليلاً ونهاراً، كل يوم، كل ليلة، حتى شتاء العام ١٩٨٩، حين كان في أوج العمل، وأمسك به الموت من شعره وأخذه.

قائمة العالم، غير المكتملة، كانت مكونة من حديد خردة.

زجاج مكسر.

مكانس صلعاء.

أخفاف استهلكها المشي.

قناني مشروبة.

ملاءات اهترأت نوماً.

عجلات سافرت كثيراً.

أشرعة أبحرت طويلاً.

رايات مهزومة.

رسائل مقروءة.

مياه نزلت مطراً مراراً.

لقد عمل أرتور كزبال. لأن كل زبالة هي حياة معاشة، ومن الزبالة يأتي كل ما كان في العالم الذي كان. لا شيء مما لم يمس يستحق أن يُذكر في القائمة. فما لم يمس قد مات دون أن يولد. والحياة لا تنبض إلا في ما فيه قروح.

تَواصل الطريق

عندما يموت أحدهم، عندما ينتهي زمنه، هل يموت كذلك التجوال، والرغبات، والأقوال التي سُميت باسمه في هذا العالم؟

عند هنود أعالي نهر أورينوكو، من يموت يفقد اسمه. إنهم يأكلون رماده ممزوجاً بحساء موز أو بنبيذ ذرة، وبعد هذا الطقس لا يعود أحد أبداً إلى ذكر اسم الميت: الميت الذي يجول، ويرغب، ويقول في أجساد أخرى، وبأسماء أخرى.

خطر في الليل

نائمون، ترانا.

هيلينا حلمتْ أننا نصطف في رتل في مطار ما.

صف طويل: وكل مسافر يحمل، تحت إبطه، الوسادة التي نام عليها في الليلة السابقة.

الوسائد تمر عبر آلة تقرأ الأحلام.

إنها آلة لكشف الأحلام الخطرة على الأمن العام.

أغراض ضائعة

القرن العشرون الذي ولد معلناً السلام والعدالة، مات مستحماً بالدم وخلّف عالماً أشد جوراً من العالم الذي وجده عند مجيئه.

القرن الحادي والعشرون الذي ولد أيضاً معلناً السلام والعدالة، يقتفي أثر القرن السابق.

في طفولتي كنتُ مقتنعاً بأن المطاف ينتهي على القمر بكل شيء يُفقد على الأرض.

ومع ذلك، فإن رواد الفضاء لم يجدوا هناك أحلاماً ضائعة، ولا وعوداً كاذبة، ولا آمالاً محطمة.

إن لم تكن هذه الأشياء على القمر، فأين هي؟

أيكون أنها لم تُفقد عن الأرض؟

أيكون أنها على الأرض؟

مـرايا

ما يشبه تاريخاً للعالم

المرايا ممتلئة بالناس.

اللامرئيون يروننا.

المنسيون يتذكروننا.

عندما نرى أنفسنا، نراهم.

وعندما نغادر، هل يغادرون؟

هذا الكتاب كُتب لمن لا يغادرون.

هذه الصفحات توحد الماضي بالحاضر.

وفيها ينبعث الموتى، ويصير للمجهولين أسماء:

الرجال الذين شيّدوا قصوراً ومعابد لسادتهم.

والنساء اللاتي يجهلهنّ من يجهلون ما يخافونه.

وجنوب العالم وشرقه اللذان يزدريهما من يزدرون

ما يجهلونه.

والعوالم الكثيرة التي يتضمنها العالم ويخفيها.

والمفكرون والحساسون.

والفضوليون المدانون لأنهم يتساءلون، والمتمردون

والخاسرون والمجانين الرائعون

الذين كانوا ومازالو ملح هذه الأرض.

علي مولا


دار رفوف للنشر